# كتب ثقافية

من التراث القديم

في سيرة

# صلاح الدين الأيوبي

## النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية

تأليف بهاء الدين .. المعروف بابن شداد

من التراث القديم

# في سيرة صلاح الدين الأيوبي
# النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية

تأليف
بهاء الدين المعروف بابن شداد
المتوفى سنة ٦٣٢ هـ

صححه وحققه وشرح غريبه
محمد محمود صبح

# مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

بها يستفتح كل خير ، وتدوم كل نعمة ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذى آتاه الله تعالى الحكمة وفصل الخطاب ، وجعله للبشرية مثلا أعلى ، وقدوة عظمى ، وعلى آله وصحبه ، وبعد :

أرانى قبل الحديث عن هذا الكتاب وموضوعه ومؤلفه ؛ مسوقاً إلى الإشارة ولو فى عجالة إلى ما سبق عصر صلاح الدين من ظروف سياسية ؛ واجتماعية ؛ واقتصادية ؛ سادت الشرق والغرب ، وأدت إلى ذلك الصراع الرهيب الذى استمر قرابة قرنين من الزمان ، وكانت له آثار واضحة المعالم فى كل ناحية من نواحى الحياة .

تلك الظروف التى فى خضمها ، وتلاطم أمواجها ، نما صلاح الدين وترعرع ؛ صبياً ويافعاً وشاباً ، فكان شخصية فذة من الشخصيات التى يجود بها الخالق عز وجل بين كل حقبة وأخرى على الناس ، تحمل مشعل الجهاد بيد ، ومصحف المُثل العليا بالأخرى ، فيعم نورها هادياً للناس كلما غشيتهم ظلمات التفكك والانقسام ، وعوامل الضعف والانحلال . . يسيرون تحت لوائه ، ويتتبعون خطوه ، يقودهم وقد جمعت

كلمتهم ، وتوحدت صفوفهم ، باسم الله القوى ، يقصمون ظهور المستعمرين لبلادهم ، المذلين لهم ولدينهم ، وأولئك الذين يريدون للإسلام ذلا بعد عز ، وللشرق خنوعاً وتفككا بعد قوة ومنعة .

حالة المجتمع الإسلامى :

فنى النصف الثانى من القرن الحادى عشر الميلادى ؛ كان المجتمع المسلم فيما يشبه اليقظة العامة الشاملة التى كان يقودها السلاجقة . فلقد استطاعوا فى فترة وجيزة توحيد بقاع الإسلام من إيران إلى العراق إلى الشام ، ثم ولوا وجوههم شطر الامبراطورية البيزنطية فانتزعوا أرمينية ، وساروا بخطى سريعة فى آسيا الصغرى حتى شارفوا القسطنطينية نفسها فهددوها ، وبدا فى لحظة من لحظات التاريخ كأنما العالم المسيحى كله فى خطر .

غير أنه ظهر بعد فترة قصيرة أن نهضة العالم الإسلامى وتلك الوحدة السريعة على يد السلاجقة لم تكن إلا نهضة ظاهرية أكثر منها حقيقية ، فسرعان ما تفكك هذا العالم عقب موت « ملكشاه » زعيم السلاجقة ، وأضحت امبراطوريته وقد تمزقت وحدتها ؛ يتحكم فى أجزائها أمراء متناحرون متنازعون ، استقل كل منهم ببلده ، وأخذ يزاحم الآخر طمعاً فى ولايته ، كل ذلك فى ظل خلافة عباسية ضعيفة فى بغداد .

وإذا ألقينا نظرة على مصر وما يتبعها ؛ وجدنا خلافة أخرى هزيلة متداعية ، تلك هى الخلافة الفاطمية ؛ أمرها بيد وزرائها المتصارعين

على الحكم والتسيطر ، ورجالات قصرها المتنافرين ، وقد تقلص سلطانها الذى كان يمتد إلى الشام ، حتى أصبح لا يعدو جنوب فلسطين وبعض المدن الساحلية .

حالة المجتمع الغربى :

وإذا يممنا وجوهنا شطر العالم الغربى المسيحى آنئذ ؛ وجدنا هناك مجتمعاً قد استقرت فيه نظم الإقطاع والطبقية، يجمع كثيراً من الأشراف الذين يشتاقون إلى أرض يحكمونها ، وفرساناً يتحرقون شوقاً إلى القتال والمغامرات ، وسكاناً يتكاثرون ، لاسيما فى طبقات الفقراء المعدمين والعبيد والأقنان الذين لا يجدون معاشاً ، وجماعات من ذوى النفوس الملتهبة بالحماس الدينى ، وشعوباً متأخرة محرومة تسمع عن الشرق وجماله وثرائه ، وتتمنى بكل ما أوتيت رؤيته ونهب خيراته .

مجتمع قد تنافست فيه السلطات الدينية والمدنية وتصارعت ، كل منها تحاول إضعاف الأخرى ، والسيطرة عليها .

بدء الصراع :

وجدت القوى الغربية وهذه الطبقات المتباينة الطامعة فى ضعف المسلمين وتفككهم فرصة سانحة مغرية لغزو الشرق وتحقيق أطماعهم فيه ، فاتخذوا من دعوى تخليص قبر المسيح عليه السلام وتأمين طريق الحاج المسيحى من متعصبى المسلمين — كما ادعى بذلك مدعوهم — ستاراً نسجوه وحاكوه لتحقيق مآربهم ، فقامت تلك الحروب الدموية

الطاحنة بين الشرق والغرب طيلة قرنين من الزمان ، تبدأ بنداء البابا أربان الثانى فى مجمع كليرمون سنة ١٠٩٥ م ، وتنتهى بطرد الصليبيين نهائياً من الشرق على يد الأشرف خليل بن قلاوون سنة ١٢٩٠ م .

بدأت هـــذه الحرب إثر نداء واستغاثة وجهها إمبراطور الدولة البيزنطية إلى البابا والمسيحيين فى أوروبا ، من السلاجقة الذين أخذوا يتهددون إمبراطوريته ؛ يقصون أطرافها ، ويسقطون معاقلها . فهبت الـكنيسة الغربية وقد وجدت ضالتها المنشودة فى هذه الاستغاثة لتبسط سيطرتها على حكام أوروبا وعامة ناسها كزعيمة للدين وراعية له ، ولتحقق حلماً طالما راودها منذ أمد بعيد ، وهو توحيد مسيحيى الغرب والشرق تحت رايتها وسلطانها . فقامت مسرعة ترسل أبواقها تنشر دعاياتها المسمومة المـكذوبة — والتى اتسمت بالمبالغة — فى أوروبا من أقصاها إلى أقصاها بين الشعوب والجماعات والملوك والأمراء .

فتوحدت الإمارات الصليبية ، وسارت الجموع المتحمسة المتعطشة الطامعة ، فى جحافل متوالية إلى الشرق ، فلم تستطع الإمارات الإسلامية الضعيفة فى أول أمرها أن تصد تيارها ، وأن توقف اندفاعها ، ودق الصليبيون بانتصارهم الأول أسافين البقاء طيلة المدة التى مكثوها فى الشرق الإسلامى ، بتـكوين الإمارات الأولى وهى : الرها ، وانطاكية ، وطرابلس ، وبيت المقدس .

## العالم الإسلامي يصحو :

آنئذ أحس أمراء المسلمين وملوكهم بثقل المصيبة الكبرى التي ألمت بهم ، ونزلت بساحات ديارهم ، وأيقنوا أنهم إن لم يتحدوا ويتناسوا أحقادهم ويجمعوا كلمتهم لصد هذا المستعمر ؛ فإنهم مأخوذون بضعفهم ، ضائعة بلادهم ، مقضي على دينهم ، إن عاجلا أو آجلا .

تحرك أهل الشرق من مسلمين ومسيحيين يبحثون عن مخلص قوى لهم ، يلم شعثهم ، ويجمع شتاتهم ، ويقودهم لصد تيار مستعمر بغيض — يتستر بستار من دينه ، يقتل ويدمر ، ويرتكب أفظع أنواع التخريب ، ويهدر الدماء بغير حساب ، وإليك قول « جودفرى » حينما دخل بيت المقدس سنة ١٠٩٩ م إلى البابا يبشره بفتحها « وإذا أردت أن تعرف ماذا جرى لأعدائنا ؛ فاعلم أن جنودنا كانت تخوض إلى ركبتيها فى بحر من دماء الشرقيين فى إيوان سليمان ومعبده » .

وفى هذه الظلمة الحالكة وهذا الليل البهيم ، شع نور كان أمل المسلمين فى الشرق ألا وهو « عماد الدين زنكى بن مودود صاحب الموصل » ، لقد فهم الوضع على حقيقته وحسب حسابه ، فاندفع إلى الشام فوفق إلى ضم بعضه إلى ملكه ولا سيما حلب ، وأصبح عندئذ القوة التى رنت إليها أنظار الشرقيين كافة مسلمين ومسيحيين ، وتنوعت علاقاته مع الخلافة العباسية ببغداد .

والسلطنة السلجوقية أو ما بقى من شبحها . وشاء القدر أن يسوق إليه فى هذه الظروف أيوب بن شاذى — صاحب حصن تكريت — الذى خلصه وحماه من أتباع السلطان السلجوق الذين حاولوا قتله أثناء إحدى رجعاته إلى عاصمة بلاده ـ الموصل ـ . فكان لهذه المروءة أثرها فى حوادث الشرق الأدنى وتاريخه ، إذ دخل «أيوب» وأخوه « شيركوه » فى خدمة بيت آل زنكى كأعوان مخلصين ، وجنود صادقين من جنود الإسلام ، أعقبوا صلاح الدين الذى حطم قوة الصليبيين من بعد .

ضرب « عماد الدين » ضربته ضد الصليبية بإستيلائه على « الرها » و «سروج » ١١٤٤م ، ثم اغتيل مخلفاً ولدين منهم « نور الدين محمود » ، الذى أصبح صاحب « حلب » والذى تسلم راية أبيه ضد الصليبيين يدمر قراهم ، ويصدع بنيانها حتى انتهت حياته .

وحمل اللواء من بعده صلاح الدين الأيوبى صاحب هذه السيرة ، فسار سيرته خُلُقا وعملا ، ونهج نهجه وسلك طريقه ، فدانت له الأمور واستقرت قواعد ملكه فى مصر والشام ، وأحس منذ اللحظة الأولى التى تسلم فيها وزارة مصر سنة ٥٦٤م = ١١٦٤م أن الله تعالى قد اختاره لأمر جليل فقال كلمته المعروفة « لما يسر الله لى الديار المصرية علمت أنه أراد فتح الساحل ، لأنه أوقع ذلك فى نفسى » .

وحد صلاح الدين الصفوف ، وجذب إليه قلوب رعيته بما أفاض عليهم من فضل الله الذى آتاه ، وبما نشر بينهم من خير وعدل ، فالتفوا حوله ، وأصبحوا طوع أمره ، واستطاع فى فترة وجيزة أن ينشر ألوية

سلطانه فى آسيا من شمال الشام إلى الحرمين واليمن جنوبا ، وفى إفريقيا من ساحل البحر الأبيض المتوسط شمالا إلى النوبة جنوباً ، ثم أخذ يوجه ضرباته الشديدة المحكمة إلى الدخلاء فى الشرق ، المتعصبين لبلاده ، العاملين على تقويض الإسلام وهدم صروحه ، وما وافت سنة ١١٨٣م حتى أضحى المارد الجبار ، الذى زلزل المستعمرين فى بلاد الجزيرة والشام ومن والاهم ، وبلغت قمة مجده سنة ١١٨٧م بعد انتصاره فى موقعة حطين ؛ ذلك الانتصار الساحق الذى دوى فى أرجاء البلاد شرقا وغربا ، وهز كيان أوروبا ، حتى اعتبره بعض المؤرخين « خاتمة الحروب الصليبية ، لأنه لم يعد للصليبيين بعده من قوة عسكرية أو مركز حربى فى الشرق الأدنى ، ولو أن وجودهم بعد ذلك دام حوالى المائة عام » ثم انتهى ذكرهم ، وخمدت أنفاسهم فى الشرق إلى الأبد ، وخرجوا منه أذلاء مدحورين إلى غير رجعة .

كانت هذه الحروب محكا شحذت العقول ، وحركت أقلام الكتاب والمؤرخين فى كل فترة من فتراتها ، وفى كثير من البقاع والبلدان ، فأخذوا يدونون مراحلها ، ويثبتون حوادثها ، وكانت شخصية صلاح الدين وأعماله وانتصاراته محور مؤلفاتهم ، فسطروا حياته فيما ألفوا من مؤلفات ، أو أفردوا لها كتبا خاصة ، وكان ولا يزال من بين الكتب القيمة التى تناولت حياته فى سطورها وفصولها : «مفرج الكروب لابن واصل « والروضتين » لأبى شامة ، و« الفتح القدسى » للعماد الأصفهانى و« النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية » لابن شداد .

### مؤلف هذا الكتاب :

ومؤلف هذا الكتاب الأخير هو أبو المحاسن ، يوسف بن رافع ابن تميم بن عتبة بن محمد بن عتاب الأسدى ، قاضى حلب ، المعروف بابن شداد ، الملقب ببهاء الدين ، الفقيه الشافعى ، ولد بالموصل سنة ٥٣٩ هـ = ١١٤٥م ، وتوفى أبوه وهو صغير السن ، فنشأ عند أخواله بنى شداد فنسب إليهم ، وكان شداد جده لأمه .

حفظ القرآن فى صغره ، ثم قرأ بالطرق السبع ، وأتقن القراءات والتفسير ، وعلم الحديث والفقه ، وغيرها . ومن أساتذته : « الحافظ ضياء الدين ، أبو بكر ، يحيى بن سعدون الأزدى القرطبى » ، « وأبو البركات ، عبد الله بن الخضر بن الحسين ، المعروف بابن الشيرجى » ، و «مجد الدين ، أبو الفضل ، عبد الله بن أحمد بن محمد الطوسى» الخطيب بالموصل ، و« القاضى ، فخر الدين ، أبو الرضا ، سعيد بن عبد الله بن القاسم الشهرزورى » و « الحافظ ، مجد الدين ، أبو محمد ، عبد الله بن محمد بن عبد الله الأشيرى الصنهاجى » و « الحافظ سراج الدين ، أبو بكر ، محمد ابن على الجيانى » وغيرهم .

وبعد أن تأهل تأهلا تاماً انتقل إلى بغداد ؛ وعين معيداً بالمدرسة النظامية ، وظل هكذا أربع سنوات ، ثم أصعد إلى الموصل فى سنة ٥٦٩هـ فترتب مدرساً فى مدرسة القاضى كمال الدين أبو الفضل الشهرزورى ، ولازم الاشتغال وانتفع به جماعة .

ولقد حج وزار الرسول صلى الله عليه وسلم سنة ٥٨٣هـ ، ثم زار «بيت المقدس والخليل» عليه السلام بعد ذلك ، ثم شد الرحال إلى دمشق فدخلها وكان السلطان صلاح الدين آنئذ محاصراً قلعة « كوكب » ، فلما سمع بوصوله استدعاه إليه وأكرمه ، وتناقشا فى الحديث النبوى الشريف ، ولما خرج من عنده تبعه رسول السلطان برغبته فى مقابلته مرة ثانية ، فعاد بعد مدة وقد جمع للسلطان كتاباً يشتمل على فضائل الجهاد ، وما أعده الله سبحانه وتعالى للمجاهدين من رضوان ونعيم .

واتصل بخدمة صلاح الدين فى سنة ٥٨٤هـ ، وولاه قضاء العسكر ، والحكم ببيت المقدس حينما فتحه ، ومنذ اتصاله بخدمته أصبح من خلصاء السلطان ومن المقربين منه ، يأنس إليه ، ويستشيره فى كثير من الأمور ، ويصحبه معه فى السلم والحرب حيثما توجه حتى انتهت حياة صلاح الدين .

توجه إلى حلب بعد موت السلطان صلاح الدين لجمع كلمة الأخوة — أولاد صلاح الدين ، وكانوا جميعاً يحبونه ويحترمونه لمكانته من والدهم ، ولعلمه ودينه وحسن سياسته ، ورجاحة عقله ، فكتب الملك الظاهر غياث الدين ابن صلاح الدين إلى أخيه الأفضل نور الدين على يطلب استبقاءه عنده فلم يمانع ، وأراد الظاهر أن يجعله حاكم حلب فأبى ، ولكنه قبل بعد ذلك أن يكون قاضيها ، وحل بعد ذلك عند الظاهر فى رتبة الوزارة والمشاورة .

على ابن شداد منذ توليه هذا المنصب بترتيب أمور حلب وجمع الفقهاء بها ، فعمر مدارسها وعمر هو من ماله مدرسة له وألحق بها داراً للحديث النبوى ومقبرة له .

فلما صارت هكذا ؛ قصدها الفقهاء من البلاد ، وانتقلوا إليها وحصل بها الاشتغال والاستفادة ، وكثر بها الجمع والتحصيل ، وسرى نور العلم والجد فى أرجائها ، لاسيما وقد كان للعلماء فى عهده حرمة تامة ورعاية كبيرة .

ظل ابن شداد متربعا فى منزلته السامية من شئون الحكم والقضاء والمشاورة فى عهد الظاهر ، ومن بعده فى أيام ابنه الملك العزيز أبو المظفر محمد ، حتى أنه أوفده سنة ٦٢٩ﻫ إلى الديار المصرية لإحضار ابنة الملك الكامل ابن العادل التى كان قد عقد نكاحه عليها . فلما رجع كان العزيز قد استقل بالأمر بعد بلوغه سن الرشد ، واستولى عليه جماعة من الشباب الذين كانوا يعاشرونه ويجالسونه فاشتغل بهم ، ولم ير القاضى ابن شداد وجهاً يرتضيه ، فظل باقياً على الحكم من غير مراجعة ولا حديث فى الدولة ، فلزم داره يفتح بابه لإسماع الحديث كل يوم إلى أن وافته المنية سنة ٦٣٢ ﻫ = ١٢٣٤ م بعد مرض لم يمهله إلا القليل .

ومن مصنفات القاضى ابن شداد كتاب « ملجأ الحكام عند التباس الأحكام » — ويتعلق بالأقضية — فى مجلدين ، وكتاب « الموجز الباهر » فى الفقه ، وكتاب « دلائل الأحكام » ، تكلم فيه على الأحاديث

المستنبطة منها الأحكام فى مجلدين ، وكتاب «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية» الذى هو موضوع حديثى .

هذا الكتاب :

ويبدأ هذا الكتاب فى تكوينه العام بمقدمة قصيرة ، أبان فيها المؤلف الهدف الذى من أجله ألف كتابه ، وقد قسمه كما ذكر فى مقدمته إلى قسمين : القسم الأول منه فى الحديث عن مولد صلاح الدين ، ونشأته وصفاته وأخلاقه وشمائله .

والقسم الثانى يشمل الناحية السياسية والحربية لعهد صلاح الدين منذ تربع على دست الحكم فى مصر ، وجهاده ضد الصليبيين ، مفصلا غزواته وما جرى فيها حتى موته .

والكتاب إذا قورن بغيره من الكتب التى تناولت هذه السيرة ككتاب الفتح القدسى للعماد الأصفهانى أو الروضتين لأبى شامة أو الكامل لابن الأثير أو البرق الشامى أو مفرج الكروب لابن واصل كان صغير الحجم جداً ، ذلك لأنه خال من زخرف القول ، والاعتماد على المحسنات اللفظية والبديعية والإنشاء ، كما اعتمد غيره على ذلك مثلا كصاحب الفتح القدسى .

لقد عنى المؤلف فيه بسرد الحقائق التاريخية المحددة العبارات ، معتمدا فى سردها وذكرها على المشاهدة بنفسه ، وخاصة فى الفترة التى اتصل فيها بصلاح الدين منذ سنة ٥٨٤هـ إلى سنة ٥٨٩هـ ، أو على مشاهدة الثقات

ممن عرفهم وممن شاهدوا الأحداث التى لم يرها ، ولذلك كان الكتاب على صغره وثيقة تاريخية هامة لعصر صلاح الدين الذى أحبه ـ المؤلف ـ وأعجب به ، ولم يفارقه منذ اتصل بخدمته ، بل كان حتى ينتقل معه فى ميادين القتال ، ويشترك فى المعارك أو يقوم بمراقبة حركات العدو ، أو يحمل رسائل السلطان إلى الأمراء والجند ، أو يشجع المقاتله والمجاهدين ، أو جليساً لصلاح الدين ومستشاراً له ؛ ثالث ثلاثة من الفقهاء اتصلوا بخدمته ووثق بهم واعتمد عليهم : هو والقاضى الفاضل والعماد الكاتب .

تحقيق هذا الكتاب :

ومنذ أن سنحت لى فرصة الرجوع إلى هذا الكتاب كمرجع هام من مراجع هذه الفترة من الزمن ، لمست فيه أخطاء تحدث بسياق الحديث خللا ، وسقوط عبارات وكلمات تجعل المعنى مفككا مضطربا ، وأغلاطاً وغموضاً فى بعض أسماء الأعلام والأماكن والوظائف والكلمات ، تجعل الاستفادة به محدودة قليلة ، فعزمت مستعينا بالله القوى المتين على إخراج هذا الكتاب ، فى ثوب يمكن القارىء المتخصص وذا الثقافة العامة على أن ينتفع به انتفاعاً شاملا مفيداً ، ويبرز غامضه إبرازا واضحاً متكاملا ، فيعم نفعه ويزداد .

أتيحت لى هذه الفرصة بعد التخرج من دراستى العالية فبحثت عن مصادره ، وشاء الله تعالى أن أوفق فى الحصول على نسخة خطية منقولة عن النسخة المحفوظة بالمسجد الأقصى لهذا الكتاب ، وقد كتبت فى حياة المؤلف سنة ٦٢٦هـ ، أى قبل موته بست سنوات ، وأن أقارن بين الأصل

المطبوع والمحفوظ بدار الكتب فى القاهرة، وبين نسخة أخرى مطبوعة أيضاً بليدن ١٧٣٢م — ومنها نسخة محفوظة بدار الكتب . وبمقارنة النسخ الثلاث والرجوع إلى بعض المصادر الأخرى التى شملت هذه الحقبة ؛ استطعت تقويم النص وإثبات الفروق وتصحيح الأخطاء ، وإزالة الاضطراب من العبارات ، وتصحيح المغلوط من أسماء الأعلام أو البلدان .

كل ذلك مع شرح وتوضيح ما غمض ، وتيسير ما أبهم ، معتمداً فى ذلك على المعاجم اللغوية عربية وغير عربية ، والمراجع التاريخية والجغرافية ، مما سيلمسه القارىء بوضوح .

وما أرجو بعد رضاء الله تعالى إلا أن يكون هذا الكتاب صفحة ناصعة بيضاء ، لشخصية تاريخها قد سار فى الشرق والغرب كعلم من أعلام المروءة والجهاد فى سبيل الحق وإعلاء كلمة الله والدين ، والثبات على الإسلام والعروبة ، والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، والحمد لله رب العالمين وهو وحده ولى التوفيق م؟

المحقق

محمد محمود صبح

## رموز النسخ المستعملة فى التصحيح والتحقيق

١ — ( ا ) النسخة المطبوعة المحفوظة بدار الكتب ، طبعة القاهرة عام ١٨٩٩ م .

٢ — (ب) نسخة طبعة ليدن سنة ١٧٣٢ م محفوظة بدار الكتب .

٣ — (حـ) مخطوطة بمكتبة المسجد الأقصى بالقدس .

ج ا = يمين . ج ب = شمال

# مقدمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى من علينا بالإسلام ، وهدانا بالإيمان الجارى على أحسن نظام ، وأنعم علينا بشفاعة نبينا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام ، وجعل سير الأولين عبرة لأولى الأفهام ، وتقلبات الأحوال قاضية على كل أمر حادث بالانصرام ، كى لايغتر ذو جمال حسن ، ولا ييأس من لعبت بأحواله أكف السقام .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له شهادة تشفى القلوب من لظى الأوام ، وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله ، الذى فتح الهداية أبوابا يلج المستفتحون لها بمفاتيح الانقياد والاستسلام ، صلى الله عليه وعلى آله صلاة دائمة ( باقية )[1] ببقاء الأيام .

وبعد ؛ فإنى لما رأيت أيام مولانا السلطان الملك الناصر جامع كلمة الإيمان وقامع عبدة الصلبان ؛ رافع علم العدل والإحسان ؛ صلاح الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ؛ منقذ بيت المقدس من أيدى المشركين ؛ خادم الحرمين الشريفين ؛ أبى المظفر يوسف بن أيوب بن شاذى ؛ سقى

(١) الزيادة من (ب) ومن ( ج ١٢ )

الله ضريحه صوب الرضوان ؛ وأذاقه فى مقر رحمته حلاوة نتيجة الإيمان، وقد صدقت من أخبار الأولين ما كذبه الاستبعاد ؛ وشهدت بالصحة لما روى من نوادر الكرام الأجواد ، وحققت وقفات شجعان مماليكها ماقدحت فيه الشكوك من أخبار الشجعان .

ورأيت بالعيان من الصبر على المكاره فى ذات الله ما قوى بها ، الإيمان ، وعظمت عجائبها عن أن يحيط[1] بها خاطر ، أو يجنها جنان ، وجلت نوادرها أن تحد ببيان لسان ، أو[2] تسطر فى طرس ببنان ، وكانت مع ذلك من قبيل لا يمكن الخبير بها إخفاؤها ، ولا يسع المطلع عليها إلا أن تروى عنه أخبارها وأنباؤها ، ومسنى من رق نعمتها وحق محبتها[3] ، وواجب خدمتها ، مايجب على به إبداء ماحققت من حسناتها[4] ، ورواية ما علمت من محاسن صفاتها .

رأيت أن أختصر من ذلك على ما أملاه علىّ العيان ، أو الخبر الذى يقارب مضمونه درجة الإيقان ، وذلك جزء من كل ، وقل من جل ، ليستدل بالقليل على الكثير ، وبالشماع على المستطيل بعد المستطير .

وسميت[5] هذا المختصر من تاريخها ( النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ) ، وجعلته قسمين : أحدهما فى مولده — رحمه الله — ومنشئه

---

(١) فى (ب) وفى ( ج ٢ ب ) يحويها :
(٢) فى (ب) وفى ( ج ٢ ب ) وأن
(٣) فى (ب) وفى ( ج ٢ ب ) صحبتها
(٤) فى (ب) وفى ( ج ٢ ب ) ما يعين على به إبداء ما حققته من حسناتها .
(٥) فى (ب) وفى ( ج ٢ ب ) اسميته .

وخصائصه ، وأوصافه ، وأخلاقه المرضية ، وشمائله الراجحة فى نظر الشرع ، الوفية .

والقسم الثانى فى تقلبات الأحوال به ، ووقائعه وفتوحه ، وتواريخ ذلك أيام حياته — قدس الله روحه . والله المستعان فى الصيانة عن هفوات اللسان والقلم وجريان الخاطر لما فيه مزلة القدم وهو حسبى ونعم الوكيل .

# القسم الاول

## فى ذكر مولده

## وخصائصه ، وأوصافه ، وشمائله ، وخلاله ، رحمة الله عليه

كان مولده – رحمه الله — على مابلغنا من ألسنة الثقات ؛ الذين تتبعوه حتى بنوا عليه تسيير مولده ، على ماتقتضيه صناعة التنجيم؛ فى شهور سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة ، وذلك بقلعة ( تكريت[1] ) .

وكان والده أيوب بن شاذى — رحمه الله تعالى — والياً بها ، وكان كريماً أريحياً ، حليماً حسن الأخلاق ، مولده بدُوَين[2] ، ثم اتفق له الانتقال من تكريت إلى الموصل[3] — المحروسة . وانتقل ولده المذكور معه ، وأقام بها إلى أن ترعرع .

---

(١) تكريت : بلدة مشهورة بين بغداد والموصل فى غربى نهر دجلة ، وهى الى بغداد أقرب ، وبها قلعة حصينة .

( معجم البلدان جـ ٥ . ص ٣٨ طبعة بيروت )

(٢) دوين : بلدة من نواحى أرمينية بقرب تفليس واليها ينسب ملوك بنو أيوب (النوادر السلطانية طبعة ليدن ، الفهرس الجغرافى رقم D )

(٣) الموصل : مدينة مشهورة بالعراق وهى باب العراق ومفتاح خراسان ، وهى الوصلة بين الجزيرة والعراق ، ويقابلها من الجانب الشرقى على نهر دجلة مدينة نينوى القديمة .

(معجم البلدان . طبع بولاق)

وكان والده محترماً (مقدماً[1]) هو وأخوه أسد الدين شيركوه عند أتابك زنكى ، واتفق لوالده الانتقال إلى الشام ، وأعطى بَعْلَبَك[2] ، وأقام بها مدة ، فنقل ولده المذكور إلى بعلبك — المحروسة — وأقام بها فى خدمة والده ، يتربى تحت حجره ، ويرتضع ثدى محاسن أخلاقه ، حتى بدت منه أمارات السعادة ، ولاحت عليه لوائح التقدم والسيادة ، فقدمه الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى[3] — رحمه الله تعالى وعول عليه ، ونظر إليه ، وقربه وخصصه .

ولم يزل كلما تقدم قدماً تبدو منه أسباب تقتضى تقديمه إلى ما هو أعلى منه ،حتى بدا لعمه أسد الدين ـ رحمه الله ـ الحركة إلى مصر المحروسة — وذهابه إليها . وسيأتى[4] بيان ذكر ذلك مفصلا مبيناً فى موضعه[5] إن شاء الله .

---

(١) زيادة من (ب) ومن ( ج ١٣ ) .

(٢) بعلبك مدينة قديمة فيها أبنية عجيبة وآثار عظيمة وقصور على أساطين الرخام .

( معجم البلدان : ٤٥٣ — ٤٥٥ ، ج ٤ ط بيروت )

(٣) نور الدين محمود : هو الملك العادل نور الدين ، أبو القاسم بن زنكى بن آق سنقر ، المعروف بنور الدين الشهيد ، صاحب الشام ومصر ، قال ابن عساكر المؤرخ أنه ولد سنة ٥١١ هـ وتوفى سنة ٥٦٩ هـ بدمشق ، ودفن بقلعتها ثم نقل إلى مدرسته التى أنشأها مجاورة الخواصين بدمشق ، وكانت سلطنته ٢٨ سنة و ٦ أشهر .

(النجوم الزاهرة : ج ٦ ، ص ٧١ — ٧٢ ، طبع دار الكتب )

(٤) هذه الكلمة مغفلة فى (ب)

(٥) فى ( موضعه ) هذه التكملة ( ج ١٣ )

# ذكر

## ما شاهدناه من مواظبته على القواعد الدينية وملاحظته للأمور الشرعية

ورد فى الحديث الصحيح عن النبى - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: «بُنِى الإسلامُ على خمس، شهادة أن لا إله إلا الله (وأن محمداً رسول الله[١])، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، والحج إلى بيت الله الحرام».

وكان - رحمه الله - حسن العقيدة، كثير الذكر لله تعالى، وقد أخذ عقيدته على الدليل بواسطة البحث مع مشايخ أهل العلم، وأكابر الفقهاء، وفهم من ذلك ما يحتاج إلى تفهمه، بحيث كان إذا جرى الكلام بين يديه يقول فيه قولا حسناً، وإن لم يكن بعبارة الفقهاء، فحصل من ذلك سلامة عقيدته عن كدر التشبيه، غير مارق سهم النظر فيها[٢] إلى التعطيل والتمويه، جارية[٣] على نمط الاستقامة، موافقة لقانون النظر الصحيح، مرضية عند أكابر العلماء.

وكان قد جمع له الشيخ (قطب الدين النيسابورى[٤]) عقيدة تجمع

---

(١) العبارة بين القوسين ساقطة من (ا) ومن (ب) وبتحقيق الحديث من الصحيحين وجد كما صحح هنا.

(٢) فيها. هذه الكلمة تكملة من (ج ١٤).

(٣) فى (ا) جاريا، والتصحيح من (ب)، ومن (ج ١٤).

(٤) قطب الدين النيسابورى. هو أبو المعالى، مسعود بن مسعود النيسابورى=

جميع ما يحتاج إليه فى هذا الباب ، وكان من شدة حرصه عليها يعلمها الصغار من أولاده حتى ترسخ فى أذهانهم من الصغر ، ورأيته وهو يأخذها عليهم وهم يقرؤونها[1] من حفظهم بين يديه .

وأما الصلاة ؛ فإنه كان — رحمه الله تعالى — شديد المواظبة عليها بالجماعة ، حتى أنه ذكر يوماً أن له سنين ما صلى إلا جماعة .

وكان إذا[2] مرض يستدعى الإمام وحده ، ويكلف نفسه القيام ويصلى جماعة[3] . وكان يواظب على السنن الرواتب ، وكان له صلوات[4] يصليها إذا استيقظ ( بوقت[5] ) فى الليل وإلا أتى بها قبل صلاة الصبح .

ولم يكن يترك الصلاة ما دام عقله عليه ، ولقد رأيته — قدس الله روحه — يصلى فى مرضه الذى مات فيه قاعدا ، وما ترك الصلاة إلا فى الأيام الثلاث الذى تغيب فيها ذهنه ، وكان إذا أدركته الصلاة وهو سائر نزل وصلى .

وأما الزكاة ؛ فإنه مات — رحمه الله تعالى — ولم يحفظ ما تجب

---

= الفقيه الشافعى ، ويعرف بالقطب النيسابورى توفى سنة ٥٧٨ هـ .
( النجوم الزاهرة جـ ٦ ، ص ٩ طبع دار الكتب )

(١) فى (١) يلقونها ، والمذكور هنا من (ب) ومن ( ج ٤ أ )
(٢) فى (١) إن ، وما ذكر فى ( ج ٤ أ ) .
(٣) مغفلة فى (ب) ومذكورة فى ( ج ٤ أ ) .
(٤) فى ( ج ٤ أ ) ركعات .
(٥) هذه التكملة من (ب) ومن ( ج ٤ أ ) .

عليه به الزكاة . وأما صدقة النفل ؛ فإنها استنفدت[1] جميع ما ملكه من الأموال ، فإنه ملك ماملك ولم يخلف فى خزانته من الذهب والفضة إلا سبعة وأربعين درهما ناصرية ، وجراماً واحداً ذهبا ، ولم يخلف ملكا ولا داراً ولا عقاراً ، ولا بستانا ولا قرية ولا مزرعة ، ولا شيئا من أنواع الأملاك .

وأما صوم رمضان ؛ فإنه كان عليه منه فوائت ، بسبب أمراض تواترت عليه فى رمضانات متعددة ، وكان القاضى الفاضل[2] قد تولى ثبت تلك الأيام ، وشرع — رحمه الله — فى قضاء تلك الفوائت[3] بالقدس — الشريف — فى السنة التى توفى فيها ، وقد واظب على الصوم مدة حتى بقيت عليه فوائت رمضانين[4] ، شغلته الأمراض وملازمة الجهاد عن قضائها . ومع كون الصوم لا يوافق مزاجه ، ألهمه

(١) فى (ا) استغرقت وهو تحريف والتصحيح من ( ج ٤ ب ) وفى ( النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٩ ) .

(٢) القاضى الفاضل : هو عبد الرحيم بن على بن محمد بن حسن اللخمى البيسانى أبو على ، العسقلانى المولد ، المصرى الدار ، محيى الدين ، وزير صلاح الدين الأيوبى ، برز فى صناعة الإنشاء وفى العلم والبيان ، وكان مع فضله كثير العبادة ، تاليا للقرآن الكريم ، دينا خيرا ، وكان صلاح الدين يقول : لاتظنوا أنى ملكت البلاد بسيوفكم بل بقلم الفاضل . مات سنة ٥٦٩ هـ .

( النجوم الزاهرة : ج ٦ ؛ ص ١٥٦ — ١٥٧ ؛ طبع دار الكتب )

(٣) ( فى قضاء فوائت ذلك فيه ) هكذا وردت العبارة فى (ب) وفى ( ج ٤ ب )

(٤) ( وواظب على الصوم مقدارا زائدا على الشهر فإنه كانت عليه فوائت رمضانين ) هكذا ذكرت العبارة فى (ب) وفى ( ج ٤ ب ) .

الله تعالى الصوم ، وأقدره على ما قضاه من تلك الفوائت[1] ، فكان يصوم وأنا أثبت الأيام التى كان يصومها لأن القاضى كان غائبا ، وكان الطبيب يلومه وهو لا يسمع ، ويقول : لا أعلم ما يكون . فكأنه كان ملهما (ببراءة ذمته[2]) — رحمه الله تعالى — ولم يزل حتى قضى ما كان عليه[3] .

وأما الحج ، فإنه كان عازما عليه وناويا له ، سيما فى العام الذى توفى فيه ، فإنه صمم العزم عليه ، وأمر بالتأهب ، وعملنا الرفادة ولم يبق إلا المسير ، فاعتاق عن[4] ذلك بسبب ضيق الوقت ، وخلو[5] اليد عما يليق بأمثاله ، فأخره إلى العام المستقبل ، فقضى الله ما قضى ، وهذا شىء اشترك فى العلم به الخاص والعام .

وكان — رحمه الله تعالى — يحب سماع القرآن العظيم . ويستجيد أمامه ، ويشترط أن يكون عالما بعلم القرآن العظيم ، متقنا لحفظه . وكان يستقرىء من يحرسه فى الليل وهو فى برجه ، الجزءين والثلاثة والأربعة وهو يسمع . وكان يستقرىء وهو فى مجلسه العام من جرت عادته بذلك ، الآية والعشرين والزائد على ذلك .

ولقد اجتاز على صغير بين يدى أبيه وهو يقرأ القرآن ، فاستحسن

(١) ( وأقدره لقضاء الفوائت ) هكذا ذكرت العبارة فى (ب) وفى ( ج ١٥ )
(٢) فى ( ا ) ما يراد به . وما ذكر هنا وهو الأنسب من ( ج ١٥ ) .
(٣) تكملة من ( ج ١٥ ) .
(٤) فى (ب) من .
(٥) فى (ب) وفى ( ح ١٥ ) فراغ .

قراءته فقربه ، وجعل له حظا من خاص طعامه ، ووقف عليه وعلى أبيه جزءا من مزرعة .

وكان — رحمه الله تعالى — خاشع القلب رقيقه ، غزير الدمعة ، إذا سمع القرآن يخشع قلبه ، وتدمع عينه فى معظم أوقاته .

وكان — رحمه الله — شديد الرغبة فى سماع الحديث ، ومتى سمع عن شيخ ذى رواية عالية وسماع كثير ؛ فإن كان ممن يحضر عنده استحضره وسمع عليه ، وأسمع من يحضره فى ذلك المكان من أولاده ومماليكه المختصين به ، وكان يأمر الناس بالجلوس عند سماع الحديث إجلالا له . وإن كان ذلك الشيخ ممن لا يطرق أبواب السلاطين ويتجافى عن الحضور فى مجالسهم ؛ سعى إليه وسمع عليه . وتردد إلى الحافظ الأصفهانى[1] بالاسكندرية — حرسها الله تعالى — وروى عنه أحاديث كثيرة .

وكان — رحمه الله تعالى — يحب أن يقرأ الحديث بنفسه ، وكان يستحضرنى فى خلوته ويحضر شيئا من كتب الحديث ويقرأها هو ، فإذا مر بحديث فيه عبرة ، دق قلبه ودمعت عينه .

وكان — رحمة الله عليه — كثير التعظيم لشعائر الدين قائلا[2]

---

(١) الحافظ الأصفهانى : هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن حامد الأصفهانى . ويعرف بابن أخى عبد العزيز . ولد سنة ٥١٩ هـ وتوفى سنة ٥٩٧ هـ . ومن أعماله التى تولاها غير التدريس كتابة الإنشاء لنورالدين محمود ثم لصلاح الدين الأيوبى . (الروضتين لأبى شامة . القسم الأول من الجزء الأول . تحقيق د . محمد حلمى أحمد)

(٢) فى (١) يقول : وما ذكر وهو أنسب للسياق ، من (ب) ومن ( ج ، ب)

ببعث الأجسام ونشورها ، ومجازاة المحسن بالجنة ، والمسىء بالنار ؛ مصدقا بجميع ما وردت به الشرائع ، منشرحا بذلك صدره . مبغضا للفلاسفة والمعطلة ومن يعاند الشريعة .

ولقد أمر ولده صاحب حلب الملك الظاهر[1] – أعز الله أنصاره – بقتل شاب نشأ يقال له السُّهْرَوَرْدِى[2] قيل عنه إنه كان معاندا للشرائع مبطلا . وكان قد قبض عليه ولده المذكور ، لما بلغه من خبره ، وعرف السلطان به ، فأمر بقتله ، فطلبه أياماً فقتله .

وكان – قدس الله روحه – حسن الظن بالله ، كثير الاعتماد عليه ، عظيم الإنابة إليه ، ولقد شاهدت من آثار ذلك ما أحكيه ، وذلك ؛ أن الفرنج – خذلهم الله تعالى[3] – كانوا نازلين ببيت نوبة[4] وهو موضع قريب من القدس الشريف – حرسها الله تعالى – بينهما بعض مرحلة ، وكان السلطان بالقدس وقد أقام يَزَكًا[5] على العدو محيطا به ،

(١) الملك الظاهر : هو أبو منصور غازى بن صلاح الدين يوسف بن أيوب ولد بمصر سنة ٥٦٨ هـ . وولاه أبوه سلطنة حلب فى حياته . كان ملكا مهيبا ذا سياسة وفطنة . حضر معظم غزوات والده ، ملجأ للغرباء وكهفا للفقراء . مات سنة ٦١٣ هـ ودفن بحلب .
(النجوم الزاهرة : ج ٦ . ص ٢١٧ — ٢١٨ . طبع دار الكتب )

(٢) السهروردى : هو أبو الفتوح يحي بن حبشى بن أميرك ، الملقب بشهاب الدين السهروردى الحكيم . قتل بحلب سنة ٥٨٧ هـ .
(النجوم الزاهرة ؛ ج ٦ . ص ٩ . طبع دار الكتب )

(٣) تكملة من ( ب ) .

(٤) بيت نوبه : أو بيت نوبا . بليدة من نواحى فلسطين .
( معجم البلدان : ج ٤ . ص ٥٢٣ . طبع بيروت )

(٥) يزك : لفظ فارسى معناه طلائع الجيش . ( السلوك للمقريزى : ج ١ ص ١٠٥ ، تحقيق د . محمد مصطفى زيادة ) .

وقد سير إليهم الجواسيس والمخبرين ، فتواصلت الأخبار بقوة عزمهم على الصعود إلى القدس ومحاصرته ، وتركيب القتال[١] عليه ، واشتدت مخافة المسلمين بسبب ذلك ، فاستحضر الأمراء وعرفهم ماقد دهم المسلمين من الشدة ، وشاورهم فى الإقامة بالقدس ، فأتوا بمجاملة باطنها غير ظاهرها ، وأصر الجميع على أنه لا مصلحة فى إقامته بنفسه ، فإنها مخاطرة بالإسلام . وذكروا أنهم يقصدونهم ، ويخرج هو — رحمه الله — بطائفة من العسكر يكون حول العدو كما كان الحال بعكا[٢] ، ويكون هو ومن معه بصدد منع ميرتهم والتضييق عليهم ، ويكونون هم بصدد حفظ البلد والدفع عنه .

وانفصل مجلس الشورى على ذلك ، وهو مصر على أن يقيم بنفسه ، علماً منه أنه إن لم يقم ، لم يقم أحد . فلما انصرف الأمراء إلى بيوتهم ؛ جاء من عندهم من أخبر أنهم لايقيمون إلا أن يقيم أخوه الملك العادل[٣] ، أو أحد أولاده ، حتى يكون هو الحاكم عليهم والذى يأتمرون بأمره ، فلم

(١) فى ( أ ) القنابل ، والتصحيح من (ب) ومن (ج ٦ أ ) .

(٢) عكا : أو عكة ، مدينة كبيرة بساحل الشام ، وداخلها عين تعرف بعين البقر ، وبها مسجد ينسب إلى نبي الله صالح عليه السلام ، وذكر الإدريسى أن الميناء فى وسط المدينة .

( النوادر السلطانية طبعة ليدن ، الفهرس الجغرافى رقم : A )

(٣) الملك العادل : هو سيف الدين ، أبو بكر ، محمد أبو الشكر نجم الدين أيوب بن شاذى بن مروان الدوينى التكريتى الدمشقى ، ولد سنة ٥٣٩ هـ على الأرجح ، وقد تولى حكم الديار المصرية سنة ٥٩٦ هـ ، وكانت وفاته بإحدى قرى دمشق وهى عالقين سنة ٦١٥ هـ ثم نقل إلى دمشق ودفن بها .

( النجوم الزاهرة : ج ٦ ، ص ٢٢١ ، طبع دار الكتب )

أن هذه إشارة منهم إلى عدم الإقامة ، وضاق صدره ، وتقسم فكره واشتدت فكرته .

ولقد جلست فى خدمته فى تلك الليلة — وكانت ليلة الجمعة — من أول الليل إلى أن قارب الصبح ، وكان الزمان شتاء وليس معنا ثالث إلا الله تعالى ، ونحن نقسم أقساما ونرتب على كل قسم بمقتضاه ؛ حتى أخذنى الإشفاق عليه[1] ، والخوف على مزاجه ، فإنه كان يغلب عليه اليبس ، فشفعت إليه حتى يأخذ مضجعه لعله ينام ساعة ، فقال رحمه الله : لعلك جاءك النوم . ثم نهض ، فما وصلت إلى بيتى ، وأخذت لبعض شأنى إلا وأذن المؤذن وطلع الصبح ، وكنت أصلى معه الصبح فى معظم الأوقات[2] ، فدخلت عليه وهو يمر الماء على أطرافه فقال : ما أخذنى النوم أصلا . فقلت : قد علمت . فقال : من أين ؟ . فقلت : لأنى ما نمت ، وما بقى وقت للنوم . ثم اشتغلنا بالصلاة ، وجلسنا على ما كنا عليه ، فقلت له : قد وقع لى واقع ، وأظنه مفيداً إن شاء الله تعالى ، فقال : ماهو ؟. فقلت له : الإخلاد إلى الله تعالى والإنابة إليه ، والاعتماد فى كشف هذه الغمة عليه . فقال : وكيف نصنع ؟ فقلت : اليوم ، الجمعة ، يغتسل المولى عند الرواح ، ويصلى على العادة بالأقصى — موضع مسرى النبي صلى الله عليه وسلم ، ويقدم المولى التصدق بشىء خفية على يد من يثق به ، ويصلى المولى ركعتين بين الأذان والإقامة ، ويدعو الله فى سجوده ، فقد ورد فيه حديث صحيح ، وتقول فى باطنك : إلهى قد انقطعت

---

(١) فى (ب) حتى أخذت بالإشفاق عليه .
(٢) فى (ب) الوقت .

أسبابى الأرضية فى نصرة دينك ، ولم يبق إلا الإخلاد إليك ، والاعتصام بحبلك ، والاعتماد على فضلك، أنت حسبي ونعم الوكيل. فإن الله تعالى[1] أكرم من أن يخيب قصدك . ففعل ذلك كله[2] ، وصليت إلى جانبه على العادة ، وصلى ركعتين بين الأذان والإقامة ، ورأيته ساجداً ودموعه تتقاطر على شيبته ثم على سجادته ، ولا أسمع ما يقول .

فلم ينقض ذلك اليوم حتى وصلت رقعة من عز الدين جُرْديك[3] ـ وكان على اليزك ـ يخبر فيها أن الفرنج مختبطون ، وقد ركب اليوم عسكرهم بأسره إلى الصحراء ، ووقفوا إلى قائم الظهيرة ، ثم عادوا إلى خيامهم ، وفى بكرة السبت جاءت رقعة ثانية تخبر عنهم بمثل ذلك ، ووصل فى أثناء النهار جاسوس أخبر أنهم اختلفوا ، فذهبت الفرنسيسية إلى أنهم لابد لهم من محاصرة القدس، وذهب الانكتار وأتباعه إلى أنه لا يخاطر بدين النصرانية ويرميهم فى الجبل مع عدم المياه ، فإن السلطان كان قد أفسد جميع ما حول القدس من المياه ، وأنهم خرجوا للمشورة ، ومن عاداتهم أنهم يتشاورون للحرب على ظهور الخيل . وأنهم قد نصوا على

(١) تكملة من (ب) ومن ( ج ٧ ب ) .

(٢) تكملة من ( ج ٧ ب ) .

(٣) عز الدين جرديك : هو الأمير جرديك بن عبد الله النورى كان من أكابر أمراء الملك العادل نور الدين محمود ، ثم خدم صلاح الدين الأيوبى فى جميع غزواته وحروبه من يوم قتل شاور وزير مصر وابن الخشاب بحلب ، وقد كان أميرا شجاعا مهيبا جوادا ، ولاه صلاح الدين نيابة القدس الى أن أخذها منه الأفضل ابن صلاح الدين .

( النجوم الزاهرة : ج ٦ ، ص ١٤٣ ، طبع دار الكتب )

عشرة أنفس منهم وحكموهم ، فأى (شىء)[1] أشاروا به لا يخالفونه .

ولما كانت بكرة الإثنين جاء المبشر يخبر أنهم رحلوا عائدين إلى جهة الرملة[2] ، فهذا ما شاهدته من آثار استنباطه وإخلاده إلى الله تعالى — رحمه الله

# ذكر

## عدله رحمه الله تعالى

روى أبو بكر الصديق — رضى الله عنه — أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «الوالى العادلُ ظلُّ اللهِ فى أرضه ، فمَنْ نَصَحَهُ فى نَفْسِهِ أو عبادِهِ أظَلَّهُ اللهُ تحت عَرْشِهِ يَوْمَ لا ظِلَّ إلا ظلُّه ، ومنْ خانَهُ فى نفسِهِ أو فى عبادِ الله خَذَلَهُ الله يومَ القيامة ، يُرفعُ للوالى العادل فى كلِّ يوم عَمل ستين صدِّيقا كُلُّهم عابدٌ مجتهدٌ لنفسه» .

ولقد كان — رحمه الله — عادلا رءوفا رحيما ، ناصراً للضعيف على القوى . وكان يجلس للعدل فى كل يوم اثنين وخميس فى مجلس عام يحضره الفقهاء والقضاة والعلماء ، ويفتح الباب للمتحاكمين حتى يصل إليه كل أحد من كبير وصغير ، وعجوز هرمة وشيخ كبير ، وكان يفعل ذلك (سفراً وحضراً)[3]، على أنه كان فى جميع زمانه قابلا لجميع مايعرض

---

(١) زيادة من (ب) ومن ( ج ٨ ا ) .

(٢) الرملة : كورة ومدينة عظيمة بفلسطين .

( معجم البلدان : ج ٩ ، ص ٦٩ — ٧٠ ، طبع بيروت )

(٣) فى (ب) فى سفر وفى حضر .

عليه من القصص فى كل يوم ، ويفتح باب العدل ، ولم يرد قاصداً للحوادث والحكومات .

وكان يجلس مع الكاتب ساعة ؛ إما فى الليل أو فى النهار ، ويوقع على كل قصة بما يجريه الله على قلبه ، (ولم يرد قاصداً أبداً ، ولا منتحلا ولا طالب حاجة ، وهو مع ذلك دائم الذكر ، والمواظبة على التلاوة ، رحمة الله عليه . ولقد كان رءوفا بالرعية ، ناصراً للدين ، مواظباً على تلاوة القرآن العزيز ، عالماً بما فيه ، عاملا به لا يعدوه أبداً ، رحمة الله عليه )[١] . وما استغاث به أحد إلا وقف وسمع قضيته ، وكشف ظلامته ، واعتنى بقصته[٢] .

ولقد رأيته واستغاث إليه إنسان من أهل دمشق يقال له ابن زُهير ، على تقى الدين ( عمر )[٣] — ابن أخيه — فأنفذ إليه ليحضره[٤]

(١) ما بين القوسين فى ( ا ) ومغفل فى (ب) وفى ( ج ) .

(٢) فى (ب) وفى ( ج ٨ ب ) ( وسمع ظلامته ، وكشف قضيته ، وأخذ قصته ) .

(٣) زيادة من ( النجوم الزاهرة : ج ٦ ، ص ١٠ ، طبع دار الكتب ) . وتقى الدين عمر هذا هو الملك المظفر ، أبو سعيد ، عمر بن نور الدولة شاهنشاه ابن أيوب . أعطاه عمه صلاح الدين الأيوبى حماة وعدة بلاد من حماة إلى ديار بكر ، ثم طمع فى بلاد الشرق ، فقامت بينه وبين بكتمر بن عبد الله مملوك شاه أرمن صاحب خلاط عدة وقائع وحروب ، وكان شجاعا مقداما ، شاعرا ، مات ببلاد الشرق فكتم ولده ذلك ونقله إلى ميافارقين فدفن بها ثم نقل إلى مدرسته بحماه ، وكانت وفاته سنة ٥٨٧ هـ . . .

( النجوم الزاهرة : ج ٦ ، ص ١١١ — ١١٤ ، طبع دار الكتب )

(٤) فى ( ا ) ليحضر ، وما ذكر من (ب) ومن ( ج ٨ ب ) .

إلى مجلس الحكم ، وكان تقى الدين من أعز الناس عليه ، وأعظمهم عنده ، ولكنه لم يحابه فى الحق .

وأعظم من هذه الحكاية مما يدل على عدله ؛ قضية جرت له مع إنسان تاجر يدعى عمر الخِلاطِى ، وذلك أنى كنت يوماً فى مجلس الحكم بالقدس الشريف ؛ إذ دخل علىّ شيخ حسن — تاجر معروف — يسمى عمر الخلاطى معه كتاب حكمى يسأل فتحه ، فسألته : من خصمك ؟ . فقال : خصمى السلطان ، وهذا بساط العدل ، وقد سمعنا أنك لا تحابى . قلت : فى أى قضية هو خصمك ! . فقال : إن سنقر الخلاطى كان مملوكى ، ولم يزل على مِلْكى إلى أن مات ، وكان فى يده أموال عظيمة كلها لى ومات عنها ، واستولى عليها السلطان ، وأنا مطالبه بها . فقلت له : يا شيخ ! وما أقعدك إلى هذه الغاية ؟ . فقال : الحقوق لا تبطل بالتأخر ، وهذا الكتاب الحكمى ينطق بأنه لم يزل فى ملكى إلى أن مات . فأخذت الكتاب منه ، وتصفحت مضمونه ، فوجدته يتضمن حلية سنقر الخلاطى ، وأنه قد اشتراه من فلان التاجر بأرجيش[١] اليوم الفلانى من شهر كذا ، من سنة كذا ، وأنه لم يزل فى ملكه إلى أن شذ عن يده فى سنة كذا ، وما عرف شهود هذا الكتاب خروجه عن ملكه بوجه ما ، وتم الشرط إلى آخره . فتعجبت من هذه القضية وقلت للرجل : لا ينبغى سماع هذا بلا وجود الخصم أصلا ، وأنا أعرفه

---

(١) أرجيش : إحدى مدن أذربيجان .

(معجم البلدان : ج ٢ ، ص ١٤٤ ، طبع بيروت ) .

وأعرفك ما عنده ( فى ذلك )[١] ، فرضى الرجل بذلك واندفع ، فلما اتفق المثول بين يديه فى بقية ذلك اليوم عرفته القضية ، فاستبعد ذلك أستبعاداً عظيما وقال : كنتَ نظرت فى الكتاب ! . فقلت : نظرتُ فيه ورأيته متصل الورود والقبول إلى دمشق،وقد كتبت عليه ( كتاب حكمى من دمشق ) . وشهد به على يد قاضى دمشق شهود معروفون . فقال : مبارك ، نحن نحضر الرجل ونحاكمه،ونعمل فى القضية مايقتضيه الشرع . ثم اتفق بعد ذلك جلوسه مى خلوة ، فقلت له : هذا الخصم يتردد ، ولا بد أن نسمع دعواه . فقال : أقم عنى وكيلا يسمع الدعوى، ثم يقيم الشهود شهادتهم[٢] ، وأخّر فتح الكتاب إلى حين حضور الرجل ههنا . ففعلتُ ذلك ، ثم أحضر الرجل[٣] واستدناه حتى جلس بين يديه ، وكنت إلى جانبه،ثم نزل من طراحته[٤] حتى ساواه، وقال : إن كان لك دعوى فاذكرها فحرر الرجل الدعوى على معنى ما شرح أولا ، فأجابه السلطان : إن سنقر هذا كان مملوكى ، ولم يزل على ملكى حتى أعتقته ، وتوفى وخلف ما خلف لورثته . فقال الرجل : لى بينة تشهد بما أدعيه . ثم أخذت كتابه ففتحه ، فوجدته كما شرح . فلما سمع السلطان التاريخ ، قال : عندى من يشهد أن سنقر هذا فى هذا

(١) الزيادة من (ب) ومن ( ج ٩ ب ) .
(٢) فى (ب) إشهادهم .
(٣) فى (ب) وفى ( ج ٩ ب ) حضر الرجل عنده .
(٤) أى من مكانه المرتفع . جاء فى القاموس أن ( الطرح ) هو المكان البعيد ، وطرح بناءه ( طوله ) . ( القاموس المحيط للفيروزابادى ) .

التاريخ كان فى ملكى ، وفى يدى بمصر ،وأنى أشتريته مع ثمانية أنفس فى تاريخ متقدم على هذا التاريخ بسنة ، وأنه لم يزل فى يدى وملكى إلى أن أعتقته . ثم استحضر جماعة من أعيان الأمراء والمجاهدين فشهدوا بذلك ، وذكروا القصة[1] كما ذكرها ، والتاريخ كما ادعاه ، فأبلس الرجل ، فقلت له : يا مولاى ! هذا الرجل ما فعل ذلك إلا طلباً لمراحم السلطان ، وقد حضر بين يدى المولى ، ولا يحسن أن يرجع خائباً للقصد . فقال : هذا باب آخر . وتقدم له بخلعة ونفقة بالغة ، وقد شذ عنى مقدارها .

فانظر إلى ما فى طىّ هذه القضية من المعانى الغريبة العجيبة ، والتواضع والانقياد إلى الحق ، وإرغام النفس ، والكرم فى موضع المؤاخذة مع القدرة التامة ، رحمه الله تعالى رحمة واسعة .

## ذكر

### طرف من كرمه — رحمه الله

قال صلى الله عليه وسلم : إذا عثرَ الكريمُ فإنّ الله آخذٌ بيده . وفى الكرم أحاديث . وكرمه — قدس الله روحه — كان أظهر من أن يسطر ، وأشهر من أن يذكر ، لكن نبهت عليه جملة ، وذلك أنه ملك ماملك ومات ولم يوجد فى خزانته من الفضة إلا سبعة وأربعون درهما ناصرية ، ومن الذهب إلا جرم واحد صورى ما علمت وزنه . وكان

---

(١) فى (ب) وفى ( ج ١٠ ا ) القضية .

رحمه الله يهب الأقاليم ، وفتح آمد[١] وطلبها منه ابن قره[٢] أرسلان فأعطاه إياها .

ورأيته وقد اجتمع عنده جمع من الوفود بالقدس الشريف ، وكان قد عزم على التوجه إلى دمشق ، ولم يكن فى الخزانة ما يعطى الوفود ، فلم أزل أخاطبه فى معناهم حتى باع أشياء من بيت المال ، وفضضنا ثمنها عليهم ، ولم يفضل منه درهم واحد .

وكان — رحمه الله — يعطى فى وقت الضائقة[٣] كما يعطى فى حال السعة ، وكان نواب خزائنه يخفون عنه شيئاً من المال ، حذراً أن يفاجئهم مهم لعلمهم بأنه متى علم به أخرجه .

وسمعته يقول فى معرض حديث جرى : يمكن أن يكون فى الناس من ينظر إلى المال كما ينظر إلى التراب . فكأنه أراد بذلك نفسه — رحمه الله تعالى .

وكان يعطى فوق ما يؤمل الطالب ، فما سمعته قط يقول أعطينا لفلان . وكان يعطى الكثير ، ويبسط وجهه للعطاء بسطه لمن لم يعطه شيئاً . وكان — رحمه الله — يعطى ويكرم أكثر مما يُعْطى ، وكان

(١) آمد : أعظم مدن ديار بكر وأجلها ، ويحيط بها دجلة كالهلال ، وبها عيون قريبة يتناول ماؤها باليد .

( معجم البلدان : ج ١ ، ص ٥٦ ، ط بيروت )

(٢) فى ( ب ) والنجوم الزاهرة قرا . وقرا أرسلان هو صاحب أذربيجان .
( مفرج الكروب لابن واصل : ج ٢ ، ص ١٢٢ ، تحقيق د . جمال الدين الشيال)

(٣) فى ( ا ) الضيق ، وما ذكر هنا من (ب) ومن ( ج ١٠ ( ب )

قد عرفه الناس فكانوا يستزيدونه فى كل وقت ، وما سمعته قط يقول قد زدت مراراً فكم أزيد ، وأكثر الرسائل كانت تكون فى ذلك على لسانى ويدى ، وكنت أخجل من كثرة ما يطلبون ، ولا أخجل من كثرة ما أطلبه لهم لعلمى بعدم مؤاخذته فى ذلك ، وما خدمه أحد إلا أعفاه عن سؤال غيره .

وأما تعداد عطاياه وتعداد صنوفها فلا تطمع فيها حقيقة أصلا ، وقد سمعت من صاحب ديوانه يقول لى : قد تجارينا عطاياه فحضرنا عدد ما وهب من الخيل بمرج عكا فكان عشرة آلاف فرس ، ومن شاهد مواهبه يستقل هذا القدر . اللهم إنك ألهمته الكرم وأنت أكرم منه ، فتكرم عليه برحمتك ورضوانك يا أرحم الراحمين .

## ذكر

### شجاعته ، قدس الله روحه

روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إنّ الله يحب الشجاعة ولوْ على قتْل حيَّة » .

ولقد كان — رحمه الله تعالى — من عظماء الشجعان ، قوى النفس ، شديد البأس ، عظيم الثبات ، لا يهوله أمر ، ولقد رأيته يعطى دستوراً فى أوائل الشتاء ، ويبقى فى شرذمة يسيرة فى مقابلة عددهم الكثير .

وقد سألت بَالِيان بن بارِزَان — وهو من كبار ملوك الساحل — وهو جالس بين يديه — رحمه الله — يوم انعقاد الصلح عن عدتهم ، فقال الترجمان عنه إنه يقول : كنت أنا وصاحب صيدا[1] — وكان أيضاً من ملوكهم وعقلائهم — قاصدين عسكرنا من صور[2] ، فلما أشرفنا عليه تحازرناه ، فحزرهم هو خمسمائة ألف ، وحزرتهم أنا بستمائة ألف ، أو قال عكس ذلك . قلت : فكم هلك منهم ؟ . فقال : أما بالقتل فقريب من مائة ألف ، وأما بالموت والغرق فلا نعلم ، وما رجع من هذا العالم إلا الأقل .

وكان لا بد له من أن يطوف حول العدو فى كل يوم مرة أو مرتين إذا كنا قريباً منهم . ولقد وصل فى ليلة واحدة منهم نيف وسبعون مركباً على عكا ، وأنا أعدها من بعد صلاة العصر إلى غروب الشمس ، وهو لا يزداد إلا قوة نفس .

وكان — رحمه الله تعالى — إذا اشتد الحرب يطوف بين الصفين ومعه صبي واحد ، على يده جنيب[3] ، ويخرق العساكر من الميمنة إلى

---

(١) صيدا : مدينة شرق صور وقد سقطت فى يد الإفرنج سنة ٥٠٤ هـ وبقيت فى حوزتهم حتى استنقذها صلاح الدين سنة ٥٨٣ هـ .
( معجم البلدان : ج ١٢ ، ص ٤٣٧ — ٤٣٨ ، ط بيروت )

(٢) صور : مدينة مشرفة على ( البحر الأبيض المتوسط ) داخلة فيه يحيط الماء بها إلا من الجهة الداخلية .
( معجم البلدان : ج ١٢ ، ص ٤٣٣ — ٤٣٤ ، ط بيروت )

(٣) أى تمر .

الميسرة ، ويرتب الأطلاب[1] ويأمرهم بالتقدم والوقوف فى مواضع يراها . وكان يشارف العدو ويجاوره رحمه الله .

ولقد قرىء عليه جزءان من الحديث بين الصفين ، وذلك أنى قلت له : قد سُمع الحديث فى المواطن الشريفة ، ولم ينقل أنه سمع بين الصفين ، فإن رأى المولى أن يُؤثَر عنه ذلك كان حسنا . فأذن فى ذلك ، فأحضر جزءه كما أحضر من له به سماع ، فقرأ عليه ونحن على ظهور الدواب بين الصفين ، نمشى تارة ونقف أخرى .

وما رأيته استكثر العدو أصلا ، ولا استعظم أمرهم قط ، وكان مع ذلك فى حال الفكر والتدبير ، تذكر بين يديه الأقسام كلها ، ويرتب على كل قسم بمقتضاه ، من غير حدة ولا غضب يعتريه .

ولقد انهزم المسلمون فى يوم المصاف[2] الأكبر بمرج عكا حتى القلب والرجالة ؛ ووقع الكوس[3] والعلم ، وهو — رضى الله عنه — ثابت القدم فى نفر يسير ، حتى انحاز إلى الجبل يجمع الناس ،

---

(١) الأطلاب : لفظ كردى يطلق على الأمير الذى يقود مائتى فارس فى ميدان القتال ، ويطلق أيضاً على القائد الذى يقود مائة جندى أو سبعينا .

( السلوك للمقريزى : ج ١ : ص ٢٤٨ ، تحقيق د محمد مصطفى زيادة )

(Dozy. Supp. Dict. Arabe).

(٢) المصاف : ترتيب الجيش صفوفا تقابل صفوف العدو . ( لسان العرب )

(٣) كوس : كلمة فارسية الأصل معناها الطبول

( المعجم فى الألفاظ الفارسية للدكتور محمد موسى هنداوى )

ويردهم ويخجلهم حتى يرجعوا ، ولم يزل كذلك حتى نُصر عسكر المسلمين على العدو فى ذلك اليوم ، وقتل منهم زُهاء سبعة آلاف ما بين راجل وفارس ، ولم يزل رحمه الله — مصابراً لهم ، وهم فى المدة الوافرة إلى أن ظهرله ضعف المسلمين ، فصالح وهو مسئول من جانبهم ، فإن الضعف والهلاك كان فيهم أكثر ، ولكنهم كانوا يتوقعون النجدة ونحن لا نتوقعها ، وكانت المصلحة فى الصلح ، وظهر ذلك لما أبدت الأقضية الإلهية والأقدار ما فى مكنونها .

وكان — رحمه الله — يمرض ويصح ، وتعتريه أحوال مهولة ، وهو مصابر مرابط ، وتتراءى النارات ، ونسمع منهم صوت الناقوس ويسمعون منا الأذان ، إلى أن انقضت[1] الوقعة على أحسن حال وأيسره ، قدس الله روحه ونور ضريحه .

## ذكر

### اهتمامه بأمر الجهاد

قال الله تعالى : « وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ[2] » ونصوص الجهاد كثيرة .

ولقد كان — رحمه الله — شديد المواظبة عليه ، عظيم الاهتمام به ،

---

(١) فى ( أ ) انقطعت وهذا تحريف . والتصحيح من (ب) ومن (ج ١٣ ب) .
(٢) الآية ٦٩ من سورة العنكبوت .

ولو حلف حالف أنه ما أنفق بعد خروجه إلى الجهاد ديناراً ولادرهما إلا فى الجهاد أو فى الأرفاد لصدق وبر فى يمينه .

ولقد كان حبه للجهاد والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاء عظيما ، بحيث ما كان له حديث إلا فيه ، ولا نظر إلا فى آلته ، ولا كان له اهتمام إلا برجاله ، ولا ميل إلا إلى من يذكره ويحث عليه .

ولقد هجر فى محبة الجهاد فى سبيل الله أهلَه وأولادَه ، ووطنَهَ وسكنَهَ وسائر بلاده ، وقنع من الدنيا بالسكون فى ظل خيمة تهب بها الرياح ميمنةً وميسرة[1] .

ولقد وقعت عليه الخيمة فى ليلة ريحية[2] على مرج عكا فلو لم يكن فى البرج لقتلتهُ ، ولا يزيده ذلك إلا رغبة ومثابرة واهتماماً .

وكان الرجل إذا أراد أن يتقرب إليه يحثه على الجهاد ، وأنا ممن جمع له فيه كتابا ، جمعت فيه آدابه ، وكل آية وردت فيه ، وكل حديث رُوى فى فضله ، وشرحت غريبها .

وكان — رحمه الله — كثيراً ما يطالعه حتى أخذه منه ولده الملك الأفضل — عز نصره . ولأحكينّ عنه ما سمعته منه ، وذلك : أنه كان

---

(١) فى (ب) وفى ( ج ١٤ ا ) يمنة ويسرة .

(٢) فى (ب) وفى ( ج ١٤ ا ) ريحة .

قد أخذ كوكب[١] فى ذى القعدة سنة أربع وثمانين وخمسمائة ، وأعطى العسكر دستوراً ، وأخذ عسكر مصر فى العود إلى مصر وكان مقدمها أخاه الملك العادل — عز نصره ، فسار معه ليودعه ويحظى بصلاة العيد فى القدس الشريف — حرسه الله تعالى ، وسرنا فى خدمته . ولما صلى العيد فى القدس وقع له أن يمضى إلى عسقلان[٢] ، ويودعهم بعسقلان ثم يعود على طريق الساحل ، يتفقد البلاد الساحلية إلى عكا ، ويرتب أحوالها . فأشاروا عليه أن لا يفعل ، فإن العساكر إذا فارقتنا نبقى فى عدة يسيرة ، والفرنج كلهم بصور ، وهذه مخاطرة عظيمة ، فلم يلتفت — رحمه الله — وودع أخاه والعسكر بعسقلان ، ثم سرنا فى خدمته إلى الساحل طالبين عكا ، وكان الزمان شتاء ، والبحر هائجاً هيجاً شديداً ، وموجه كالجبال كما قال تعالى ، وكنت حديث عهد برؤية البحر ، فعظم أمر البحر عندى حتى خُيِّل لى أنى لو قال لى : إن جُزْتَ فى البحر ميلا واحداً مَلَّكْتك الدنيا لما كنت أفعل . واستسخفت[٣] رأى من ركب البحر رجاء دينار أودرهم ، واستحسنت رأى من لا يقبل شهادة راكب بحر ، هذا كله خطر لى لعظم الهول الذى شاهدته من حركة البحر .

---

(١) كوكب : اسم قلعة على الجبل المطل على طبرية ، حصينة تشرف على الأردن .

( معجم البلدان ج ١٦ : ص ٤٩٤ ، ط بيروت )

(٢) عسقلان : بلدة بها آثار قديمة على جانب البحر بينها وبين غزة نحو ثلاثة فراسخ ، وكان يقال لها عروس الشام .

( معجم البلدان ج ١٣ : ص ١٢٢ . ط بيروت )

(٣) فى ( ا ) استحسفت وهذا تصحيف ، إذ أن أصل الفعل ( سخف ) .
( لسان العرب )

فبَيْنا أنا فى ذلك ، إذ التفت إلىّ — رحمه الله — وقال : أما أحكى لك شيئاً فى نفسى ! إنه متى يسر الله تعالى فتح بقية الساحل ؛ قسمت البلاد وأوصيت وودعت ، وركبت هذا البحر إلى جزائره ، وأتبعتهم فيها ، حتى لا أبقى على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت .

فعظم وقع هذا الكلام عندى ، حيث ناقض ما كان خطر لى ، وقلت له : ليس فى الأرض أشجع نفسا من المولى ، ولا أقوى منه نيّة فى نُصْرة دين الله تعالى ، فقال : كيف ؟ . فقلت : أما الشجاعة ؛ فلأنّ مولانا لا يهولُه أمر هذا البحر وهوْله ، وأما نصرة دين الله ؛ فهو أن المولى ما يقنع بقلع أعداء الله من موضع مخصوص فى الأرض حتى تطهر جميع الأرض منهم .

واستأذنت أن أحكى له ما كان خطرلى ، فحكيت له ، ثم قلت : ما هذه إلا نية جميلة ، ولكن المولى يسير فى البحر العساكر ، وهو سور الإسلام ومنعته فلاينبغى له أن يخاطر بنفسه . فقال : أنا أستفتيك ، ما أشرف (المِيْتَتَيْن )[1]. فقلت : الموت فى سبيل الله . فقال : غاية ما فى الباب أن أموت أشرف الميتتين .

فانظر إلى هذه الطوية ما أطهرها ! وإلى هذه النفس ، ما أشجعها وأجرؤها ! رحمة الله عليه . اللهم إنك تعلم أنه بذل جهده فى نصرة دينك ، وجاهد رجاء رحمتك فارحمه .

---

(١) فى (ب) وفى (جـ ١٥ ب ) الميتات .

# ذكر

## صبره واحتسابه رحمة الله عليه

قال الله سبحانه وتعالى : ثم « جاهَدُوا أو صَبَرُوا إن ربك من بَعْدِها لغفور رحيم[١] » ولقد رأيته ــ رحمه الله ــ بمرج عكا وهو على غاية من مرض اعتراه ، بسبب كثرة دماميل كانت ظهرت عليه من وسطه إلى ركبتيه بحيث لا يستطيع الجلوس ، وإنما يكون متكئاً[٢] على جانبه إن كان بالخيمة ، وامتنع من مدّ الطعام بين يديه لعجزه عن الجلوس ، وكان يأمر أن يفرق على الناس ، وكان مع ذلك قد نزل بخيمة الحرب قريباً من العدو ، وقد رتب الناس ميمنة وميسرة وقلباً ، تعبئة القتال ، وكان مع ذلك كله يركب من بكرة النهار إلى صلاة المغرب ، يطوف على الأطلاب صابراً على شدة الألم ، وقوة ضربان الدمامل وأنا أتعجب من ذلك فيقول : إذا ركبتُ يزول عني ألمُها حتى أنزل، وهذه عناية ربانية .

ولقد مرض ــ رحمه الله ــ ونحن على الخرنوبة[٣] ، وكان قد تأخر عن تل الحجل بسبب مرضه فبلغ الافرنج فخرجوا طمعاً فى أن ينالوا شيئاً من المسلمين ، وهى نوبة النهر ، فخرجوا فى مرحلة إلى[٤] الآبار التى

---

(١) الآية ١١٠ من سورة النحل .

(٢) فى (١) منكبا وهو تصحيف ، والتصحيح من (ب) ومن (ج ١٥ ب)

(٣) الخرنوبة : وهى ( الخروبة ) ، تل وجبل كذلك فيقال تل الخروبة وجبل الخروبة ، جاء فى معجم البلدان لياقوت أنها حصن بسواحل بحر الشام ( البحر الأبيض المتوسط ) مشرف على عكا .

( معجم البلدان جـ ٧ : ص ٣٦٢ ، ط بيروت )

(٤) زيادة من (ب)

تحت التل ، فأمر — رحمه الله — بالثقل حتى يتجهز بالرحيل ، والتأخر عن جهة الناصرة[١] .

وكان عماد الدين ـ صاحب سنجار[٢] ـ متمرضا أيضاً ، فأذن له أن يتأخر مع الثقل ، وأقام هو ، ثم رحل العدو فى اليوم الثانى يطلبنا فركب على مضض ، ورتب العسكر للقاء القوم ، تعبئة الحرب ، وجعل طرف الميمنة الملك العادل ، وطرف الميسرة تقى الدين ، وجعل ولده الملك الظاهر والملك الأفضل[٣] — عز نصرهما — فى القلب ، ونزل هو وراء القوم يطلبهم .

وأول ما نزل من التل أحضر بين يديه افرنجى قد أسر من القوم ، فأمر بضرب عنقه بين يديه بعد عرض الإسلام عليه وإبائه عنه ، وكلما سار العدو يطلب رأس النهر ؛ سار هو مستديراً إلى ورائهم حتى يقطع بينهم وبين خيامهم ، وهو يسير ساعة ثم ينزل يستريح ، ويتظلل بمنديل

---

(١) الناصرة : قرية بينها وبين طبرية ثلاثة عشر ميلا ، منها اشتق اسم النصارى لأن المسيح عليه السلام سكنها فنسب إليها .

( معجم البلدان ج ١٨ ، ص ٢٥١ ط بيروت )

(٢) سنجار : بلدة فى لحف جبل عال من أعمال الجزيرة ، قدر صاحب معجم البلدان المسافة بينها وبين الموصل بثلاثة أيام :

( معجم البلدان ج ١١ ، ص ٢٦٢ — ٢٦٣ ط بيروت )

(٣) الملك الأفضل : هو نور الدين ، أبو الحسن على بن صلاح الدين الأيوبى ولد بمصر سنة ٥٦٥ هـ ، وكان ملك الشام فى حياة أبيه ثم من بعده ، وقد اختلف مع أخيه العزيز وعمه العادل وتقلبت به الأحوال إلى أن صار صاحب سميساط وبقى بها إلى أن مات ٦٢٢ هـ .

( النجوم الزاهرة ج ٦ ، ص ٦٢٢ — ٦٢٣ ط دار الكتب )

على رأسه من شدة وقع الشمس ، ولا ينصب له خيمة حتى لا يرى العدو ضعفاً ، ولم يزل كذلك حتى نزل العدو برأس النهر ، ونزل هو قبالتهم على تل مطل عليهم إلى أن دخل الليل .

ثم أمر العساكر المنصورة أن عادت إلى محل المصابرة ، وأن يبيتوا تحت السلاح ، وتأخر هو — ونحن فى خدمته — إلى قمة الجبل ، فضربت له خيمة لطيفة ، وبتنا تلك الليلة أجمع — أنا والطبيب — نمرضه ونشاغله ، وهو ينام تارة ويستيقظ أخرى حتى لاح الصباح .

ثم ضرب البوق وركب هو وركبت العساكر ، وأحدقت بالعدو ، ورحل العدو عائداً إلى خيامهم من الجانب الغربى من النهر ، وضايقهم المسلمون فى ذلك اليوم مضايقة شنيعة ، وفى ذلك اليوم قدم أولاده بين يديه احتساباً وجميع من حضر منهم ، ولم يزل يبعث من عنده حتى لم يبق عنده إلا أنا والطبيب وعارض الجيش ، والغلمان بأيديهم الأعلام والبيارق لاغير ، فيظن الرائى لها عن بعد أن تحتها خلقا عظيما .

ولم يزل العدو سائراً والقتل يعمل فيهم ، وكلما قتل منهم شخص دفنوه ، وكلما جرح منهم رجل حملوه ، حتى لا يبقى بعدهم من يعلم قتله وجرحه ، وهم سائرون ونحن نشاهدهم ، حتى اشتد بهم الأمر ونزلوا عند الجسر ، وكان الإفرنج متى نزلوا إلى الأرض أيس المسلمون من بلوغ غرض منهم ، لأنهم يجتمعون فى حالة النزول جماعة عظيمة ، وبقى — رحمه الله — فى موضعه ، والعساكر على ظهور الخيل قبالة العدو

إلى آخر النهار ، ثم أمرهم أن يبيتوا على مثل ما باتوا عليه بارحتهم ، وعدنا إلى منزلنا فى الليلة الماضية ، وعاد العساكر فى الصباح إلى ما كانوا عليه بالأمس من مضايقة العدو ، ورحل العدو ، وسار على ما مضى من القتل والقتال حتى دنا إلى خيامه ، وخرج إليه منها من أنجده ، حتى وصلوا إلى خيامهم .

فانظر إلى هذا الصبر والاحتساب ، وإلى أى غاية بلغ هذا الرجل . اللهم إنك ألهمته الصبر والاحتساب ؛ ووفقته له ، فلا تحرمه ثوابه يا أرحم الراحمين .

ولقد رأيته — رحمه الله تعالى — وقد جاءه خبر وفاة ولد له بالغ مراهق[١] — يسمى إسماعيل — فوقف على الكتاب ولم يعرف أحدا ، ولم نعرف حتى سمعناه من غيره ، ولم يظهر عليه شئ من ذلك ، سوى أنه لما قرأ الكتاب دمعت عينه

ولقد رأيته ليلة على صفد[٢] وهو يحاصرها ، وقد قال : لا ننام الليلة حتى تنصب لنا خمسة مناجيق ، ورتب لكل منجنيق قوماً يتولون نصبه ، وكنا طول الليل فى خدمته — قدس الله روحه — فى ألذ مفاكهة وأرغد عيش ، والرسل تتواصل فتخبره بأن قد نصب من المنجنيق الفلانى كذا وكذا[٣] ، ومن المنجنيق الفلانى كذا[٣] ، حتى

(١) تكملة من (ب) ومن ( ج ١٧ ب ) .

(٢) صفد : مدينة فى جبال عاملة المطلة على حمص بالشام وهى من جبال لبنان . ( معجم البلدان جـ ١٢ ص ٤١٢ ط بيروت )

(٣) و (٤) زيادتان من (ب) .

أتى الصباح وقد فرغ منها ، ولم يبق إلا تركيب خنازيرها عليها ، وكانت من أطول الليالى وأشدها برداً ومطراً .

ورأيته وقد وصل إليه خبر وفاة تقى الدين — ابن أخيه — ونحن فى مقابلة الإفرنج جريدة[1] على الرملة ، وبيننا وبينهم شوط فرس لا غير ، فأحضر الملك العادل ، وعلم الدين سليمان[2] ، وسابق الدين ، وعز الدين ؛ وأمر بالناس فطردوا من قريب الخيمة بحيث لم يبق حولها أحد زيادة عن غلوة سهم . ثم أظهر الكتاب ووقف عليه ، وبكى بكاء شديداً حتى أبكانا من غير أن نعلم السبب ، ثم قال — رحمه الله — والعَبْرَة تخنقه — : توفى تقى الدين ! . فاشتد بكاؤه وبكاء الجماعة ، ثم عدت إلى نفسى فقلت : أستغفر الله تعالى من هذه الحالة ، وانظروا أين وفيم أنتم ، وأعرضوا عما سواه . فقال — رحمه الله — : أستغفر الله !. وأخذ يكررها ، ثم قال : لا يعلم أحد . واستدعى بشىء من الماورد فغسل

---

(١) جريدة : هى الفرقة من العسكر لا رجالة بينهم ، وتستعمل فى حالات كثيرة كالفرقة من الجند إذا أسرعت إلى الخروج من غير أثقال أو عدد كثيرة لمهمة تستدعى العجلة والاسراع فى الخروج .
( لسان العرب ) و (Dozy. Supp. Dict. Arab)
و ( الروضتين لأبى شامة تحقيق د . محمد حلمى أحمد )

(٢) علم الدين سليمان : هو سليمان بن جندر ، كان من أكابر أمراء حلب ومن مشايخ الدولتين النورية والصلاحية ؛ شهد مع السلطان صلاح الدين الأيوبى حروبه كلها ، وهو الذى أشار بخراب عسقلان مصلحة للمسلمين ، توفى سنة ٥٨٧ هـ ( النجوم الزاهرة جـ ٦ : ص ١١٣ ط دار الكتب )

عينيه ، ثم أشخص الطعام ، وحضر الناس ولم يعلم بذلك أحد ، حتى عاد العدو إلى يافا وعدنا نحن إلى النطرون[1] وهو مقر ثقلنا .

وكان - رحمه الله — شديد الشغف والشفقة بأولاده الصغار ، وهو صابر على مفارقتهم ، راض ببعدهم عنه ، وكان صابراً على مر العيش وخشونته ، مع القدرة التامة على غير ذلك ، احتساباً لله تعالى .

اللهم إنه ترك ذلك كله ابتغاء مرضاتك ؛ فارضَ عنه وارحمه .

# ذكر

## نبذ من حلمه وعفوه رحمه الله

قال الله سبحانه وتعالى : « والعافينَ عن النـــاس واللهُ يحبُّ المحسنين[2] » .

لقد كان متجاوزا قليل الغضب ، ولقد كنت فى خدمته بمرج عيون[3] قبل خروج الإفرنج إلى عكا — يسر الله فتحها - وكان من عادته أن يركب فى وقت الركوب ثم ينزل فيمد الطعام ، ويأكل مع الناس ، ثم ينهض إلى خيمة خاصة له ينام فيها ، ثم يستيقظ من منامه ويصلى ، ويجلس خلوة وأنا فى خدمته ، نقرأ شيئاً من الحديث أو شيئاً من الفقه .

---

(١) النطرون : هذا اسم لواد فى صحراء مصر والذى بالشام هو اللاطرون موضع قرب دمشق وقد حرف الاسم إلى النطرون .

(٢) الآية ١٣٤ من سورة آل عمران

(٣) مرج عيون : موضع بسواحل الشام ؛

ولقد قرأ على كتاباً مختصراً تصنيف الرازى ، يشتمل على الأرباع الأربعة من الفقه ، ونزل يوماً على عادته ، ومد الطعام بين يديه ثم عزم على النهوض ، فقيل له إن وقت الصلاة قد قرب ، فعاد إلى الجلوس وقال : نصلى وننام . ثم جلس يتحدث حديث متضجر ، وقد خلا المكان إلا ممن لزم ، فتقدم إليه مملوك كبير محترم عنده ، وعرض عليه قصة لبعض المجاهدين ، فقال له : أنا الآن ضجران ، أخرها ساعة . فلم يفعل ، وقدم القصة إلى قريب من وجهه الكريم بيده ، وفتحها بحيث يقرؤها ، فوقف على الاسم المكتوب فى رأسها فعرفه فقال : رجل مستحق . فقال : يوقع المولى له . فقال : ليس الدواة حاضرة الآن . وكان رحمه الله جالساً فى باب الخركاه[1] بحيث لا يستطيع أحد الدخول إليها ، والدواة فى صدرها ، والخركاه كبيرة ، فقال له المخاطب : هذه الدواة فى صدر الخركاه . وليس لهذا معنى إلا أمره إياه بإحضار الدواة لا غير ، فالتفت — رحمه الله — فرأى الدواة ، فقال : والله لقد صدق ، ثم امتد على يده اليسرى ، ومد يده اليمنى فأحضرها ووقع له ، فقلت : قال الله تعالى فى حق نبيه صلى الله عليه وسلم : «وإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ[2]» وما أرى المولى إلا قد شاركه فى هذا الخلق . فقال : ما ضرنا شيء ، قضينا حاجته وحصل الثواب .

ولو وقعت هذه الواقعة لآحاد الناس وأفرادهم لقام وقعد ، ومن

---

(١) الخركاه : لفظ فارسى الأصل يطلق على نوع من الخيام تتكون الواحدة منها من قطع من الخشب تكون شكل قبة مغطاة بقطع من اللبد .
Dozy Supp. Dict. Arabe

(٢) الآية ٤ من سورة ن .

الذى يقدر أن يخاطب أحداً هو تحت حكمه بمثل ذلك ! . وهذا غاية الإحسان والحلم ، والله لا يضيع أجر المحسنين .

ولقد كانت طراحته تداس عند التزاحم عليه لعرض القصص وهو لا يتأثر لذلك ، ولقد نفرت يوماً بغلتى من الجمال وأنا راكب فى خدمته، فزحمت وركه حتى آلمته وهو يبتسم — رحمه الله — .

ولقد دخلت بين يديه فى يوم ريح مطير إلى القدس الشريف ، وهو كثير الوحل ، فنضحت البغلة عليه من الطين حتى أتلفت جميع ما كان عليه وهو يبتسم ، وأردت التأخر عنه بسبب ذلك فما تركنى .

ولقد كان يسمع من المستغيثين والمتظلمين أغلظ ما يمكن أن يسمع ويلقى ذلك بالبشر والقبول . وهذه حكاية يندر أن يصدر مثلها :

وذلك ؛ أنه كان قد اتجه أخو ملك الإفرنج — خذلهم الله — إلى يافا[1] ، فإن العسكر كان قد رحل عنهم وبعد وتراجع إلى النطرون وهو مكان بينه وبين يافا للعسكر مرحلتان للمجد وثلاثة ممتادة ، وجمع — رحمه الله — العسكر ومضى إلى قيسارية[2] يلتقى نجدتهم عساه يبلغ منهما غرضاً ، وعلم الإفرنج الذين كانوا بيافا ذلك ، وكان بها الانكتار ومعه جماعة ، فجهز معظم من كان عنده فى المراكب إلى قيسارية ، ورأى النجدة قد وصلت إلى البلد واحتمت به ، وعلم أنه لا ينال منهم غرضه .

---

(١) يافا : مدينة على ساحل البحر الأبيض المتوسط بين قيسارية وعكا من أعمال فلسطين . ( مراصد الاطلاع تحقيق على البجاوى )

(٢) قيسارية : بلدة على ساحل البحر الأبيض المتوسط من أعمال فلسطين .
( معجم البلدان ج ١٦ ، ص ٤٢١ ، ط بيروت )

فسار من ليلته فى أول الليل إلى آخره حتى أتى يافا صباحاً ، والانكتار فى سبعة عشر فارساً وثلاثمائة راجل — نازلا خارج البلد فى خيمة له ، فصبحه العسكر صباحاً ، فركب اللعون وكان شجاعاً باسلا ، صاحب رأى فى الحرب ، وثبت بين يدى العسكر ، ولم يدخل البلد ، فاستدار العسكر الإسلامى بهم إلا من جهة البحر ، وتعبى العسكر تعبئة القتال

وأمر السلطان العسكر بالحملة انتهازا للفرصة ، فأجابه بعض الأكراد بكلام فيه خشونة تعتب لعدم التوفير فى أقطاعه ، فعطف — رحمه الله — عنان فرسه كالمغضب ، لعلمه أنهم لايعملون فى ذلك اليوم شيئاً ، وتركهم وانصرف راجعاً ، وأمر بخيمته التى كانت منصوبة أن قلعت ، وانفضوا متيقنين أن السلطان فى ذلك اليوم ربما صلب جماعة . ولقد حكى لى ولده الملك الظاهر — أعز الله أنصاره — أنه خاف منه فى ذلك اليوم ، حتى أنه لم يتجاسر أن يقع فى عينيه ، مع أنه حمل فى ذلك اليوم وأوغل ، ولم يزل سائراً حتى نزل بيازور ، وما من الأمراء إلا من يرعد خيفة ، ومن يعتقد أنه مأخوذ مسخوط عليه ، قال : ولم تحدثنى نفسى بالدخول عليه خيفة منه حتى استدعانى . قال : فدخلت عليه ، وقد وصله من دمشق المحروسة فاكهة كثيرة ، فقال : اطلبوا الأمراء حتى يأكلوا شيئاً . قال : فسرى عنى ما كنت أجده . وطلبت الأمراء فحضروا وهم خائفون ، فوجدوا من بشره وانبساطه ما أحدث لهم الطمأنينة والأمن والسرور ، وانصرفوا على عزم الرحيل كأن لم يجر شىء أصلا .

فانظر إلى هذا الحلم الذى لا يتأتى فى مثل هذا الزمان ، ويحكى عمن تقدم من أمثاله — رحمة الله عليه .

## ذكر

### محافظته على أسباب المروءة

قال النبي صلى الله عليه وسلم « بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكارمَ الأخلاق » .

وكان — صلى الله عليه وسلم — إذا صافحه رجل لا يترك يده ، حتى يكون الرجل هو التارك الذى يبدأ بذلك .

ولقد كان السلطان كثير المروءة ، ندى اليد ، كثير الحياء ، مبسوط الوجه لمن يرد عليه من الضيوف ، لا يرى أن يفارقه الضيف حتى يطعم عنده ، ولا يخاطبه بشيء إلا وينجزه ، وكان يكرم الوافد عليه وإن كان كافراً ، ولقد وفد عليه البرنس صاحب أنطاكية[1] ، فما أحس به إلا وهو واقف على باب خيمته ، بعد وقوع الصلح فى شهر شوال سنة ثمان وثمانين وخمسمائة ، فعند منصرفه من القدس إلى دمشق عرض له فى الطريق وطلب منه شيئاً فأعطاه العمق[2] — وهى بلاد كان أخذها منه عام فتح الساحل ، وهو سنة أربع وثمانين .

(١) أنطاكية : مدينة من أمهات الثغور الشامية ، كانت بها مملكة الروم ، وتمتاز بالنزاهة والحسن وطيب الهواء وكثرة الفواكه والخيرات ، شكلها كنصف دائرة ولها سور به ٣٦٠ برجا ، والسور يصعد مع الجبل الى قمته فتتم دائرة ، وفى رأس الجبل قلعة ، وللسور خمسة أبواب .

( معجم البلدان ج ٣ ، ص ٢٦٦ ، ط بيروت )

(٢) العمق : كورة بنواحى حلب بالشام .

( معجم البلدان ج ١٤ ، ص ١٥٦ ، طبع بيروت )

ولقد رأيته وقد دخل عليه صاحب صيدا بالنّاصِرَة فاحترمه وأكرمه وأكل معه الطعام ، ومع ذلك عرض عليه الإسلام ، فذكر له طرفاً من محاسنه ، وحثه عليه .

وكان يكرم من يرد عليه من المشايخ وأرباب العلم والفضل ، وذوى الأقدار ، وكان يوصينا بأن لا نغفل عمن يجتاز بالخيم من المشايخ المعروفين ، حتى يحضرهم عنده وينالهم من إحسانه .

ولقد مر بنا سنة أربع وثمانين وخمسمائة رجل جمع بين العلم والتصوف ، وكان من ذوى الأقدار ، وأبوه صاحب توريز[1] فأعرض هو عن فن أبيه ، واشتغل بالعلم والعمل ، وحج ووصل زائراً لبيت الله المقدس ، ولما قضى لبانته منه ورأى آثار السلطان — رحمه الله — فيه ، وقع له زيارته ، فوصل إلينا ، إلى المعسكر المنصور ، فما أحسست به إلا وقد دخل على فى الخيمة ، فلقيته ورحبت به ، وسألته عن سبب ذلك ووصوله ، فأخبرنى بذلك وأنه يؤثر زيارة السلطان لما رأى له من الآثار الحميدة الجميلة ، فعرفت السلطان بذلك فى ليلة وصول هذا الرجل فاستحضره وروى عنه حديثاً ، ثم انصرفنا وبات عندى فى الخيمة ، فلما صليت الصبح ، أخذ يودعنى فقبحت له السير بدون وداع السلطان ، فلم يلتفت ولم يَلْوِ على ذلك ، وقال : قد قضيت حاجتى

(١) توريز : أو تبريز كما جاء فى اللباب ، وهى أشهر بلدة بأذربيجان ، وتوريز تسمية العامة لها .

( معجم البلدان ج ٥ ، ص ١٣ ، ط بيروت )

منه ولا غرض لى فيما عدا رؤيته وزيارته ، وانصرف من ساعته ، ومضى على ذلك ليال ، فسأل السلطان عنه فأخبرته بفعله ، فظهر عليه آثار الغضب ، كيف لم أخبره برَوَاحِه ، وقال : كيف يطرقنا مثل هذا الرجل وينصرف عنا من غير إحسان يمسه منا ؟ وشدد النكير على فى ذلك ، فما وجدت بدا من أن أكتب كتاباً إلى محيي الدين[1] قاضي دمشق ، كلفته فيه السؤال عن حال الرجل ، وإيصال رقعة كتبتها إليه طى كتابى ، أخبره فيها بإنكار السلطان رواحه من غير اجتماعه به ، وحسنت له فيها العود ، وكان بينى وبينه صداقة تقتضي مثل ذلك ، فما أحسست به إلا وقد عاد إلى ، فرحب به السلطان وانبسط معه ، وأمسكه أياما ثم خلع عليه خلعة حسنة ، وأعطاه مركبا[2] لائقاً وثيابا كثيرة يحملها إلى بيته وأتباعه وجيرانه ، وانصرف عنه وهو أشكر الناس وأخلصهم دعاءً لأيامه .

ولقد رأيته وقد مثل بين يديه أسير إفرنجى قد أصابه كرب ، بحيث أنه ظهرت عليه أمارات الخوف والجزع ، فقال للترجمان : من أى شيء يخاف ؟ فأجرى الله على لسانه أنه قال : كنت أخاف قبل أن أرى هذا الوجه ، فبعد رؤيتى له ، وحضورى بين يديه ، أيقنت أنى ما أرى إلا الخير . فرق له ، ومنّ عليه وأطلقه .

---

(١) محيي الدين قاضي دمشق : هو أبو المعالى محمد ، ابن القاضى الزكى على بن محمد القرشى ، مات سنة ٥٩٨ هـ عن ٤٨ سنة .
( النجوم الزاهرة ج ٦ ، ص ١٨١ ط دار الكتب )

(٢) فى (ب) وفى ( ج ١٢٢ ) مركوبا .

ولقد كنت راكباً فى خدمته فى بعض الأيام قباله الإفرنج ، وقد وصل بعض اليزكية ومعه امرأة شديدة التخوف ، كثيرة البكاء ، متواترة الدق على صدرها ، فقال اليزكى : إن هذه خرجت من عند الإفرنج فسألت الحضور بين يديك ، وقد أتينا بها فأمر الترجمان أن يسألها عن قصتها ،فقالت : اللصوص المسلمون دخلوا البارحة إلى خيمتى وسرقوا ابنتى ، وبت البارحة أستغيث إلى بكرة النهار ، فقال لى الملوك السلطان هو أرحم ، ونحن نخرجك إليه تطلبين ابنتك منه ، فأخرجونى إليك وما أعرف ابنتى إلا منك . فرق لها ودمعت عينه ، وحركته المروءة ، وأمر من ذهب إلى سوق العسكر يسأل عن الصغيرة من اشتراها ويدفع له ثمنها ويحضرها ، وكان قد عرف قضيتها من بكرة يومه ، فما مضت ساعة حتى وصل الفارس والصغيرة على كتفه ، فما كان إلا أن وقع نظرها عليها ، فخرت إلى الأرض تعفر وجهها فى التراب ، والناس يبكون على ما نالها ، وهى ترفع طرفها إلى السماء ولا نعلم ما تقول ، فسلمت ابنتها إليها وحملت حتى أعيدت إلى عسكرهم .

وكان لا يرى الإساءة إلى من صحبه ، وإن أفرط فى الخيانة ، ولقد أبدل فى خزائنه كيسان من الذهب المصرى ، بكيسين من الفلوس ، فما عمل بالنواب شيئاً سوى أنه صرفهم من عملهم لا غير .

ولقد دخل البرنس أرناط[1] — صاحب الكرك — مع ملك

(١) أرناط : هو أمير الكرك ، وكان اسمه قبل مجيئه إلى الشام Renauld de Chatillon
( مفرج الكروب ج ٦ ، ص ٣٨ تحقيق د . جمال الدين الشيال )

الإفرنج بالساحل لما أسرهما فى واقعة حطين فى شهور سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ، والواقعة مشهورة تجىء مشروحة فى موضعها إن شاء الله تعالى . وكان قد أمر بإحضارهما ، وكان أرناط — هذا اللعين — كافرا عظيما ، جباراً شديداً ، وكانت قد اجتازت به قافلة من مصر حين كان بين المسلمين وبينهم هدنة ، فغدرها وأخذها ، ونكل بهم ، وعذبهم ، وأسكنهم المطامير والحبوس الحرجة[1] ، وذكروا له حديث الهدنة فقال : قولوا لمحمدكم يخلصكم . فلما بلغه — رحمه الله — ذلك عنه نذر أنه متى أظفره الله به قتله بنفسه ، فلما أمكنه الله منه من ذلك اليوم ، قوى عزمه على قتله وفاءاً بنذره ، فأحضره مع الملك فشكا الملك العطش ، فأحضرله قدحاً من شراب ، فشرب منه ثم ناوله أرناط ، فقال السلطان للترجمان : قل للملك أنت الذى سقيته ، وأما أنا فما أسقيه من شرابى ، ولا أطعمه من طعامى . فقصد — رحمه الله — : أن من أكل من طعامى فالمروءة تقتضى أن لا أوذيه . ثم ضرب عنقه بيده ، وفاءاً بنذره ، وأخذ عكا وأخرج الأسرى كلهم من ضيق الأسر ، وكانوا زهاء أربعة آلاف أسير ، وأعطى كل واحد منهم نفقة يصل بها إلى بلده وأهله . هكذا بلغنى على ألسنة جماعة لأنى لم أحضر هذه الواقعة .

وكان حسن العشرة ، لطيف الأخلاق ، طيب الفكاهة ، حافظاً لأنساب العرب ووقائعهم ، عارفا بسيرهم وأحوالهم ، حافظاً لأنساب خيلهم ، عالما بعجائب الدنيا ونوادرها ، بحيث كان يستفيد محاضره

(١) فى (١) والحرجة ، والتصحيح من (ب) ومن ( ج ١٢٢ ) .

منه مالا يسمع من غيره . وكان حسن الخلق يسأل الواحد منا عن مرضه ومداواته ، ومطعمه ومشربه وتقلبات أحواله .

وكان طاهر المجلس ، لا يذكر بين يديه أحد إلا بخير السمع ، فلا يحب أن يسمع عن أحد إلا الخير ، وطاهر اللسان فما رأيته ولع بشتم قط ، وكان حسن العهد والوفاء فما أحضر بين يديه يتيم إلا وترحم على مخلفيه ، وجبر قلبه وأعطاه ، وجبر مصابه ، وإن كان له من أهله كبير يعتمد عليه سلمه إليه ، وإلا أبقى له من الخير ما يكفى حاجته ، وسلمه إلى من يعتنى بتربيته ويكفلها .

وكان لا يرى شيخاً إلا ويرق له ويعطيه ويحسن إليه ، ولم يزل على هذه الأخلاق إلى أن توفاه الله ، إلى مقر رحمته ومكان رضوانه .

فهذه نبذ من محاسن أخلاقه ، ومكارم شيمه ، اقتصرت عليها خوف الإطالة والسآمة ، وما سطرت إلا ما شاهدته ، أو أخبرنى الثقة به وحققته ، وهذا بعد ما اطلعت عليه فى زمان خدمتى له ، وهو يسير فيما اطلع عليه غيرى ممن طالت صحبته ، وتقدمت خدمته ، ولكن هذا القدر يكفى الأديب فى الاستدلال على طهارة تلك الأخلاق والخلال. وحيث نجز[1] هذا القسم فنشرع الآن فى القسم الثانى من الكتاب فى بيان تقلبات أحواله ووقائعه ، وفتوحاته فى تواريخها — قدس الله روحه ، ونور بنور رحمته ضريحه .

---

(١) فى (ا) أنجز ، وما ذكر من (ب) ومن ( ج ١٢٤ ) .

# القسم الثالث

## فى بيان تقلبات أحواله وفتوحاته فى تواريخها

### ذكر حركته إلى مصر فى الدفعة الأولى صحبة عمه أسد الدين

وكان[1] سبب ذلك أن شاوَر[2] وزير المصريين كان قد خرج عليه إنسان يقال[3] الضرغام[4] وكان يروم منصبه ومكانه ، فجمع له جموعاً كثيرة لم يكن له بها قبل ، وغلب عليه وأخرجه من القاهرة ، وقتل ولده ، واستولى على المكان وولى الوزارة .

---

(١) تكملة من (ب) ومن ( ج ٢٤ ب ) .

(٢) شاور : هو شاور بن مجير بن نزار السعدى ، أبو شجاع ، ولاه ابن رزيك إمرة الصعيد فتمكن ، وكان شهما شجاعا ، ذا هيبة ، فحشد وجمع ووثب على مملكة الديار المصرية وظفر بالعادل رزيك بن الصالح طلائع وزير العاضد فقتله ، ووزر بعده . فلما خرج عليه ضرغام فر إلى الشام فأكرمه نور الدين وأعانه على عوده إلى منصبه كما سبق . وقد وثب عليه جرديك ، النورى بأمر أسد الدين شيركوه فقتله سنة ٥٦٤ ﻫ .

( شذرات الذهب لابن العماد الحنبلى )

(٣) تكملة من (ب) وفى ( ج ٢٤ ب ) .

(٤) الضرغام : هو ضرغام بن عامر اللخمى ( الوزير الزنجى ) وقد نازع شاور الوزارة ( فى عهد العاضد ) واستعان بأمورى الصليبي ملك بيت المقدس آنئذ ضد خصمه شاور الذى استعان بنور الدين محمود . وقد استطاع أسد الدين شيركوه قائد نور الدين الذى صحب شاور أن يهزمه هو وأنصاره عند بلبيس . ثم طارداه إلى القاهرة حيث قتله العامة عند مشهد السيدة نفيسة .

وكانت عادة المصريين أنه إذا غلب شخصٌ صاحبَ المنصب ؛ وعجز عن دفعه وعرفوا عجزه وقّموا للقاهر منهم ، ورتبوه ومكنوه ، فإن قوتهم إنما كانت بعسكر وزيرهم ، وهو ملقب عندهم بالسلطان ، وما كانوا يرون المكاشفة ، وقواعدهم مستقرة من أول زمانهم على هذا المثال .

فلما قُهر شاور وأخرج من القاهرة اشتد فى طلب الشام ، قاصداً خدمة نورالدين بن زَنْـكى ، مستصرخاً به ، مستنصراً على أعدائه بعسكره، فتقدم نور الدين إلى أسد الدين شِيرِكُوه بالخروج إلى مصر المحروسة ، قضاءاً لحق الوافد المستصرخ ، وحفظاً للبلاد ، وتطلعاً إلى أحوالها ، وذلك فى شهور سنة ثمان وخمسين وخمسمائة ، فتأهب أسد الدين شيركوه وسار إلى مصر فاستصحبه معه — رحمه الله — عن كراهية منه ، لمكان افتقاره إليه ، وجعله مقدم عسكره وصاحب رأيه ، وساروا حتى وصلوا إلى مصر ، وشاور معهم ، فى الثانى من جمادى الآخرة سنة ثمان المذكورة .

وكان لوصولهم إلى مصر وقع عظيم ، وخافه أهل مصر ، ونصر شاور على خصمه ، وأعاده إلى منصبه ومرتبته ، وقرر قواعده ، واستقر أمره ، وشاهد البلاد وعرف أحوالها ، وعاد منها وقد غرس فى قلبه الطمع فى البلاد ، وعرف أنها بلاد بغير رجال ، تمشى الأمور فيها بمجرد الإيهام والمحال .

وكان ابتداء رحيله[1] عنها متوجها إلى الشام فى السابع من ذى الحجة

---

(١) فى (ب) وفى ( ج ١٢٥ ) رحيله . وفى ( ا ) رحلته .

سنة ثمانٍ المذكورة ، وكان لا يفصل أمراً ولا يقرر حالا إلا بمشورته ورأيه ، لما لاح له من آثار الإقبال والسعادة والفكرة الصحيحة ، واقتران النصر بحركاته وسكناته ، فأقام فى الشام مدبراً لأمره ، مفكراً فى كيفية رجوعه إلى البلاد المصرية ، محدثاً بذلك نفسه ، مقرراً قواعد ذلك مع الملك العادل نور الدين زنكى إلى سنة اثنتين وستين وخمسمائة .

## ذكر

### عودته إلى مصر فى الوقعة الثانية وهى معروفة بوقعة البابين

ولم يزل أسد الدين يتحدث بذلك بين الناس حتى بلغ شاور ، فداخله الخوف على البلاد من الأتراك ، وعلم أن أسد الدين قد طمع فى البلاد ، وأنه لابد له من قصدها ، فكاتب الإفرنج وقرر معهم أنهم يجيئون البلاد ، ويمكنهم تمكيناً كليا ، ويعينونه على استئصال أعدائه ، بحيث يستقر قلبه فيها .

وبلغ ذلك أسد الدين والملك العادل نورالدين ، فاشتد خوفهم على مصر إن ملكها الكفار ، واستولوا على البلاد كلها ، فتجهز أسد الدين وأنفذ نور الدين معه العساكر ، وألزم السلطان — رحمه الله — المسير معه على كراهية منه لذلك . وكان توجههم فى اثنىعشر ربيع الأول سنة اثنتين وستين وخمسمائة ، وكان وصولهم إلى البلاد المصرية مقارناً لوصول الإفرنج إليها .

واتفق شاور مع الإفرنج على أسد الدين ، والمصريون بأسرهم ،

وجرت بينهم حروب كثيرة ، ووقعات شديدة ، وانفصل الإفرنج عن الديار المصرية ، وانفصل أسد الدين .

وكان سبب عود الإفرنج أن نور الدين جرد العساكر إلى بلاد الإفرنج وأخذ المُنَيْطِرَة[1] وعلم الإفرنج بذلك ، فخافوا على بلادهم وعادوا . وكان سبب عود أسدالدين ضعف عسكره بسبب مواقعة الإفرنج والمصريين ، وما عانوه من الشدائد ، وعاينوه من الأهوال ، وما عاد حتى صالح الإفرنج على أن ينصرفوا كلهم من مصر .

وعاد إلى الشام فى بقية السنة ، وقد انضم إلى قوة الطمع فى البلاد شدة الخوف عليها من الإفرنج ، لعلمه أنهم قد كشفوها كما كشفها ، وعرفوها من الوجه الذى عرفه ، فأقام على مضض وقلبه مقلقل ، والقضاء يجره إلى شيء قد قدر لغيره وهو لا يشعر بذلك .

## ذكر

### عوده إلى مصر فى الدفعة الثالثة ، وهى التى ملكوها فيها وجرى ما جرى فى شهور سنة أربع وستين وخمسمائة

ملك نور الدين قلعة المنيطرة بعد سير أسد الدين فى رجب ، وخرب قلعة أكاف[2] بالبرية .

---

(١) المنيطره : حصن قريب من طرابلس .
( معجم البلدان جـ ٨ : ١٦٨ . ط بولاق ) .

(٢) أكاف : قلعة بالصحراء الشامية .
( الفهرس الجغرافى لطبعة ليدن من النوادر السلطانية . رقم A )

وفى رمضان منها اجتمع نورالدين وأخواه قطب الدين وزين الدين بحماة للغزاة ، وساروا إلى بلاد الإفرنج فخربوا هُونين فى شوال منها .
وفى ذى القعدة كان عود أسد الدين إلى مصر ، وكان سبب ذلك أن الإفرنج — خذلهم الله — جمعوا راجلهم وفارسهم ، وخرجوا يريدون الديار المصرية ، ناكثين لجميع ما استقر مع المصريين وأسد الدين من الصلح والقواعد ، طمعاً فى البلاد ، فلما بلغ ذلك نورالدين وأسد الدين ؛ لم يسعهما الصبر دون أن سارعا إلى قصد البلاد .

أما نور الدين فبالمال والرجال ، ولم يَسِرْ بنفسه خوفاً على البلاد من الإفرنج ، ولأنه قد حدث نظره إلى جانب المَوْصِل، بسبب وفاة زيْن الدين ابن بُكْتكين ، فإنه توفى فى ذى الحجة سنة ثلاث وستين وخمسمائة ، وتسلم ما كان فى يده من الحصون إلى قطب الدين ، ما عدا أرْبل ، فإنها كلها كانت له من أتابك زَنْكى — رحمه الله — . فحدث لنور الدين إلى ذلك الجانب الطمع بهذا السبب فسير العسكر .

وأما أسد الدين فبسيفه وملكه ، وأهله ورجاله ، ولقد قال لى السلطان — قدس الله روحه — : كنت أكْرَهَ الناس للخروج فى هذه الواقعة ، وما خرجت مع عمى باختيارى ، وهذا معنى قوله تعالى : « وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ[1] » .

وكان شاور لما أحس بخروج الإفرنج إلى مصر على تلك القاعدة ؛

---

(١) الآية ٢١٦ من سورة البقرة .

أنفذ إلى أسد الدين يستصرخه ويستنجده ، فخرج مسرعاً . وكان وصولهم إلى مصر فى أثناء ربيع الأول سنة أربع وستين وخمسمائة .

ولما علم الإفرنج وصول أسد الدين إلى مصر ؛ عن اتفاق بينه وبين أهلها ؛ رحلوا راجعين ، وعلى أعقابهم ناكصين .

وأقام أسد الدين بها يتردد إلى شاور فى الأحيان ، وكان وعدهم بمال مقابلة ما خسروه من النفقة ، فلم يوصل إليهم شيئا ، وعلقت مخاليب أسد الدين فى البلاد ، وعلم أن الإفرنج متى وجدوا فرصة أخذوا البلاد ، وترددهم إليها فى كل وقت لا يفيد ، وأن شاور يلعب بهم تارة ، وبالإفرنج تارة أخرى ، وعلموا أنه لا سبيل إلى الاستيلاء على البلاد مع بقاء شاور ، فأجمعوا أمرهم على قبضه إن خرج إليهم ، وكانوا هم يترددون إلى خدمته دون أسد الدين ، وهو يخرج فى بعض الأحيان إلى أسد الدين يجتمع به .

وكان يركب — على قاعدة وزرائهم — بالطبل والبوق والعَلَم ، فلم يتجاسر على قبضه من الجماعة إلا السلطان بنفسه ، وذلك أنه لما سار إليهم تلقاه راكبا ، وسار إلى جانبه ، وأخذ بتلابيبه ، وأمر العسكر أن أخذوا على أصحابه ففروا ، ونبهم العسكر ، وقبض على شاور ، وأنزل إلى خيمة مفردة ، وفى الحال جاءه التوقيع من المصريين على يد خادم خاص ، لابد من رأسه ، جرياً على عادتهم فى وزرائهم فى تقرير قاعدة فيمن قوى منهم على صاحبه ، فحزت رقبته وأنفذ رأسه إليهم .

وأنفذ إلى أسد الدين خلعة الوزارة فلبسها وسار ، ودخل القصر ، ورُتِّب وزيرا ، وذلك فى سابع عشر ربيع الآخر سنة أربع وستين وخمسمائة ،

ودام آمراً ناهيا والسلطان — رحمه الله — مباشر الأمور ، مقرر لها ، وزمام الأمر والنهي مفوض إليه ، لمكان كفايته ودرايته ، وحسن رأيه وسياسته ، إلى الثاني والعشرين من جمادى الآخرة من السنة المذكورة .

## ذكر

## وفاة أسد الدين ومصير الأمر إلى السلطان

ذلك أن أسد الدين كان كثير الأكل ، شديد المواظبة على تناول اللحوم الغليظة ، وتتواتر عليه التخم والخوانيق ، وينجو منها بعد مقاساة شدة عظيمة ، فأخذه مرض شديد ، واعتراه خانوق عظيم ، فقتله في الثاني والعشرين من جمادى الآخرة .

وفوّض الأمر بعده إلى السلطان ، واستقرت القواعد ، واستتبت الأحوال ، على أحسن نظام ، وبذل المال ، وملك الرجال ، وهانت عنده الدنيا فملكها ، وشكر نعمة الله عليه ، فتاب من الخمر ، وأعرض عن أسباب اللهو ، وتقمص بلباس الجد والاجتهاد ، وما عاد عنه ولا ازداد إلا جدا ، إلى أن توفاه الله إلى رحمته .

ولقد سمعت منه يقول : لما يسر الله لي الديار المصرية ؛ علمت أنه أراد فتح الساحل لأنه أوقع ذلك في نفسي . وفي حين استتب له الأمر مازال يشن الغارات على الإفرنج إلى ( أن ملك[1] ) الكرك والشوبك وبلادهما[2] .

(١) التكملة من النجوم الزاهرة ج ٦ . ص ١٤ . ط دار الكتب .

(٢) في ( ا ) بلادها والتصحيح من ( ج ٢٩ ا ) .

وغشى الناس من سحائب الأفضال والنعم مالم يؤرخ عن غير تلك الأيام . وهذا كله وهو وزير تابع للقوم ، ولكنه مقو لمذهب السنة ، غارس فى أهل البلا العلم والفقه ، والتصوف والدين ، والناس يهرعون إليه من كل صوب ، ويفدون عليه من كل جانب ، ولا يخيب قاصداً ، ولا يعدم وافداً .

ولما عرف نور الدين استقرار أمر[1] السلطان بمصر ، أخذ حمص من نواب أسد الدين شيركوه[2] ، وذلك فى رجب من سنة أربع وستين .

## ذكر

### قصد الإفرنج دمياط حرسها الله تعالى

ولما علم الإفرنج ما جرى من المسلمين وعسا كرهم ؛ وما تم للسلطان من استقامة الأمور فى الديار المصرية ؛ خافوا أن يملك بلادهم ، ويخرب ديارهم ، ويقلع[3] آثارهم ، لما حدث له من القوة والملك .

فاجتمع الإفرنج والروم جميعاً وحدثوا أنفسهم بقصد الديار المصرية والاستيلاء عليها وملكها ، ورأوا قصد دمياط ، لتمكن القاصد لها من البر والبحر ، ولعلمهم أنها إن حصلت لهم حصل لهم مغرس قدم ،

---

(١) تكملة من ( ج ١٢٩ ا ) وهى ساقطة من ( ا ) .

(٢) تكملة من النجوم الزاهرة جـ ٦ . ص ١٤ . ط دار الكتب .

(٣) بالنجوم الزاهرة جـ ٦ . ص ١٤ . يقطع .

فاستصحبوا المنجنيقات والدبابات ، والجَرُوخ [1] وآلات الحصار وغير ذلك ، ولما سمع إفرنج الشام بذلك اشتد أمرهم ، فسرقوا حصن عكا من المسلمين وأسروا صاحبها ، وكان مملوكا لنور الدين يسمى خطلُخ [2] العلم دار ، وذلك فى بيع الآخر منها .

ولما رأى نور الدين ظهور أمر الإفرنج وبلغه نزولهم على دمياط ، قصد شغل قلوبهم ، فنزل على الكَرَك محاصراً لها فى شعبان من هذه السنة ، فقصده إفرنج الساحل فرحل عنها ، وقصد لقاءهم فلم يقف لهم على أثر .

ثم بلغه وفاة مجد الدين بن الداية [3] بحلب ، وكانت وفاته فى شهر رمضان سنة خمس وستين ، فاشتغل قلبه لأنه كان صاحب أمره ، فعاد يطلب الشام فبلغه خبر الزلزلة [4] بحلب التى أخربت كثيراً من البلاد

---

(١) الجروخ : جمع ( جرخ ) وهو آلة حربية تستعمل لرمى السهام والحجارة والنفط المشتعل . والقائم على تشغيلها يسمى جرخى .
( الروضتين لأبى شامة ج ١ . تحقيق د . محمد حلمى أحمد ) .
و (Dozy. Supp. Dict. Arabe)

(٢) فى ( ا ) ( خلطخ ) وهو تصحيف . وفى ( ج ٢٩ ب ) ختلغ . وفى (ب) والنجوم الزاهرة ج ٢٦ . خطلمح كما ذكر .

(٣) مجد الدين بن الداية : هو مجد الدين أبو بكر بن الداية ، من مقدمى رجال نور الدين الذين اعتمد عليهم فى شئون دولته ، وكان ينوب عنه فى حلب فى بعض المناسبات ، توفى سنة ٥٦٥ هـ أثناء حصار نور الدين للكرك .
( الروضتين تحقيق د . محمد حلمى أحمد )
و (النجوم الزاهرة ج ٦ ، ص ١٥ ، ط دار الكتب)

(٤) بالنجوم الزاهرة ج ٦ ص ١٥ ( الزلازل )

المذكورة ، فصار يطلب حلب ، فبلغه موت قطب الدين مودود[1] بالموصل ، وكانت وفاته فى الثانى والعشرين من ذى الحجة من السنة المذكورة ، وبلغه الخبر وهو بتل باشر[2] ، فسار من ليلته طالبا لبلاد الموصل .فلما علم السلطان شدة قصد العدو دمياط ؛ أنفذ إلى البلد ، وأودعه من الرجال وأبطال الفرسان والميرة وآلات السلاح ما أمن معه عليه ، ووعد المقيمين فيه بإمدادهم بالعساكر والآلات وإبعاد العدو عنهم إن نزل عليهم .

ثم نزل الإفرنج فى التاريخ المذكور ، واشتد زحفهم عليها ، وقتالهم لها ، وهو يشن الغارات عليهم من خارج ، والعساكر تقاتلهم من داخل ، ونصر الله المسلمين وأيدهم ، وحسن قصدهم فى نصر دين الله ، وأسعدهم وأنجدهم ، حتى بان للإفرنج الخسران ، وظهر على الكفر الإيمان ، ورأوا أنهم ينجون برؤوسهم ، ويسلمون بنفسهم ، فرحلوا خائبين خاسرين ، فحرقت مناجيقهم ، ونهبت ، وقتل منهم خلق كثير ، وسلم البلد بحمدالله ومنه عن قصدهم ، وظهر بتوفيق الله فل حدهم ، واستقرت قواعد السلطان .

---

(١) زيادة من المرجع السابق ، ص ١٥

(٢) تل باشر : قلعة حصينة وكورة واسعة فى شمالى حلب بينها وبين حلب مسيرة يومين وأهلها نصارى أرمن ، ولها ربض وأسواق وهى عامرة آهلة .
( معجم البلدان ج ٥ ، ص ٤٠ ، ط بيروت )

# ذكر
## طلبه والده

ثم أنفذ فى طلب والده ، ليكمل السرور به ويتم الحبور . وتجرى القصة مشاكلة لما جرى للنبي يوسف — صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الأنبياء أجمعين[١] .

فوصل والده نجم الدين إليه فى أثناء جمادى الآخرى[٢] من سنة خمسة وستين وسلك معه من الأدب ما كان عادته ، وألبسه الأمر كله فأبى أن يلبسه ، وقال : ياولدى ما اختارك الله لهذا الأمر إلا وأنت كفؤ له ، ولا ينبغى أن يغير موقع السعادة . فحكمه فى الخزائن بأسرها ، ولم يزل السلطان وزيراً محكما حتى مات العاضد — أبو محمد عبد الله ، وبه ختم أمر المصريين .

وأما نور الدين فإنه أخذ الرقة فى المحرم سنة ست وستين ، وسار منها إلى نَصِيبين[٣] فأخذها فى بقية الشهر ، وأخذ سِنْجار فى ربيع الآخر منها ، ثم قصد الموصل وقصد أن لا يقاتلها ، فعبر بعسكره من

---

(١) ورد بالنجوم الزاهرة ج ٦ : ٦ ط دار الكتب أن وصوله كان فى رجب .

(٢) الرقة : مدينة مشهورة على نهر الفرات من بلاد الجزيرة ( معجم البلدان ج ٩ : ٥٨ — ٥٩ ، ط بيروت )

(٣) نصيبين : مدينة عامرة من بلاد الجزيرة الفراتية ( المرجع السابق ج ١٩ : ٢٨٨ )

من مخاضة بلد ، وسار حتى خيم قبالة الموصل على تل يقال له الحصن[1] ، وراسل ابن أخيه عز الدين غازى صاحب الموصل ، وعرفه صحة قصده فصالحه ، ودخل الموصل فى ثالث عشر جمادى الأولى، وفر صاحبها منها وزوجه ابنته ، وأعطى عماد الدين ابن أخيه سنجار ، وخرج من الموصل قاصدا نحو الشام ، فدخل حلب فى شعبان من هذه السنة .

## ذكر

### موت العاضد

وكان موته فى يوم الاثنين العاشر من المحرم سنة سبع وستين ، واستقر الملك للسلطان ، وكان خطب لبنى العباس فى أواخر أمر العاضد وهو حى ، وكانت الخطبة ابتداؤها (المستضىء بأمر الله[2]) ، واستمرت القواعد على الاستقامة ، وهو كلما استولى على خزانة من المال وهبها ، وكلما فتح له خزائن ملك أنهبها ولا يبقى لنفسه شيئاً .

وشرع السلطان فى التأهب للغزاة وقصد بلاد العدو وتعبئة الأمر لذلك ، وتقرير قواعده .

---

(١) الحصن : موقع بين حلب والرقة

( المرجع السابق ج ٧ : ٢٦٤ )

(٢) المستضىء بأمر الله : هو أبو محمد ، الحسن بن يوسف ، كان من أحسن الخلفاء سيرة ، حليما ، شفوقا على الرعية . أسقط المكوس والضرائب فى أيام خلافته . توفى ببغداد بعد حكم دام تسع سنوات سنة ٥٧٥ هـ وعمره ٣٦ سنة

( النجوم الزاهرة ج ٦ : ٨٥ ط دار الكتب )

وأما نور الدين فإنه عزم على الغزاة ، واستدعى صاحب الموصل ابن أخيه فوصل بالعساكر إلى خدمته ، وكانت غزاة[١] عرقا[٢] ، وأخذها في المحرم سنة سبع وستين .

# ذكر

## أول غزوة غزاها من الديار المصرية

ولم يزل على قدم بسط العدل، ونشر الإحسان، ( وإفاضة الإنعام )[٣] على الناس إلى سنة ثمان وستين ، فعند ذلك خرج بالعساكر يريد بلاد الكرك[٤] والشوبك[٥] وإنما بدأ بها لأنها كانت أقرب إليه ، وكانت في الطريق تمنع من يقصد الديار المصرية ، وكان لا يمكن أن تصل قافلة حتى يخرج هو بنفسه يُعبرها بلاد العدو ، فأراد توسيع الطريق

---

(١) فى ج (٣١ أ) غزوة

(٢) فى (أ) عرقا وهو تصحيف . والتصحيح من (ب) ، ومن (ج ٣١ أ) . وقد ذكرها صاحب معجم البلدان (عرقة) : وهى بلدة فى شرقى طرابلس الشام ، وهى آخر عمل دمشق .

( معجم البلدان ج ١٣ : ١٠٩ ط بيروت )

(٣) فى (أ) وإقامة الإحسان . وهنا اضطراب فى السياق . وما ذكر وهو الأنسب من (ب) ومن ( ج ٣١ ب ) .

(٤) الكرك : قلعة حصينة جدا فى طرف الشام من نواحى البلقاء فى جبالها ؛ بين أيلة وبحر القلزم ( البحر الأحمر ) وبيت المقدس ، وهى على جبل عال.

( معجم البلدان ج ١٦ : ٤٥٣ ط بيروت )

(٥) الشوبك : بلد صغير كثير البساتين ، وغالب ساكنيه من النصارى ، وبه قلعة حصينة بين عمان وأيلة قرب الكرك .

( النجوم الزاهرة ج ٦ : ١٤٤ ط دار الكتب )

وتسهيله ، لتتصل البلاد بعضها ببعض ، وتسهل على السابلة ، فخرج قاصداً لها فحاصرها ، وجرى بينه وبين الإفرنج وقعات ، وعاد عنها ولم يظفر منها بشيء فى تلك الواقعة ، وحصل ثواب القصد .

وأما نور الدين فإنه فتح مَرْعش[1] فى ذى القعدة من هذه السنة ، وأخذ بهسنا[2] فى ذى الحجة منها .

## ذكر

## وفاة والده نجم الدين

ولما عاد السلطان من غزواته بلغه قبل وصوله إلى مصر وفاة أبيه نجم الدين ، فشق عليه ذلك حيث لم يحضر وفاته ، وكان سبب وفاته وقوعه عن الفرس ، وكان رحمه الله شديد الركض ، ولعاً بلعب الكرة ، بحيث من رآه يلعب بها يقول : ما يموت إلا من وقوعه عن ظهر الفرس . وكانت وفاته فى شهور سنة تسع وستين .

---

(١) مرعش : مدينة ساحلية بين الشام وبلاد الروم ( آسيا الصغرى ) يحيط بها سوران وخندق ، وقد أحدثها الخليفة هارون الرشيد ، وفى وسطها حصن يسمى المروانى كان قد بناه مروان بن محمد الخليفة الأموى ، ولهارِبض يعرف بالهارونية .

( معجم البلدان ج ١٧ : ١٠٧ ط بيروت )

(٢) بهسنا : جاء فى (أ) بهسا ، وفى (ب) بهنسى ، وبالرجوع إلى نسخة ( ج ٣١ ب ) وإلى ( النجوم الزاهرة ج ٦ ) وجد أنها بهسنا : وهى من حصون الشام الشمالية ، وهى قلعة مرتفعة حصينة لها بساتين ونهر ، وهى إلى الشمال من عينتابه .

( الفهرس الجغرافى لنسخة النوادر السلطانية ط ليدن رقم B )

ورأى السلطان قوة عسكره ، وكثرة عدد إخوته وقوة بأسهم ، وكان بلغه أن باليمن إنسانا استولى عليها ، وملك حصونها ، وهو يخطب لنفسه ، يسمى بعبد النبى بن مهدى[1] ، ويزعم أنه ينتشر ملكه فى الأرض كلها ، ويستتب الأمر له ، فرأى أن يسير إليها أخاه الأكبر شمس الدولة الملك المعظم تورا نشاه[2] ، وكان كريما أريحياً حسن الأخلاق ، سمعت منه — رحمه الله — الثناء على كرمه ، وحسن أخلاقه ، وترجيحه على نفسه .

وكان توجهه إليها فى أثناء رجب سنة تسع وستين ، فمضى إليها وفتح الله على يديه ، وقتل الخارجى الذى كان بها ، واستولى على معظمها ، وأعطى وأغنى خلقاً كثيراً .

---

(١) عبد النبى بن مهدى : هو على بن مهدى ، أبو الحسن ، المعروف بعبد النبي صاحب زبيد باليمن ، كان قطع الخطبة العباسية ، وكان ظالما فاتكا ، فاستأذن صلاح الدين ، نور الدين فى أن يسير إليه فأذن له ، فسير إليه أخاه شمس الدولة تورانشاه فأسره وقتله بعد ذلك ، وملك زبيد وأعاد فيها الخطبة العباسية وذلك فى سنة ٥٦٩ هـ .
( النجوم الزاهرة ج ٦ : ٦٩ ط دار الكتب )

(٢) شمس الدولة الملك المعظم تورانشاه : أخو صلاح الدين الأيوبى ، له نشاط حربى أيام سلطنة أخيه صلاح الدين ، وقد أقطعه عيذاب وقوص سنة ٥٦٥ هـ ، ثم سيره لفتح النوبة سنة ٥٦٨ هـ ثم لفتح زبيد باليمن كما سبق ذلك ، وعاد من اليمن سنة ٥٧١ هـ إلى دمشق وهو غير راض عن حاله ، وبقى حتى أرسله صلاح الدين نائبا عنه فى الإسكندرية سنة ٥٧٦ هـ فلم يقنع بذلك ، ومرض فى نفس السنة وتوفى ، ونقل إلى دمشق ودفن بها .
( الروضتين تحقيق د . محمد حلمى أحمد ) و ( النجوم الزاهرة ج ٦ )

## ذكر

### وفاة نور الدين محمود بن زنكى رحمه الله

وكانت وفاته بسبب خوانيق اعترته أيضاً ، عجز الأطباء عن علاجها ، وتوفى يوم الأربعاء فى الحادى والعشرين من شوال سنة تسع وستين ، وذلك فى قلعة دمشق .

وأقام مقامه ولده الملك الصالح إسماعيل[1] ، ولقد حكى لى السلطان قال : كان بلغنا عن نور الدين أنه قصدنا بالديار المصرية ، وكانت جماعة أصحابنا يشيرون بأن نكاشف ونخالف ( ونشق عصاه[2]) ، ونلقى عسكره بمصاف نرده إذا تحقق قصده ، وكنت وحدى أخالفهم ، وأقول لا يجوز أن يقال شىء من ذلك ، ولم يزل النزاع بيننا حتى وصل الخبر بوفاته .

## ذكر

### منافقة الكند بأسوان وذلك فى شهور سنة تسع وستين

والكند إنسان مقدم من المصريين كان قد نزح إلى أسوان فأقام

---

(١) هو ابن نور الدين محمود ، مات سنة ٥٧٧ هـ ، وكان لما اشتد به المرض وصف له الحكماء قليل خمر فقال : لا أفعل حتى أسأل الفقهاء ، فأفتوه بالجواز فلم يقبل وقال : إن الله تعالى قرب أجلى ، أيؤخره بشرب الخمر ؟ . قالوا : لا ! فقال : فو الله لا لقيت الله وقد فعلت ما حرم على .

( النجوم الزاهرة ج ٦ : ٨٩ — ٩٠ ط دار الكتب )

(٢) زيادة من (ب) ومن ( ج ٣٢ ب ).

بها ، ولم يزل يدبر أمره ويجمع السودان عليه ، ويخيل لهم أنه يملك البلاد ، ويعيد الدولة العبيدية[1] المصرية ، وكان فى قلوب القوم من مهاواة المصريين ما تستصغر هذه الأفعال عنده ، فاجتمع عليه خلق كثير ، وجمع وافر ، وقصدرا قوص[2] وأعمالها ، وانتهى خبره إلى السلطان ، فجرد له عسكراً عظيما شاكى السلاح من الذين ذاقوا حلاوة [ البلاد ] المصرية ، وخافوا على فوت ذلك منهم .

وقدم عليهم أخاه الملك العادل سيف الدين ، وسار بهم حتى أتى القوم فلقيهم بعصاف فكسرهم ، وقتل منهم خلقا عظيما ، واستأصل شأفتهم ، وأخمد ثائرتهم ، وذلك فى السابع من صفر سنة سبعين ، واستقرت قواعد الملك ، واستقرت أموره ، ولله الحمد والمنّة .

## ذكر

### قصد الإفرنج ثغر الأسكندرية — حرسها الله تعالى .

وذلك أن الإفرنج لما علموا تغيرات الأحوال بالديار المصرية وتقلبات الدول بها ؛ داخلهم الطمع فى البلاد ، وجردوا عساكرهم فى البحر ،

---

(١) زيادة من النجوم الزاهرة ج ٦ : ٢٤ ط دار الكتب .

(٢) قوص : كانت قاعدة لإقليم يعرف بالأعمال القوصية منذ عهد الفاطميين إلى آخر أيام المماليك ، وقد اندمجت الأعمال القوصية كلها بما فيها مدينة قوص أيام الحكم العثمانى فى مدينة جرجا . ولما أنشئت مدينة قنا سنة ١٨٣٣ م تبعت لها مدينة قوص وجعلت قاعدة لأحد أقسام هذه المديرية ولا تزال قوص قاعدة لمركز قوص بمديرية قنا .

( النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٨٣ ط دار الكتب )

وكانوا فى ستمائة قطعة ما بين شانى[1] وطرادة وبُطْسة[2] وغير ذلك، وكانوا فى ثلاثين ألفا على ما ذكر.

ونازلوا الثغر، وذلك فى أثناء صفر فى السابع منه من هذه السنة، وهى سنة سبعين، فأمده السلطان بالعساكر المنصورة، وتحرك، وأدخل الله فى قلوبهم من الخوف والرعب ما لم يمكنهم الصبر معه، وعادوا خائبين خاسرين، بعد أن ضايقوا الثغر وزحفوا عليه ثلاثة أيام، وقاتلوا قتالا شديداً، وعَصَمه الله منهم.

ولما أحسوا بحركة السلطان نحوهم؛ ما لبثوا أن خلفوا مناجيقهم وراءهم وآلتهم! فخرج أهل البلد إلى نهبها وإحراقها! وكان أمراً عظيما ومن أعظم النعم على المسلمين، وأمارة كل سعادة.

## ذكر

### خروج السلطان إلى الشام وأخذه دمشق

وأما نور الدين فإنه خلف ولده الملك الصالح إسماعيل، وكان بدمشق، وكان بقلعة حلب ابن الداية شمس الدين على، وشاذ بخت[3]

---

(١) شانى: هو نوع من أنواع المراكب الشراعية المعدة للجهاد فى البحر.
(تاريخ الإسلام السياسى للدكتور حسن ابراهيم حسن ج ١ ص ٥٢٣)

(٢) البطس: جمع (بطسه) ويراد بها المراكب الكبيرة (الأسطول).
(النجوم الزاهرة ج ٦ : ٣٦٩ ط دار الكتب)

(٣) شاذبخت: كان دزدار حلب (أى حامى قلعتها).
(مفرج الكروب ج ٢ : ١٠٨ تحقيق د. جمال الدين الشيال)

وكان قد حدث نفسه بأمور ، فسار الملك الصالح من دمشق إلى حلب ، فوصل ظاهرها ثانى المحرم ومعه سابق الدين[1] ، فخرج بدر الدين للقائه فقبض على سابق الدين .

ولما دخل الملك الصالح القلعة قبض على شمس الدين وأخيه حسن ، وأودع الثلاثة السجن ، وفى ذلك اليوم قتل ابن الخشاب أبو الفضل[2] لفتنة جرت بحلب ، ذكروا أنه قتل قبل إمساك أولاد ابن الداية بيوم لأنهم تولوا ذلك .

ولما تحقق السلطان وفاة نور الدين وكان ولده طفلا لا ينهض بأعباء الملك ؛ ولا يستقل بدفع عدو الله عن البلاد ؛ تجهز للخروج إلى الشام ، إذ هو أصل بلاد الإسلام ، فتجهز بجمع كثير من العساكر ، وخلف فى الديار المصرية من يستقل بحفظها وحراستها ، ونظم أمورها وسياستها ، وخرج هو سائرا مع جمع من أهله وأقاربه ، وهو يكاتب أهل البلاد وأمراءها .

واختلفت كلمة أصحاب الملك الصالح ، واختلفت تدابيرهم ، وخاف بعضهم من بعض ، وقبض على جماعة منهم ، وكان ذلك سبب خوف الباقين من فعل ذلك ، وسبباً لتغير قلوب الناس عن الصبي ، فاقتضى الحال أن

---

(١) سابق الدين : هو عثمان بن الداية صاحب قلعة جعبر وتل باشر
( النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٢٤ ط دار الكتب )

(٢) ابن الخشاب : هو أبو الفضل بن الخشاب كان رئيساً لقلعة حلب قتله الأمير جرديك سنة ٥٧٠ هـ على أثر فتنة قامت بحلب .

( المرجع السابق : ١٤٣ )

كاتب شمس الدين بن المقدم[1] السلطان ، ووصل البلاد مطالباً بالملك الصالح ليكون هو الذى يتولى أمره ، ويرب حاله ، فيقوم له ما اعوج من أمره ، فوصل دمشق ولم يشق عليه عصا ، ودخلها بالتسليم فى يوم الثلاثاء سلخ ربيع الآخر سنة سبعين ، وتسلم قلعتها .

وكان أول دخوله إلى دار أبيه ، واجتمع الناس إليه وفى جوابه ، وأنفق فى ذلك اليوم فى الناس مالا (طائلا[2]) ، وأظهر الفرح والسرور بالدمشقيين وأظهروا الفرح به ، وصمد القلعة واستقر قدمه فى ملكها ، فلم يلبث (أن سار[3]) فى طلب حلب ، فنازل حمص فأخذ مدينتها فى جمادى الأولى سنة سبعين ولم يشتغل بقلعتها ، وسار حتى أتى حلب ونازلها فى يوم الجمعة سلخ الشهر المذكور ، وهى الوقعة الأولى .

# ذكر

## تسيير سيف الدين أخاه عز الدين إلى لقائه

ولما أحس سيف الدين صاحب الموصل بما جرى ؛ علم أن الرجل قد

---

(١) شمس الدين بن المقدم : هو محمد بن عبد الملك بن المقدم ، كان من أكابر أمراء السلطانين نور الدين ثم صلاح الدين ، حضر جميع فتوح صلاح الدين وكان وصيا على الملك الصالح اسماعيل بعد موت والده نور الدين ، مات يوم النحر بعرفة سنة ٥٨٣ هـ بسبب ضربة سهم من أحد مماليك طاشتكين أحد أمراء الخليفة العباسى على أثر خلاف قام بينه وبين طاشتكين .

(المرجع السابق : ١٠٥)

(٢) فى (١) طويلا والتصحيح من (ج ٣٤ ب)

(٣) زيادة من (ب) ومن (ج ٣٤ ب)

استفحل أمره ، وعظم شأنه ، وعلت كلمته ، وخاف أنه إن غفل عنه استحوذ على البلاد ، واستقرت قدمه فى الملك ، وتمدى الأمر إليه ، فجهز عسكرا وافراً وجيشاً عظيما ، وقدم عليه أخاه عز الدين مسعوداً ، وساروا يريدون لقاء السلطان ، وضرب المصاف معه ردّه عن البلاد .

ولما بلغ السلطان ذلك ؛ رحل عن حلب مستهل رجب من السنة المذكورة ، عائدا إلى حماة ، وسار إلى حمص فاشتغل بأخذ قلعتها فأخذها ، ثم وصل عز الدين إلى حلب ، وانضم إليه من كان بها من العسكر ، وخرجوا بجمع عظيم .

ولما عرف هو بسيرهم ، سارحتى وافاهم فى قرون حماه[1] ، وراسلهم وراسلوه ، واجتهد أن يصالحوه فما صالحوه ، ورأوا أن المصاف ربما نالوا به الغرض الأكبر ، والمقصود الأوفر ، والقضاء يجرى إلى أمور وهم بها لا يشعرون ؛ وقام المصاف بين العسكرين بقضاء الله ؛ فانكسروا بين يديه ، وأسر جماعة منهم ، ومنّ عليهم وأطلقهم ، وذلك فى تاسع عشر رمضان سنة سبعين أيضاً .

ثم سار عقب انكسارهم ونزل على حلب ، وهى الدفعة الثانية ،

---

(١) قرون حماة : مدينة كبيرة بسوريا على جنب نهر العاصى بها قلعة حصينة .
( مراصد الاطلاع تحقيق على البجاوى )

وصالحوه على أن يأخذ المَرة[١] وكَفَرْطاب[٢] ، وأخذ بارين[٣] وذلك فى أواخر هذه السنة .

# ذكر

## مسير سيف الدين بنفسه

ولما وقعت هذه الوقعة ؛ كان سيف الدين ( غازى )[٤] على سنجار يحاصر أخاه عماد الدين ( زنكى )[٥] يقصد أخذها منه ، ودخوله فى طاعته ، وكان قد أظهر أخوه الانتماء إلى السلطان واعتصم بذلك ، واشتد سيف الدين فى حصار المكان ، وضربه بالمنجنيق حتى انهدمْ من سوره ، كثيرة ثُلَم وأشرف على الأخذ ، فبلغه وقوع هذه الوقعة فخاف أن يبلغ ذلك أخاه فيشتد أمره ، فراسله إلى الصلح فصالحه .

ثم سار من وقته إلى نصيبين ، واهتم بجمع العساكر والإنفاق فيها

---

(١) المعرة : اسم لموضعين بالشام أحدهما معرة مصرين وهى بليدة وكورة بنواحى حلب ، ومعرة النعمان وتنسب إلى النعمان بن بشير الصحابى وهى مدينة كبيرة بين حلب وحماة .

( مراصد الاطلاع تحقيق على البجاوى )

(٢) كفر طاب : بلدة بين المعرة وحلب فى برية معطشة تجمع مياه أمطارها فى صهاريج .

( معجم البلدان ج ٣ : ٧ ط بولاق )

(٣) بارين : مدينة بين حلب وحماة ، والعامة تقول عنها ( بعرين ) .

( معجم البلدان ج ٣ : ص ٣٢٥ ط بيروت )

(٤) زيادتان من النجوم الزاهرة ج ٦ : ص ٢٥ ط دار الكتب .

وسار حتى أتى الفرات ، وعبر بالبيرة[1] ، وخيم على جانب الفرات الشامى ، وراسل كمشتكين والملك الصالح حتى تستقر قاعدة يصل عليها اليهم ، ووصل كمشتكين إليه وجرت مراجعات كثيرة ، وعزم فيها إلى العود مراراً حتى استقر اجتماعه بالملك الصالح وسمحوا به ، وسار ووصل حلب ، وخرج الملك الصالح إلى لقائه بنفسه ، فالتقاه قريب القلعة ، واعتنقه وضمه إليه وبكى ، ثم أمره بالعود إلى القلعة فعاد إليها ، وسار هو حتى نزل بعين المباركة[2] ، وأقام بها مدة وعسكر حلب يخرج إلى خدمته فى كل يوم ، وصعد القلعة جريدة ، وأكل فيها خبزا ونزل وسار راحلا إلى تل السلطان ومعه الديار البكرية وجمع كثير .

والسلطان قد أنفذ فى طلب العساكر من مصر وهو يترقب وصولها ، وهؤلاء يتأخرون فى أمورهم وتدابيرهم ، وهم لا يشعرون أن فى التأخير تدبيرا حتى وصل عسكر مصر .

فسار — رحمه الله حتى أتى قرون حماه ، فبلغهم أنه قارب عسكره فأخرجوا اليزك ، وجهزوا من يكشف الأخبار فوجدوه قد وصل جريدة

---

(١) البيرة : قرب سميساط بين حلب والثغور الواقعة على حدود الروم — (آسيا الصغرى ) — وهى قلعة حصينة لها رستاق ، وهناك مدينة أخرى بهذا الاسم بين القدس ونابلس .
( معجم البلدان جـ ٢ : ط بولاق ، والنجوم الزاهرة جـ ٦ : ص٢٦ ط دار الكتب)

(٢) عين المباركة : موضع من أعمال حلب .
( الفهرس الجغرافى للنوادر السلطانية ط البدن رقم A )

إلى جباب التركمان[1] ، وتفرق عسكره يسقى فلو أراد الله نصرتهم لقصدوه في تلك الساعة ، ولكن ليقضي الله أمرا كان مفعولا ، فصبروا عليه حتى سقى خيله هو وعسكره ، واجتمعوا وتعبوا تعبئة القتال ، وأصبح القوم على مصاف ، وذلك في بكرة الخميس العاشر من شوال سنة إحدى وسبعين .

فالتقى العسكران وتصادما ، وجرى قتال عظيم ، وانكسرت ميسرة السلطان بابن زين الدين ، مظفر الدين ، فإنه كان في ميمنة سيف الدين وحمل السلطان عليه بنفسه ، فانكسر القوم وأسر منهم جمعا عظيما من كبار الأمراء ، منهم فخر الدين عبد المسيح ، فمن عليهم وأطلقهم .

وعاد سيف الدين إلى حلب المحروسة ، فأخذ منها خزانة ، وسار حتى عبر الفرات وعاد إلى بلاده ، وامتنع هو — رحمه الله — عن تتبع العسكر ، ونزل في بقية ذلك اليوم في خيام القوم ، فإنهم كانوا قد أبقوا الثقل على ما كان عليه ، والمطابخ قد عملت ، ففرق الاسطبلات ، ووهب الخزائن ، وأعطى خيمة سيف الدين غازى لابن أخيه[2] عز الدين فرخشاه[3]

---

(١) جباب التركمان : في (ا) جناب وهذا تصحيف ، والتصحيح من (ب) ومن (ج ١٣٦) ، وجباب التركمان هذه موضع في أرض كلب في السماوة بين العراق والشام ( معجم البلدان ج ٦ ص ١٦٤ ط بيروت )

وقد ذكر في ( لسان العرب ) أن الجباب هي الحفر التي تحفر لنصب شجرة العنب كما يحفر للفسيلة من النخيل .

(٢) زيادة من (ج ٣٦ب) ومن النجوم الزاهرة ج ٦ : ٢٦ ط دار الكتب .

(٣) في ( ا ) فخرو شاه وهذا تصحيف والتصحيح من ( ج ٣٦ ب ) ومن شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي . ومن النجوم الزاهرة ج ٦ : ٢٦ ط دار الكتب .

وسار إلى مَنْبِج[١] وتسلمهـا فى بقية الشهر المذكور .

وسار حتى نزل على قلعة أعزاز[٢] يحاصرها، وذلك فى رابع ذى القعدة سنة إحدى وسبعين ، وعليها وثب الإسماعيلية عليه فنجاه الله من كيدهم وظفر بهم ، ولم يفل ذلك عزمه ، وأقام عليها حتى أخذها ، وذلك فى رابع عشر ذى الحجة من السنة .

وسار حتى نزل على حلب فى سادس عشر منه ، فأقام مدة ثم سار عنها ، فأخرجوا إليه ابنة لنور الدين صغيرة سألت منه اعزاز فوهبها إياها .

وفى بقية الشهر أيضاً وصل شمس الدولة — أخوه — من اليمن إلى دمشق ، وأقام بها مدة ثم عاد إلى الديار المصرية ، وتوفى باسكندرية مستهل صفر سنة ست وسبعين .

ثم إن السلطان عاد إلى الديار المصرية ، ليتفقد أحوالها ويقرر قواعدها، وكان مسيره إليها فى ربيع الأول من شهور سنة اثنتين وسبعين .

واستخلف أخاه شمس الدولة بدمشق فأقام — رحمه الله — بها يقرر قواعدها ، ويسدد خللها ، وأراح العسكر ، ثم تأهب للغزاة ، وخرج يطلب الساحل حتى وافى الإفرنج على الرملة ، وذلك فى أوائل جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين .

---

(١) منبج : بلد قـــديم بين الفرات وحلب . كان حاضرة العواصم أيام هارون الرشيد .

( معجم البلدان جـ ٨ : ١٦٩ — ١٧١ ط بيروت )

(٢) اعزاز : أو عزاز . بليدة فيها قلعة ، تقع شمالى حلب وقريبا منها .

( المرجع السابق جـ ١٣ : ١١٨ )

# ذكر

## كسرة الرملة

وكان مقدم الإفرنج البرنس أرناط ، وكان قد بيع بحلب ، فانه كان أسيرا بها من زمن نور الدين ؛ وجرى خلل فى ذلك اليوم على المسلمين .

ولقد حكى السلطان صورة الكسرة فى ذلك اليوم ، وذلك أن المسلمين كانوا قد تعبئوا تعبئة القتال ، ولما قرب العدو رأى بعض الجماعة أن تغير[١] الميمنة إلى جهة الميسرة ؛ والميسرة إلى جهة الميمنة . ليكونوا حالة اللقاء وراء ظهورهم تل معروف بأرض الرملة .

فبينما اشتغلوا بهذه التعبئة هاجمهم[٢] الإفرنج وقدر الله كسرتهم .

فانكسروا كسرة عظيمة . ولم يكن لهم حصن قريب يأوون إليه . فطلبوا جهة الديار المصرية ، وضلوا فى الطريق وتبددوا ، وأسر منهم جماعة ، منهم الفقيه عيسى الهكارى[٣] ؛ وكان وهنا عظيما . جبره الله بوقعة

---

(١) فى ( ا ) تعبر ، وما ذكر من ( ب ) ومن ( ج ٣٧ ا )

(٢) فى ( ا ) هجم ، وما ذكر من ( ب ) ومن ( ج ٣٧ ب )

(٣) الفقيه عيسى الهكارى : هو أبو محمد عيسى بن محمد بن عيسى بن محمد ابن أحمد بن القاسم ، ضياء الدين الهكارى ، حضر فتح مصر مع أسد الدين شيركوه ، وهو الذى مشى بين الأمراء وبين السلطان صلاح الدين لما ولى الوزارة للعاضد بعد موت عمه أسد الدين شيركوه ، وحضر مع صلاح الدين فتح القدس والغزوات ، فقد كان صلاح الدين يميل إليه ويستشيره ، توفى سنة ٥٨٥ هـ

( النجوم الزاهرة ج ٦ : ١١٠ ط دار الكتب )

حطين المشهورة ، ولله الحمد .

وأما الملك الصالح[1] ، فانه تخبط أمره ، وقبض على كمشتكين صاحب دولته ، وطلب منه تسليم[2] حارم إليه فلم يفعل فقتله ، ولما سمع الأفرنج بقتله ؛ نزلوا على حارم طمعاً فيها . وذلك فى جمادى الآخرة سنة ثلاث وسبعين ، وقابل عسكر الملك الصالح العسكر الافرنجية .

ولما رأى أهل القلعة خطرها من جانب الإفرنج ؛ سلموها إلى الملك الصالح فى العشر الأواخر من شهر رمضان من السنة المذكورة .

ولما علم الإفرنج ذلك رحلوا عن حارم طالبين بلادهم ، ثم عاد الملك الصالح إلى حلب ، ولم يزل أصحابه على اختلاف ، يميل بعضهم إلى جانب السلطان ، حتى بلغه عصيان عزالدين قليج[3] بتل خالد[4] ، فأخرج إليه العسكر ، وذلك فى عاشر المحرم سنة ست وسبعين .

---

(١) الملك الصالح : هو اسماعيل ابن السلطان نور الدين محمود بن زنكى .

(٢) حارم : حصن وكورة تجاه انطاكية وهما من أعمال حلب

( معجم البلدان ج ٦ : ط بيروت )

(٣) عز الدين قليج : هو قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان ابن سليمان بن قتلمش بن اسرائيل بن سلجوق ، صاحب بلاد الروم — ( آسيا الصغرى ) ، تولى السلطنة سنة ٥٥١ هـ وبقى بها حتى سنة ٥٨٤ هـ ثم قسم ملكه بين أولاده ، وتوفى سنة ٥٨٨ هـ

( النجوم الزاهرة جـ ٦ : ١١٧ — ١١٨ ط دار الكتب )

(٤) تل خالد : قلعة من نواحى حلب

( معجم البلدان جـ ٢ : ٤٠٥ ط بولاق )

ثم بلغه وفاة ابن عمه سيف الدين غازى[1] صاحب الموصل . وكانت وفاته فى ثالث صفر من هذه السنة ، وولى مكانه أخوه عز الدين مسعود فى الخامس منه ، وكانت وفاة شمس[2] الدولة باسكندرية .

## ذكر

### عود السلطان إلى الشام

ولما عاد السلطان بعد الكسرة إلى الديار المصرية ؛ وأقام بها ريثما لَمَّ الناس شعثهم ؛ وعلم بتخبط الشام ؛ عزم على العود إليه ، وكان عوده للغزاة ، فوصله رسول قليج أرسلان يلتمس من السلطان الموافقة ، ويستغيث إليه من الأرمن ، فاستقل نحو ابن لاون لنصرة قليج أرسلان ونزل بقره[3] حصار ، وأخذ عسكر حلب فى خدمته ! لأنه قد اشترط

---

(١) سيف الدين غازى : هو ابن مودود بن زنكى بن آق سنقر ، صاحب الموصل ، وابن أخى السلطان نور الدين محمود ، كان وقورا عاقلا ، طاهر اللسان ، عفيفا عن أموال الناس ، كسره صلاح الدين هو واخوته عند قرون حماة سنة ٥٧٠ هـ حينما تجمعوا عليه ليردوه عن دمشق والشام ، ثم صالحه صلاح الدين هو واخوته سنة ٥٧٦ هـ ، وتوفى فى هذه السنة .

( النجوم الزاهرة جـ ٦ : ٨٨ ط دار الكتب )

(٢) المقصود به : شمس الدولة تورانشاه أخو صلاح الدين

(٣) قره حصار : أو قرا حصار كما جاء ذلك فى (ب) وفى (جـ) و ( النجوم الزاهرة ) هو مرج كبير شمال حلب :

( معجم البلدان جـ ١٥ : ٣٨٥ ط بيروت )

فى الصلح فاجتمعوا على النهر الأزرق[١] بين بهسنا وحصن منصور[٢] ، وعبر منه إلى النهر الأسود[٣] وطرف بلاد ابن لاون[٤] ؛ وأخذ منهم حصنا وأخربه ، وبذلوا له أسارى ، والتمسوا منه الصلح ، وعاد عنه ، ثم أرسله قليج أرسلان فى صلح الشرقيين بأسرهم ، واستقر الصلح ، وحلف السلطان فى عاشر جمادى الأولى سنة ست وسبعين ، ودخل فى الصلح قليج أرسلان والمواصلة وديار بكر . وكان ذلك على نهر سنجه[٥] ، وهو نهر يرمى إلى الفرات ، وسار السلطان نحو دمشق .

## ذكر

### وفاة الملك الصالح ووصول عز الدين إلى حلب

وفى سنة سبع وسبعين مرض الملك الصالح بالقولنج، وكان أول مرضه

---

(١) النهر الأزرق : نهر بين بهسنا وحصن منصور فى طرف آسيا الصغرى من جهة حلب .

( المرجع السابق ج ١٦ : ٣١٧ )

(٢) حصن منصور : فى غربى الفرات قرب سميساط ، وكان فى وسط مدينة عليها سور وخندق وثلاثة أبواب .

( معجم البلدان ج ٧ : ٢٦٥ ط بيروت )

(٣) النهر الأسود : يمر بالمصيصة وطرسوس من ( آسيا الصغرى ) .

( المرجع السابق ج ١٩ : ٣١٧ )

(٤) بلاد ابن لاون : هى بلاد سيس الفاصلة بين حلب و ( آسيا الصغرى ) جهة الساحل .

( النجوم الزاهرة ج ٦ : ٢٧ ط دار الكتب )

(٥) فى ( ا ) وفى (ب) سبخة سنجة ، والتصحيح المذكور من ( ج ٣٨ب )

فى تاسع رجب ، وفى ثالث عشر منه غلق باب القلعة لشدة مرضه ، واستدعى الأمراء واحداً واحداً ، وحلفوا[1] لعز الدين صاحب الموصل .

وفى الخامس والعشرين منه توفى رحمه الله ، وكان لموته وقع عظيم فى قلوب الناس ، ولما توفى سارعوا إلى إعلام عز الدين مسعود بن قطب الدين بذلك ، وإعلامه بما جرى له من وصية إليه ، وتحليف الناس له ، فسارع سائراً إلى حلب ، مبادراً ، خوفا من السلطان .

وكان أول قادم من أمرائه إلى حلب مظفر الدين بن زين الدين وصاحب سروج[2] ، ووصل معهما من حلف جميع الأمراء له ، وكان وصولهم فى ثالث شعبان من السنة المذكورة .

وفى العشرين منه وصل عز الدين إلى حلب ، وصعد القلعة ، واستولى على خزائنها وذخائرها ، وتزوج أم الملك الصالح[3] فى خامس شوال من السنة المذكورة .

## ذكر

## مقايضة عز الدين أخاه عماد الدين بالبلاد

ثم أقام عز الدين بقلعة حلب إلى سادس عشر شوال ، وعلم أنه

---

(١) فى (ب) استحلفوا .

(٢) سروج : بلدة قريبة من حران ، وهى من ديار مضر بشمال الجزيرة . ( معجم البلدان ج ١٠ : ٢١٦ — ٢١٧ ط بيروت )

(٣) تكملة من (ب) .

لا يمكنه حفظ الشام مع الموصل ، لحاجته إلى ملازمة الشام لأجل السلطان ، وألح عليه الأمراء فى طلب الزيادات ، ورأوا أنفسهم أنهم قد اختاروه ، وضاق عطنه ، وكان صاحب أمره مجاهد الدين قايماز ، وكان ضيق المطن ، لم يمقد بمقاساة أمراء الشام .

فرحل من قلمة حلب طالبا الرقة[1] ، وخلف ولده ومظفر الدين بها ، وسار حتى أتى الرقة ولقيه أخوه عماد الدين عن قراريينهم ، واستقر مقايضة حلب بسنجار ، وحلف عز الدين لأخيه على ذلك فى الحادى والعشرين من شوال .

وسار من جانب عماد الدين من تسلم حلب ، ومن جانب عز الدين من تسلم سنجار ، وفى ثالث عشر محرم سنة ثمان وسبمين صمد عماد الدين إلى قلمة حلب .

# ذكر

## عودة السلطان إلى مصر

وأما السلطان فإنه لما وقع الصلح على قليج أرسلان صمد إلى الديار المصرية ، واستخلف ابن أخيه عز الدين فرخشاه والياً ، ولما بلغه وفاة الملك الصالح عزم على العود إلى الشام ، خوفا على البلاد من الافرنج ، وبلغه أيضاً وفاة فرخشاه فاشتد عزمه .

---

(١) الرقة : مدينة على الجانب الشرقى لنهر الفرات ، ومن بلاد الجزيرة . ( المرجم السابق ج ٩ : ٥٠٨ — ٥٠٩ )

وكان وصوله إلى دمشق فى سابع عشر صفر سنة ثمان وسبعين .
ثم أنشأ التأهب لغزاة بيروت ، فإنه عبر على الافرنج فى عوده من مصر مكابرة من غير صلح ، فقصد بيروت ونزلها ، ولم ينل منها غرضا ، واجتمع الافرنج فرحلوه عنها ، ودخل إلى دمشق . .

وبلغه أن رسل الموصل وصلوا إلى الافرنج يحثونهم على قتال المسلمين ، فعلم أنهم نكثوا اليمين ، وأنشأ العزم على قصدهم لجمع كلمة العساكر الإسلامية على عدو الله ، فأخذ فى التأهب لذلك .

فلما بلغ ذلك عماد الدين سير إلى الموصل يشعره بالخبر ، ويستحث العساكر ، وسار السلطان حتى نزل على حلب فى ثامن عشر جمادى الأولى من هذه السنة ، وأقام ثلاثة أيام ، ورحل فى الحادى والعشرين يطلب الفرات[1] ، واستقر الحال بينه وبين مظفر الدين — وكان صاحب حران[2] ، وكان قد استوحش من جانب الموصل ، وخاف من مجاهد الدين ، فالتجأ إلى السلطان ، وعبر إلى قاطع الفرات ، وقوى عزمه على البلاد ، وسهل أمرها عنده ، ودخل الرها[3]

(١) فى ( ا ) الغزاة وهذا لا يتفق وسياق الحديث ، والتصحيح المذكور من (ب) ومن ( ج ١٤٠ ) .

(٢) حران : مدينة قديمة كانت من أعمال حلب ، وهى على طريق الموصل والشام و ( آسيا الصغرى ) .

( معجم البلدان ج ٦ : ٢٣٥ — ٢٣٦ ط بيروت )

(٣) الرها : مدينة بالجزيرة قرب حران .

( المرجع السابق )

والرقة ونصيبين وسروج ، ثم شحن على الخابور[1]، وأقطعه .

## ذكر

## نزوله على الموصل

وكان نزوله عليه فى هذه الوقعة فى يوم الخميس حادى عشر شهر رجب ، وكنت إذ ذاك فى الموصل ، فسيرت رسولا إلى بغداد قبيلا بأيام قلائل ، فسرت مسرعا فى الدجلة ، وأتيت بغداد فى يومين وساعتين من اليوم الثالث ، مستنجدا بهم ، فلم يحصل منهم سوى الإنفاذ إلى شيخ الشيوخ ، وكان فى صحبته رسول من جانبهم يأمرونه بالحديث معه ، ويتلطف الحال معه ، ويسير إلى بهلوان رسولا من الموصل ، يستنجدونه فلم يحصل من جانبه سوى شرط كان الدخول تحته أخطر من حرب السلطان .

ثم أقام السلطان على الموصل أياما ، وعلم أنه بلد عظيم لا يتحصل منه شيئاً بالمحاصرة على هذا الوجه ، ورأى أن طريق أخذه — أخذ قلاعه وما حوله من البلاد ، وإضعافه بطول الزمان ، فرحل عنها ونزل على سنجار فى سادس عشر شعبان ، وأقام يحاصرها وكان فيها شرف الدين بن قطب الدين وجماعته ، واشتد عليه الأمر ، وكان حتى ثانى شهر

---

(١) الخابور : ولاية واسعة وبلدان كثيرة ، غلب عليها اسم النهر الذى يجرى بها بين رأس عين والفرات .

( معجم البلدان ج ٧ : ٣٣٤ — ٣٣٥ ط بيروت )

رمضان فأخذها عنوة ، وخرج شرف الدين وجماعته محترمين محفوظين إلى الموصل ، وأعطاها ابن أخيه تقي الدين ، ورحل عنها إلى نصيبين .

## ذكر

## قضية[١] شاه أرمن صاحب خلاط

وذلك أن أصحاب الموصل أنفذوا إليه[٢] واستنجدوا به ، وطرحوا أنفسهم عليه ، فخرج من خلاط[٣] لنصرتهم ، ونزل بحُرْزُم[٤] ، وسير إلى عز الدين — صاحب الموصل — أعلمه ، فخرج إليه ، وذلك في الخامس عشر من شوال ، فسار حتى اجتمع به صاحب ماردين ، ووصل جماعة من عسكر حلب ، كل ذلك للقاء السلطان .

وأرسل شاه أرمن بكتمر إلى السلطان يخاطبه في الصلح ، بتوسط شيخ الشيوخ ، فلم ينتظم بينهم حال ، ورحل السلطان إلى عسكر شاه أرمن ؟ فلما سمع شاه أرمن بوصول السلطان ولى راجعا إلى بلاده . وعاد عز الدين إلى بلاده ، وتفرقوا .

وسار السلطان يطلب بلد آمد فنزل عليها ، وقاتلها وأخذها في

---

(١) في ( ا ) قصة ، وفي (ب) وفي ( ج ٤١ ا ) قضية .

(٢) زيادة من (ب) .

(٣) خلاط : أو أخلاط ، بلدة عامرة مشهورة كثيرة الخيرات والثمار والمياه وهي عاصمة أرمينية الوسطى .
( معجم البلدان ج ٧ : ٣٨٠ — ٣٨١ ط بيروت )

(٤) حرزم : بلدة بين ماردين ودنيسر من أعمال الجزيرة ) .
( المرجع السابق ج ٦ : ٢٤٠ )

ثمانية أيام ، وذلك فى أول المحرم سنة تسع وسبعين ، وأعطاها نورالدين قرا أرسلان .

ومنّ على ابن نيسان بجميع ما كان فيها من الأموال وغيرها ، ثم سار يطلب الشام لقصد حلب ، وفى هذه المدة خرج عماد الدين وخرب قلعة اعزاز وخرب حصن كفر لاثا[1] وأخذها من بكش ، فإنه كان قد سار مع السلطان فى الثانى والعشرين من جمادى الأولى من السنة المذكورة ، وقاتل باشر — وكان صاحبها دلدرم الياروقى[2] قد سار مع السلطان فلم يقدر عليها ، وجرت غارات من الافرنج فى البلاد بحكم اختلاف العساكر ، فدفعهم الله تعالى ، وتسلم الكرزين[3] ثم عاد إلى حلب .

## ذكر

### عود السلطان إلى الشام

ولما عاد إلى الشام بدأ بتل خالد فنزل عليها ، وقاتلها وأخذها فى الثانى والعشرين من محرم سنة تسع وسبعين ، ثم سار طالبا حلب فنزل عليها فى السادس والعشرين ، وكان أول نزوله بالميدان الأخضر ،

(١) كفر لاثا : من نواحى حلب فى سفح جبل عال وبها بساتين ومياه جارية وأهلها اسماعيلية

( معجم البلدان جـ ١٦ : ٢٧٠ ط بيروت )

(٢) دلدرم الياروقى : حاكم مدينة باشر آنئذ وهى كورة شمالى حلب

(٣) الكرزين : قلعة من نواحى حلب بين الجور والبيرة .

( المرجع السابق جـ ١٦ : ٤٥١ )

واستدعى العساكر من الجوانب واجتمع خلق عظيم ، وقاتلها قتالا شديداً ، وتحقق عماد الدين أنه ليس له به قِبَل[1] ، وكان قد ضرس من اقتراح الأمراء وجبههم ، فأشار إلى حسام الدين طمان أن يسفر له مع السلطان فى إعادة بلاده ، وتسلم حلب إليه ، واستقرت القاعدة ولم يشعر أحد من الرعية ، ولا من العسكر ، حتى تم الأمر ، واستحكمت القاعدة واستفاض ذلك ، واستعلم العسكر منه ذلك فأعلمهم ، وأذن فى تدبير أنفسهم ، وأنفذوا عنهم وعن الرعية عز الدين جرديك النورى وزين الدين ، فقصدوا عنده إلى الليل واستحلفوه على العسكر وعلى أهل البلد ، وذلك فى السابع عشر من صفر .

وخرجت العساكر إلى خدمته إلى الميدان الأخضر ، وقدموا حلب ، وخلع عليهم ، وطيب قلوبهم ، وأقام عماد الدين بالقلعة يقضى أشغاله ، وينقل أقمشته وخزائنه ، والسلطان مقيم بالميدان الأخضر إلى الثالث والعشرين من صفر ، وفيه توفى تاج الملوك أخو من جرح كان أصابه ، وشق عليه أمر موته ، وجلس للعزاء ، وفى ذلك اليوم نزل عماد الدين إلى خدمته وعزاه ، وتقررت بينهما قواعد ، وأنزله السلطان فى الخيمة ، وقدم له تقدمة سنية ، وخيلا جميلة ، وخلع على جماعة من أصحابه .

وسار عماد الدين من يومه إلى قرا حصار ، سائرا إلى سنجار ، وصعد السلطان قلعة حلب مسروراً منصوراً ، وعمل له حسام الدين

---

(١) زيادة من ب) ومن (جـ ٤٢ ا) .

طمان[١] دعوة سنية ، وكان قد تخلف لأحد ما تخلف لعماد الدين من قرش وغيره ، وكان قد أنفذ إلى حارم من يتسلمها[٢] ، ودافعهم الوالى . وأنفذ الأجناد الذين بها يستحلفونه ، فحلف لهم ، وسار من وقته إلى حارم ، فوصلها فى التاسع والعشرين من صفر ، وتسلمها وبات بها ليلتين ، وقرر قواعدها . وولى فيها إبراهيم بن شروه[٣] ، وعاد إلى حلب ، ودخلها فى ثالث ربيع الأول ،

ثم أعطى العساكر دستوراً ، وسار كل منهم إلى بلاده ، وأقام يقرر قواعد حلب ، ويدبر أمورها .

## ذكر

### غزاة عين جالوت[٤]

ولم يقم فى حلب إلا إلى الثانى والعشرين من ربيع الآخر ، وأنشأ عزما إلى الغزاة فخرج فى ذلك اليوم مبرزا نحو دمشق ، واستنهض العساكر فخرجوا يتبعونه ، ولم يزل يواصل بين المنازل حتى دخل دمشق فى[٥]

(١) حسام الدين طمان : هو ابن غازى صاحب الرقة ، توفى فى تل العياضية قرب عكا سنة ٥٨٥ هـ

( النجوم الزاهرة جـ ٦ : ٤٤ ط دار الكتب )

(٢) فى ( ١ ) يستلمها والتصحيح من ( جـ ٤٢ ب )

(٣) فى ( ١ ) ابراهيم بن شرده ، والتصحيح من (ب) ومن ( جـ ٤٣ ١ )

(٤) عين جالوت : أو الجالوت ، بلدة لطيفة بين نابلس وبيسان من أعمال فلسطين

( معجم البلدان جـ ١٤ : ١٧٧ ط بيروت )

(٥) زيادة من (ب) ومن ( جـ ٤٣ ١ )

ثالث جمادى الأولى ، فأقام بها متأهباً إلى السابع والعشرين منه ثم برز في ذلك اليوم ، ونزل على جسر الخشب[١] وتبعته العساكر مبرزة ، فأقام به تسعة أيام ثم رحل في ثامن جمادى الآخرة .

وسار حتى أتى الفوار[٢] ،وتعبى فيه للحرب ، وسار حتى نزل القصير ، فبات به وأصبح على المخاض ، وعبر وسار حتى أتى بيسان[٣] ، فوجد أهلها قد رحلوا عنها ، وتركوا ما كان من ثقيل الأقمشة والغلال والأمتعة بها ، فنهبها العسكر ، وغنموا وحرقوا مالم يمكن أخذه .

وسار حتى أتى الجالوت وهى قرية عامرة وعندها عين جارية ، فخيم بها ، وكان قد قدم عز الدين جرديك وجماعة من المماليك النورية و ( جاوَلى ) مملوك أسد الدين حتى يكشفوا خبر الإفرنج ، فاتفق أنهم صادفوا عسكر الكرك والشوبك سائرين نجدة للإفرنج ، فوقع أصحابنا عليهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، وأسروا منهم زهاء مائة نفر ، وعادوا

---

(١) جسر الخشب : جنوبي دمشق ظاهرها بينها وبين ( منازل العسكر ) — ومنازل العسكر في ذلك الوقت كانت منطقة فسيحة تتجمع فيها الجيوش التي تريد مهاجمة دمشق ، وكان قريبا منها جسر خشبي على نهر الأردن أسفل بحيرة طبرية . ( الروضتين لأبي شامة تحقيق الدكتور محمد حلمي أحمد ، عن (The Damascus Chronicle p. 283)

(٢) الفوار : في ( ١ ) الفؤاد وهو خطأ والتصحيح من (ب) ومن ( جـ٣ ٤٤ ١ ) والفوار موضع بالقرب من القصير وبيسان بفلسطين .
( الفهرس الجغرافي للنوادر السلطانية ط ليدن رقم A )

(٣) بيسان : مدينة بالأردن بين حوران وفلسطين وتوصف بكثرة النخل ( معجم البلدان جـ ٤ : ص ٥٢٧ — ٥٢٨ ط بيروت )

ولم يفقد من المسلمين سوى شخص واحد يدعى بهرام الشاووش ، فوصل إليه فى بقية يوم الكسرة — وهو العاشر من جمادى الآخرة ، فاستبشر المسلمون بالنصر والظفر .

ولما كان السبت حادى عشر من جمادى وصل الخبر إليه أن الإفرنج قد اجتمعوا فى صفّورية[١] فرحلوا إلى الفولة[٢] وهى قرية معروفة ، وكان غرضه المصاف .

فلما سمع بذلك تعبى للقاء ، ورتب الأطلاب يمنة ويسرة وقلبا ، وسار للقاء العدو ، وسار الإفرنج طالبين المسلمين ، ووقعت العين فى العين ، وأخرج السلطان الجاليش[٣] خمسمائة رجل معروفة ، فواقعوا الإفرنج وجرى قتال عظيم ، وقتل من العدو جماعة وهم ينضم بعضهم إلى بعض ، يحمى راجلهم فارسهم ، ولم يخرجوا للمصاف .

ولم يزالوا سائرين حتّى أتوا العين ، ونزلوا عليها ، ونزل السلطان حولهم ، والقتل والجرح يعمل فيهم ليخرجوا إلى المصاف وهم لا يخرجون لخوفهم من المسلمين ، فانهم فى كثرة عظيمة ، ولما رأى أنهم لم يخرجوا

---

(١) صفورية : كورة وبلدة من نواحى الأردن بالشام قرب طبرية .
( معجم البلدان جـ ١٢ ص ٢١٤ ط بيروت )

(٢) الفولة بلدة بفلسطين
المرجع السابق جـ ١٥ ص ٢٨٠ )

(٣) الجاليش : أصل معناها راية عظيمة فى رأسها خصلة من الشعر ، ثم أطلقت على مقدمة القلب فى الجيش أو على الطليعة منه .
( السلوك جـ ١ ص ٦٢٨ : ٦٩٢٠ تحقيق د . محمد مصطفى زيادة )

رأى الانتزاح عنهم لعلهم يرحلون ، فيضرب معهم مصافا ، فرحل نحو الطور[١] ، وذلك فى السابع عشر من هذا الشهر ، فنزل (تحت)[٢] الجبل مترقباً رحيلهم ليأخذ منهم فرصة

وأصبح الإفرنج فى الثامن عشر راحلين راجعين ، على أعقابهم ناكصين . فرحل — رحمه الله - نحوهم ، وجرى من رمى النشاب ، واستنهاضهم للمصاف أمور عظيمة ، فلم يخرجوا ، ولم يزل المسلمون حولهم حتى نزلوا الفولة المتقدم ذكرها راجعين إلى بلادهم .

فلما رأى المسلمون ذلك ؛ اجتمعوا على السلطان وأشاروا بالعود لفراغ زادهم . وكان قد نال منهم بالقتل والأسر وخربت عَفِربَلاَ[٣] وقلعة بيْسان وزرْعين[٤] وهى من حصونهم المذكورة .

وخربت عليهم قرى عديدة ، فعاد منصوراً مظفراً مسرورا حتى نزل الفوّار ، وأعطى الناس دستوراً من أثر السير ، ثم سار حتى أتى دمشق فدخلها فرحا مسرورا فى يوم الخميس الرابع والعشرين من هذا الشهر .

فانظر إلى هذه الهمة التى لم يشغلها عن الغزاة أخذ حلب ،

---

(١) الطور : جبل مطل على طبرية الأردن بينهما أربعة فراسخ .
( النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٢٢١ ط دار الكتب )

(٢) زيادة من (ب) ومن ( ج ١٤٤ )

(٣) عفربلا : بلدة قرب بيسان وطبرية بالأردن .
( معجم البلدان ج ١٤ ص ١٣١ ط بيروت )

(٤) زرعين : موضع من نواحى الأردن .
( الفهرس الجغرافى رقم Z للنوادر السلطانية ط ليدن )

ولا الظفر بها ، بل كان غرضه الاستعانة بالبلاد على الجهاد فالله يحسن جزاءه فى الآخرة ، كما وفقه للأعمال المرضية فى الدنيا .

## ذكر

### غزاة أنشأها إلى الكرك

ثم أنه أقام بدمشق إلى ثالث رجب سنة تسع وسبعين ، وخرج مرارا نحو الكَرَك ، وكان قد سير إلى الملك العادل وهو بمصر يتقدم إليه للاجتماع به على الكرك، فبلغه خبر حركته من مصر فخرج للقائه ، وسار حتى أتى الكرك ، ووافاه الملك العادل عليها وقد خرج معه خلق عظيم من تاجر وغير تاجر ، وذلك فى رابع شعبان من هذه السنة ، وكان قد بلغ الإفرنج خبر خروجه ، فساروا براجلهم وفارسهم نحو الكرك . للدفع عنه .

ولما انتهى ذلك إليه سير الملك المظفر تقى الدين إلى مصر ، وذلك فى خامس عشر شعبان . وفى السادس عشر منه نزلت الإفرنج على الكرك ، وتزحزح السلطان عنه بعد أن قاتله قتالا عظيما ، وعليه قتل شرف الدين برغش النورى شهيداً .

## ذكر

### إعطائه أخاه الملك العادل حلب

ثم رحل السلطان مستصحبا أخاه الملك العادل معه إلى دمشق ،

لإياسه من الكرك بعد نزول الإفرنج عليها ، فدخل دمشق فى الرابع والعشرين من شعبان .

وأعطى أخاه الملك العادل حلب ، بعد مقامه بدمشق إلى ثانى يوم من شهر رمضان ، وكان بها ولده الملك الظاهر ومعه سيف الدين يازكج[1] يدبر أمره ، وابن العميد فى البلد .

وكان الملك الظاهر من أحب الأولاد إلى قلبه ، لما قد خصه الله به من الشهامة ، والفطنة والعقل ، وحسن السمت والشغف بالملك ، وظهور ذلك كله . وكان أبر الناس بوالده ، وأطوعهم له . ولكن أخذ منه حلب لمصلحة رآها ، فخرج من حلب لما دخل الملك العادل هو ويازكج ، سائرين إلى خدمة السلطان .

فدخل دمشق الثامن عشر من شوال ، فأقام فى خدمة أبيه لا يظهر له إلا الطاعة والانقياد ، مع انكسار فى باطنه لا يخفى عن نظر والده . وفى ذلك الشهر وَرَدْنا على السلطان رسلا من جانب الموصل ، وكنا قد توسلنا إلى الخليفة الناصر لدين الله فى إنفاذ شيخ الشيوخ بدر الدين رسولا وشفيعا إلى السلطان ، فسيره معنا من بغداد ، وكان غزير المروءة ، عظيم الحرمة فى دولة الخليفة ، وفى سائر البلاد ، وكانت مكانته عند السلطان بحيث يتردد إليه — إذا كان عنده — فى معظم الأيام .

---

(١) سيف الدين يازكج : أو يازكوج ، أحد أمراء السلطان صلاح الدين وقد ولاه سنة ٥٧٩ هـ أمر قلعة حلب وتدبير أمر ولده الظاهر بها .
( النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣ طـ دار الكتب )

## ذكر

### وصولنا إلى خدمته رسلا

وكان الشيخ قد وصل إلى الموصل ، وسار منها فى صحبة القاضى محيي الدين ابن كمال الدين ، وكان بينهم صحبة من الصبا ، وكنت مع القوم ، وسرنا حتى أتينا دمشق ، وخرج السلطان إلى لقاء الشيخ ، ونحن فى خدمته ، فلقيه عن بُعد ، وكان دخولنا إلى دمشق يوم السبت حادى عشر ذى القعدة من هذه السنة ، ولقينا من السلطان كل جميل فيما يرجع إلى الإكرام والاحترام .

وأقمنا أياما نراجع فى فصل حال ، فلم يتفق صلح فى تلك الوقعة ، وخرجنا راجعين إلى الموصل ، وخرج السلطان إلى وداع الشيخ إلى القُصَيْر واجتهد فى ذلك اليوم أن ينقضى شغل فلم يتفق

وكان الوقوف من جانب محيي الدين ، فإن السلطان اشترط أن يكون صاحبا إرْبِل[١] والجزيرة على خيرتهما فى الانتماء إليه أو إلى الموصل ، فقال محيي الدين : لا بد من ذكرهما فى النسخة . فوقف الحال .

وكان مسيرنا سابع ذى الحجة ، وفى تلك الدفعة عرض علىّ السلطان موضع البهاء الدمشقى بمصر على لسان الشيخ فاعتذرت ، ولم أفعل خوفاً من أن يحال توقف الحال علىّ ، وفى تلك الدفعة ثبت فى نفسه

(١) اربل : مدينة وقلعة على تل عال وسط سهل فسيح بين الزابين .
( معجم البلدان ج ١ : ١٧٢ — ١٧٣ ط بيروت )

الشريفة منى أمر لم أعرفه إلا بعد خدمتى له .

وأقام السلطان بدمشق ترد عليه الرسل من الجوانب ، فوصل رسول سِنْجَر شاه[1] صاحب الجزيرة ، فاستحلفه لنفسه فى الانتماء إليه ، ورسول أربل ، وحلف لهما وساروا .

ووصل إليه أخوه الملك العادل رابع ذى الحجة ، فأقام عنده و[الوقت] عيد ، وتوجه إلى حلب ، المحروسة .

# ذكر

## غزاة أخرى إلى الكرك

وصل ابن قره أرسلان نور الدين[2] إلى حلب ثامن عشر صفر سنة ثمانين ، فأكرمه الملك العادل إكراما عظيما ، وأصعده إلى القلعة وباسطه ، ورحل معه طالباً دمشق فى السادس والعشرين منه ، وكان السلطان قد مرض أياماً ثم شفاه الله .

ولما بلغه وصول قره أرسلان خرج إلى لقائه ، وكان السلطان يكارم

---

(١) سنجرشاه : هو ابن سيف الدين غازى بن مودود بن زنكى ، صاحب الجزيرة ، كان سيء السيرة ظلوما ، قتله ولده غازى سنة ٦٠٥ هـ .
( شذرات الذهب )

(٢) ابن قره أرسلان : هو نور الدين محمد ، صاحب حصن كيفا ، تسلم آمد وأعمالها من صلاح الدين ، وتوفى سنة ٥٨٠ هـ .
( النجوم الزاهرة ج ٦ : ٩٤ و ٩٨ ط دار الكتب )

الناس مكارمة عظيمة ، فالتقاه على عَيْن الجر[1] بالبِقَاع[2]، وذلك فى تاسع ربيع الأول ، ثم عاد إلى دمشق ، وخاف نور الدين واصلا مع الملك العادل ، فتأهب للغزاة ، وخرج مبرزاً إلى جسر الخشب فى منتصف ربيع الأول .

وفى الرابع والعشرين منه وصل الملك العادل ومعه ابن قره أرسلان إلى دمشق ، فأقاما بها أياما ، ثم رحلا يلحقان بالسلطان من رأس الماء[3] طالباً للكرك ، فأقام قريباً منها أياما ينتظر وصول الملك المظفر من مصر الى تاسع عشر ربيع الآخر ، فوصل إلى خدمته ومعه بيت الملك العادل وخزانته ، فسيرهم إلى الملك العادل .

وتقدم إليه وإلى بقية العساكر بالوصول إليه إلى الكرك ، فتتابعت العساكر إلى خدمته حتى أحدقوا بالكرك ، وذلك فى رابع جمادى الأولى ، وركب المناجيق على المكان ، وقد التقت العساكر المصرية والشامية والجزرية أيضاً مع قره أرسلان .

ولما بلغ الإفرنج ذلك خرجوا براجلهم وفارسهم إلى الذب عن

---

(١) عين الجر ا فى (١) الجسر ، والتصحيح من معجم البلدان ، وعين الجر موضع معروف بالبقاع بين بعلبك ودمشق .
( معجم البلدان ج ١٤ : ١٧٧ ط بيروت )

(٢) البقاع : أرض واسعة بين بعلبك وحمص ودمشق .
( المرجع السابق ج ٤ : ٤٧٠ )

(٣) رأس الماء : ميدان فسيح للحرب فى حوران ، على بعد نحو عشرين ميلا شمالى درعا .
(The Damascus Chronicle p. 306).

الكرك ، وكان على المسلمين منه ضرر عظيم ، فإنه كان يقطع عن قصد مصر ، بحيث كانت القوافل لا يمكنها الخروج إلا مع العساكر الجمة الغفيرة ، فاهتم السلطان بأمره ليكون الطريق سابلة إلى مصر .

ولما بلغ السلطان خروج الإفرنج تعبأ للقاء ، وأمر العساكر أن خرجت ظاهر الكرك ، وسير الثقل نحو البلاد وبقى العسكر جريدة ، ثم سار السلطان يقصد العدو . وكان الإفرنج قد نزلوا بموضع يقال له الواله ، وسار حتى نزل على قرية يقال لها حسبان[١] قبالة الإفرنج ، ورحل منها إلى موضع يقال له ماءعين[٢] ، والإفرنج مقيمون بالواله إلى السادس والعشرين من جماد الأولى ، ثم رحلوا قاصدين الكرك ، فسار بعض العساكر وراءهم فقاتلهم إلى آخر النهار .

ولما رأى قدس الله روحه تصميم الإفرنج على الكرك ، أمر العساكر أن دخلوا الساحل لخلوه عن العساكر ، فهاجموا نابلس ونهبوها وغنموا ما فيها ، ولم يبق فيها إلا حصناها ، وأخذوا جانين[٣] والتحقوا بالسلطان برأس الماء وقد نهبوا وأسروا وأحرقوا وخربوا واتفق دخول السلطان دمشق يوم السبت سابع جمادى الأخرى ، ومعه

(١) حسبان : قاعدة البلقاء وهى بليدة صغيرة بها أشجار وبساتين
( الفهرس الجغرافى للنوادر السلطانية ط ليدن رقم : H )

(٢) ماء عين : موضع بالبلقاء .
( المرجع السابق )

(٣) جانين : أو يقال لها أيضا جينين : بليدة حسنة بين نابلس وبيسان من الأردن ، بها مياه وعيون .

( المرجع السابق ، الفهرس الجغرافى له رقم S )

الملك العادل ونور الدين ابن قره أرسلان فرحاً مسروراً ، وأكرمه واحترمه وأحسن إليه .

وفى هذا الشهر وصل رسول الخليفة ومعه الخلع ، فلبسها السلطان وألبس أخاه الملك العادل وابن أسد الدين خلعاً جاءت لهم . وفى الرابع عشر من هذا الشهر خلع السلطان خلعه الخليفة على ابن قره أرسلان ، وأعطاه دستوراً وأعطاه العساكر .

وفى ذلك التاريخ وصلت رسل ابن زين الدين مستصرخا إلى السلطان ، يخبر أن عسكر الوصل وعسكر قزل نزلوا مع مجاهد الدين قايماز على أربل ، وأنهم نهبوا وأحرقوا ، وأنه نصر عليهم وكسرهم .

## ذكر

## خروج السلطان إلى جهة الموصل فى الوقعة الثانية

ولما سمع السلطان ذلك رحل من دمشق بطلب البلاد ، وتقدم إلى العساكر فتبعته ، وسار حتى أتى حران على طريق البيرة ، والتقى مع مظفر الدين بالبيرة فى الثانى عشر من سنة إحدى وثمانين ، وتقدم السلطان إلى سيف الدين الشطوب[1] أن يسير فى مقدمة العسكر إلى

(١) سيف الدين المشطوب : هو على بن أحمد الهكارى المعروف بالمشطوب ملك الهكارية ، كان أميرا شجاعا ، صابرا فى الحروب ، مطاعا فى قبيلته ، دخل مع أسد الدين شيركوه إلى مصر فى مراته الثلاث ثم عاد بعد سلطنة صلاح الدين إلى الشام ، وكلمة المشطوب التى اشتهر بها إنما كانت لشطبة كانت فى وجهه من أثر طعنة فى غزاة .

( مفرج الكروب ج ٢ تحقيق د . جمال الدين الشيال )
و ( النجوم الزاهرة ج ٦ : ١١٧ ط دار الكتب )

رأس العين[1] ووصل السلطان حران فى الثانى والعشرين من صفر .

وفى السادس والعشرين منه قبض على مظفر الدين بن زين الدين لشىء كان قد جرى منه ، وحديث كان بلغه عنه رسول فلم يقف عليه وأنكره ، فأخذ منه قلعة حران والرها ثم أقام فى الاعتقال تأديبا إلى مستهل ربيع الأول ، ثم خلع عليه وطيب قلبه ، وأعاد إليه قلعة حران وبلاده التى كانت بيده ، وأعاده إلى قانونه فى الإكرام والاحترام ، ولم يتخلف له سوى قلعة الرها ووعده بها .

ثم رحل السلطان ثانى ربيع الأول إلى رأس العين ، ووصله فى ذلك رسول قليج أرسلان يخبره أن ملوك الشرق بأسرهم قد اتفقت كلمتهم على قصد السلطان إن لم يعد عن الموصل وماردين[2] ، وأنهم على عزم ضرب المصاف معه إن أصر على ذلك .

فرحل السلطان يطلب دُنيْسر[3] . فوصله ثامن ربيع الأول عماد الدين ابن قره أرسلان ومعه عسكر نور الدين صاحب ماردين ، فالتقاهم واحترمهم ، ثم رحل من دنيسر فى الحادى عشر نحو الموصل حتى نزل موضعا

---

(١) رأس العين : مدينة كبيرة مشهورة من مدن الجزيرة بين حران ونصيبين ودنيسر وهى من دنيسر أقرب .
( معجم البلدان ج ٩ : ط بيروت )

(٢) ماردين : قلعة على قمة جبل الجزيرة وتطل على دارا ودنيسر ونصيبين
( المرجع السابق ج ١٧ : ٣٩ )

(٣) دنيسر : بلدة عظيمة مشهورة من نواحى الجزيرة قرب ماردين .
( المرجع السابق ج ٨ : ٤٧٧ )

يعرف بالاسماعيلان قريب الموصل ، بحيث يصل من العسكر كل يوم نوبة جديدة تحاصر الموصل ، فبلغ عماد الدين بن قره أرسلان موت أخيه نور الدين ، فطلب من السلطان دستوراً طمعاً فى ملك أخيه ، فأعطاه دستوراً .

# ذكر

## موت شاه أرمن صاحب خلاط

ولما كان ربيع الآخر سنة إحدى وثمانين توفى شاه أرمن صاحب خلاط ، وولى بعده غلامه بكتمر ، وهو الذى وصل رسولا إلى خدمة السلطان بسنجار ، فعدل وأحسن إلى أهل خلاط ، وكان متصوناً فى طريقته فأطاعه الناس ومالوا إليه .

ولما ملك خلاط امتدت نحوه الأطماع لموت شاه أرمن ، فسار نحوه بهلوان بن الدكز ، فلما بلغه ذلك ؛ سير إلى خدمة السلطان من يقرر معه تسليم خلاط إليه ، واندراجه فى جملته وإعطائه ما يرضيه ، فطمع السلطان فى خلاط ، وارتحل عن الموصل متوجها نحوها ، وسير إلى بكتمر ؛ الفقيهُ عيسى وغرسُ الدين قليج لتقرير القاعدة وتحريرها ، فوصلت الرسل وبهلوان قد قارب البلاد جداً ، فتخوف بهلوان من السلطان فطلب إصلاحه ، وزوجه ابنة له ، وولاه وأعاد البلاد إليه ، واعتذر إلى رسل السلطان ، وعادوا من غير زبدة .

وكان السلطان قد نزل على ميافارقين فحاصرها ، وقاتلها قتالا شديداً

ونصب عليها مجانيق ، وكان بها رجل يقال له الأسد وما قصر في حفظها ، لكن الأقدار لا تغلب ، فملكها السلطان في التاسع والعشرين من جمادى .

ولما أيس من أمر خِلاَط عاد إلى الموصل فنزل بعيداً عنها — وهي الوقعة الثالثة — بموضع يقال له كَفَرْ زَمار[1] ، وكان الحر شديداً فأقام مدة ، وفي هذه المنزلة أتاه سِنْجَرْشاه من الجزيرة واجتمع به ، فأعاده إلى بلده

ومرض — رحمه الله — بكفر زمار مرضاً شديداً خاف من غائلته ، فرحل طالباً حَرّان وهو مريض ، وكان يتجلد ولا يركب محفة ، فوصل وهو شديد المرض ، وبلغ إلى غاية الضعف ، وأيس منه ورجف بموته ، فوصل إليه أخوه من حلب ومعه أطباؤه .

# ذكر

## صلح المواصلة معه

وكان سبب ذلك ؛ أن عز الدين أتابك صاحب الموصل سيرني إلى الخليفة يستنجده ، فلم يحصل منه زبدة ، وسير إلى العجم فلم يحصل منهم زبدة[2] ، فلما وصلت من بغداد ورددت جواب الرسالة أيس من نجدة

---

(١) كفر زمار : من قرى الموصل .
( معجم البلدان ج ١٦ : ٤٦٩ ط بيروت )

(٢) زيادة من (ب) ومن ( ج ٥٠ ب ) .

فلما بلغهم مرض السلطان رأوا ذلك فرصة ، وعلموا سرعة انقياده ورقة قلبه في ذلك الوقت ، فندبوني — لهذا الأمر — وبهاء الدين الربيب ، وفوض إلى أمر النسخة التي حلف بها ، وقالوا : امضيا ما يصل إليه جهد كما وطاقتكما. فسرنا حتى أتينا العسكر، والناس كلهم آيسون من السلطان، وكان وصولنا في أوائل ذي الحجة، فاحترمنا احتراماً عظيما وجلس لنا — وكان أول جلوسه من مرضه ، وحلف في يوم عرفة ، وأخذنا منه بَيْنَ النَّهْرَيْن [1] — وكان أخذها من سنجر شاه ، فأعطاها المواصلة ، وحلّفته يمينا تامة ، وحلّفت أخاه الملك العادل ، ومات — قدس الله روحه — وهو على ذلك الصلح لم يتغير عنه .

وسرنا معه وهو بحرّان وقد تماثل ، ووصله خبر موت ابن أسد [2] الدين صاحب حمص ، وكانت وفاته يوم عرفة ، وجلس الملك العادل للعزاء ، وفي تلك الأيام كانت وقعة التركمان مع الأكراد وقتل بينهم خلق عظيم .

وفي هذا الشهر وصل خبر وفاة بهلوان بن الدكز ، وكانت وفاته في سلخ ذي الحجة .

---

(١) بين النهرين : كورة ذات قرى ومزارع من نواحي شرقي دجلة ، ولها قلعة تسمى الجديدة على جبل متصلة الأعمال بأعمال حصن كيفا .
( معجم البلدان ج ٤ : ٥٣٥ ط بيروت )

(٢) زيادة من (ب) ومن ( ج ١٥١ ) .

# ذكر

## عود السلطان إلى الشام

ولما وجد السلطان نشاطاً من مرضه ؛ رحل يطلب جهة حلب ، وكان وصوله إليها رابع عشر محرم سنة اثنتين وثمانين ، وكان يوماً مشهوداً لشدة فرح الناس بعافيته ولقائه ، فأقام بها أربعة أيام ثم رحل نحو دمشق ، ولقيه أسد الدين شيركوه بن محمد ( بن )[1] شيركوه بتل السلطان[2] ومعه أخته ، وقد صحبه خدمة عظيمة وقرب عظيمة[3] فمن عليه بحمص ، وأقام أياماً يعتبر تركة أبيه ، ثم سار يطلب جهة دمشق ، وكان دخوله إليها فى ثانى ربيع الأول ، وكان يوماً لم ير مثله فرحاً وسروراً .

ووقعت فى هذا الشهر وقعات كثيرة بين الترك والأكراد بأرض نصيبين وغيرها ، وقتل من الفئتين خلق عظيم ، وبلغ السلطان أن معين الدين قد عصا بالرّاوند[4] ، وقد سلمها إلى علم الدين سليمان ، ثم مضى إلى خدمه السلطان .

---

(١) زيادة من (ب) ومن ( جـ ٥١ ب ) .

(٢) تل السلطان : موضع بينه وبين حلب مرحلة نحو دمشق ، وفيه خان ومنزل للقوافل يعرف بالفندق .

( معجم البلدان ج ٥ : ٤٢ ط بيروت )

(٣) زيادة من (ب) ومن ( جـ ٥١ ب ) .

(٤) الراوند : مدينة قديمة بالموصل .

( معجم البلدان جـ ٩ : ١٩ ط بيروت )

وفى سابع عشر وصل الملك الأفضل إلى دمشق ، ولم يكن قد رأى قبل ذلك الشام .

## ذكر

### مسير الملك العادل إلى مصر ووصول[1] الملك الظاهر إلى حلب

وذلك أن السلطان رأى ذهاب[2] الملك العادل إلى مصر ، فإنه كان آنس بأحوالها من الملك المظفر ، ليزيل تقاويضها بذلك ، وهو على حران مريض ، وقد حصل ذلك فى نفس الملك العادل ، فإنه كان يحب الديار المصرية ، فلما عاد السلطان إلى دمشق ؛ ومَنّ الله بعافيته ؛ سير يطلب الملك العادل إلى دمشق ، فخرج من حلب ، جريدة ، فى الرابع والعشرين من ربيع الأول .

وسار حتى أتى دمشق فأقام بها فى خدمة السلطان ، فجرت بينهما أحاديث ومراجمات فى قواعد تقرر إلى جمادى الآخرة ، واستقرت القاعدة على عود الملك العادل إلى مصر وتسليم حلب ، وسير الصنيمة[3] لإحضار أهله من حلب .

وكان الملك الظاهر — أيده الله — والملك العزيز بدمشق فى خدمة والدهما ، فلما استقرت القاعدة على عود الملك العادل إلى مصر ؛ استقرت على أن يكون أتابك الملك العزيز ، وسلمه والده إليه يربى أمره ، وسلم الملك العادل حلب إلى الملك الظاهر .

---

(١) فى (ب) وفى ( جـ ٢ ٥ ١ ) وعود .

(٢) فى (ب) وفى ( جـ ٢ ٥ ١ ) رواح .

(٣) أى الخدم .

ولقد قال لى الملك العادل أنه لما استقرت عليه هذه القاعدة ؛ واجتمعت بخدمة الملك العزيز والملك الظاهر وجلست بينهما ؛ قلت للملك العزيز : ( يا مولاى ! إن السلطان قد أمرنى أن أسير فى خدمتك إلى مصر ، وأنا أعلم أن المفسدين كثير ، وغداً لا يخلون ممن يقول عنى مالا يجوز ويخوفونك منى ، فإن كان لك أذن وتسمع ؛ فقل لى حتى لا أجيء . فقال : لا أسمع ! وكيف يكون ذلك ! . ثم التفت وقلت للملك الظاهر : أنا أعرف أن أخاك ربما يسمع فىّ أقوال المفسدين ، وأنا ! فما لىَ إلا أنت متى ضاق صدرى من جانبه . فقال : مبارك وذكر كل خير ) .

ثم إن الملك الظاهر سيره والده إلى حلب ، ليعلمه أن حلب هى أصل الملك ، وجرثومته وقاعدته ، ولهذا دأب فى طلبها ذلك الدأب ، ولما حصلت ؛ أعرض عما عداها من بلاد الشرق ، وقنع منهم بالطاعة والمونة على الجهاد فسلمها إليه ، علما منه بحذاقته وحزمه ، وحفظه وثباته وعلو همته . فسار إليها حتى العين[1] المباركة وسير فى خدمته الشحنة حسام الدين بشارة . وواليا — عيسى ابن بلاشوا . فنزل بعين المباركة . وخرج الناس إلى لقائه فى بكرة تاسع جمادى الأخرى ، وصعد القلعة ضحوة نهار ، وفرح الناس به فرحاً شديداً ، ومد على الناس من جناح عدله ، وأفاض عليهم وابل فضله .

(١) عين المباركة : منزل بالقرب من حلب .
( الفهرس الجغرافى رقم A للنوادر السلطانية ط : ليدن )

وأما الملك العزيز والملك العادل فإن السلطان قرر حالهما ، وكتب إلى الملك المظفر يخبره بمسير الملك العزيز وهو صحبة عمه ، ويأمره بالوصول إلى الشام ، وشق ذلك عليه حتى أظهر للناس ، وعزم على المسير إلى ديار الغرب إلى برقا ، فقبح ذلك عليه جماعة من أكابر الدولة ، وعرفوه أن عمه السلطان يخرج من يده فى الحال ، والله أعلم بما يكون منه بعد ذلك . فرأى الحق بعين البصيرة ، وأجاب بالسمع والطاعة ، وسلم البلاد ورحل واصلا إلى خدمة السلطان ، فسار السلطان إلى لقائه ، وفرح بوصوله فرحاً شديداً . وذلك فى الثالث والعشرين من شعبان . وأعطاه حماه وسار إليها .

وكان قد عقد بين الملك الظاهر وبعض بنات الملك العادل عقد نكاح فتم ذلك . ودخل بها فى السادس والعشرين من شهر رمضان . ودخل الملك الأفضل على زوجته بنت ناصر الدين بن أسد الدين فى شوال من السنة المذكورة المباركة .

## ذكر

### غزاة أنشأها إلى الكرك

ولما كان محرم سنة ثلاث وثمانين عزم على قصد الكرك ، فسير إلى حلب من يستحضر العسكر ، وبرز من دمشق فى منتصف محرم ، فسار حتى نزل بأرض نَيْطرة(١) منتظراً اجتماع العساكر المصرية والشامية ،

(٣٣) نيطرة : أو النيطرة هى حصن قريب من طرابلس .
(معجم البلدان جـ ٨ : ١٦٨ ط بولاق)

وأمر العساكر المتواصلة إليه بشن الغارات على ما فى طريقهم من البلاد الساحلية ففعلوا ذلك .

وأقام بأرض الكرك حتى وصل الحاج الشامى إلى الشام ، وأمنوا غائلة العدو ، ووصل وقفل مصر الشتوى ، ووصل معه بيت الملك المظفر وما كان له بالديار المصرية ، وتأخرت عنه العساكر الحلبية بسبب اشتغالها بالإفرنج بأرض الأرمن من بلاد ابن لاون[١] ، وذلك أنه قد مات ملك الإفرنج ووصى لابن أخيه بالملك ، وكان الملك المظفر بحماه وبلغ السلطان الخبر ، فأمرهم بالدخول إلى بلاد العدو وإخماد ثائرتهم ، وسار الملك المظفر بعسكر حلب إلى حارم ، فأقام بها ليعلم العدو أن هذا الجانب ليس بمهمل ، فعاد السلطان إلى الشام ونزل بعشترا[٢] فى السابع عشر من ربيع الأول ، ولقيه ولده الملك الأفضل ومظفر الدين ابن زين الدين وجميع العساكر .

وكان قد تقدم إلى الملك المظفر بمصالحة الجانب الحلبى مع الإفرنج ليتفرغ البال مع العدو فى جانب واحد ، فصالحهم فى العشر الأواخر من ربيع الأول ، وتوجه إلى حماة يطلب خدمة السلطان للغزاة التى عزم عليها .

---

(١) ابن لاون : هو ليون الثانى صاحب أرمينية .
( مفرج الكروب تحقيق د . الشيال : ١٠٠ )
(٢) عشترا : موضع من أعمال دمشق .
( معجم البلدان ج ١٣ : ١٢٥ ط بيروت )

فسار ومن اجتمع به من العساكر الشرقية فى خدمته ، وهم عسكر الموصل — فى مقدمتهم مسعود ابن الزعفرانى — وعسكر ماردين . فلقيهم السلطان فى العشر الأوسط من ربيع الآخر فأقرهم وأكرمهم .

وفى منتصف هذا الشهر عرض السلطان العساكر لأمر قد عزم عليه على تل يعرف بتل[1] تسيل ، وتقدم إلى أصحاب الميمنة بحفظ موضعهم ، وإلى أصحاب الميسرة بذلك ، وإلى القلب بمثله .

## ذكر

### وقعة حطين المباركة على المؤمنين

وذلك أن السلطان رأى نعمة الله عليه باستقرار قدمه فى الملك ، وتمكين الله إياه فى البلاد ، وانقياد الناس لطاعته ، ولزومهم قانون خدمته ، ليس لها شكر سوى الاشتغال ببذل الجهد والاجتهاد إلى إقامة قانون الجهاد .

فسير إلى سائر العساكر واستحضرها ، واجتمعوا إليه بعشترا فى التاريخ المذكور ، وعرضهم ورتبهم ، واندفع قاصداً نحو بلاد العدو المخذول ، فى نهار الجمعة سابع عشر ربيع الآخر ، وكان أبداً يقصد بوقعاته الجمع سيما أوقات صلاة الجمعة ، تبركا بدعاء الخطباء على المنابر ، فربما كانت أقرب إلى الإجابة ، فسار فى ذلك الوقت على تعبئة الحرب ، وكان قد بلغه

(١) فى ( ا ) لسيل تيسل والتصحيح من ( ج ١٥٥ ) .

أن العدو لما بلغهم أنه قد جمع العساكر ، اجتمعوا بأسرهم فى مرج صفورية بأرض عكا ، وقصدوا نحو المصاف معهم ، فسار ونزل من يومه على بحيرة طبرية عند قرية تسمى الصُّنَّبْرة[1] ، ورحل من هناك ، ونزل غربى طبرية[2] على سطح الجبل بتعبئة الحرب ، منتظرا أن الإفرنج إذا بلغهم ذلك قصدوه ، فلم يتحركوا من منزلتهم ، وكان نزوله فى هذه المنزلة فى يوم الأربعاء الحادى والعشرين . فلما رآهم لا يتحركون نزل جريدة على طبرية وترك الأطلاب بحالها قبالة وجه العدو .ونازل طبرية ، وزحف عليها فهاجمها وأخذها فى ساعة من النهار ، وامتدت الأيدى إليها بالنهب والأسر والحريق والقتل ، واحتمت القلعة وحدها .

ولما بلغ العدو ماجرى على طبرية لم يأخذهم الصبر دون إجابة الحمية ، فرحلوا من وقتهم وساعتهم وقصدوا طبرية للدفع عنها ، فأخبرت الطلائع الإسلامية الأمراء بحركة الإفرنج ، فسيروا إلى السلطان من عرفه ذلك ، فترك على طبرية من يحفظ قلعتها ، ولحق العسكر هو ومن معه . فالتقى

---

(١) الصنبرة : فى ( ا ) الصبيرة وهو خطأ والتصحيح من ( جـ ٥٥ ب ) ، وهى موضع بالأردن مقابل لعقبة أفيق .

( معجم البلدان جـ ١٢ : ٤٢٥ ط بيروت ) .

(٢) طبرية : بليدة مطلة على البحيرة المعروفة بهذا الإسم ، وهى فى طرف جبل ، وجبل الطور مطل عليها وهى من أعمال الأردن فى طرف الغور .

( النجوم الزاهرة جـ ٦ : ٣١ ط دار الكتب حاشية ٣ )

المسكران على سطح جبل طبرية الغربى منها ، وذلك فى أواخر الخميس الثانى والعشرين ، وحال الليل بين الفئتين ، فتبايتا على مصاف شاكىّ السلاح[١] ، إلى صبيحة الجمعة فى السادس والعشرين ، فركب العسكران وتصادما ، وعملت الجاليشية وتحركت الأطلاب ، والتحم القتال ، واشتد الأمر ، وذلك بأرض قرية تسمى اللُّوبْيا ، وضاق الخناق بالقوم ، هذا وهم سائرون كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون ، وقد أيقنوا بالويل والثبور ، وأحست أنفسهم أنهم فى غدٍ زوار القبر .

ولم يزل الحرب يلتحم ، والفارس مع قرينه يصطدم ، حتى لم يبق إلا الظفر ، ووقع الوبال على من كفر ، فحال بينهما الليل وظلامه ، وجرى فى ذلك اليوم من الوقائع العظيمة ، والأمور الجسيمة ، ما لم يحك عمن تقدم ، وبات كل فريق فى سلاحه ينتظر خصمه فى كل ساعة ، وقد أبعده التعب عن النهوض ، وشغله النَّصَب عن الْحَبْو فضلا عن الركوض ، حتى كان صباح السبت الذى بورك فيه ، فطلب كل من الفريقين مقامه ، وعلمت كل طائفة أن المكسورة بينهما مدحورة الجنس ، معدومة النفس .

وتحقق المسلمون أن من ورائهم الأردن ، ومن بين أيديهم بلاد القوم ، وأن لا ينجيهم إلا الله تعالى ، وكان الله قد قدر نصر المؤمنين

---

(١) فى (ب) وفى ( جـ ١٠٥٦ ) شاكين فى السلاح .

ويَسَّره ، وأجراه على وفق ما قدره ، فحملت الأطلاب الإسلامية من الجوانب ، وحمل القلب وصاحوا صيحة الرجل الواحد ، فألقى الله الرعب فى قلوب الكافرين « وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نصرُ المؤمنين[1] » .

وكان القُومِص ذكى القوم وألمعهم ، فرأى أمارات الخُذْلان قد نزلت بأهل دينه ، ولم يشغله ظن محاسنه حبسه عن تعبئة ، فهرب فى أوائل الأمر قبل اشتداده ، وأخذ طريقه نحو صور ، وتبعه جماعة من المسلمين ، فنجا وحده ، وأمن الإسلام كيده ، واحتاط أهل الإسلام بأهل الكفر والطغيان من كل جانب ، وأطلقوا عليهم السهام ، وحاملوهم بالصفاح ، وانهزمت منهم طائفة ، فتبعها أبطال المسلمين فلم ينج منها واحد ، واعتصمت الطائفة الأخرى بتل يقال له تل حِطّين . وهى قرية عنده ، وعندها قبر شعيب عليه الصلاة والسلام وعلى سائر الأنبياء ، فضايقهم المسلمون على التل ، وأشعلوا حواليهم النيران ، وقتلهم العطش ، وضاق بهم الأمر حتى كانوا يستسلمون للأسر خوفاً من القتل ، فأسر مقدموهم ، وقتل الباقون وأسروا ، وكان فيمن سلم وأسر من مقدميهم الملك[2] جُفْرى والبِرنْس أرناط وأخو الملك ، والبرنس هو صاحب الشوبك ،

---

(١) الآية رقم ٤٧ من سورة الروم .

(٢) الملك جفرى : من كبار ملوك الإفرنج وقد أسر يوم حطين بيد المسلمين ، غير أن صلاح الدين أكرمه .

( النجوم الزهرة جـ ٦ )

وابن المُنْفَرِي[(١)] وابنُ صاحب طبرية ، ومقدم الداوية[(٢)] وصاحب جُبَيْل[(٣)] ومقدم الاسْبِتَار[(٤)] .

وأما الباقون من المقدمين فإنهم قتلوا ، وأما الأدوان فإنهم قسموا إلى قتيل وأسير ، ولم يسلم منهم إلا من أسر ، وكان الواحد العظيم منهم يخلد إلى الأسر خوفاً على نفسه .

ولقد حكى لى من أثق به أنه لقى بحَوْران[(٥)] شخصاً واحداً معه طنب خيمة فيه نيف وثلاثون أسيرا أخذهم وحده لخذلان وقع عليهم .

---

(١) ابن المنفرى : كان من أبطال الإفرنج وقد قتله فرخشاه ابن أخى صلاح الدين سنة ٥٧٤ هـ .

( شذرات الذهب )

(٢) الداوية : أو الديوية : قوم من الإفرنج وقفوا أنفسهم على جهاد المسلمين وامتنعوا عن النكاح وغيره من ملذات الحياة ، ولم يكن لأحد عليهم طاعة ، وكانوا ينسبون إلى حصن حصين بنواحى الشام وقد أطلق المسلمون هذا الاسم على فرسان المعبد Templers وهم الجماعة التى أسسها Hugh de payers سنة ١١٣٩ م لحماية طريق الحجاج المسيحيين بين يافا والقدس ، ثم تحولت إلى هيئة حربية دينية كان لها شأنها فى التاريخ الصليبي الإسلامى .

( النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٣ ط دار الكتب )

(٣) جبيل : بلدة شرق بيروت على مسافة ثمانية فراسخ منها .

( معجم البلدان جـ ٥ ص ٢٠٩ ط بيروت )

(٤) الاسبتار : جماعة من الفرسان لها كثير من خصائص الديوية ، ويطلق عليهم أيضا اسم الاسبتارية أو الهسيتالين Hospitallers تأسست سنة ١٠٩٩م بعد استيلاء الصليبيين على بيت المقدس ، وإن كانت قد نشطت قبل ذلك بكثير ، وكان الهدف الأول لها علاج المرضى وإيواء الحجاج ومساعدتهم .

( النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٣ ط دار الكتب )

(٥) حوران : كورة واسعة من أعمال دمشق تتبعها قرى كثيرة ومزارع .

( معجم البلدان جـ ٧ ص ٣١٧ — ٣١٨ ط بيروت )

فأما الذين بقوا من مقدميهم فنذكر حديثهم . أما القُومِص الذى هرب فإنه وصل إلى طرابُلُس وأصابته ذات الجنب فأهلكه الله بها . وأما مقدم الاسْبِتَار والداوية فإن السلطان اختار قتلهم فقتلوا عن بكرة أبيهم . وأما البرنس أرناط فكان السلطان قد نذر أنه إذا ظفر به قتله ، وذلك أنه كان عبر به بالشوبك قافلة من الديار المصرية فى حالة الصلح ، فنزلوا عنده بالأمان فغدر بهم وقتلهم ، فناشدوه الله والصلح الذى بينه وبين المسلمين ، فقال ما يتضمن الاستخفاف بالنبى صلى الله عليه وسلم ، وبلغ ذلك السلطان ، فحمَلَه الدّين والحمّية على أنه نَذَر إنْ ظفر به قتله .

ولما فتح الله بالنصر والظفر ؛ جلس السلطان فى دهليز الخيمة فإنها لم تكن نصبت ، والناس يتقربون إليه بالأسرى ومن وجدوه من المقدمين ، ونصبت الخيمة ، وجلس فرحاً مسروراً لما أنعم الله به عليه .

ثم استحضر الملك جُفْرِى وأخاه البرنس أرناط ، وناول الملك جُفْرِى شربة من جُلاّب بثلج فشرب منها ، وكان على أشد حال من العطش ، ثم ناول بعضها البِرنَس أرناط فقال السلطان للتُّرْجمان : قل للملك : أنت الذى سقَيْتَه ، وأما أنا فما سقَيْتُهُ . وكان على عادة جميل العرب وكريم أخلاقهم ؛ أنّ الأسير إذا أكل أو شرب من ماء لمن أسره أمن بذلك جرياً على مكارم الأخلاق ، ثم أمرهم بسيرهم إلى موضع عيّن لنزولهم، فمضوا وأكلوا شيئاً ثم عادوا ، فاستحضرهم ولم يبق عنده سوى بعض الخدم ، وأقعد الملك فى الدّهليز واستحضر البرنس أرْناط ، وأوقفه على ما قال ، وقال له : ها أنا أنتصر لمحمد — عليه الصلاة والسلام —

ثم عرض عليه الإسلام فلم يفعل ، ثم سلّ النُّمْجاة[١] وضربه بها فحل كتفه ، وتمّم عليه منْ حضَر ، وعجل الله بروحه إلى النار ، فأُخذ ورُمِىَ على باب الخيمة . فلما رآه الملك قد خرج به على تلك الصورة لم يشك أنه يثنّى به ، فاستحضره وطيَّبَ قلبه ، وقال : لم تجرِ عادة الملوك أن يقتلوا الملوك ، وأما هذا فإنه تجاوز حدَّه فجرى ما جرى .

وبات الناس فى تلك الليلة على أتم سرور ، وأكمل حبور ، ترتفع أصواتهم بالحمد لله والشكر له ، والتكبير والتهليل ، حتى طلع الصبح فى يوم الأحد ، وتسلم — قدس الله روحه — فى بقية ذلك اليوم قلعة طبرَيّة ، وأقام بها إلى يوم الثلاثاء .

ثم رحل طالبا عكا ، وكان نزوله عليها يوم الأربعاء سلْخ ربيع الآخر ، وقاتلها يوم الخميس مستهل جمادى الأولى ، فأخذها واستنقذ من كان فيها من الأسارى ، وكانوا زُهاء أربعة آلاف نفر ، واستولى على مافيها من الأموال والذخائر والبضائع والتجائر ، فإنها كانت مظنّة التجار .

وتفرقت العساكر فى بلاد الساحل ، يأخذون الحصون والقلاع والأماكن المنيعة ، وأخذوا نابُلس[٢] وحَيْفا[٣] وقيسارية وصَفُّورِية

---

(١) النمجاة الخنجر أو السيف الصغير أو السكين المنحنية ، كلمة فارسية معربة .
( النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٤ حاشية ٢ ، ط دار الكتب )

(٢) نابلس : مدينة مشهورة بأرض فلسطين بين جبلين .
( المرجع السابق ص ١٣٧ حاشية ١ )

(٣) حيفا : ميناء بفلسطين قرب يافا ، سقطت فى يد الصليبين سنة ٤٩٤ هـ ثم فتحها صلاح الدين سنة ٥٧٣ هـ . معجم البلدان جـ ٧ : ٣٧٢ ط بيروت
( معجم البلدان جـ ٢٠ — ٤٢٨ ط بيروت )

والنَّاصِرة ، وكان ذلك لخلوها من الرجال بالقتك والأسر .

ولما استقرت قواعد عكا واقتسم الناعون أموالها وأساراها ؛ سار يطلب[(١)] تِبْنين فنزل عليها يوم الأحد ثانى عشر جمادى الأولى ، وهى قلعة منيعة ، فنصب عليها المناجيق ، وضيق عليها بالزحف الخناق ، وكان بها رجال أبطال شديدون فى دينهم ، فاحتاجوا إلى معاناة شديدة ، ونصره الله عليهم ، وتسلمها ثامن عشرة عَنْوة ، وأسر من بقى بها بعد القتل . ثم رحل منها إلى صَيْدا فنزل عليها ، وفى الغد تسلمها ، وأقام عليها بحيث قرر قاعدتها .

ثم سار حتى أتى بيْروت فنازلها فى الثانى والعشرين ، فركب عليها القتال والزحف ، وضيق عليهم الأمر حتى أخذها فى التاسع والعشرين ، وتسلم أصحابه جُبيلا وهو على بيروت .

ولما فرغ باله من هذا الجانب رأى قصد عَسْقَلان ، ولم ير الاشتغال بصُور بعد أن نزل عليها ومارسها لأن العسكر كان قد تفرق فى الساحل ، وذهب كل إنسان يأخذ لنفسه شيئاً ، وكانوا قد ضرسوا من القتال وملازمة الحرب ، وكان قد اجتمع فى صُور كل افرنجى بقى فى الساحل ، فرأى قصد عسقلان لأن أمرها كان أيسر ، ونازلها فى السادس والعشرين من جمادى الآخرة .

---

(١) تبنين : أو تبنينا ، بلدة فى جبال بنى عامر المطلة على بانياس بين دمشق وصور .

( معجم البلدان جـ ٥ ص ١٤ ط بيروت )

وتسلم فى طريقه مواضع كثيرة كالرملة ، وبينا[١] والدَّارُون[٢] ، وأقام عليها المنجنيقات ، وقاتلها قتالا شديداً وتسلمها سلخ هذا الشهر ، وأقام عليها إلى أن تسلم أصحابه غَزَّة ، وبَيْتِ جِبْرِين[٣] والنطرون بغير قتال .

وكان بين فتوح عَسْقلان وأخْذ الإفرنج لها من المسلمين خمس وثلاثون سنة ، فإن العدو ملكها فى سبعة وعشرين من جمادى الأخرى سنة ثمان وأربعين وخمسمائة .

## ذكر

### فتوح القدس الشريف حرسها الله تعالى

ولما تسلم عسقلان والأماكن المحيطة بالقدس ؛ شمَّر عن ساق الجد والاجتهاد فى قصده ، واجتمعت عليه العساكر التى كانت متفرقة فى الساحل بعد انقضاء لبانتها من النهب والغارة ، فسار نحوه معتمداً على الله ، مفوضاً أمره إليه ، منتهزاً فُرْصة فتح باب الخير الذى حُثَّ عليه —

---

(١) بينا أو بينى ، بليدة قرب الرملة بفلسطين ، وقد ذكرت فى ( ا ) بيتا وهو خطأ والتصحيح من ( ج )

( معجم البلدان جـ ٢ ص ٤٧٨ ط بولاق )

(٢) الدارون : قلعة بعد غزة لقاصد مصر :

( معجم البلدان جـ ٤ ص ١٣ ط بولاق )

(٣) بيت جبرين : بليدة بين بيت المقدس وغزة ، وكانت فيه قلعة حصينة .

( معجم البلدان جـ ٤ ص ٥١٩ ط بولاق )

صلى الله عليه وسلم — بقوله : مَنْ فُتح له[1] بابُ خيرٍ فَلْينتهزْه ، فإنه لا يَدْرى متى يُغلق دونه . وكان نزوله عليها فى الخامس عشر من رجب سنة ثلاثة وثمانين المباركة ، فنزل بالجانب الغربى ، وكان مشحوناً بالمُقاتلة والخيَّالة والرَّجالة ، ولقد تحازَرَ أهل الخبرْة عِدَّة من كان فيه من المقاتلة بما يزيد على ستين ألفاً ما عدا النساء والصِّبيان .

ثم انتقل — رحمه الله — لمصلحة رآها إلى الجانب الشمالى ، ونصب عليه المجانيق ، وضايقه بالزحف والقتال وكثْرة الدماء ، حتى أخذ النقب فى السور مما يلى وادى جهنم[2] فى قرنة شمالية .

ولما رأى أعداء الله ما نزل بهم من الأمر الذى لا يندفع عنهم ، وظهرت لهم أَمارات نصرة الحق على الباطل ، وكان قد ألقى فى قلوبهم الرعب مما جرى على أبطالهم ورجالهم من السَّبْى والقتل والأسر ، وما جرى على حصونهم من الاستيلاء والأخذ ، علموا أنهم إلى ما صاروا إليه صائرون ، وبالسيف الذى قُتل به إخوانهم مقتولون ، فاستكانوا وأَخْلَدوا إلى طلب الأمان ، واستقرت القاعدة بالمراسلة بين الطائفتين ، وكان تسلمه القدس — قدس الله روحه — فى يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب ، وليلته كانت ليلة المِعْراج المنصوص عليها فى القرآن المجيد . فانظر إلى هذا الاتفاق العجيب ، كيف يسر الله عَوْده إلى أيدى المسلمين

---

(١) الزيادة من (ب) ومن ( جـ ١٦٠ ) ومن النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٤ ط دار الكتب .

(٢) وادى جهنم : موضع بظاهر بيت المقدس ( معجم البلدان جـ ٣ : ٧٦٢ )

فى مثل زمان الإسراء بنبيهم — صلى الله عليه وسلم — وهذه هى علامة قبول هذه الطاعة من الله تعالى ، وكان فتوحاً عظيما شهده من أهل العلم خلق عظيم ، ومن أرباب الحرب[١] والطُّرق ، وذلك أن الناس لما بلغهم ما يسر الله على يده من فتوح الساحل ؛ وشاع قصْده القدس ؛ قَصَده العلماء من مصر ومن الشام بحيث لم يتخلف معروف من الحضور ، وارتفعت الأصوات بالضجيج والدعاء والتهليل والتكبير ، وخطب فيه ، وصُلِّيتْ فيه الجمعة يوم فتحه ، وحُطَّ الصليب الذى كان على قُبَّة الصخرة ، وكان الصليب شكلا عظيما ؛ ونصر الله الإسلام نصر عزيز مقتدر .

وكانت قاعدة الصلح أنهم قطعوا على أنفسهم عن كل رجل عشرة[٢] دنانير ، وعن كل امرأة خمسة دنانير صُورية[٣] ، وعن كل صغير ذكر أو أنثى ديناراً واحداً ، فمن أحْضر القطيعة سَلِم بنفسه ، وإلا أُخذ أسيراً ، وفرّج الله عمن كان أسيراً من المسلمين ، وكان خلقاً عظيماً[٤] زهاء ثلاثة آلاف أسير .

وأقام — رحمه الله — يَجْمع الأموال ويُفرّقها على الأمراء والعلماء

(١) الزيادة من النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٧ ط دار الكتب .

(٢) فى المرجع السابق : ١٣ ( عشرين )

(٣) دنانير صورية : وتختلف عن الدنانير الاسلامية فى أن صور الملوك كانت تنقش على وجهيها .

( الروضتين جـ ١ تحقيق د . محمد حلمى أحمد عن صبح الأعشى جـ ٣)

(٤) فى (١) كثيرا وما ذكر من (ب) ومن ( جـ ١٦١ ) ومن النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٧ ط دار الكتب .

ثم رسم[1] بإيصال من دفع قطيعته منهم[2] إلى مأمنه وهو صور .

ولقد بلغنى أنه رحل عن القدس ولم يبق له من ذلك المال[3] شيء ، وكان مائتى ألف دينار وعشرين ألف دينار ، وكان رحيله يوم الجمعة الخامس والعشرين من شعبان .

## ذكر

### قصده صور

ولما ثبت قدم السلطان بملك القدس والساحل ؛ قويت نفسه على قصد صور ، وعلم أنه إن أخر أمرها ربما اشتد ، فرحل سائراً إليها حتى عكا ، فنزل عليها ونظر فى أحوالها ، ثم رحل متوجها إلى صور يوم الجمعة خامس شهر رمضان ، وسار حتى أشرف عليها ، ونزل قريباً منها ينتظر وصول آلات القتال .

وكان لما تحرر عزمه على قصد صور سير إلى ولده الملك الظاهر يستحضره ، وكان قد تركه بحلب ليسد ذلك الجانب ، لاشتغاله هو بأمر الساحل ، فقدم عليه فى الثامن عشر على تلك المنزلة ، وسُرّ بوصوله سروراً عظيما .

---

(١) زيادة من النجوم الزاهرة جـ ٦ : ٣٧ ط دار الكتب .

(٢) بالنجوم الزاهرة جـ ٦ : ٣٧ ( من الفرنج ) .

(٣) فى ( ١ ) الملك والتصحيح من المرجع السابق : ٣٧١ .

ولما تكاملت عنده آلات القتال من المناجيق[١] والدبابات والستائر[٢] وغير ذلك ؛ نزل عليها فى الثامن والعشرين ، وضايقها وقاتلها قتالا عظيما ، واستدعى أسطول مصر، وكان يحاصرها من البحر، والعسكر من البر .

وكان قد خلف أخاه الملك العادل بالقدس يقرر قواعده فاستدعاه ، فوصل إليه فى خامس شوال ، وسير من حاصر هُونين[٢] ، فسلمت فى الثالث والعشرين من شوال .

## ذكر

## كسرة الأسطول

وذلك أنه كان قد قدم[٣] على الأسطول إنسان يقال له الفارس بدران ـ كان ناهضا جلدا فى البحر ، وكان رئيس البحريين يقال له عبدالمحسن،

(١) المناجيق : مفردها ( منجنيق ) وهى آلة ترمى بها الحجارة وتجمع على منجنيقات ومجانق ومجانيق ( القاموس المحيط ) .

(٢) الستائر : جمع ستارة ، وهى من أهم معدات القتال عند المسلمين فى القرون الوسطى ، وكانت تعمل إما من الجلود أو اللبود المبللة بالخل والشبة والنطرون ، وكانت تتخذ لوقاية الحصون والقلاع من قذائف النفط ، وقد استعملت بوجه خاص لحماية آلات الحرب التى كانت تصنع من الأخشاب كالدبابات والأبراج كما كانت تستعمل لحماية السفن الحربية من قذائف النفط .

( مفرج الكروب جـ ٢ : ٣٠٣ تحقيق د . الشيال عن آثار الأول للحسن بن عبد الله )

(٣) هونين : بلدة فى جبال عاملة تطل على نواحى مصر القريبة منها .

( معجم البلدان جـ ٢٠ : ٤٢٠ ط بيروت )

وكان قد أكد عليهم الوصية وأخذ حذرهم وتيقظهم لئلا تنتهز منهم فرصة ، فخالفوه وغفلوا عن أنفسهم فى الليل ، فخرج أسطول الكفار من صور وكبسوهم وأخذوا المقدَّمَيْن مع خمس قطع ، وقتلوا خلقا عظيما من الأسطول الإسلامى ، وذلك فى السابع والعشرين من شوال .

فلما علم السلطان ما تم على المسلمين ضاق عطنه ، وكان قد هجم الشتاء وتراكت الأمطار ، وامتنع الناس من القتال من شدة المطر ، فجمع الأمراء واستشارهم فيما يفعل ، فأشاروا عليه بالرحيل ليأخذ العسكر جزءا من الراحة ، ويستمدوا لهذا الأمر استمداداً جديداً .

فرأى ذلك رأيا ، ورحل عنها ، بعد أن رمى المنجنيقات وسيرها ، وأحرق مالا يمكن نقله ، وكان رحيله ثانى ذى القعدة من هذه السنة ، ففرق العساكر وأعطاها دستوراً ، وسار كل قوم إلى بلادهم ، وأقام هو مع جماعة من خواصه بعكا حتى دخلت سنة أربع وثمانين .

## ذكر
### نزوله على كوكب[1]

ولما دخلت عليه هذه السنة المباركة رأى الاشتغال بالحصون الباقية لهم ، مما يضعف قلوب من فى صور ، وينهى أمرها به ، فاشتغل بذلك ، ونزل على كوكب فى أوائل محرم .

---

(١) كوكب : اسم لقلعة حصينة رصينة على الجبل المطل على مدينة طبرية ، تشرف على الأردن .

(المرجع السابق جـ ١٦ : ٤٩٤)

وكان سبب بدايته بكوكب؛ أنه قد جعل حولها جماعة يحفظونها من أن تدخل إليهم قوة، فخرج الإفرنج ليلا، وأخذوا غرتهم، وكيسوهم يعفربلا وقتلوا مقدمهم وكان من الأمراء، يعرف بسيف الدين أخى الجاولى، واخذوا أسلحتهم، فسار رحمه الله من عكا ونزل عليها بمن معه من خواصه، فإنه كان قد أعطى العساكر دستوراً، وعاد أخوه إلى مصر. وولده إلى حلب. ولقى فى طريقه شدة من الثلج والبرد، فحملته مع ذلك الحمية على النزول عليها، وأقام يقاتلها مدة.

وفى تلك المنزلة وصلت إلى خدمته. فإنى كنت قد حججت سنة ثلاث وثمانين. وكانت وقعة ابن المقدم وخرج يوم عرفة على عرفة لخلف جرى بينه وبين أمير الحاج تشتكين[1] على ضرب الكوس والدبدبة، فإن أمير الحاج نهاه عن ذلك فلم ينته ابن المقدم — وكان من أكبر أمراء الشام وكان كثير الخير[2] كثير الغزاة. فقدر الله أن جرح بعرفة يوم عرفة. ثم حمل إلى « منى » مجروحا. ومات بمنى يوم الخميس — يوم عيد الله الأكبر. وصلى عليه فى مسجد الخيف فى بقية ذلك اليوم ودفن بالمعلى، وهذا من أتم السعادات. وبلغ ذلك السلطان فشق عليه.

ثم اتفق لى العود من الحج على الشام لقصد القدس وزيارته؛ والجمع بين زيارة النبى صلى الله عليه وسلم وزيارة إبراهيم — عليه الصلاة والسلام، فوصلت إلى دمشق، ثم خرجت إلى القدس، فبلغه خبر وصولى فظن

---

(١) ى ( جـ ١٦٣ ) ( تشكين ) وفى (ا) يشكتين

(٢) الزيادة من (ب)، ومن ( جـ ١٦٣ )

أنى وصلت من جانب الموصل فى حديث ، فاستخصرنى عنده وبالغ فى الإكرام والاحترام .

ولما ودعته ذاهبا إلى القدس خرج لى بعض خواصه ، وأبلغنى تقدمه إلى بأن أعود أمتثل فى خدمته عند العود من القدس ، فظننت أنه يوصينى بمهم إلى الموصل ، وانصرفت إلى القدس يوم رحيله عن كوكب ، ورحل لأنه علم أن هذا الحصن لا يؤخذ إلا بجمع العساكر عليه ، وكان حصنا قوياً ، وفيه رجال شداد من بقايا السيف ، وميرة عظيمة ، فرحل إلى دمشق ، وكان دخوله اليها فى سادس ربيع الأول .

وفى ذلك اليوم اتفق دخولى إليها عائداً من القدس ، وأقام بها خمسة أيام فكان له عنها ستة عشر شهراً ، وفى اليوم الخامس بلغه خبر الإفرنج أنهم[١] بجبيل واغتالوها ، فخرج مسرعاً ساعة بلوغ الخبر .

وكان قد سير إلى العساكر يستدعيها من سائر الجوانب ، وسار يطلب جبيلا ، فلما عرف الإفرنج بخروجه كفوا عن ذلك ، وكان بلغه وصول عماد الدين وعسكر الموصل ومظفر الدين إلى حلب ، قاصدين الخدمة للغزاة ، فسار نحو حصن الأكراد[٢] فى طلب الساحل الفوقانى .

---

(١) الزيادة من (ب) ومن (جـ ٦٣ ب)

(٢) حصن الأكراد : حصن منيع على جبل الجليل المتصل بجبل لبنان ، ويقابل هذا الجبل حمص من جهة الغرب ، وكان بعض أمراء الشام بنى فيه برجا وجعل فيه قوما من الأكراد طليعة بينه وبين الفرنج ، فاستقروا فيه بأهليهم ثم حصنوه حتى أصبح قلعة قوية فى طريق الفرنج المغيرين ، فاشتراه الفرنج من المقيمين به من الأكراد فرجعوا إلى بلادهم واحتله الفرنج .

( معجم البلدان جـ ٧ : ٢٦٤ ط بيروت )

## ذكر

دخوله الساحل الأعلى وأخذه اللاذقية وجَبَلَة وغيرها .

ولما كان مستهل ربيع الآخر نزل على تل قُبالة حصن الأكراد ، ثم سير إلى الملك الظاهر والملك المظفر أن يجتمعا وينزلا بتيزين [١] قبالة انطاكية ، ليحفظ ذلك الجانب، وسارت عساكر الشرق حتى اجتمعت لخدمة السلطان فى هذه المنزلة ، ووصلت إليه بها على عزم المسير إلى المَوْصِل متحهزاً لذلك .

فلما حضرت عنده فرح بى وأكرمنى ، وكنت قد جمعت له كتابا فى الجهاد بدمشق — مدة مقامى فيها ، يجمع أحكامه وآدابه ، فقدمته بين يديه فأعجبه ، وكان يلازم مطالعته . وما زلت أطلب دستوراً فى كل وقت وهو يدافعنى عن ذلك ، ويستدعينى للحضور فى خدمته فى كل وقت ، ويبلغنى على ألسنة الحاضرين ثناءه علىّ ، وذكره إياى بالجميل .

فأقام فى منزلته ربيعاً الآخر جميعه ، وسمد فى أثنائه إلى حصن الأكراد ، وحاصرها يوم مجيئه بها ، فما رأى الوقت يحمل حصاره ، واجتمعت العساكر من الجوانب ، وأغار على بلد طَرَابُلُس [٢] فى الشهر

(١) تيزين : قرية كبيرة من نواحى حلب

( معجم البلدان جـ ٥ : ٦٦ ط بيروت )

(٢) طرابلس : أو ( اطرابلس الشام ) مدينة ( بساحل الشام الشمالى ) على طرف خارج فى البحر ، فتحها المسلمون سنة ١٨٦ هـ وخربوها وعمروا على نحو ميل منها مدينة سموها باسمها

( ياقوت جـ ١٣ : ٢ — ٢٦ ط بيروت )

دمشق ، ودخل البلاد مغيراً ومختبراً لمن بها من العساكر ، ويقويه العساكر بالغنائم .

ثم نادى فى الناس فى أواخر الشهر : إنا داخلون الساحل ، وهو قليل الأزواد ، والعدوّ يحيط بنا فى بلاده من سائر الجوانب ، فأحملوا زاد شهر .

ثم سير إلىّ مع الفقيه عيسى ، وكشف إلى أنه ليس فى عزمه أن يمكنني من العود إلى بلادى ، وكان الله قد أوقع فى قلبى محبته منذ رأيته وحبه الجهاد ، فأجبته إلى ذلك[١] ، وخدمته من تاريخ مستهل جمادى الأولى سنة أربع وثمانين ، وهو يوم دخوله الساحل ، وجميع ما حكيته من قبل[٢] إنماهو روايتى عمن أثق به ممن شاهده .

ومن هذا التاريخ ما سطرت إلا ما شاهدته أو أخبرنى به من أثق به خبراً يقارب العيان ، والله الموفق .

ولما كان يوم الجمعة رابع جمادى الأولى رحل السلطان على تعبئة لقاء العدو ، ورتب الأطلاب ، وسارت الميمنة أولا ومقدمها عماد الدين زنكى ، والقلب فى الوسط ، والميسرة فى الآخر ومقدمها مظفر الدين ، وسار الثقل فى وسط العسكر حتى أتى المنزل ، فبتنا فى تلك الليلة فى

---

(١) فى (ا) « فأحببته لذلك » والتصحيح من (ب) ومن ( جـ ٦٤ ب ) وهو مناسب لسياق الحديث .

(٢) الزيادة من (ب) ، ومن ( جـ ٦٤ ب )

بلد العدو ، ثم رحل ونزل على المُرَيمة[١] فلم يقاتلها ، ولم يتعرض لها .

ووصل فى السادس إلى أنْطَرْسُوس[٢] فوقف قبالتها ينظر إليها ، وكان فى عزمه الاجتياز ، فإنه كان له عمل بجَبَلة[٣] فاستهان بأمرها فعزم على قتالها ، فسير من رد الميمنة ، وأمرها بالنزول على جانب البحر ، وأمر الميسرة بالنزول على البحر من الجانب الآخر ، ونزل هو فى موضعه ، وصارت العساكر مُحْدِقة بها من البحر إلى البحر ، وهى مدينة راكبة على البحر ، ولها بُرجان كالقلعتين حصينان .

وركب هو وقارَب البلد ، وأمر الناس بالزحف والقتال ، فلبسوا لَأْمة الحرب والقتال والزحف ، وضايقهم ، فما استتم نَصْبُ الخيام حتى صعد الناس السور ، وأخذوها بالسيف ، وغنم العسكر جميع من بها وما بها ، وخرج الناسُ والأسرى ، وأموالهم بأيديهم[٤] .

وترك الغلمان نصب الخيم ، واشتغلوا بالنهب والكسب ، ووفى بقوله : « نتغدى بأنطرسوس إن شاء الله » . وعاد إلى خيمته فرحا

---

(١) المريمة : بلد تتاخم الدهناء ، وكان حصنا قويا من الحصون التى دخلت فى نطاق نفوذ إمارة طرابلس اللاتينية .

( معجم البلدان جـ ١٣ : ١١٥ ط بيروت )

(The crusaders in the East p. 164),.

(٢) أنطرسوس : من سواحل بلاد الشام ، يذكر ياقوت أنها كانت آخر أعمال دمشق وأول أعمال حمص

( معجم البلدان جـ ٣ : ٧٠ ط بيروت )

(٣) جبلة : قلعة الشام بساحل قرب اللاذقية ، كانت أيام ياقوت من أعمال حلب

( معجم البلدان جـ ٥ : ١٠٥ ط بيروت )

(٤) فى ( جـ ٦٥ ب ) وخرج الناس والأسرى بأيديهم وأموالهم )

مسروراً ، وحضرنا عنده للهناء بما جرى ، ومد الطعام ، وحضر الناس وأكلوا على عادتهم ، ورتب على البرجين الباقيين الحصار ، فسلم أحدهما إلى مظفر الدين ، فما زال يحاصره حتى أخر به[1] وأخذ من كان فيه .

وأمر السلطان بإخراب سور البلد ، وقسمه على الأمراء ، وشرعوا فى إخرابه ، وأخذوا يحاصرون الآخر — وكان حصيناً منيما مبنيا بالحجر النحيت ، وقد اجتمع من كان فيها من الخيالة والبطارقة والقاتلة فيه ، وخندقه يدور فيه الماء ، وفيه جروخ[2] كثيرة ، يخرج الناس منها عن بعد ، وليس له قدر يخرج عليه مسلم ، فرأى السلطان تأخير أمره ، والاشتغال بما هو أهم منه ، فاشتد فى إخراب السور حتى أتى عليه ، وخرب البيعة وهى بيعة عظيمة عندهم ، محجوج إليها من أنطار بلادهم ، وأمر بوضع النار فى البلد فأحرقه[3] جميعه ، حتى كان يتأجج النار فى أرزه وبيوته ، والأصوات مرتفعة بالتهليل والتكبير .

فأقام عليها يخربها إلى الرابع عشر ، وسار يريد جَبَلة ، وكان عرض له ولده الملك الظاهر فى أثناء طريق جَبَلة ، فإنه طلبه وأمره أن يحضر معه جميع العساكر التى كانت بتيزين .

---

(١) فى ( ا ) «أخرجه» والتصحيح من (ب) ، ومن (ح) ٦٥ ب فى ( ا )

(٢) فى ( ا ) ( خروج ) والتصحيح من (ب) ومن( ح ) ٦٦ ا

(٣) فى ( ا ) « فأخرج » والتصحيح من (ب) ومن ( ح ٦٦ ا )

# ذكر

## فتوحه جبلة واللاذقية(١)

ووصل إلى جبلة فى الثامن عشر ، وما استتم نزول العساكر حتى أتى البلد ، وكان فيه مسلمون مقيمون فيه ، وقاضٍ يحكم بينهم ، وكان قد عمل على البلد فلم يمتنع ، وبقيت القلعة ممتنعة ، فاشتغل بقتالها ، فقاتلت قتالا يقيم عذراً لمن كان فيها ، وسلِّمت بالأمان فى التاسع عشر ، وأقام عليها إلى الثالث والعشرين ،

وسار عنها يطلب اللاذِقيّة ، وكان نزوله عليها فى الرابع والعشرين ، وهى بلد مليح ، خفيف على القلب ، غير مستور ، وله ميناء مشهورة ، وله قلعتان متصلتان على تل مشرف على البلد ، فنزل محدقا بالبلد ، وأخذ العسكر منازلهم مستدرين على القلعتين من جميع نواحيهما ، إلا من ناحية البلد ، واشتد القتال ، وعظم الزحف ، وارتفعت الأصوات ، وقوى الضجيج إلى آخر اليوم المذكور ، وأخذ البلد دون القلعتين ، وغنم الناس منه غنيمة عظيمة ، فإنه كان بلد التجار ، ففرق بين الناس الليل وهجومه ، وأصبح يوم الجمعة مقاتلا ، مجتهداً فى أخذ النُّقُوب ، وأخذت النقوب من شمالى القلاع ، وتمكن منها النَّقْب حتى بلغ طوله على ما حكى لى من ذرعه ستين ذراعا ، وعرضه أربعة أذرع ، واشتد الزحف عليهم حتى صعد الناس الجبل ،

---

(١) اللاذقية : فى ساحل بحر الشام ، وكانت تعد فى أعمال حمص أحيانا ومن أعمال حلب أحيانا أخرى ، وهى غربى جبلة وبينهما ستة فراسخ .
( معجم البلدان جـ ١٧ — ٥١ ط بيروت )

وقاربوا السور ، وتواصل القتال حتى صاروا يتحاذفون بالحجارة باليد .

فلما رأى عدو الله ما حل بهم من الصغار والبوار ؛ استغاثوا بطلب الأمان عشية الجمعة الخامس والعشرين من الشهر ، وطلبوا قاضى جبلة يدخل إليهم ليقرر لهم الأمان ، فأجيبوا إلى ذلك .

وكان – رحمه الله – متى طلب منه الأمان لا يبخل به ، رفقا ، فعاد الناس عنهم إلى خيامهم وقد أخذ منهم التعب ، فباتوا إلى صبيحة السبت ، ودخل قاضى جبلة إليهم ، واستقر الحال معهم على أنهم يطلقون بنفوسهم وذراريهم وأموالهم ، خلا الغلال والذخائر وآلات السلاح والدواب ، وأطلق لهم دواب يركبونها إلى مأمنهم ، ورقى عليها العَلَمُ الإسلامى المنصور فى بقية ذلك اليوم ، وأقمنا عليها إلى السابع والعشرين .

## ذكر

### فتوح صِهْيَوْن[1]

ورحل عن اللاذقية طالبا صهيوْن ، واستدارت العساكر بها من سائر نواحيها فى التاسع والعشرين ، ونصب عليها ستة مناجيق ، وهى قلعة حصينة منيعة فى طرف جبل ، خنادقها أودية هائلة واسعة عظيمة ، وليس لها خندق محفور إلا من جانب واحد ، مقدار طوله ستون ذراعاً ولا يبلغ[2] ، وهو نقر فى حجر ، ولها ثلاثة أسوار ، سور دون ربضها

(١) صهيون : حصن حصين من أعمال سواحل بحر الشام من أعمال حمص لكنه ليس بمشرف على البحر ، وهى قلعة حصينة مكينة فى طرف جبل .
( معجم البلدان جـ ١٢ : ٤٣٦ ط بيروت )

(٢) فى (ب) وفى (جـ ٦٧ ب) « ولا يبلغ » وفى (ا) ( أو أكثر )

وسور دون القلعة ، وسور القامة ، وكان على قلعتها علم طويل منصوب ، فحين أقبل العسكر الإسلامى شاهدته قد وقع ، فاستبشر المسلمون بذلك ، وعلموا أنه النصر والفتح .

واشتد القتال عليها من سائر الجوانب ، فضربها ولده[١] الملك الظاهر صاحب حلب ، وكان نصب على صهيون[٢] منجنيقاً قباله[٣] قريباً من سورها ، وقاطع[٤] الوادى ، وكان صائب الحجر ، فلم يزل يضربها حتى هدم من السور قطعة عظيمة تمكن الصاعد فى السور من[٥] الترق إليه منها .

ولما كان بكرة الجمعة ثانى جمادى الآخرة عزم السلطان وتقدم ، وأمر المنجنيقات أن تتوالى[٦] بالضرب ، وارتفعت الأصوات ، وعظم الضجيج بالتكبير والتهليل ، وما كان إلا ساعة حتى رقى المسلمون على الأسوار التى للربض ، واشتد الزحف ، وعظم الأمر ، وهاجم المسلمون الريف .

ولقد كنت أشاهد الناس وهم يأخذون القدور وقد استوى فيها

---

(١) فى (ا) « عنجنيق » وما ذكر من (جـ ٦٨ ا)
(٢) تكملة من (جـ ٦٨ ا)
(٣) تكملة من (ب) ، ومن (جـ ٦٨ ا)
(٤) فى (ا) « فقطع » وما ذكر وهو أنسب من (ب) ومن (جـ ٦٨ ا)
(٥) تكملة من (ب) ومن (جـ ٦٨ ا)
(٦) فى (ب) وفى (جـ ٦٨ ا) تتواتر .

الطمام فيأكلونها وهم يقاتلون ، وانضم من كان فى الربض إلى القلعة ، ويحملون ما أمكنهم أن يحملوا من أموالهم ، ونهب الباقى ، واستدارت المقاتلة حول أسوار القلعة .

ولما عاينوا الهلاك استغاثوا بطلب الأمان ، ووصل خبرهم إلى السلطان فبذل الأمان ، وأنعم عليهم على أن يسلموا بأنفسهم وأموالهم ، ويؤخذ من الرجل منهم عَشَرةُ دنانير ، ومن المرأة خمسة ، وعن الصغير ديناران ، وسلمت القلعة ، وأقام السلطان عليها حتى سلم عدة قلاع كالعيذ[1] ، وفِيجَة[2] وبلاطُنُس[3] وغيرها من القلاع والحصون تَسَلَّمها النواب .

## ذكر
## فتوح بكاس

ثم رحل وسرنا حتى أتينا سادس جمادى الأخرى بكاس — وهى قلعة حصينة على جانب العاصى ، ولها نهر يخرج من تحتها ، وكان المنزل

---

(١) قلعة العيذ : أو العيذو أو عيذون ، قلعة بنواحى حلب .
( معجم البلدان جـ ١٤ : ١٧٦ ط بيروت )

(٢) فيجة : قرية بين دمشق والزبدانى ، عندها مخرج نهر دمشق ( بردى ) وقد الاسم جاء فى ( ا ) فيحة وهو خطأ والتصحيح من ( معجم البلدان جـ ١٥ : ٢٨٢ ط بيروت ) ومن ( جـ ٦٨ ب ) .

(٣) بلاطنس : وليس بيلاطنيس كما جاء فى ( ا ) وهو حصن منيع بسواحل الشام مقابل اللاذقية من أعمال حلب الغربية . وجاء بالنجوم الزاهرة جـ ٦٣ : ٤٠ ط دار الكتب « بلاطنس » بدون ياء بعد النون وكذلك فى ( جـ ٦٨ ب ) .

على شاطىء العاصى ، وصعد السلطان جريدة إلى القلعة ، وهى على جبل يطل على العاصى ، فأحدق بها من كل جانب ، وقاتلها قتالا شديداً بالمنجنيقات والزحف المضايق إلى تاسع الشهر ،ويسر الله فتحها عَنْوة ، وأسر من فيها بعد قتل من قتل منهم ، وغنم جميع ما كان فيها .

وكان لها قلعة تسمى الشُّغْر[1] قريبة منها ، يُعبَر إليها منها بجسر ، وهى فى غاية المَنَعَة ، ليس إليها طريق ، فسلطت عليها المنجنيقات من الجوانب ، ورأوا أنهم لا ناصر لهم ، فطلبوا الأمان فى الثالث عشر ، وسألوا أن يؤخروا ثلاثة أيام لاستئذان من بانطاكية ، فأذن فى ذلك ، وكان تمام فتحها صعود العلم السلطانى عليها يوم الجمعة سادس عشر ؛ ثم عاد السلطان إلى الثقل ؛ وسير ولده الملك الظاهر إلى قلعة سَرْمَانية[2] فقاتلها قتالا شديداً ، وضايقها مضايقة عظيمة ، وتسلمها يوم الجمعة الثالث والعشرين من الشهر . فاتفقت فتوحات الساحل من جبلة إلى سرمانية فى أيام الجمع ، وهى علامة قبول دعاء الخطباء المسلمين ، وسعادة السلطان ، حيث يسر لنا الله الفتوح فى اليوم الذى يضاعف فيه ثواب الحسنات ، وهذا من نوادر الفتوحات فى الجمع المتوالية ، ولم يتفق مثلها فى تاريخ .

---

(١) الشغر : قلعة حصينة مقابلها أخرى يقال لها بكاس ، على رأس جبلين ، بينهما واد كالخندق ، كل واحدة تناوح الأخرى ، وهما قرب أنطاكية .
( معجم البلدان جـ ١١ : ٣٥٢ ط بيروت )

(٢) سرمانية : أو سرمينية ، بليدة مشهورة من أعمال حلب أهلها إسماعيلية
( معجم البلدان جـ ١٠ : ٢١٥ ط بيروت )

## ذكر

### فتوح بُرْزَيَهْ(١)

ثم سير السلطان جريدة إلى قلعة برزية ، وهى قلعة حصينة فى غاية القوة والمنعة على سن جبل شاهق ، يضرب بها المثل فى جميع بلاد الإفرنج والمسلمين ، يحيط بها أودية من سائر جوانبها . وذرع علوها كان خمسمائة ذراع ونيفاً وسبعين ذراعا ، ثم جدد عزمه على حصارها بعد رؤيتها ، واستدعى الثقل ، وكان نزول الثقل وبقية العسكر تحت جبلها فى الرابع والعشرين من الشهر .

وفى بكرة الخامس والعشرين منه ؛ صعد السلطان جريدة مع المقاتلة والمنجنيقات وآلات الحصار إلى الجبل ، فأحدقت بالقلعة من سائر نواحيها ، وركب القتال من كل جانب ، وضرب أسوارها بالمنجنيقات المتواترة الضرب ليلا ونهاراً .

وفى السابع والعشرين قسم العساكر ثلاثة أقسام ، ورتب كل قسم يقاتل شطرا من النهار ثم يستريح ، ويسلم القتال للقسم الآخر ، بحيث لا يفتر القتال عنها أصلا .

وكان صاحب النوبة الأولى عماد الدين صاحب « سنجار » فقاتلها

---

(١) برزية : قلعة صغيرة مستطيلة منيعة فى ذيل الجبل المعروف بالحبط من شرقية ، مطلة على بحيرات فامية ( تقويم البلدان لأبى الفداء اسماعيل ) ، وقال ياقوت أن برزيه لغة عامية تصحيحها ( برزوية )

( معجم البلدان جـ ٣ : ٣٨٣ ط بيروت )

قتالا شديدا حتى استوفى نوبته ، وضرس الناس من القتال وتراجعوا واستلم النوبة الثانية السلطان بنفسه ، وركب وتحرك خطوات عدة ، وصاح فى الناس ، فحملوا عليها حملة الرجل الواحد ، وصاحوا صيحة الرجل الواحد ، وقصدوا السور من كل جانب ، فلم يكن إلا بعض ساعة حتى رَقِىَ الناس على الأسوار وهاجموا القلعة ، وأخذت القلعة عنوة ، فاستغاثوا بالأمان وقد تمكنت الأيدى منهم ( فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا[1] ) .

ونهب جميع ما فيها ، وأسر جميع من كان فيها ، وكان قد أوى إليها خلق عظيم ، وكانت من قلاعهم المذكورة ، وكان يوما عظيما ، وعاد الناس إلى خيامهم غانمين . وعاد السلطان إلى الثقل فرحا مسرورا ، وأحضر بين يديه صاحب القلعة ، وكان رجلا كبيرا منهم ، وكان هو ومن أخذ من أهله سبعة عشر نفسا ، فمن عليهم ورق لهم ، وأنفذهم إلى صاحب أنطاكية استمالة له ، فإنهم كانوا يتعلقون به ومن أهله .

## ذكر
### فتوح دَرْبَساك[2]

ثم رحل حتى أتى جسر الحديد ، وأقام عليه أياما ، وسار حتى نزل

---

(١) الآية : ٨٥ سورة غافر .

(٢) دربساك : هى قلعة مرتفعة لها أعين وبساتين ، وهى حصينة ولها من شرقيها مروج كثيرة العشب ، وهى فى شمال بغراس بميلة إلى الشرق وبينهما عشرة أميال ( الفهرس الجغرافى لنسخة ليدن رقم D )

على دربساك يوم الجمعة ثامن عشر رجب ، وهى قلعة منيعة قريبة من أنطاكية . فنزل عليها ، وقاتلها قتالا شديدا بالمنجنيقات ، وضايقها مضايقة عظيمة ، وأخذ النقب تحت برج منها ، وتمكن النقب منه حتى وقع ، وحموه بالرجال والمقاتلة ، ووقف فى الثغرة رجال يحمونها ممن يصمد فيها .

ولقد شاهدتهم وكلما قتل منهم رجل قام غيره مقامه ، وهم قيام فى عرض الجدار مكشفون ، فاشتد بهم الأمر حتى طلبوا الأمان ، واشترطوا مراجعة إنطاكية ، وكانت القاعدة بأن ينزلوا بأنفسهم وثياب أبدانهم لا غير ، ورقى عليها العلم الإسلامى فى الثانى والعشرين من رجب ، وأعطاها عَلَم الدين سُلَيمَان بن جندر[1] ، وسار عنها فى الثالث والعشرين منه .

## ذكر

### فتوح بَغْـراس[2]

وهى قلعة منيعة أقرب إلى إنطاكية من دَرْبَسَاك ، وكانت كثيرة

(١) علم الدين سليمان بن جندر كان من أكابر أمراء حلب ومشايخ الدولتين النورية والصلاحية ، شهد مع السلطان صلاح الدين الأيوبى حروبه كلها وهو الذى أشار بخراب عسقلان مصلحة للمسلمين توفى سنة ٥٨٧ هـ .
( النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ١١٣ )

(٢) بغراس : مدينة فى لحف جبل اللكام ، بينها وبين أنطاكية أربعة فراسخ على يمين القاصد إلى أنطاكية من حلب ، فى المنطقة المطلة على نواحى طرسوس .
( ياقوت ج ٤ ص ٤٦٧ ط بيروت )

المدة والرجال ، فنزل العسكر فى مرج لها ،وأحدق العسكر بها جريدة ، مع أنا احتجنا إلى يَزَك فى تلك المنزلة يحفظ من[1] جانب أنطاكية ، لئلا يخرج منها من يهاجم العسكر ، فضرب يزك الإسلام على باب انطاكية بحيث لا يشذ عنه من يخرج منها ، وأنا ممن كان فى اليزك فى بعض الأيام لرؤية البلد وزيارة حبيب النجار المدفون فيها ، ولم يزل يقاتل بَغْراس مقاتلة شديدة ، حتى طلبوا الأمان على استئذان إنطاكية ، ورقى العلم الإسلامى عليها فى ثانى شعبان .

وفى بقية ذلك اليوم عاد — رحمه الله — إلى المخيم الأكبر ، وراسله أهل إنطاكية فى طلب الصلح ، فصالحهم لشدة ضجر العسكر ، وقوة قلق عماد الدين صاحب سنجار فى طلب الدستور ، وعقد الصلح بيننا وبين أنطاكية من بلاد الإفرنج لا غير ، على أن يطلقوا جميع أسارى المسلمين الذين عندهم ، وكان إلى سبعة أشهر ، فإن جاءهم من ينصرهم وإلا سلموا البلد إلى السلطان .

ورحل يطلب دمشق ، فسأله ولده الملك الظاهر أن يجتاز به فأجابه ، وسار حتى أتى حلب حادى عشر شعبان ، وأقام بقلعتها ثلاثة أيام ، وولده يقوم بالضيافة حق القيام ، ولم يبق من العسكر إلا من ناله من نعمته منال ، وأكثر ظنى أنه أشفق عليه والده .

وسار من حلب يريد دمشق فاعترضه ابن أخيه الملك المظفر تقى الدين

---

(١) الزيادة من (ب) ومن ( ج ٢١ ا )

وأصعده إلى قلعة حماة ، واصطنع له طعاما حسنا ، وأحضر له سَمَاع الصوفية ،[1] وبات فيها ليلة واحدة ، وأعطاه جَبَلة واللاذقية ، وسار على طريق بَعْلَبك حتى أتاها ، وأقام بمرجها يوما ، ودخل إلى حمامها ، وسار منها حتى دخل رمضان ، وما كان يرى تَخلية[2] وقته عن الجهاد مهما أمكنه .

وكان قد بقى له القلاع القريبة من حَوْران التى يخاف عليها من جانبها كصَفَد وكَوْكَبْ ، فرأى أن يشغل الوقت بفتح الساكنين فى الصوم .

## ذكر
## فتح صَفَد

ثم سار فى أوائل رمضان من دمشق يريد صفد ، ولم يلتفت إلى مفارقة الأهل والأولاد والوطن فى هذا الشهر ، الذى يسافر الإنسان أين كان فيجتمع فيه بأهله . اللهم إنه احتمل ذلك ابتغاء مرضاتك فآته أجرا عظيما .

فسار حتى أتى صفد وهى قلعة منيعة ، قد تقاطعت حولها أودية من سائر جوانبها ، فأحدق العسكر بها ، ونصب عليها المناجيق فى أثناء

---

(١) ( اسماعا من جنس ما يعمل الصوفية ) هكذا وردت فى النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٤٢ ط دار الكتب .

(٢) فى (ب) ( وفى ج ٧١ ب ) « تبطيل » .

شهر رمضان المبارك ، وكانت الأمطار شديدة ، والوحول عظيمة ، ولم يمنعه ذلك عن جده .

ولقد كنت عنده فى خدمته ليلة وقد عين مواضع خمس مناجيق ، فقال : ما ننام حتى تنصب الخمسة . وسلم كل منجنيق إلى قوم ، ورسله تتواتر إليهم ويخبرونه ويعرفهم[1] كيف يصنعون حتى أظله الصبح وقد فرغت المنجنيقات ،ولم يبق إلا تركيب خنازيرها فيها . فرويت له الحديث المشهور فى الصحاح ، وبشرته بمقتضاه — وهو قوله صلى الله عليه وسلم : « عينانُ لا تمسُّهما النارُ ، عينٌ باتَتْ تحرسُ فى سبيلِ الله ، وعينٌ بكتْ مِنْ خشيةِ الله » .

وفى أثناء شهر رمضان سلمت الكرك من جانب نواب صاحبها ، وخلصوه بها من الأسر ، وكان قد أسر فى وقعة حطين[2] المباركة ، ثم لم يزل القتال على صفد متواصلا بالبون مع الصوم حتى سلمت بالأمان فى رابع عشر شوال .

## ذكر

## فتوح كوكب

ثم صار يريد كوكب فنزل على الجبل وجرد العسكر ، وأحدق بالقلعة

(١) فى (ا) يعرفونهم ، وفى هذا المعنى غموض . والتصحيح من (ب) ، ومن (حـ ٢.٧ ب) .

(٢) حطين : قرية بين طبرية وعكا ، بينها وبين طبرية فرسخين ، وبالقرب منها قرية يقال لها جبارة . ( يقال أن بها قبر شعيب عليه السلام ) .
( معجم البلدان جـ ٧ : ٢٧٣ — ٢٧٤ ط بيروت )

وضايقها بالـكلية ، بحيث اتخذ له موضعا يتجاوز نشاب العدو ونباله ـ حائطاً من حجر وطين يستتر وراءه ، حتى لا يقدر أحد أن يقف على باب خيمة إلا إن كان ملبساً ، وكانت الأمطار متواترة والوحول عظيمة ( بحيث تمنع الماشى والراكب إلا بمشقة[1] ) . وعانى شدائد وأهوالا من شدة الرياح وتراكم الأمطار ، وكون العدو مسلطاً عليهم بعلو مكانه ، وقتل وجرح جماعة ، ولم يزل راكباً مركب الجد حتى تمكن النقب من سورها .

ولما أحس العدو المخذول أنه مأخوذ ؛ طلب الأمان ، فأجابهم إلى ذلك وأمنهم ، وتسلمها فى منتصف ذى القعدة . ( ونزل إلى الغور إلى الثقل[2] ) وكان قد أنزله من شدة الوحل والريح فى سطح الجبل ، فأقام بقية الشهر يراجعه أخوه الملك العادل فى أشغال شخصية حتى هل هلال ذى الحجة ، وأعطى الجماعة دستوراً وسار مع أخيه يريد القدس لزيارته ووداع أخيه ، فإنه كان عائداً إلى مصر ، فوصلا يوم الجمعة ثامن ذى الحجة ، وصلينا الجمعة فى قبة الصخرة الشريفة ، وصلينا صلاة العيد الأعظم بها أيضا يوم الأحد .

وسار حادى عشر طالبا عسقلان[3] ، لينظر فى حالها ، فأقام بها

(١) زيادة من (ب) ومن ( ج ١٧٣ ) .

(٢) فى ( ا ) ( ونزل على الغور إلى الثقل ) والتصحيح من ( ج ١٧٣ ا ) .

(٣) عسقلان : بلدة بها آثار قديمة ، بينها وبين غزة نحو ثلاثة فراسخ ، وكان يقال لها عروس الشام .

( معجم البلدان ج ١٣ : ١٢٢ ط بيروت )

أياما يلم شعثها ، ويصلح أحوالها ، فودع أخاه وأعطاه الكرك ، وأخذ منه عسقلان ، وعاد يطلب عكا (على طريق الساحل ؛ يمر على البلاد يتفقد أحوالها ، ويودعها الرجال والعدد حتى أتى عكا[١]) ، فأقام بها معظم محرم سنة خمس وثمانين ، ورتب بها بهاء الدين قراقوش[٢] واليا ، وأمره بعمارة السور ، والإطناب فيه ومعه حسام الدين بشارة . وسار يريد دمشق مستهل صفر سنة خمس وثمانين .

## ذكر

## توجهه إلى شقيف أرنون ، وهى السفرة المتصلة بواقعة عكا

وأقام بدمشق حتى دخل فى ربيع الأول ثلاثة أيام ، ووصله فى أثناء ربيع الأول رسول[٣] الخليفة الناصر لدين الله ، يأمره بالخطبة لولده ولى العهد ، فخطب له .

وجدد عزمه على قصد شقيف أرنون — وهو موضع حصين قريب من

---

(١) تكملة من (ب) ومن (ج ٧٣ ب) .

(٢) بهاء الدين قراقوش : هو قراقوش بن عبد الملك الأسدى ، الخادم الصلاحى ، وقراقوش لفظ فارسى معناه العقاب ، به يسمى الإنسان لشهامته وشجاعته ، وهو الذى بنى قلعة الجبل والسور على مصر والقاهرة والقنطرة التى عند الأهرام . واتصل بخدمة صلاح الدين بعد عمه أسد الدين شيركوه ، وكان صلاح الدين يثق به ويعتمد عليه فى مهماته ، وقد سلم إليه عكا لما افتتحها من الفرنج ، ثم أسره الفرنج بها عند استردادهم لها فافتداه صلاح الدين ، توفى سنة ٥٩٧ هـ .

( النجوم الزاهرة ج ٦ : ١٧٧ — ١٧٨ ط دار الكتب )

(٣) فى (ب) وفى (ج ١٧٤) « رسول » وفى (ا) « رسل » .

بانياس . وكان تبريزه فى الثالث ، فسار حتى نزل مرج برغوث وأقام به ينتظر العساكر إلى حادى عشرة ، ورحل حتى أتى بانياس ثم رحل منها حتى أتى مرج عيون فى السابع عشر فخيم به ، وهو قريب من شقيف أرنون بحيث يركب كل يوم يشارفه ، والعساكر تجتمع وتطلبه من كل صوب وأوب .

فأقمنا أياما نشرف كل يوم على الشقيف ، والعساكر الإسلامية فى كل يوم تصبح متزايدة المدد والمُدَد ، وصاحب الشقيف يرى مايتيقن معه عدم السلامة ، فرأى أن إصلاح حاله معه قد تعين طريقا إلى سلامته ، فنزل بنفسه ، وما أحسسنا به إلا وهو قائم على باب خيمة السلطان ، فأذن له فدخل ، فاحترمه وأكرمه .

وكان من كبار الإفرنجية وعقلائها ، وكان يَعْرِف بالعربية ، وعنده اطلاع على شىء من التواريخ ، وبلغنى أنه كان عنده مسلم يقرأ له ويفهمه ، وكان عنده ثان ، فحضر بين يدى السلطان ، وأكل معه الطعام ، ثم خلا به وذكر له أنه مملوكه ، وأنه تحت طاعته ، وأنه يُسلّم المكان إليه من غير تعب ، واشترط أن يعطى موضعاً يسكنه بدمشق ، فإنه بعد ذلك لا يقدر على مُساكنة الإفرنج ، وإقطاعاً بدمشق يقوم به وبأهله ، وأن يمكّن من الاقامة بموضعه ، وهو يتردد إلى الخدمة ثلاثة أشهر من تاريخ اليوم الذى كان فيه ، حتى يتمكن من تخليص أهله وجماعته من صور .

فأجيب إلى ذلك كله ، وأقام يتردد إلى خدمة السلطان فى كل

وقت ويناظرنا[١] فى دينه ، ونناظره فى بطلانه ، وكان حَسَن المحاورة ، ومتأدبا فى كلامه .

وفى أثناء ربيع الأول وصل الخبر بتسليم الشَّوْبَك ؛ وكان قد أقام السلطان عليه جمعاً عظيما يحاصرونه مدة سنة ، حتى فرغ زادهم وسلموه بالأمان .

## ذكر
## اجتماع الإفرنج تقصد عكا

وكان السلطان اشترط على نفسه حين تسلم عسقلان ؛ أنه إن أمر الملك بتسليمها أطلقه ، فأمرهم بتسليمها وسلموها ، فطالبه الملك بإطلاقه فأطلقه وفاء بالشرط ونحن على حصن الأكراد ، فأطلقه[٢] من أنطرسوس ، واشترط عليه أن لا يشهر فى وجهه سيفاً أبداً ، ويكون غلامه ومملوكه طليقه أبداً .

فنكث — لعنه الله — فجمع جموعا وأتى صور ، يطلب الدخول إليها ، فخيم على بابها يراجع المركيس الذى كان بها فى ذلك الوقت ، وكان المركيس اللعين رجلا عظيما ذا رأى وبأس شديد فى دينه ، وصرامة عظيمة ، فقال : إننى نائب للملوك الذين وراء البحر ، وما أذنوا لى فى تسليمها إليك . وطالت المراجعة ، واستقرت القاعدة بينهما على أن يتفقوا جميعاً على المسلمين .

---

(١) فى ( ا ) ويناظره وما ذكر من (ب) ومن ( ج ٧٤ ب )

(٢) الزيادة من (ب) ومن ( ج ١٧٥ )

وتجمع العساكر بصور وغيرها من الافرنجية ، على المسلمين ، وعسكروا على باب صور .

## ذكر

## الواقعة التي استشهد فيها أيبك الأخرش

وذلك أنه لما كان يوم الإثنين سابع عشر جمادى الأولى من السنة المذكورة ؛ بلغ السلطان من اليزك أن الإفرنج قد قطعوا الجسر الفاصل بين أرض صور وأرض صيدا ، وبقيت الأرض التي نحن عليها ، فركب السلطان ، وصاح الجاووش ، فركب العسكر يريدون نحو اليزك ، فوصل العسكر وقد انفصلت الوقعة .

وذلك أن الإفرنج عبر منهم جماعة الجسر ، فنهض لهم اليزك الإسلامي وكانوا في قوة وعدة ، فقاتلوهم قتالا شديداً ، وقتلوا منهم خلقاً كثيراً ، وجرحوا أضعاف ما قتلوا ، ورموا في النهر جماعة فغرقوا ، ونصر الله الإسلام وأهله ، ولم يقتل من المسلمين إلا مملوك للسلطان يعرف بأيبك الأخرش ، فإنه استشهد في ذلك اليوم ، وكان شجاعا باسلا ، مجربا في الحرب فارسا ، تقنطر به فرسه فلجأ إلى صخرة فقاتل بالنشاب حتى فني ، ثم بالسيف حتى قتل جماعة ، ثم تكاثروا عليه فقتلوه ، ووجد السلطان عليه لمكان شجاعته ، وعاد السلطان إلى خيم كانت قد ضربت له قريب المكان جريدة .

# ذكر

## وقعة ثانية استشهد فيها جمع من رجالة المسلمين

وأقام فى تلك الخيم إلى التاسع عشر ، وركب يشرف على القوم على عادته ، فتبع العسكر خلق عظيم من الرجالة والغزاة والسوقة ، وحرص فى ردهم فلم يفعلوا ، ولقد أمر من الرجالة ضربهم فلم يفعلوا ، وخاف عليهم فإن المكان كان حرجا ليس للراجل فيه ملجأ ، ثم هجم الرجالة إلى الجسر وناوشوا العدو ، وعبر منهم جماعة إليهم ، وجرى بينهم قتال شديد ، واجتمع بهم من الإفرنج خلق عظيم وهم لا يشعرون، وكشفوهم بحيث علموا أن ليس وراءهم كمين ، فحملوا عليهم حملة واحدة ، على غرة من السلطان ، فإنه كان بعيداً عنهم ، ولم يكن معه عسكر ، فإنه لم يخرج بتعبئة قتال ، وإنما ركب مستشرفا عليهم على العادة من كل يوم .

ولما بانت له الوقعة وظهر له غبارها بعث إليهم من كان معه ليردوهم ، فوجدوا الأمر قد فرط ، والإفرنج قد تكاثروا حتى خافت منهم السرية التى بعثها السلطان ، وظفروا بالرجالة ظفرة عظيمة ، وجرى بينهم وبين السرية قتال شديد ، وأسروا جماعة من الرجالة وقتلوا جماعة ، وكان عدد الشهداء مائة وثمانين نفرا . وقتل أيضاً من الإفرنج عدة عظيمة وغرق أيضاً منهم عدة ، وكان ممن قتل منهم مقدم الألمانية ، وكان عندهم عظيما محترما .

واستشهد من المعروفين من المسلمين ابن البصاروا ، وكان شاباً حسنا شجاعاً ، واحتسبه والده فى سبيل الله ، ولم تقطر من عينه عليه دمعة — على ما ذكر جماعة لازموه .

وهذه الوقعة لم يتفق للإفرنج مثلها فى هذه الوقائع التى حضرتها وشاهدتها ، ولم ينالوا من المسلمين مثل هذه العدة فى هذه المدة .

## ذكر

### مسير جريدة إلى عكا وسبب ذلك

ولما رأى السلطان ما حل بالمسلمين فى تلك الوقعة النادرة ؛ جمع أصحابه وشاورهم ، وقدر معهم أنه يهجم على الافرنج ، ويعبر الجسر ويقتلهم ، ويستأصل شأفتهم ، وكان الافرنج قد رحلوا من صور ونزلوا قريب الجسر ، وبين الجسر وصور مقدار فرسخ وزائد على فرسخ ، فلما صمم العزم على ذلك أصبح يوم الخميس سابع عشر .

وركب وسار[١] وتبعه الناس والمقاتلة والعساكر ، ولما وصل أواخر الناس إلى أوائلهم وجدوا اليزك عائدا ، وخيامهم قد قلعت ، فسئلوا عن سبب ذلك ، فذكروا أن الافرنج رحلوا راجعين إلى صور ، ملتجئين إلى سورها ، معتصمين بقربها ، وأنهم لما بلغهم ذلك عادوا .

ولما رأى السلطان ذلك منهم ؛ رأى أن يسير إلى عكا ليلحظ ما بنى من سورها ، ويحث على الباقى ، فمضى إلى عكا ورتب أحوالها ، وأمر بتتمة عمارة سورها وإتقانه وإحكامه ، وأمرهم بالاحتياط والاحتراز ، وعاد إلى المعسكر المنصور إلى مرج عيون ، منتظرا مهلة صاحب الشقيف — لعنه الله .

---

(١ ) و ( سار ) والتكملة من ( ج ٧٧ ا )

# ذكر

## وقعة أخرى

ولما كان يوم السبت سادس جمادى الآخرة؛ بلغه أن جماعة من رجالة العدو يسطون ويصلون إلى جبل تبنين يحتطبون، وفى قلبه من رجالة المسلمين وما جرى عليهم أمر عظيم، فرأى أن يقرر قاعدة وكميناً يرتبه لهم، ويأخذهم فيه، وبلغه أن [العدو] يخرج وراءهم أيضاً خيلاً تحفظهم، فعمل كميناً يصلح للقاء الجميع، ثم أنفذ إلى عسكر تبنين وتقدم إليهم أن يخرجوا فى نفر يسير غارين على تلك الرجالة، وأن خيل العدو إذا تبعتهم ينهزمون إلى جهة عينها لهم، وأن يكون ذلك صبيحة الإثنين ثامن جمادى الآخرة .

وأرسل إلى عسكر عكا أن يسير حتى يكون وراء عسكر العدو، حتى إذا تحركوا فى نصرة أصحابهم؛ قصدوا خيمهم، وركب هو وجحفله سحر يوم الاثنين شاكى السلاح، متجردين ليس معهم خيمة؛ إلى الجهة التى عينها لهزيمة عسكر تبنين، وسار حتى قطع تبنين[1] .

ورتب العسكر ثمانية أطلاب، واستخرج من كل طلب عشرين فارساً من الشجعان الجياد الخيل، وأمرهم أن يتراءوا للعدو حتى يظهروا إليهم ويناوشوهم، وينهزموا بين أيديهم حتى يصلوا إلى الكمين، ففعلوا ذلك وظهر لهم من الإفرنج معظم عسكرهم يقدمهم الملك، وكان قد بلغهم

(١) تكملة من (ب) ومن ( ج ٧٨ ا )

الخبر، وتعبوا تعبئة القتال ، وجرى بينهم وبين هذه السرية اليسيرة قتال شديد ، والتزمت السرية القتال ، وأنفوا عن الانهزام بين أيديهم ، وحملتهم الحمية على مخالفة السلطان ولقائهم العدو الكثير بذلك الجمع اليسير ، واتصل الحرب بينهم إلى أواخر نهار الاثنين ، ولم يرجع منهم أحد إلى المعسكر ليخبرهم بما جرى .

واتصل الخبر بالسلطان فى أواخر الأمر وقد هجم الليل ، فبعث إليهم بعوثا كثيرة حين علم ضيق الوقت عن المصاف وفوات الأمر ، ولما بصر الافرنج بأوائل المدد قد لحق السرية عادوا منهزمين ناكصين على أعقابهم ، بعد أن جرت مقتلة عظيمة من الجانبين ، وكان[١] القتلى من الافرنج — على ما ذكر من حضر — فإنى لم أكن حاضرها — زهاء عشرة أنفس ومن المسلمين ستة أنفار : اثنان من اليزك وأربعة من العرب ، منهم الأمير « رامل » وكان شابا تاما ، حسن الشباب ، مقدما عشيرته ، وكان سبب قتله أنه تقنطرت به فرسه ففداه ابن عمه بفرسه ، فتقنطرت به أيضاً وأسر هو وثلاثة من أهله . ولما بصر الافرنج بالمدد للعسكر قتلوهم خشية الاستنقاذ ، وجرح خلق كثير من الطائفتين ، وخيل كثيرة .

ومن نوادر هذه الوقعة : أن مملوك السلطان أثخن بالجراح ، حتى وقع بين القتلى وجراحاته تشخب دما ، وبات ليلته أجمع على تلك الحالة إلى صبيحة يوم الثلاثاء ، ففقده أصحابه فلم يجدوه ، فعرفوا السلطان فقده ، فأنفذ من يكشف خبره فوجدوه بين القتلى على مثال هذه الحالة ، فحملوه ونقلوه

---

(١) فى (ا) وكانت والتصحيح من (ب) ومن (ج ١٧٨ ا)

إلى المخيم على تلك الحال : وعافاه الله تعالى[١] ، وعاد السلطان إلى المخيم يوم الأربعاء عاشر الشهر منصورا ، فرحا مسرورا .

## ذكر

### أخذ أصحاب الشقيف وسبب ذلك

ثم استفاض بين الناس أن صاحب الشقيف فعل ما فعله من المهلة غيلة ، لا أنه صادق فى ذلك وإنما قصد فيه تدفع الزمان ، وظهر[٢] لذلك مخائل كثيرة : من الحرص فى تحصيل الميرة ، وإتقان الأبواب وغير ذلك. فرأى السلطان أن يصعد إلى سطح الجبل ليقرب من المكان ، ويرسل سرا من يمنع من دخول النجدة والميرة إليه ، وأظهر أن سبب ذلك شدة حر الزمان ، والفرار من وخم المرج . وكان انتقاله إلى سطح الجبل ليلة الثانى عشر من الشهر ، وقد مضى من الليل ربعه ، فما أصبح صاحب الشقيف إلا والخيمة مضروبة ، وبقى بعض العساكر بالمرج على حاله ، فلما رأى صاحب الشقيف قرب العسكر منه ؛ وعلم أنه بقى من المدة بقية جمادى الآخرة حدثته نفسه أنه ينزل إلى خدمة السلطان ، ويستعطفه ويستزيده فى المدة ، وتخيل له بما رأى من أخلاق السلطان ولطافته أن ذلك يتم .

فنزل إلى الخدمة وعرض المكان ، وقال : المدة لم يبق منها

---

(١) الزيادة من (ب) ومن ع ٧٨ ب ) .

(٢) التصحيح من (ب) ومن ( جـ ٧٨ ب ) .

إلا اليسير ، وأى فرق بين التسليم اليوم أو غداً . وأظهر أنه بقى من أهله جماعة بصور ، وأنهم على الخروج منها فى هذه الأيام ، وأقام فى الخدمة ذلك اليوم إلى الليل ، وصعد القلعة ولم يظهر له السلطان شيئاً ، وأجراه على عادته ، وتقضى مدته ، ثم عاد ونزل بعد أيام وقد قرب انتهاء المدة والفراغ منها ، وطلب الخلوة بالسلطان ، وسأل منه أن يمهله تمام السنة تسعة أشهر ، فأحس السلطان منه الغدر فماطله ، وما أيّسه ، وقال : نتفكر فى ذلك ، ونجمع الجماعة ونأخذ رأيهم ، وبما ينفصل الحال عليه نعرفك . وضرب له خيمة قريبة من خيمته ، وأقام عليه حرساً لا يشعر بهم ، وهو على غاية من الإكرام والاحترام له ، والمراجعة والمراسلة بينهم فى ذلك الفن مستمرة ، حتى انقضت الأيام ، وطولب بتسليم المكان ، فكشف له : أنك أضمرت الغدر ، وجددت فى المكان عمائر ، وحملت إليه ذخائر . فأنكر ذلك ، واستقرت القاعدة على أن ينفذ من عنده ثقته ، وينفذ السلطان ثقة يتسلم المكان ، وينظر هل تجدد فيه شىء من البناء أم لا ، فمضوا إليه ، فلم يلتفت أصحابه القيمون فيه إليهم ، ووجدوه قد جدّد باباً للسور لم يكن ، فأقيم الحرس الشديد عليه ، وأظهر ذلك ، ومنع من الدخول إلى الخدمة ، وقيل له : قد انقضت المدة ، ولابد من التسليم . وهو يغالط عن ذلك ، ويدافع عن الجواب عنه .

ولما كان الثامن عشر من جمادى الآخرة ؛ وفيه اعترف بانتهاء المدة ، قال : « أنا أمضى وأسلم المكان » وسار معه جمع كثير من الأمراء والأجناد حتى أتى « الشقيف » ، وأمرهم بالتسليم فأبوا ، فخرج إليه قسيس وحدثه

بلسانه ثم عاد ، واشتد امتناعهم بعد عود القسيس إليهم ، فظن أنه أكد الوصية على القسيس فى الامتناع ، وأقام ذلك اليوم ، والحديث يتردد فلم يلتفتوا ، وأعيد إلى المخيم المنصور ، وسير من ليلته إلى « بانياس » ، وأحيط عليه بقلعتها ، فأحدق المسكر ب « الشقيف » مقاتلين ومحاصرين .

وأقام صاحب « الشقيف » ب « بانِياس » إلى سادس رجب ، واشتد حنق السلطان على صاحب « الشقيف » بسبب تضييع ثلاثة أشهر عليه وعلى عسكره ، ولم يعملوا فيها شيئاً ، فأحضر إلى المخيم وهدد ليلة وصوله بأمور عظيمة فلم يفعل .

وأصبح السلطان ثامن رجب ، ورقِيَ إلى سنام الجبل بخيمه ، وهو موضع مشرف على « الشقيف » من المكان الذى كان فيه أولا وأبعد من الوخم ، وكان قد تغير مزاجه .

ثم بلغنا بعد ذلك أن الإفرنج ب « صُور » مع الملك قد ساروا نحو النواقير يريدون جهة « عكا » ، وأن بعضهم نزل ب « الاسكَنْدَرُونَة »[1] ، وجرى بينهم وبين رجالة المسلمين مناوشة ، وقتل منهم المسلمون نفراً يسيراً وأقاموا هناك .

---

(١) الاسكندرونة : مدينة فى شرق أنطاكية على ساحل بحر الشام بينها وبين بغراس أربعة فراسخ وبينها وبين أنطاكية ثمانية فراسخ .

( معجم البلدان ج ٢ : ١٨٢ ط بيروت )

# ذكر

## وقعـــة عكا

وذلك أنه لما بلغ السلطان حركة الإفرنج [ إلى تلك الجهة ][١] عظم عليه ، ولم يرَ المُسارعة خوفاً من أن يكون قصْدهم ترحيله عن « الشقيف » لاقصد المكان ، فأقام مستكشفاً للحال إلى ثانى عشر رجب ، فوصل قاصد آخر ، أن الإفرنج فى بقية ذلك اليوم رحلوا ونزلوا « عين بصة[٢] » ، ووصل أوائلهم إلى [ الزِّيب ][٣] ، فعظم ذلك عنده ، وكتب إلى سائر أرباب الأطراف يتقدمون بالعساكر الإسلامية ، بالمسير إلى المخيم المحروس ، وعاد فجدد الكتب والحث .

وتقدم إلى الثقل أن سار بالليل ، وأصبح هو صبيحة الثالث عشر سائرا إلى « عكا » على طريق « طبرية » ، إذ لم يكن ثم طريق يسع العسكر إلا هو ، وسير جماعة على طريق « تبنين » « يستطلمون[٤] » العدو ، ويواصلون بأخباره ، وسرنا حتى أتينا « الُحوله[٥] » منتصف

(١) الزيادة من (ب) ومن ( جـ ٨٠ ب ) .

(٢) عين بصة : موضع بين الطور والزيب .

( الفهرس الجغرافى لنسخة ليدن رقم A )

(٣) الزيب : بالأصل ( ا ) « الزيت » وهذا خطأ والتصحيح من (ب) ومن ( جـ ٨٠ ب ) والزيب : قرية قريبة على ساحل بحر الشام ( البحر الأبيض المتوسط ) قرب عكا ، وتعرف بشارستان عكا .

( معجم البلدان ١٠ ص ١٦٢ — ١٦٣ ط بيروت )

(٤) يستشرفون فى (ب) و ( جـ ٨٠ ا )

(٥) الحولة : من أعمال دمشق وتشمل قرى كثيرة ، وهناك حولة أخرى بين حمص وطرابلس . ( معجم البلدان جـ ٢ ص ٣٢٣ ط بيروت )

النهار ، فنزل بها ساعة ثم رحل ، وسار طول الليل حتى أتى موضعا يقال له « المنية » صباح الرابع عشر ، وفيه بلغنا نزول الإفرنج على عكا يوم الاثنين الثالث عشر .

وسير صاحب « الشقيف » إلى « دمشق » بعد الإهانة الشديدة على سوء صنيعه ، وسار هو جريدة من « المنية » حتى اجتمع ببقية العسكر ، الذى كان أنفذه على طريق « تِبْنين » ب « مرج صَفُّورية » ، فإنه كان واعدهم إليه ، وتقدم إلى الثقل أن يلحقه إلى « مرج صفورية » ، ولم يزل حتى شارف العدو من « الخَرُّوبة » ، وبعث بعض العسكر ، ودخل « عكا » على غرة من العدو ، وتقوية لمن فيها .

ولم يزل يبعث إليها بعثا بعد بعث حتى حصل فيها خلق كثير ، وعدد وافر ، ورتب العسكر ميمنة وميسرة وقلبا ، وسار من الخروبة ، وكان قد نزل عليها خامس عشر الشهر ، فسار منها حتى أتى « تل[1] كَيْسان » فى أوائل « مرج عكا » وأمر الناس أن ينزلوا به على تلك التعبئة ، وكان آخر الميسرة على طرف النهر الحلو ، وآخر الميمنة مقارب « تل العِيَاضِية » ، فاحتاط العسكر الإسلامى المنصور بالعدو المخذول ، وأخذ عليهم الطرق من الجوانب .

وتلاحقت العساكر الإسلامية واجتمعت ، ورتب اليزك الدائم والجاليش فى كل يوم مع العدو فى خيامه ، وحصر العدو فى خيامه من كل جانب ،

---

(١) تل كيسان : موضع فى مرج عكا من سواحل الشام .
(معجم البلدان ج ٥ ص ٤٣ ط بيروت)

بحيث لايقدر أن يخرج منها واحد إلا ويجرح أو يقتل .

وكان مسكرالعدو على شطر من « عكا » ، وخيمة ملكهم على « تل المُصَلِّيين » قريباً من باب البلد ، وكان عدد راكبهم ألفي فارس ، وعدد راجلهم ثلاثين ألفا ، وما رأيت من أنقصهم عن ذلك ، ورأيت من حزرهم بزيادة على ذلك ، ومددهم من البحر لا ينقطع ، وجرى بينهم وبين اليزك مقاتلات عظيمة متواترة ، والمسلمون يتهافتون على قتالهم ، والسلطان يمنعهم من ذلك إلى وقته ، والبعوث من العساكر الإسلامية تتواصل ، والملوك والأمراء من الأقطار تتتابع .

فأول من وصل الأمير الكبير مظفر الدين بن زين الدين ، ثم قدم بعده الملك المظفر صاحب « حماة » ، وفي أثناء هذا الحال توفي حسام الدين سُنْقُر « الإخلاطي » وأسف المسلمون عليه أسفاً شديدا ، فإنه كان شجاعا ديناً .

ثم ان الإفرنج لما تكاثروا واستفحل أمرهم استداروا ب« عكا » ، بحيث منعوا من الدخول والخروج ، وذلك في يوم الخميس سلخ رجب ، ولما رأى السلطان ذلك عظم لديه ، وضاق صدره ، وثارت همته العالية ، وفتح الطريق إلى « عكا » لتستمر السابلة إليها بالميرة والنجدة وغير ذلك ، فأحضر أمراءه وأصحاب الرأى من دولته ، وشاورهم في مضايقة القوم ، وانفصل الحال على أنه يضايقهم مضايقة شديدة ، بحيث ينفصل أمرهم بالكلية ، ويفتح الباب والطريق إلى « عكا » ، فباكرهم صبيحة الجمعة مستهل شعبان .

وسار مع العسكر وقد رتبه للقتال ميمنة وميسرة وقلبا ، وضايقهم مضايقة شديدة ، وكانت الحملة بعد صلاة الجمعة اغتناما لدعاء الخطباء على المنابر ، وجرت حملات عظيمة ، وقلبات كثيرة . واتصل الحرب إلى أن حال بين الفئتين هجوم الليل . وبات الناس على حالهم من الجانبين شاكى السلاح ، تحرس كل طائفة نفسها من الطائفة الأخرى .

## ذكر
### فتح الطريق إلى عكا

ولما كانت صبيحة السبت أصبح الناس على القتال ، وأنفذ السلطان طائفة من شجعان المسلمين إلى البحر من شمال « عكا » ، ولم يكن هناك للعدو خيم . لكن العسكر كان قد امتد جريدة إلى البحر ، فحملوا عليهم ، فانكسروا بين أيديهم كسرة عظيمة ، وقتلوا منهم جمعا كثيرا ، وانكفـ السالمون منهم إلى خيامهم .

وهجم المسلمون خلفهم إلى أوائل خيامهم ، وانفتح الطريق إلى « عكا » من باب القلعة المسماة « بقلعة الملك » إلى باب قراقوش الذى جدده . وصار الطريق مهيعا[1] يمر فيه السوق ومعه الحوائج ، ويمر به الرجل الواحد والمرأة ؛ واليزك بين الطريق وبين العدو . ما نما من يخرج من عسكرهم أو يدخل . ودخل السلطان فى ذلك اليوم إلى « عكا » ورقى على السور ، ونظر إلى عسكر العدو تحت السور ، وفرح المسلمون بنصر الله . وخرج العسكر الذى كان بها فى خدمة

---

(١) أى منبسطاً ( القاموس المحيط ) .

السلطان ، واستدار العسكر الإسلامى حول العسكر الإفرنجى ، وأحدقوا بهم من كل جانب .

ولما استقر به ذلك تراجع النـاس عن القتال ، وذلك بعد (صلاة[١]) الظهر ، لسقى الدواب ، وأخذ الراحة ، وكان نزولهم على أنهم إذا أخذوا حظا من الراحة عادوا إلى القتال « لمناجزة[٢] » القوم ، وضاق الوقت ، وأخذ الضجر والتعب من الناس ، فلم يرجعوا إلى القتال فى ذلك اليوم ، وبات الناس على أنهم يصبحونهم بكرة الأحد إلى القتال ؛ رجاء المناجزة بالـكلية ، واختفى العدو فى خيامهم بحيث لم يظهر منهم أحد .

ولما كانت بكرة الأحد ثالث شعبان تعبى الناس للقتال ، وأحدقوا بالعدو ، وعزموا على مهاجمة القوم ، وعلى أن يترجل الأمراء ومعظم العسـكر ، ويقاتلوا العدو فى خيامه ، فلما تهيأوا لذلك ؛ رأى بعض الأمراء تأخير ذلك إلى بكرة الإثنين رابع شعبان ، وأن يدخل الراجل كله إلى داخل عكا ، ويخرجوا مع العسكر المقيم بالبلد من أبواب البلد على العدو من ورائه ، وتركب العساكر الإسلامية من خارج من سائر الجوانب ، ويحملوا حملة الرجل الواحد ، والسلطان يوالى هذه الأمور بنفسه ، ويكافحها بذاته ، لا يتخلف عن مقام من هذه المقامات ، وهو من شدة حرصه ووفور همته ، كالوالدة الثـكلى .

---

(١) الزيادة من (ب) ، ومن (جـ) ٨٢ ب .

(٢) « لمشاجرة » فى (ب) .

ولقد أخبرنى بعض أطبائه أنه بقى من يوم الجمعة إلى يوم الأحد لم يتناول من الغذاء إلا شيئا يسيرا لفرط اهتمامه ، وفعلوا ما كان عزم عليه ، واشتدت منعة العدو ، وحمى نفسه فى خيامه ، ولم تزل سوق الحرب قائمة تباع فيها النفوس بالنفائس ، وتمطر سماء حربها الرؤوس من كل رئيس ومترائس ، حتى كان يوم الجمعة ثامن شعبان .

## ذكر

## تأخر الناس إلى تل العياضية

ولما كان اليوم الثامن عزم العدو على الخروج بجموعهم ، فخرج راجلهم وفارسهم ، وامتدوا على التلول ، وساروا الهُوَيْنى غير مفرطين فى أنفسهم ، ولا خارجين مِنْ راجلهم ، حيث كانت الرجالة من حولهم كالسور المبنى ، يتلو بعضهم بعضا حتى قاربوا خيام اليزك .

ولما رأى المسلمون ذلك ، وإقدام العدو عليهم ، شدّوا وتنازعت الشجعان ، وتنازلت الكماة إلى الأقران ، وصاح السلطان بالعساكر الإسلامية : « ياللإسلام ! » ، فركب الناس بأجمعهم ، ووافق فارسهم راجلهم ، وشابهم شيخهم ، وحملوا حملة الرجل الواحد على العدو المخذول فعاد ناكصا على عقبيه ، والسيف يعمل فيهم ، والسالم منهم جريح ، والعاطب طريح ، مشتدون هزيمة ، يعبر جريحهم بقتيلهم ، ولا تلوى الجماعة منهم على قتيلهم ، حتى لحق الخيم من سلم منهم ، وانكفوا عن القتال أياما ، وكان رأيهم أن يحفظوا نفوسهم ، ويحرسوا رؤوسهم .

واستقر فتح طريق عكا . والمسلمون يترددون إليها . وكنت ممن دخل ورق على السور ، ورمى العدو بما يسر الله تعالى من فوق السور ، [ ودام ][1] القتال بين الفئتين متصلا الليل والنهار ، حتى كان الحادى عشر من شعبان ، ورأى السلطان توسيع الدائرة عليهم لعلهم يخرجون إلى مصارعهم ، فنقل الثقل إلى تل العياضية — وهو تل قبالة تل المصليين ، مشرف على عكا وخيام العدو .

وفى هذه المنزلة توفى حُسام الدين طُمان[2] ، وكان من الشجعان ، ودفن فى سفح هذا التل ، وصلّيت عليه مع جماعة من الفقهاء ليلة نصف شعبان ، وقد مضى من الليل هزيع ، رحمه الله .

## ذكر

### وقعة جرت للعرب مع العدو

وكان سبب ذلك أنه بلغنا أن جمعا من العدو يخرجون للاحتشاش من طرف النهر ، مما يلى عليه ، فأكمن السلطان لهم جماعة من العرب ، وقصد العرب لخفتهم على خيلهم ، وأمنه عليهم ، فخرجوا ولم يشعروا بهم ، فهجموا عليهم ، وقتلوا منهم خلقاً عظيما ، وأسروا جماعة ، وأحضروا رؤوساً عديدة بين يديه ، فخلع عليهم ، وأحسن إليهم ، وكان ذلك فى السادس عشر .

---

(١) فى ( ا ) « وام » والتصحيح من (ب) ، ومن ( ج ) ٨١ ب .

(٢) حسام الدين طمان : كان من الشجعان ، توفى بتل العياضية سنة ٥٨٥ هـ

وفى عشية ذلك اليوم وقع بين العدو وبين أهل البلد حرب عظيم قتل فيه جمع عظيم من الطائفتين ، فطال الأمر بين الفئتين ، وما يخلو يوما من قتل وجرح ، وسبي ونهب ، وأنس البعض بالبعض ، بحيث أن الطائفتين كانا يتحدثان ويتركان القتال ، وربما غنى البعض ، ورقص البعض ، لطول المعاشرة ، ثم يرجعون إلى القتال بعد ساعة .

وكان الرجال يوماً من الطائفتين قد سئموا من القتال ، فقالوا : إلى كم نقاتل الكبار ، وليس للصغار حظ ، نريد أن « يتصارع[1] » صبيّان منا ومنكم . فأخرج صبيّان من البلد إلى صبيين من الإفرنج ، واشتد الحرب بينهم ، فوثب أحد الصبيين المسلمين إلى أحد الكافرين فاختطفه ، وضرب به الأرض ، وقبضه أسيرا ، فاشتراه بعض الإفرنج بدينارين ، وقالوا : هو أسيرك حقا . فأخذ الدينارين وأطلقه .

وهذه نادرة غريبة . ووصل للفرنج مركب فيه خيل فهرب منها فرس ووقع فى البحر ، وما زال يسبح وهم حوله يردونه ، حتى دخل ميناء « عكا » وأخذه المسلمون .

## ذكر

## المصاف الأعظم على عكا

وذلك أنه لما كان يوم الأربعاء الحادى والعشرون تحركت عساكر

---

(١) فى (ب) ، وفى ( ج ) ٨١ ب « يصطرع » .

الافرنج حركة لم تكن لهم بمثلها عادة ، فارسهم وراجلهم ، وكبيرهم وصغيرهم .

فاصطفوا خارج خيمهم قلباً وميمنة وميسرة ، وفى القلب الملك ، وبين يديه الإنجيل محمولا ، مستوراً بثوب أطلس مُغطّى ، يمسكه أربعة أنفس بأربعة أطراف ، وهم يسيرون بين يدى الملك .

وامتدت الميمنة فى مقابلة الميسرة التى لعسكر الإسلام ، من أولها إلى آخرها ، وكذلك ميسرة العدو فى مقابلة ميمنتنا إلى آخرها ، وملكوا رؤوس التلال ، وكان طرف ميمنتهم إلى النهر وطرف ميسرتهم إلى البحر .

وأما العسكر الإسلامى المنصور ؛ فإن السلطان أمر الجاووش أن نادى فى الناس « يا للإسلام وعساكر الموحدين » . فركب الناس وقد باعوا أنفسهم بالجنة ، ووقفوا بين أيدى خيامهم ، وامتدت الميمنة إلى البحر والميسرة إلى النهر كذلك أيضاً ، وكان — رحمه الله — قد أنزل الناس فى الخيم ، ميمنة وميسرة وقلبا ، تعبئة الحرب ، حتى إذا وقعت صيحة لا يحتاجون إلى تجديد ترتيب ، وكان هو فى القلب ، وفى ميمنة القلب ولده الملك الأفضل ، ثم عسكر المواصلة يقدمهم ظهر الدين بن البلنكرى ، ثم عسكر « ديار بكر[1] » فى خدمة « قطب الدين بن نور الدين » صاحب

(١) ديار بكر : بلاد كبيرة واسعة ؛ وحدها ما غرب من دجلة إلى الجبل المطل على نصيبين إلى دجلة ومنه إلى حصن كيفا وآمد وميافارقين .

( معجم البلدان جـ ٨ : ٤٩٤ ط بيروت )

« الحصن » ثم « حسام الدين بن لاجين[1] » صاحب « نابلس » ثم الطواشى « قَيْماز النجمى » فى جموع عظيمة متصلين بطرف الميمنة ، وكان فى طرفها « الملك المظفر تقى الدين » بجحفله وعسكره ، وهو مطل على البحر . وأما أوائل الميسرة : فكان مما يلى القلب « سيْف الدين على المَشْطوب » ، وعلى ابن أحمد من كبار الملوك الأكراد ومقدميهم ، والأمير مُجلى ، وجماعة المهرانية والهكارية ، ومجاهد الدين يرنقش مقدم عسكر « سِنْجار » ، وجماعة من المماليك ، ثم « مُظفر الدين ابن زيْن الدين » بجحفله وعسكره .

وأواخر الميسرة كبار المماليك الأسدية ، كسيْف الدين بازْكج ، ورسْلان بُغا وجماعة الأسدية الذين يُضرب بهم المثل ، ومُقدم القلب : الفقيه عيسى وجمعه

هذا والسلطان يطوف على الأطلاب بنفسه يحثهم على القتال ، ويدعوهم إلى النزال ، ويُرغبهم فى نصر دين الله ، ولم يزل القوم يتقدمون ، والمسلمون يقدمون حتّى علا النهار ، ومضى فيه مقدار أربع ساعات ، وعند ذلك تحركت ميسرة العدو على ميمنة المسلمين ، فأخرج لهم الملك المظفر « الجاليش » ، وجرى بينهم قلبات كثيرة ، وتكاثروا على الملك المظفر وكان فى طرف الميمنة على البحر ، فتراجع عنهم شيئا إطماعا لهم لعلهم يبعدون عن أصحابهم . فينال منهم غرضا . فلما رأى السلطان ذلك

---

(١) حسام الدين لاجين : هو محمد بن عمر بن لاجين ، ابن ست الشام أخت السلطان صلاح الدين الأيوبى .

( النجوم الزاهرة ج ٦ : ٢٦٤ )

ظن به ضعفا ، وأمده بأطلاب عدة من القلب حتى قوى جانبه ، وتراجعت ميسرة العدو واجتمعت على تل مشرف على البحر .

ولما رأى الذين فى مقابلة القلب ضعف القلب ومن خرج منه [من][1] الأطلاب ؛ داخلهم الطمع ، وتحركوا نحو ميمنة القلب وحملوا حملة الرجل الواحد راجلهم وفارسهم ولقد رأيت الرجالة تسير سير الخيالة ولا يسبقونها[2] وهم يسبقون حينا ، وجاءت الحملة على الديار البكرية كما شاء الله تعالى وكان بهم غرة عن الحرب ، فتحركوا بين يدى العدو وانكسروا كسرة عظيمة ، وسرى الأمر حتى انكسر معظم الميمنة ، واتبع العدو المنهزمين إلى «العياضية» فإنهم استداروا حول التل ، وصعد طائفة من العدو إلى خيمة السلطان فقتلوا « طشت دار »[3] كان هناك ، وفى ذلك اليوم استشهد اسماعيل المكبس وابن رواحه رحمهما الله .

وأما الميسرة فإنها ثبتت لأن الحملة لم تصادفها ، وأما السلطان فأخذ يطوف على الأطلاب فينهضهم ويعدهم الوعود الجميلة ويحثهم على الجهاد ، وينادى فيهم : « ياللاسلام ! » ولم يبق معه إلا خمسة أنفس ، وهو يطوف على الأطلاب ، ويخرق الصفوف ، ويأوى إلى تحت التل الذى كان عليه الخيام .

---

( ١ ، ٢ ) الزيادتان من ( ب ) ، ومن ( جـ ) ١٨٦ ا .

(٣) طشت دار : كانت من الوظائف الصغرى وصاحبها يتبع الطشتخاناه وهى بيت الطشت : لأنه يكون فيها طشت لغسيل الأيدى وآخر لغسيل القماش السلطانى ، والطاشت لفظ عامى ، وعربيه « طست » أو « طس » معربا من اللفظ الفارسى « تست » وهو إناء لغسل اليد « عن صبح الأعشى ج ٤ » .

( ارجع إلى الروضتين تحقيق الدكتور محمد حلمى أحمد )

وأما المنهزمون من العسكر فإنهم بلغت هزيمتهم إلى الفخوانة قاطع جسر «طبرية» ، وتم[١] منهم قوم إلى[٢] محروسة «دمشق» ، فأما المتبعون لهم فإنهم اتبعوهم إلى «العياضية» ، فلما رأوهم قد صعدوا إلى الجبل رجعوا عنهم ، وجاءوا عائدين إلى عسكرهم ، فلقيهم جماعة من الغلمان الخربندية[٣] والساسة منهزمين على بغال الحمل ، فقتلوا منهم جماعة ، ثم جاءوا على رأس السوق فقتلوا جماعة ، وقتل منهم جماعة ، فإن السوق كان [ فيه خلق عظيم ][٤] ولهم سلاح .

وأما الذين صعدوا إلى الخيام السلطانية فإنهم لم يلتمسوا فيها شيئا أصلا ، سوى أنهم قتلوا من ذكرنا ، وهم ثلاثة نفر رأوا ميسرة الإسلام ثابتة فعلموا أن الكسرة لاتتم فعادوا منحدرين من التل يطلبون عسكرهم .

وأما السلطان فإنه كان واقفا تحت التل ومعه نفر يسير ؛ وهو يجمع الناس ليعودوا إلى الحملة على العدو ، فلما رأوا الافرنج نازلين من التل أرادوا لقاءهم ، فأمرهم بالصبر إلى أن ولوا ظهورهم ، واشتدوا يطلبون أصحابهم ، فصاح فى الناس فحملوا عليهم ، فطرحوا منهم جماعة ، فاشتد الطمع فيهم ، وتكاثر الناس وراءهم حتى لحقوا أصحابهم ، والطرد وراءهم

---

( ١ ، ٢ ) تكملتان من « ب » ومن « ج » ٨٦ (ب) .

(٣) الخربندية : كما هو مذكور ؛ من إليهم الإشراف على البغال وغذائها أى المكاريون أى الحمارون وهو لفظ فارسى الأصل.

(٤) فى « ا » فان السوق كان عظيما ، ولهم سلاح . وهذا اضطراب فى المعنى ، ونرى أن التصحيح المأخوذ من ( ب ) ومن ( ج ٨٦ب ) يتفق وسياق الحديث .

فلما رأوهم منهزمين والمسلمون وراءهم فى عدد كثير ؛ ظنوا أن من حمل منهم قد قتل ، وأنهم إنما نجا منهم هذا النفر فقط ، وأن الهزيمة قد عادت عليهم ، فاشتدوا فى الهرب والهزيمة ، وتحركت الميسرة عليهم .

وعاد الملك المظفر بجمعه من الميمنة ، وتجمعت الرجال وتداعت ، وتراجع الناس من كل جانب ، وكذب الله الشيطان ، ونصر الإيمان ، وظل الناس فى قتل وطرح ، وضرب وجرح ، إلى أن اتصل المنهزمون السالمون إلى عسكرهم فهجم المسلمون[١] عليهم فى الخيام ، فخرج منهم أطلاب كانوا أعدوها — خشية من مثل هذا الأمر — مستريحة ، فردوا المسلمين ، وكان التعب قد أخذ من الناس ، والعرق قد ألجمهم ، فرجع الناس عنهم بعد صلاة العصر — يخوضون فى القتلى ودمائهم — إلى خيامهم فرحين مسرورين .

وعاد السلطان فى ذلك اليوم إلى خيمته فرحا مسرورا ، وجلسوا فى خيمته يتدار كون من فقد (من الغلمان[٢]) ، وكان مقدار من فقد من الغلمان المجهولين مائة وخمسين نفرا ، ومن المعروفين ؛ استشهد ظهر الدين أخو الفقيه عيسى ، ولقد رأيته وهو جالس يضحك ، والناس يعزونه وهو ينكر عليهم ، ويقول : « هذا يوم الهناء لا يوم العزاء » . وكان هو قد وقع عن فرسه وأركبه ، فرأيته . وقتل عليه[٣] جماعة من أقاربه ، وقتل فى ذلك اليوم « الأمير مجلى » ، هذا الذى قتل من المسلمين .

---

(١) تكملة من (ب) ومن (ج) ١٨٧ .

(٢) فى (ب) وفى (ج) ٩٧٢ « منهم » . (٣) أى على التل

وأما من العدو المخذول فحزرقتلاهم بسبعة آلاف نفر ، ورأيتهم وقد حملوهم إلى شاطىء النهر ليلقوا فيه ؛ فحزرتهم بدون سبعة آلاف .

ولما تم على المسلمين من الهزيمة ما تم ، ورأى الغلمان خلو الخيام ممن يعترض عليهم ؛ فإن العسكر انقسم قسمين : منهزمين ومقاتلين ، فلم يبق فى الخيم أحد وراءنا ، فظنوا أن الكسرة تمت ، وأن العدو ينهب جميع ما فى الخيام — فوضعوا أيديهم فى الخيام ونهبوا جميع ما كان فيها ؛ وذهب من الناس أموال عظيمة ، وكان ذلك أعظم من الكسرة وقعا .

ولما عاد السلطان إلى الخيم ، ورأى ما قد تم على الناس من نهب الأموال والهزيمة سارع إلى الكتب والرسل فى رد المنهزمين ، وتتبع من شذ من العسكر ، والرسل تتابع فى هذا المعنى حتى بلغت « عقبة فِيق »[١] ، وأخذوهم بالكرة إلى عسكر المسلمين فعادوا وأمر بجمع الأقمشة من أكف الغلمان إلى خيمته ، حتى جلالات الخيل والمخالى بين يديه فى خيمته ، وهو جالس ونحن حوله ، وهو يتقدم إلى كل من عرف شيئا وحلف عليه يسلم إليه ، وهو يلتى هذه الأحوال بقلب صلب ، وصدر رحب ، ووجه منبسط ، ورأى مستقيم غير مختبط ، واحتساب لله تعالى ، وقوة عزم فى نصرة دين الله .

وأما العدو المخذول فإنه عاد إلى خيمته وقد قتل شجعانهم ، وطرحت

---

(١) عقبة فيق : أو عقبة أفيق ، وأفيق قرية من حوران فى طريق الغور فى أول العقبة المعروفة بعقبة أفيق والعامة تقول فيق تنزل فى هذه العقبة إلى الغور وهو الأردن ، وهى عقبة طويلة نحو ميلين ( النجوم الزاهرة ج ٦ : ١٦٨ حاشية ١ )

مقدموهم وفقدت ملوكهم فأمر السلطان إن خرج من عكا عجل ؛ يسحبون عليه القتلى منهم إلى طرف النهر ليلقوا فيه .

ولقد حكى لى بعض من ولى أمر العجل ؛ أنه أخذ خيطا وكان كلما أخذ قتيلا عقد عقدة ، فبلغ عدد قتلى الميسرة إلى[1] أربعة آلاف ومائة « وكسور[2] » ، وبقى قتلى الميمنة وقتلى القلب لم يعدهم ، فإنه ولى أمرهم غيره ، وبقى من العدو وبعد ذلك من حمى نفسه ، وأقاموا فى مخيمهم لم يكترثوا بجحافل المسلمين وعساكرهم .

وتشتت من عساكر المسلمين خلق كثير بسبب الهزيمة ، فإنه ما رجع منها إلا رجل معروف يخاف على نفسه ، والباقون هربوا فى حال سبيلهم .

وأخذ السلطان فى جمع الأموال المنهوبة وإعادتها إلى أصحابها ، وأقام المناداة فى العساكر ، وقرن النداء بالوعيد والتهديد ، وهو يتولى تفرقتها بنفسه بين يديه ، واجتمع من الأقمشة عدد كثير فى خيمته ، حتى أن الجالس فى أحد الطرفين لا يرى الجالس فى الطرف الآخر ، وأقام من ينادى على من ضاع منه شىء ، فحضر الخلق ، وصار من عرف شيئا وأعطى علامته حلف وأخذه ؛ من الحبل والمخلاة ؛ إلى الهميان[3]

---

(١) الزيادة من (ب) ومن (ج ٨٨ ا)

(٢) « كسر » فى (ب)

(٣) الهميان : وهو الكيس الذى تجعل فيه النفقة ( لسان العرب ) وهى كلمة ليست عربية الأصل . ومن (ح) ١٨٨ .

والجَوْهر . ولقى من ذلك مشقة عظيمة ؛ ولا يرى ذلك إلا نعمة من الله تعالى يشكر عليها ؛ ويسابق بيد القبول إليها .

ولقد حضرت يوم تفريق الأقمشة على أربابها ؛ فرأيت سوقا للعدل قائمة ، لم ير فى الدنيا أعظم منها ، وكان ذلك فى يوم الجمعة الثالث والعشرين من شعبان . وعند انقضاء هذه الواقعة ؛ وسكون ثائرتها ؛ أمر السلطان بالثقل حتى تراجع إلى موضع يقال له « الخروبة » ، خشية على العسكر من روائح القتلى ، وآثار الوخم من الوقعة ، وهو موضع قريب من مكان الوقعة ، إلا أنه أبعد عنها من المكان الذى كان نازلا فيه بقليل ، وضربت له خيمة عند الثقل ، وأمر اليزك أن يكون مقيما فى المكان الذى كان نازلا فيه ، وذلك فى التاسع والعشرين ، واستحضر الأمراء وأرباب المشورة فى سلخ الشهر ثم أمرهم بالإصغاء إلى كلامه ، وكنت من جملة الحاضرين ، ثم قال :

« بسم الله ، والحمد لله ، والصلاة على رسول الله ، إعلموا أن هذا عدو الله وعدونا ، قد نزل فى بلدنا ، وقد وطىء أرض الإسلام ، وقد لاحت لوائح النصر عليه إن شاء الله تعالى ، وقد بقى فى هذا الجمع اليسير ، ولا بد من الاهتمام بقلعه ، والله قد أوجب علينا ذلك ؛ وأنتم تعلمون أن هذه عساكرنا ، ليس وراءنا نجدة ننتظرها سوى الملك العادل ، وهو واصل ، وهذا العدو إن بقى وطال أمره إلى أن ينفتح البحر جاءه مدد عظيم ، والرأى كل الرأى عندى مناجزتهم ، فليمنحنا كل منكم ما عنده فى ذلك » .

وكان ذلك فى ثالث عشر تشرين[١] من الشهور الشمسية ، وامتخضت الآراء ، وجرى تجاذب فى أطراف الكلام ، وانفصلت آراؤهم على أن المصلحة تأخير المسكر إلى « الخروبة » ، وأن يبقى المسكر أياماً حتى يستجم من حمل السلاح ، وترجع النفوس إليهم ، فقد أخذ التعب منهم ، واستولى على نفوسهم الضجر ، وتكليفهم أمراً على خلاف ما تحمله القوى لا تؤمن غائلته ، والناس لهم خمسون يوماً تحت السلاح وفوق الخيل ، والخيل قد ضجرت من عرك اللجم ، وسئمت نفوسها ذلك ، وعند أخذ حظ من الراحة ترجع نفوسها إليها ، ويصل الملك العادل ويشاركنا فى الرأى والعمل ، ونعيد من شذ[٢] من العساكر ونجمع الرجالة ، ليقفوا فى مقابلة الرجاله .

وكان بالسلطان التياث مزاجى ، قد عراه من كثرة ما حمل على قلبه وما عاناه من التعب بحمل السلاح والفكر فى تلك الأيام ، فوقع ما قالوه ورأوه مصلحة .

وكان انتقال المسكر إلى الثقل ثالث رمضان ، وانتقال السلطان تلك الليلة ، وأقام يصلح مزاجه ، ويجمع العساكر ، وينتظر أخاه إلى عاشر رمضان .

---

(١) شهر تشرين : هو ما يقابل شهر أكتوبر .

(٢) ونستعيد فى «ب» وفى جـ ١٨٩

# ذكر
## وصول خبر ملك[1] الألمان

ولما دخل رمضان من شهور سنة خمس وثمانين وخمسائة ، وصل من جانب حلب كتب من ولده الملك الظاهر — عز نصره — يخبر فيها أنه قد صح أن ملك الألمان قد خرج إلى القسطنطينية في عدة عظيمة — قيل مائتا ألف ، وقيل مائتان وستون ألفا — يريد البلاد الإسلامية . فاشتد ذلك على السلطان وعظم عليه ، ورأى استسيار الناس للجهاد ، وإعلام خليفة الوقت بهذه الحادثة .

فاستدعاني لذلك ، وأمرني بالمسير إلى صاحب « سنجار » وصاحب « الجزيرة » وصاحب « الموصل » وصاحب « أربل » ، واستدعاهم إلى الجهاد بأنفسهم وعساكرهم ، وأمرني بالمسير إلى « بغداد » لإعلام خليفة الزمان بذلك ، وتحريك عزمه على المعاونة ، وكان الخليفة إذ ذاك الناصر لدين الله أبا العباس أحمد بن المستضيء بأمر الله[2] ، وكان مسيري في ذلك المعنى في حادي عشر رمضان ، ويسر الله تعالى الوصول إلى الجماعة وإبلاغ الرسالة إليهم ، فأجابوا بنفوسهم ، وسار عماد الدين زنكي صاحب

(١) الزيادة من « ب » ، ومن ( ج ) ٨٩ :

(٢) الخليفة الناصر لدين الله أبو العباس أحمد بن المستضيء بالله : ولد سنة ٥٥٣ هـ وبويع بالخلافة بعد موت أبيه سنة ٥٧٥ هـ لم يل الخلافة من هو أطول مدة منه ، وفي أيامه ظهرت الفتوة ببغداد وأفتن الناس في ذلك ودخل فيه الأجلاء ثم الملوك ، فألبسوا الملك العادل ثم أولاده سراويل الفتوة ولبسها غيرهم من الملوك . وقد لبث في الخلافة ٤٧ سنة ، مات سنة ٦٢٢ هـ

( النجوم الزاهرة ج ٦ : ٢٦١ — ٢٦٢ ط دار الكتب )

« سنجار » بعسكره وجمعه فى تلك السنة ، وسار ابن أخيه صاحب « الجزيرة » سنجر شاه بنفسه يجر عسكره ، وسير صاحبُ « الموصل » ابنه علاء الدين خُرَّمْ شاه بمعظم عسكره .

وحضرت الديوان السعيد ببغداد ، وأنهيت الحال كما رسم ، ووعد بكل جميل ، وعدت الى خدمته -- رحمة الله عليه — وكان وصولى إليه فى يوم الخميس خامس ربيع الأول من شهور سنة ست وثمانين ، وكنت قد سبقت العساكر وأخبرته بإجابتهم بالسمع والطاعة ، وباهتمامهم بالمسير ، فسر بذلك وفرح فرحا شديداً .

## ذكر

## وقعة الرمل التى على جانب نهر عكا

ولما كان صفر من تلك السنة خرج السلطان يتصيد ، مطمئن النفس ببعد المنزلة عن العدو ، فأوغل فى الصيد ، وبلغ ذلك العدو فأخذوا غرة العسكر ، واجتمعوا وخرجوا يريدون الهجوم على العسكر الإسلامى ، فأحس بهم الملك العادل فصاح بالناس ، وركبت العساكر من كل جانب ، وحمل على القوم ، وجرت مقتلة عظيمة ، قتل وجرح بينهما منهم خلق عظيم ولم يقتل من معروفى المسلمين إلا مملوك للسلطان يقال له « أرغش[١] » — وكان رجلا صالحاً — استشهد فى ذلك اليوم ، وبلغ الخبر إلى السلطان فعاد منزعجاً ، فوجد الحرب قد انفصل ، وعاد كل فريق الى حزبه ، وعاد

(١) فى (ج) ٩٠ ب « أرعشا »

العدو خائباً خاسراً ، ولله الحمد والمنة ، [ وهذه الوقعة لم أحضرها فإنى كنت مسافرا(١) ] .

وما مضى من الوقعات شاهدت منه ما يشاهده مثلى ، وعرفت الباقى معرفة الحاضر(٢) فى هذه الأمور .

ومن نوادر هذه الوقعة : أن مملوكا كان للسلطان يدعى قره سنقر ، وكان شجاعاً ، قد قتل من أعداء الله خلقاً عظيما ، وفتك فيهم ، فأخذوا فى قلوبهم من نكايته فيهم ، وتجمعوا له وكمنوا له ، وخرج إليه بعضهم وتراءوا له ، فحمل عليهم حتى صار بينهم ، فوثبوا عليه من سائر جوانبه ، فأمسك واحد منهم بشعره وضرب الآخر رقبته بسيفه ، فانه كان قتل له أقرباء ، فوقعت الضربة فى يد الممسك بشعره فقطعت يده ، وخلى سبيله ، فاشتد هارباً حتى عاد إلى أصحابه ، وأعداء الله يشتدون عدواً خلفه ، لم يلحقه منهم أحد ، وعاد سالماً « وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا »(٣) .

## ذكر
## وفاة الفقيه عيسى

وهى مما بلغنى ولم أكن حاضرها ، وذلك أنه مرض مرضاً يتعاهده ، وهو ضعيف النفس ، وعرض له إسهال أضعفه فلم تقطع صلابته ، ولم يغب ذهنه عنه إلى أن مات ، وكان — رحمه الله — كريماً شجاعاً ، حسن القصد ،

---

(١) الزيادة من ب ومن جـ ٩٠ ب

(٢) فى ا « خاصة » وما بين الحاصرتين من (ب) ومن (جـ) ٩٠ ب

(٣) الآية : ٢٥ سورة الأحزاب

كبير الغرام بقضاء حوائج المسلمين ، توفى — رحمه الله — طلوع فجر الثلاثاء تاسع ذى القعدة من شهور سنة خمسة وثمانين .

## ذكر

### تسليم « الشقيف » سنة ست وثمانين

ولما كان يوم الأحد خامس عشر ربيع الأول ؛ علم الإفرنج المستحفظون « بالشقيف » أنهم لا عاصم لهم من أمر الله ، وأنهم إن أخذوا عنوة ضربت رقابهم فطلبوا الأمان ، وجرت مراجعات كثيرة فى قاعدة « الإيوان » وكانوا قد علموا من حال صاحبهم أنه قد عذب أشد العذاب ، فاستقرت القاعدة على أن « الشقيف » يسلم ؛ ويطلق صاحبه وجميع من فيه من الافرنج ، ويترك ما فيه من أنواع الأموال والذخائر .

وعاد صاحب « صيدا » والإفرنج الذين كانوا ب « الشقيف » إلى « صور » ، ولما رأى السلطان من اهتمام الإفرنج من أقطار بلادهم بالمكان ؛ وتصويب عزائمهم نحوه ؛ اغتنم الشتاء وانقطاع البحر ، وجمل فى « عكا من الميرة والذخائر والعدد والرجال ما أمن معه عليها مع تقدير الله تعالى ، وتقدم إلى النواب « بمصر » أن عمروا لها أسطولا عظيما ، يحمل خلقا كثيرا ، وسار حتى دخل عكا مكابرة للعدو ومراغمة له ، وأعطى العساكر دستورا طول الشتاء يستجمعون ويستريحون ، وأقام هو مع نفر يسير قبالة العدو ، وقد حال بين العسكرين شدة الوحول ، وتعذر بذلك وصول بعضهم إلى بعض .

## ظريفة

كان لما بلغ خبر العدو وقصده عكا[١] ؛ جمع الأفراد وأصحاب الرأى بـ « مرج عيون » وشاورهم فيما يصنع ، وكان رأيه أن قال : المصلحة مناجزة القوم ومنعهم من النزول إلى البلد ، وإلا فإن نزلوا جعلوا الرجالة سورا لهم وحفروا الخنادق ، وصعب علينا الوصول إليهم ، وخيف على البلد منهم .

وكانت اشارة الجماعة أنهم إذا نزلوا واجتمعت العساكر قلعناهم فى يوم واحد ، وكان الأمر كما قال السلطان .

والله ! لقد سمعت هذا القول وشاهدت الفعل كما قال السلطان ، وهو يوافق[٢] معنى قوله صلى الله عليه وسلم: « إنَّ مِنْ أُمَّتى لمُحَدَّثين ومُكَلَّمين ، وإن عُمَرَ لَمِنْهُم » .

## ذكر
## وصول رسول الخليفة

ولم يزل السلطان مجداً فى الانفاذ إلى « عكا » بالميرة والعدد والأسلحة والرجال حتى انقضى الشتاء ، وانفتح البحر ، وحان زمان القتال ، فكتب إلى العسكر يستدعيها من الأطراف .

(١) الزيادة من (ب) ، ومن (ج) ٩١ ب
(٢) «هذا» فى (ب) وما فى (ج) ٩١ ب مطابق لما فى ( ا )

ولما تواصل أوائل العساكر ، وقوى جيش الإسلام ، رحل السلطان نحو العدو ونزل على تل كيسان ، وذلك فى ثامن عشر [شهر] ربيع الأول سنة ست وثمانين ، ورتب العسكر قلباً وميمنة وميسرة ، وأخذت العساكر فى التواصل ، والنجدة فى التواتر ، فوصل رسول الخليفة — وهو شاب شريف ، ووصل معه حملان من النفط وجماعة من النفاطين والزراقين ، ووصل معه من الديوان العزيز النبوى — مجده الله تعالى — رقعة تتضمن الإذن للسلطان أن يقترض عشرين ألف دينار من التجار ، ينفقها فى الجهاد ، ويحيل بها على الديوان العزيز ، فقبل جميع ما وصل مع الرسول ، واستغنى عن الرقعة والتثقيل بها .

وفى ذلك اليوم؛ بلغ السلطان أن الإفرنج قد زحفوا على البلد وضايقوه ، فركب إليهم لشغلهم بالقتال عن البلد ، وقاتلهم قتالا شديداً إلى أن فصل بين الطائفتين الليل ، وعاد كل فريق إلى أصحابه ، ورأى السلطان قوة العساكر الإسلامية وبعد المكان عن العدو ، فخاف أن لا يهاجم البلد ويتم عليه أمر ، فرأى الانتقال إلى « تل العجول » بالكلية ، فانتقل بالعسكر والثقل فى الخامس والعشرين .

وفى صبيحة هذا اليوم؛ وصلت كتب أن قد طم العدو بعض الخندق ، وقوى عزمه على منازلة البلد ومضايقته ، فجدد الكتب إلى العساكر بالحث على الوصول ، وعبى العسكر تعبئة القتال ، وزحف إلى العدو ليشغله عن ذلك .

ولما كان سَحَر ليلة الجمعة السابع والعشرين؛ وصل ولده الملك الظاهر

غياث الدين غازى صاحب « حلب » جريدة إلى خدمته ، معاجلة لسيره ، وترك عسكره فى « المنزلة » ، وخدم والده وبل شوقه منه ، وعاد إلى عسكره فى الثامن والعشرين ، وسار حتى وصل فى ذلك اليوم بجحفله ، وقد أظهروا الزينة ، ولبسوا لأمة الحرب ، وكثرت الأعلام والبيارِق وضربت الكُوسات ، ونعقت الوقات ، وعرض بين يدى والده ، وكان قد ركب إلى لقائه فى المرج ، وسار بهم حتى وقف بهم على العدو ، وشاهدوا من جُنْد الله ما أزعجهم وأقلقهم .

وفى أواخر ذلك اليوم ؛ قدم مُظفر الدين بن زيْن الدين جريدة أيضاً ، مسارعة للخدمة ، ثم عاد إلى عسكره وقدم معه[1] فى لأمة الحرب ، فعرضهم السلطان حتى وقف بهم على العدو . وكان إلاَّ ما تقدم عسكر يعرضهم ويسيرهم إلى العدو ، وينزل بهم فى خيمته ، يمد لهم الطعام ، وينعم عليهم بما يطيب به قلوبهم إذا كانوا أجانب ، ثم تضرب خيامهم حيث يأمر ، وينزلون بها مكرمين .

## لطيفة

### تدل على سعادة ولده الملك الظاهر — عز نصره

وذلك أن العدو كان قد اصطنع ثلاثة أبراج من خشب وحديد ، وألبسها الجلود المسقاة بالخل — على ما ذكر ، بحيث لا تنفذ فيها النيران ، وكانت هذه الأبراج كأنها الجبال ، نشاهدها من مواضعنا عالية على سور

---

(١) الزيادة من (ب) ، ومن (ج) ٩٣ ا

البلد ، وهى مركبة على عجل ، يسع الواحد منها من المقاتلة ما يزيد على خمسمائة نفر – على ما قيل ، ويتسع سطحها لأن ينصب عليه منجنيق .

وكان ذلك قد عمل فى قلوب المسلمين وأودعها من الخوف ما لا يمكن شرحه ، وأيس الناس من البلد بالكلية ، وتقطعت قلوب المقاتلة فيه ، وكان فرغ من عملها ولم يبق إلا جرّها إلى قُرَيْب السور .

وكان السلطان قد أعمل فكره فى إحراقها وإهلاكها ، وجمع الصناع من الزّرّاقين[١] والنفّاطين[٢] ،وحثهم على الاجتهاد فى إحراقها ، ووعدهم عليه بالأموال الطائلة والمطايا الجزيلة ، وضاقت حيلهم عن ذلك ، وكان مِنْ جملة مَنْ حضر ؛ شاب نحّاس دمشق ، ذكر بين يديه أنّ له صناعة فى إحراقها ، وأنه إنْ مُكِّن من الدخول إلى عكا وحصلت له الأدوية التى يعرفها أحرقها ، فحصل له جميع ماطلبه ، ودخل إلى « عكا » ، وطبخ الأدوية مع النفط فى قدور نحاس ، حتى صار الجميع كأنه جمرة نار .

ولما كان يوم وصول الملك الظاهر ؛ ضرب واحداً بقدر ، فلم يكن إلا أن وقعت فيه ، فاشتعل من ساعته ووقته ، وصار كالجبل المظيم من النار ، طالعة ذُؤابته نحو السماء ، واستغاث المسلمون بالتهليل والتكبير[٣] ، وعلاهم الفرح حتى كادت عقولهم أن[٤] تذهب ، وبينما الناس ينظرون

---

(١) الزراقون : جمع زراق ، وهو الذى يرمى النفط من الزراقة — أنبوبة خاصة يزرق بها النفط . Dyoz Supp. Dict. Arabe.

(٢) النفاطون : جمع نفاط وهو رامى كور النفط

(٣) و (٤) تكملتان من (ب) ومن (ج) ١٩٤

ويتعجبون إذ رمى البرج الثانى بالقدر الثانية ، فما كان إلا أن وصلت إليه ، واشتعلت كالتى قبلها ، فاشتد ضجيج الفئتين،وانعقدت الأصوات إلى السماء ، وما كان إلا ساعة حتى ضرب الثالث فالتهب،وغشى الناس من الفرح والسرور ما حرك ذوى الأحلام والنُّهى منهم حركة الشباب الرعناء .

وركب السلطان وركبت العساكر ميمنة وميسرة وقلباً ، وكان أواخر النهار،وسار حتى أتى عسكر القوم،وانتظر أن يخرجوا فيناجزهم ، عملا بقوله صلى الله عليه وسلم: « مَنْ فُتِحَ لَهُ بابٌ مِنَ الخيرِ فَلْيَنْتَهِزْهُ » . فلم يظهر العدو من خيامهم ، وحال بين الطائفتين الليل ، وعاد كل فريق إلى حزبه ، ورأى الناس ذلك ببركة قدوم الملك الظاهر ، واستبشر والده بغرته ، وعلم أن ذلك بيمن صلاح سريرته .

واستمر ركوب السلطان إليهم فى كل يوم ، وطلب نزالهم وقتالهم ، وهم لا يخرجون من خيامهم ، لعلمهم ببشائر النصر والظفر بهم ، والعساكر الإسلامية تتواتر وتتواصل .

## ذكر

### وصول عماد الدين زنكى صاحب « سنجار » وغيره

ولما كان الثانى والعشرون من ربيع الآخر؛ وصل عماد الدين زَنْكى

ابن مَوْدوُد[١] صاحب « سنجار» يجر عسكره ، ووصل بتجمل حسن ، وعسكر تام ، ولقيه السلطان بالاحترام والتعظيم ، ورتب له العسكر فى لقائه ، وكان أول من لقيه من العسكر المنصور قضاته وكتابه ، ثم لقيه أولاده بعد ذلك ، ثم لقيه السلطان ، ثم سار به حتى أوقفه على العدو ، وعاد معه إلى خيمته ، وأنزله عنده ، وكان صنع له طعاماً لائقاً بذلك اليوم ، فحضر هو وجميع أصحابه ، وقدم له من التحف واللطائف ما لا يقدر غيره عليه .

وكان قد أكرمه بحيث طرح له طراحة مستقلة إلى جانبه ، وبسط له ثوب أطلس عند دخوله ، وضرب له خيمة على طرف الميسرة على جانب النهر .

ولما كان سابع جمادى الأولى من هذه السنة : وصل سِنْجَر شاه ابن سَيْف الدين غَازِى بن مَوْدُود بن زَنْكى « صاحب الجزيرة » ، ووصل فى عسكر حسن فلقيه السلطان واحترمه وأكرمه ، وأنزله فى خيمته . وأمر أن ضربت خيمته إلى جانب عمه عماد الدين[٢] .

وفى تاسع الشهر وصل « علاء الدين بن مسعود » صاحب الموصل ، مقدما على عسكره ، ففرح السلطان بقدومه فرحا شديداً ، وتلقاه عن بعد

---

(١) عماد الدين زنكى بن مودود بن زنكى بن آق سنقر (صاحب سنجار) ، ابن أخى نور الدين محمود ، كان عاقلا جواداً ، لم يزل مع السلطان صلاح الدين ، وكان صلاح الدين يحترمه ، ويعطيه الأموال والهدايا ، وكانت وفاته بسنجار سنة ٥٩٤ هـ : ( النجوم الزاهرة ج ٦ : ١٤٤ ط دار الكتب )

(٢) الزيادة من (ج) ٩٤ ب

هو وأهله ، واستحسن أدبه وأستنجبه[1] ، وأنزله عنده فى الخيمة ، وكارمه مكارمه عظيمة ، وقدم له تحفا حسنة ، وأمر بضرب خيمته بين ولديه الملك الأفضل والملك الظاهر ، وما من أهله إلا من بسط له من ضيافته وجها مضيئاً .

ولما كانت ظهيرة نهار ذلك اليوم ؛ ظهرت فى البحر قلوع كثيرة ، وكان — رحمه الله — فى نظره وصول الأسطول من مصر فإنه كان قد أمر بتعميره ووصوله ، فعلم أنه هو ، فركب السلطان وركب الناس فى خدمته ، وتعبي تعبئة القتال ، وقصد مضايقة العدو ليشغله عن قصد الأسطول .

ولما علم العدو وصول الأسطول استمدوا له ، وعمروا أسطولاً لقتاله ومنعه من دخول « عكا » ، وخرج أسطول العدو ، واشتد السلطان فى قتاله من خارج ، وسار الناس على جانب البحر تقوية للاسطول ، وإيناسا لرجاله ، والتقى الأسطولان فى البحر ، والعسكران فى البر ، واضطربت نيران الحرب واستعرت ، وباع كل فريق روحه براحته الأخروية ، ورجح حياته الأبدية على حياته الدنيوية ، وجرى بين الأسطولين قتال شديد ، « تقشع »[2] عن نصرة الأسطول الإسلامى وأخذ من العدو شانيا[3] وقتل من به ، ونهب جميع ما فيه ، وظفر من العدو بمركب أيضاً كان واصلا من « قسطنطينية » ، ودخل الأسطول

---

(١) تكملة من (ب) ومن (ج) ٩٥ ا

(٢) فى (ب) وفى (ج) ٩٥ ب « القشع »

(٣) بالأصل الشوانى وهذا لا يتفق وسياق الحديث ، والتصحيح من ب ، ومن (ج) ٩٥ ب

المنصور إلى « عكا » ، وكان قد صحبه مراكب من الساحل فيها مير وذخائر ، وطابت قلوب أهل البلد ، وانشرحت صدورهم ، فإن الضائقة كانت قد أخذت منهم ، واتصل القتال بين العسكرين من خارج البلد إلى أن فصل بينهما الليل ، وعاد كل فريق إلى خيامه ، وقد قتل من عدو الله وخرج خلق كثير عظيم ، فإنهم قاتلوا فى ثلاثة مواضع ، فإن أهل البلد اشتدوا فى قتالهم ليشغلوهم عن الأسطول أيضا ، والأسطولان يتقاتلان ، والعسكر يقاتلهم من البر ، وكان النصر للمسلمين فى الأماكن كلها .

ثم كان وصول زين الدين صاحب « أربل » فى العشر الأواخر من جمادى الأولى ، وهو زين الدين يوسف بن على بن بكتكين[1] ، قدم بعسكر حسن وتجمل جميل ، فاحترمه السلطان وأكرمه وأنزله فى خيمته ، وأكرم ضيافته ، وأمر بضرب خيمته إلى جانب خيمة أخيه مظفر الدين .

## ذكر

## خبر ملك الألمان

ثم « تواترت »[2] الأخبار بوصول ملك الألمان إلى بلاد « قليج أرسلان » ، وأنه نهض للقائه جمع عظيم من التركمان ، وقصدوا منعه

---

(١) زين الدين «صاحب اربل» : هو زين الدين ، يوسف بن على بن بكتكين ، كان اميراً كبيراً شجاعا مقداما مدبراً . توفى سنة ٥٨٦ هـ ، وكان قد قدم نجدة للسلطان صلاح الدين فرض ثم مات وخلفه أخوه مظفر الدين على اربل من قبل صلاح الدين ( النجوم الزاهرة جـ ٦ : ١١١ — ١١٢ ط دار الكتب )

(٢) «تواصلت» فى (ب) ، وفى (جـ) ١٩٦

من عبور النهر ، وأنه أعجزهم لكثرة خلقه وعدم مقدم لهم يجمع كلمتهم وكان « قليج أرسلان » أظهر شقاقه ، وهو فى الباطن قد أضمر وفاقه .

ثم لما عبر إلى البلاد أظهر ما كان أضمره ،[١] ووافقه وأعطاه رهائن معه[٢] ، على أن ينفذ معه من يوصله إلى بلاد ابن لاون ، وأنفذ معه أدلاء وعراهم فى الطريق جوع عظيم حتى أنهم[٣] ألقوا بعض أقمشتهم ، ولقد بلغنا — والله أعلم — أنهم جمعوا عدداً كثيرة من زرديات وخوذ وآلات سلاح عجزوا عن حملها ، وجعلوها سدرا واحداً وأضرموا فيها النار لتتلف ولا ينتفع بها أحد ، فإنها بقيت بعد ذلك تلا من حديد .

وساروا على هذا الحال حتى أتوا إلى بلد يقال لها طرسوس ، فأقاموا على نهر ليعبروه ، وأما ملكهم فمن له أن يسبح فيه ، وكان ماؤه شديد البرد ، وكان ذلك عقيب ما ناله من التعب والنصب والمشقة[٤] والخوف ، وأنه عرض له بسبب ذلك مرض عظيم اشتد به إلى أن قتله .

ولما رأى ما حل به ؛ أوصى إلى ابنه الذى كان فى صحبته ، ولما مات أجمعوا رأيهم إلى أن سلقوه فى خل ، وجمعوا عظامه فى كيس على أن يحملوه إلى « القدس الشريف » — حرسه الله — ويدفنوه فى « القدس » ، وترتب ابنه مكانه على خلف من أصحابه ، فإن ولده الأكبر كان قد خلفه فى بلاده ، وكان جماعة من أصحابه يميلون إليه ، واستقر قدم ولده الحاضر فى تقدمة العسكر .

---

(١ ، ٢ ، ٣ ) زيادات من ب ، ومن (جـ) ١٩٦

(٤) زيادة من ( ب) ومن (جـ) ٩٦ ب

ولما أحسن ابن لاون بما جرى عليهم من الخلل ، وما حل بهم من الجوع والموت والضعف ؛ بسبب موت ملكهم، ما رأى أن يلتقى بنفسه بينهم . فإنه لا يعلم كيف يكون الأمر، وهم إفرنج وهو أرمنى ، فاعتصم هو عنهم فى بعض قلاعه المنيعة .

## ذكر

## صورة كتاب [ الكايغكوس ][1] الأرمنى

ولقد وصل إلى السلطان كتاب من الكايغكوس ، وهو مقدم الأرمن — وهو صاحب « قلعة الروم[2] » التى على طرف «الفرات» — نسخة هذه ترجمتها .

كتاب الداعى المخلص « الكايغكوس » ، ما أطالع به علم مولانا ومالكنا السلطان الناصر، جامع كلمة الإيمان ، رافع علم العدل والإحسان، صلاح الدنيا والدين،سلطان الإسلام والمسلمين ، أدام الله إقباله ،وضاعف جلاله ، وصان مهجته ، وكمل نهاية آماله ، بعظمته وجلاله —

من أمر ملك الألمان وما جرى له عند ظهوره ، وذلك أنه أول

(١) فى (١) « الكايغكوس » وقد ورد التصحيح المذكور فى ب ( kia kousi ) كما ورد الاسم « بالفتح القسى » « الكاياغيكوس » وفى (جـ) ٩٧ ا« والكاغيكوس »

(٢) قلعة الروم : هى قلعة حصينة فى غربى الفرات مقابل البيرة بينها وبين سميساط ( معجم البلدان جـ ١٦ : ٣٩٠ — ٣٩١)

ماخرج من دياره ، ودخل بلاد المُنَكر[١] غصبا[٢] ، وغصب ملك المنكر بالإذعان والدخول تحت طاعته ، وأخذ من ماله ورجاله ما اختار ، ثم أنه دخل أرض مقدم الروم ، وفتح البلاد ونهبها وأقام بها ، وأخرج ملك الروم إلى أن أطاعه ، وأخذ رهائنه ؛ ولده وأخاه وأربعين نفراً من خلصائه ، وأخذ منه خمسين قنطاراً ذهباً ، وخمسين قنطارا فضة . وثياباً أطلس بمبلغ عظيم .

واغتصب المراكب وعادبها إلى هذا الجانب ، وصحبته الرهائن إلى أن دخل حدود بلاد الملك « قليج أرسلان» ورد الرهائن ، وبقى سائراً ثلاثة أيام ، وتركمان « الأوج[٣]» يلقونه بالأغنام «والبقر»[٤] والخيل والبضائع ، فداخلهم الطمع ، وجمعوا جموعا من جميع البلاد ، ووقع القتل بين التركمان وبينه ، وضايقوه ثلاثة وثلاثين يوماً وهو سائر .

ولما قرب من « قُونِيَة[٥]» ؛ جمع «قُطْب الدين ولد قِلِيج أرسلان» العساكر ، وقصده وضرب معه مصافا عظيما ، فظفر به ملك الألمان ،

(١) بلاد المنكر : المقصود بها بلاد هنغاريا أو المجر ( الآن )
(مفرج الكروب لابن واصل ج ٢ : ٣٢٠ تحقيق د الشيال)

(٢) الزيادة من (ب)

(٣) بلاد الأوج : الأوج قرية صغيرة للخزلجية وهم صنف من الأتراك فيما وراء سيحون
( معجم البلدان ج ٣ : ٧٦ ط بيروت )

(٤) «الأبقار» فى (ب) ، وفى (ج) ١٩٧

(٥) قونية : مدينة كانت من أعظم مدن الإسلام بالروم ( آسيا الصغرى)
(معجم البلدان ج ١٦ : ٤١٥ ط بيروت)

كسره كسرة عظيمة ، وسار حتى أشرف على قونية «فخرج إليه جموع عظيمة من المسلمين ، فردهم مكسورين ، وهجم على « قونية » بالسيف . وقتل منهم عالما عظيما من المسلمين والفرس ،وأقام بها خمسة أيام ، فطلب «قليج أرسلان » منه الأمان فأمنه الملك ، واستقر بينهم قاعدة أكيدة، وأخذ الملك منه رهائن ، عشرين من أكابر دولته ، وأشار على الملك أن يجعل طريقه على «طَرَسُوس[١] » و «المَصِّيصَة[٢] » ففعل وقبل منه .

وقبل وصوله إلى هذه الديار اختياراً أو كرها : انتضى الحال إنفاذ المملوك حاتم ، وصحبته ما سأل ، ومعه من الخواص جماعة لإلقاء الملك ، وجواب كتابه ، وكانت الوصية ( معهم )[٣] أن يعبروا به[٤] على بلاد « قليج أرسلان » إن أمكن ، فلما اجتمعوا بالملك الكبير أعادوا عليه الجواب ، وعرفوه الأحوال بالانحراف ، ثم كثرت عليه العساكر والجموع ، ونزل على شط بعض الأنهار ، وأكل خبزاً ونام ، وانتبه فتاقت نفسه إلى الاستحمام فى الماء البارد ، ففعل ذلك وخرج ، وكان من أمر الله أن تحرك عليه مرض عظيم من الماء البارد ، فمكث أياما قلائل ومات .

---

(١) طرسوس : إحدى مدن ( آسيا الصغرى) وكانت ثغراً من ناحية بلاد الروم ( آسيا الصغرى ) على ساحل البحر الشامى ( الأبيض المتوسط )
( ياقوت جـ ١٣ : ٢٨ — ٢٩ ط بيروت )

(٢) المصيصة : من ثغور الشام بين أنطاكية وآسيا الصغرى ، وكانت من الأماكن التى يرابط بها المسلمون

(٣) تكملة من (جـ) ٩٧ ب

(٤) «يعرفوه على» فى ب وفى (جـ) ٩٧ ب

وأما « ابن لاون » فإنه كان سائرا يَلْقى الملك ، فلما جرى هذا المجرى ؛ هرب الرسل من العسكر ، وتقدموا إليه وأخبروه [ بالحال ][١] ، فدخل فى بعض حصونه ، واحتمى هناك .

وأما ابن الملك ؛ فكان أبوه منذ توجهه إلى قصد هذه الديار ؛ نصب ولده الذى معه عوضه ، واستقرت القاعدة ، وبلغه [ هرب ][٢] رسل ابن لاون فأنفذ واستعطفهم وأحضرهم وقال : « إن أبى كان شيخا كبيرا ، وما قصد هذه الديار إلا لأجل حج بيت المقدس ، وأنا الذى دبرت الملك ، وعاينت المشاق فى هذه الطريق ، فمن أطاعنى وإلا قصدت دياره ،واستعطف ابن لاون، واقتضى الحال الاجتماع [ به ]ضرورة[٣] .

وبالجملة فهو فى عدد كثير ،ولقد عرض عسكره فكان اثنين وأربعين مجفجفا[٤] ، وأما الرجالة فما يحصى عددهم ، وهم أجناس متفاوتة على قصد عظيم ، وجدّ فى أمرهم ، وسياسة هائلة ، حتى أن من جنى منهم جناية فليس له جزاء إلا أن يذبح مثل الشاة .

ولقد بلغهم عن بعض أكابرهم أنه جنى على غلام له وجاوز الحد فى ضربه ، فاجتمعت القسوس للحكم ، فاقتضى الحال والحكم العام ذبحه ، وشفع إلى الملك منهم خلق عظيم فلم يلتفت إلى ذلك وذبحه ، وقد حرموا

(١) فى ( ا ) «فى الحال» والتصحيح من (ب) ، ومن (ج) ١٩٨

(٢،٣) تكملتان من (ب) ،ومن (ج) ١٩٨

(٤) مجفجفا : أى يلبسون التجفاف وهى آلة يلبسها الإنسان أو الفرس تصنع من حديد أو غيره للوقاية أثناء الحرب ، وهى كلمة ليست من أصل عربى .
( القاموس المحيط ، والمنجد )

للاذ على أنفسهم حتى إن من بلغهم عنه بلوغ لذة هجروه وعزروه، كل ذلك كان حزنا على البيت المقدس . ولقد صح من جمع منهم أنهم هجروا الثياب مدة طويلة [ وحرموها على أنفسهم ][١] ، وحرموا ما حل ، ولم يلبسوا إلا الحديد ، حتى أنكر عليهم الأكابر ذلك ، وهم من الصبر على الشقاء والقل والتعب فى حال عظيم .

طالع الملوك بالحال ، وما يتجدد بعد ذلك يطالع به إن شاء الله تعالى . هذا كتاب الـكايذكوس — ومعنى هذا اللفظ « الخليفة » واسمه « بركرى كورين باسيل » .

## ذكر

## مسير العساكر إلى أطراف البلاد فى طريق ملك الألمان

ولما تحقق السلطان وصول ملك الروم إلى « بلاد ابن لاون » ؛ وقربه إلى البلاد الإسلامية : جمع أمراء دولته ، وأرباب الآراء، وشاورهم فيما يصنع ، فاتفق الرأى على أن العسكر بعضه يسير إلى البلاد المتاخمة لطريق عسكر العدو الواصل ، وأن يقيم على منازلة العدو باقى العسكر المنصور . وكان أول من سار صاحب « مَنْبِج » وهو ناصر الدين بن تقى الدين، ثم عز الدين بن المقدم [ صاحب ][٢] « كفرطاب » و« بارين » وغيرها ، ثم مجد الدين صاحب « بعلبك » ، ثم صاحب « شيزر »[٣]

---

( ١، ٢ ) تكملة من (ب)، ومن (ج) ٥٨ ب

(٣) شيزر : قلعة وكورة قرب المعرة يخترقها نهر الأردن

( معجم البلدان ج ٥ : ٣٢٤ )

« سابق الدين » ، ثم « اليَارُوقِيّة[١] » من جملة عسكر « حلب » ، ثم عسكر « حماه » .

وسار ولده الملك الأفضل مع مرض عرض له ، ثم بدر الدين « شَحْنة دمشق[٢] » مع مرض عرض له أيضا ، وسار بعد ذلك ولده الملك الظاهر إلى حلب « لإبانة الطريق وكشفا لأخباره ، وحفظاً لما يليه من البلاد ، وسار بعده الملك المظفر ، لحفظ ما يليه من البلاد ، وتدبير أمر العدو المجتاز .

ولما سارت هذه العساكر : خفت الميمنة ، فإن معظم من سار منها. فأمر — رحمه الله — الملك العادل أن ينتقل إلى منزلة تقي الدين فى طرف الميمنة ، وكان عماد الدين زنكي فى طرف الميسرة .

ووقع فى العسكر مرض عظيم ، فرض مظفر الدين صاحب « حران » وشفى ، ومرض بعده الملك الظافر وشفى ، ومرض خلق كثير من الأكابر وغيرهم ، إلا أن المرض كان سليما بحمد الله . وكان المرض عند العدو أكثر وأعظم ، وكان مقرونا بموتان عظيم ، وأقام السلطان مصابرا على ذلك ، مرابطا للعدو .

---

(١) الياروقية : محلة كبيرة بظاهر حلب تنسب الى ياروق أحد أمراء التركمان الذين خدموا نور الدين محمود .

( معجم البلدان جـ ٢٠ : ٢٤٥ ط بيروت )

والمقصود هنا أى عسكر الياروقية .

(٢) شحنة دمشق : أى محافظها ، أو نائب السلطان بها .

( معجم الألفاظ الفارسية ، د . محمد هنداوى ) .

## ذكر

## تمام خبر ملك الألمان

وذلك أن ولده الذى قام مقامه مرض مرضاً عظيماً،أقام بسببه بموضع من بلاد ابن لاون ، وأقام معه خمسة وعشرون فارساً وأربعون دَاوِياً ، وجهز عسكره نحو « إنطاكية » حتى يقطعوا الطريق ، ورتبهم ثلاث فرق لكثرتهم ، ثم إن الفرقة الأولى اجتازت تحت قلعة « بغراس » يقدمها كند[١] عظيم عندهم ، وإن عسكر « بَغْراس » مع قلته أخذ منهم مئتى رجل قهراً ونهباً ، و ( كتبوا يخبرون عنهم )[٢] بالضعف العظيم والمرض الشديد ، وقلة الخيل والظهر والمدد والآلات .

ولما اتصل هذا الخبر بالنواب فى البلاد الشامية ؛ أنفذوا إليهم عسكراً يكشف أخبارهم ، فوقع العسكر على جمع عظيم قد خرجوا لطلب العلوفة ، فأغاروا عليهم غارة عظيمة ، وقتلوا وأسروا ، وكان مقدار ما أخذوه وقتلوه ــ على ما ذكره المخبرون فى الكتب ــ زهاء خمسمائة نفس.

ولقد حضرت رسالة رسول ثان من ( الكيفكوس )[٣] بين يدى السلطان وهو يذكر خبرهم ، ويقول : هم عدد كثير لكنهم ضعاف ، قليلو الخيل والمدة ، وأكثر ثقلهم على « حمير »[٤] وخيل ضعيفة ،

---

(١) كند أى فارس باسل . ( القاموس الفارسى الانجليزى )

(٢) فى ( ا ) « كتب جزء منهم » وما ذكر وهو أنسب للسياق من ( جـ ) ٩٩ ب .

(٣) فى ( ا ) « كيفا الفرس » والتصحيح من « ب » .

(٤) فى ( ا ) « حمر » وما ذكر من جـ ٩٩ ب

قال : ولقد وقفت على جسر يعبرون عليه لاعتبرهم ، فعبر منهم جمع عظيم ما وجدت مع واحد منهم طارقة[١] ولا رمحاً إلا النادر ، فسألتهم عن ذلك ، فقالوا : أقمنا بمرج وخم أياماً ، « فقل زادنا »[٢] وأحطابنا ، وأوقدنا معظم عددنا ، ومات مناخلق كثير ، واحتجنا إلى الخيل فذبحناها وأكلناها ، وأوقدنا الرماح والعدد لإعواز الحطب .

وأما الكُنْد[٣] الذي وصل إلى « أنطاكية » في مقدمة العسكر فإنه مات ، وذكر أن ابن لاون لما أحس منهم بذلك الضعف طمع فيهم ، حتى إنه عزم على أخذ مال الملك لمرضه وضعفه ، وقلة جمعه الذي تخلف معه ، وأن البرنس صاحب « انطاكية » لما أحس منهم بذلك ؛ أرسل إلى ملك الألمان ، التقطه إلى « انطاكية » طمعاً في أن يموت عنده ، ويأخذ ماله ، ولم تزل أخبارهم تتواتر بالضعف والمرض إلى أن وقعت وقعة العادل على طرف البحر .

## ذكر
## الوقعة العادلية

ولما كان يوم الأربعاء العشرون من جمادى الآخرة ؛ علم عدو الله أن العساكر قد تفرقت ، وأن الميمنة قد خفت لأن معظم من سافر كان

---

(١) طارقة : درقة أو ترس ( الروضتين جـ ١ تحقيق د . محمد حلمي أحمد ) .

(٢) « وقلت أزوادنا » في (ب) وفي جـ ١١٠٠ .

(٣) الكند : الفارس الباسل الشاكي السلاح ( من القاموس الفارسي الانجليزي ) و( النجوم الزاهرة جـ ٦ : ٢١٤ طبع دار الكتب )

منها ، بحكم قرب بلادهم من طريق العدو ، فأجمعوا رأيهم ، واتفقت كلمتهم على أنهم يخرجون بغتة ، ويهجمون على طرف الميمنة فجأة ، وتلاعبت بهم آمالهم فخرجوا ظهيرة النهار ، وامتدوا ميمنة وميسرة وقلباً ، وانبثوا فى الأرض ، وكانوا عدداً عظيما ، واستخفوا طرف الميمنة ، وكان فيها مخيم الملك العادل ، فلما بصر الناس بهم قد خرجوا فى تعبئة القتال ؛ صاح صائحهم ، وخرجوا من خيامهم كالأسود من آجامها ، وركب السلطان ، ونادى مناديه : « بالإسلام ! » . وركبت الجيوش وطلبت الأطلاب .

ولقد رأيته — رحمه الله — قدركب من خيمته ، وحوله نفر يسير من خواصه ، والناس لم يستتم ركوبهم ، وهو كالفاقدة ولدها ، الثاكلة واحدها ، ثم ضرب الكوس ، وأجابته كوسات الأمراء من أماكنها ، وركب الناس .

وأما الإفرنج ؛ فإنهم سارعوا فى القصد إلى الميمنة حتى وصلوا إلى خيمة الملك العادل ، ودخلوا فى [وطاقه][1] ، وامتدت أيديهم فى السوق وأطراف الخيم بالنهب والغارة ، وقيل ؛ وصلوا إلى خيمة الخاص ، وأخذوا من شراب خاناتها شيئاً .

---

(١) فى «ا» طاقة وهذا تحريف والتصحيح من ب ، ومن (ج) ١٠٠ ب . والوطاق لفظ فارسى معرب . وأصله التركى : أوثاق ، أو «أوطاق» أو « أوتاغ » — ومعناه الخيمة أو المجموعة من الخيام أو العسكر ( ارجع الى مفرج الكروب ج ٢ ص ٤٠٥ تحقيق د . جمال الشيال )

وأما الملك العادل ؛ فإنه لما علم بذلك ركب وخرج من خيمته ، واستركب من يليه من الميمنة كالطواشى قايماز النجمى ومن يجرى مجراه من أسود الإسلام ، ووقف وقوف مخادع حتى يوغل بهم طمعهم فى الخيم ويشتغلوا فى النهب ، وكان كما ظن ، فإنهم عاثت أيديهم فى الخيام والأقمشة ، والفواكه والمطاعم ، فلما علم اشتغالهم بذلك ؛ صاح بالناس ، وحمل بنفسه ، وحمل حلقته من كان يليه من الميمنة ، واتصل الأمر بجميع الميمنة حتى وصل الصائح إلى عسكر « الموصل » ، وهجموا على العدو هجمة الأسود على فريستها ، وأمكنهم الله منهم ، ووقعت الكسرة ، فعادوا يشتدون نحو خيامهم هاربين ، وعلى أعقابهم ناكصين وسيف الله فيهم يلتقط الأرواح من الأشباح ، ويفصل بين الأجساد والرءوس ، ويفرق بين الأبدان والنفوس .

ولما بصر السلطان [ بقسطل ][1] الحرب قد ارتفع مما يلى خيام أخيه ؛ ثارت فى قلبه نار الاشفاق ، وحركت الحمية أخوته ، وأنهضته الرغبة فى نصرة دين الله والخوف على أوليائه عزيمته ، وصاح صائحه فى الناس : « ياللاسلام وأبطال الموحدين ، هذا عدو الله قد أمكن الله منه ، وقد داخله الطمع حتى غشى خيامكم بنفسه » .

فكان من المبادرين إلى إجابة دعوته جماعة من مماليكه وخاصته وحلقته ، ثم طلب عسكر الموصل يقدمهم علاء الدين ثم عسكر مصر

---

(١) فى ا « باصطلاء » وقسطل» فى (ب) وفى جـ ١٠١ ا . والقسطل هو غبار الحرب عندما يرتفع ( لسان العرب ) .

يقدمهم سُنقُر الحلبي ، وتتابعت العساكر ، وتجاوبت الأبطال ، ووقف هو — رحمه الله — في القلب خشية أن يستضعف العدو القلب ، بحكم ما أنفذ منه من العساكر فينال غرضاً ، فتواصلت العساكر ، واتصل الضرب ، وقامت سوق الحرب ، فلم يكن إلا ساعة حتى رأيت القوم صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ، وامتدوا مطروحين من خيام الملك العادل إلى خيامهم ، أولهم في الخيم الإسلامية ، وآخرهم في خيم العدو ، صرعى على التلول والوهاد ، وشربت السيوف من دمائهم حتى رويت ، وأكلت أسد الوغى بأسنان الظفر منهم حتى شبعت .

وأظهر الله كلمته ، وحقق لعبده نصرته ، وكان مقدار ما امتد فيه القتلى فيما بين الخيامين فرسخا ، وربما زاد على ذلك . ولم ينج من القوم إلا النادر ، ولقد خضت في تلك الدماء بدابتي ، واجتهدت في أن أعدهم فما قدرت على ذلك لكثرتهم وتفرقهم ، وشاهدت فيهم امرأتين مقتولتين .

وحكى لي مَنْ شاهد [ منهم ][1] أربعة نسوة يقاتلن وأُسِرَ منهن اثنتين ، وأسر من الرجال في ذلك [ اليوم ][2] نفر يسير ، فإن السلطان كان أمر الناس أن لا يستبقوا أحداً ، هذا كله في الميمنة وبعض القلب ، وأما الميسرة ؛ فما اتصل الصائح بهم إلا وقد نجز الأمر ، وقضى القضاء على العدو [ لبعد ما بين المسافتين وكانت هذه الواقعة ][3] ما بين الظهر

(١) الزيادة من (ج) ١٠١ ب

(٢) تكملة من ب ، ومن جـ ١٠١ ب .

(٣) زيادة من ( ب ) ومن (جـ ١٠٢) ا .

والعصر ، فإن العدو ظهر فى قائم الظهيرة ، وانفصلت الحرب بعد صلاة العصر ، وانكسر القوم حتى دخلت [معهم ][1] طائفة من المسلمين وراءهم إلى مخيمهم — على ما قيل .

ولم يفقد من المسلمين أحد فى ذلك اليوم سوى عشرة أنفس غير معروفين ، ولما أحس جند الله ب« عكا » بما جرى من الوقعة — فإنهم كانوا يشاهدون الوقعة من أعالى السور — خرجوا إلى مخيم العدو ، وجرت بينهم مقتلة عظيمة ، وكانت النصرة للمسلمين ، بحيث هاجموا خيام العدو ، ونهبوا منها جمعاً من النسوان والأقمشة ، حتى القدور فيها الطعام ، ووصل كتاب من المدينة يخبر بذلك ، وكان يوماً على الكافرين عسيرا .

واختلف الناس فى عدد القتلى منهم ، فذكر قوم أنهم ثمانية آلاف ، ولقد شاهدت منهم خمسة صفوف أولها فى خيم العادل وآخرها فى خيم العدو . ولقد لقيت إنساناً جنديا عاقلا ، جندياً يسعى بين صفوف القتلى ويعدهم ، فقلت له : « كم عددت ؟ » فقال لى : « ها هنا أربعة آلاف ونيف وستون قتيلا » . وكان قد عد صفين ، وهو فى الصف الثالث ، لكن ما مضى من الصفوف كان أكثر عدداً من الباقى ، وانجلى يوم الأربعاء المذكور بأحسن ما ينجلى عنه الإسلام .

ولما كان يوم الخميس الحادى والعشرون من جمادى المذكورة ؛ ورد فى عصره نجّاب من « حلب » له خمسة أيام ، يتضمن كتابه أن جماعة عظيمة من العدو الشمالى خرجوا لنهب أطراف البلاد الإسلامية ، ونهض

---

(١) الزيادة من (ب) وفى جـ ١٠٢ ا .

العسكر الإسلامى من « حلب » إليهم ، وأخذ عليهم الطريق ، ولم ينج منهم إلا من شاء الله ، وكان وقع هذا الخبر عقيب هذه الوقعة المباركة وقعاً عظيماً ، وضربت البشائر ، ولم ير صبيحة « لتلك العروس[1] » أحسن من هذه الصبيحة .

وجاءنا بقية ذلك اليوم من اليزك « قايماز الحرانى » ، وذكر أن العدو قد سأل من جانب السلطان من يصل إليهم ليسمع منه حديثاً فى سؤال الصلح، لضعف حلّ بهم ، ولم يزل عدوالله من حينه مكسورالجناح من الجانبين ؛ حتى وصلهم كند — يقال له « كُندُهرِى » .

## ذكر
## وصول الكُندهرى

وهذا المذكور من ملوكهم وأعيانهم وصل فى البحر فى مراكب عدة ، ومعه من الأموال والذخائر والميرة والأسلحة والرجال عدد عظيم ، فقوى بوصوله عزمهم ، واشتد أزرهم ، وحدثتهم نفوسهم بطلب العسكر الإسلامى المنصور ليلا ، وكثر ذلك الحديث على ألسنة المستأمنين والجواسيس .

فجمع السلطان الأمراء وأرباب الرأى ، واستشارهم فيما يفعل ، فكان آخر الرأى أنهم يوسعون الحلقة ، ويتأخرون عن العدو ، رجاء أن يخرج العدو ، ويبعد عن خيمه فيمكن الله منهم ، ووافقهم السلطان

---

(١) لتلك العرس فى (ب) وفى جـ ١٠٢ ب :

على ذلك ، وأوقعه الله فى قلبه ، فرحل إلى جبل « الخروبة » بالعساكر بأسرها ، وذلك فى السابع والعشرين من جمادى الأخرى ، وترك بقية من العسكر فى تلك المنزلة ، كاليزك مقدار ألف فارس يتناوبون لحفظ النوبة .

هذا والكتب متواصلة من «عكا» ومنها وإليها على أجنحة الطيور ، وأيدى السياح ، والمراكب اللطاف ، تخرج ليلا وتدخل خلسة من العدو .

هذا وأخبار العدو الواصل من الشمال متواصلة بقلة خيله وعدده ، وما قد عراهم من الموت والمرض ، وأنهم قد اجتمعوا بـ « أنطاكية » ، وأنهم قد بقوا رجالة ، وأن أصحابنا عسكر « حلب » يتخطفون حُشّاشتهم[1] وعلاقتهم[2] ومن يخرج منهم .

## ذكر

## كتاب وصل من قسطنطينية . . يسر الله فتحها

وكان بين السلطان وبين ملك « قُسْطنطينيّة » مراسلة ومكاتبة ، وكان وصل منه رسول إلى الباب السلطانى ب « مرج عُيون » فى رجب سنة خمس وثمانية وخمسمائة ، فى جواب رسول كان أنفذه السلطان إليه

(١) الحشاش : الذين يحتشون الحشيش من الأرض
( لسان العرب مادة حشش )

(٢) علاقتهم : المتوط بهم العلوق أى طعام الدواب .
( لسان العرب مادة علق )

بعد تقرير القواعد ، وإقامة قانون الخطبة فى جامع « قسطنطينية » ، فضى الرسول ، وأقام الخطبة ، ولقى احتراماً عظيما ، وإكراماً زائدا ، وكان قد أنفذ معه فى المراكب الخطيب والمنبر ، وجمعاً من المؤذنين والقراء .

وكان يوم دخولهم « القسطنطينية » يوما عظيما من أيام الإسلام ، شاهده جمع كثير من التجار ، ورقى الخطيب المنبر ، واجتمع إليه المسلمون المقيمون بها والتجار ، وأقام الدعوة الإسلامية العباسية ثم عاد ، فعاد معه هذا الرسول يخبرنا بانتظام الحال فى ذلك ، فأقام مدة .

ولقد شاهدته يبلغ الرسالة ومعه ترجمان يترجم عنه ، وهو شيخ أحسن ما يفرض أن يكون من صور المشايخ ، وعليه من زيهم الذى يختص بهم ، ومعه كتاب وتذكرة ، والكتاب مختوم بذهب ، ولما مات وصل [ خبره ][1] إلى ملك « قُسْطنطينيّة » [و][2] خبر وفاته ، فأنفذ هذا الرسول فى تتمة ذلك ، ووصل معه الكتاب فى جواب ذلك ، وصورة ما فسر من الكتاب الواصل معه ، ووصفه أنه كان كتاباً مدرجا عرضا ، وهو دون عرض كتاب « بغداد » ، مترجما ظاهره وباطنه بسطرين بينهما فرجة ، وضع فيها الختم . والختم من ذهب مطبوع كما يطبع الخاتم فى الشمع على ختمه صورة ملك ، وزن الذهب خمسة عشر دينارا ، مضمون السطرين المكتوبين ما هذا صورته :

---

(١، ٢) الزيادتان من ب ومن ج ١٠٣ ب

« من إيساكيوس » الملك المؤمن بالمسيح الإله ، المتوج من الله ، المنصور العالى أبدا ، « أنقفورس » المدبر من الله القاهر الذى لا يغلب ، ضابط الروم بذاته «انكلوس» ، إلى النسيب سلطان مصر «صلاح الدين» والمحبة والمودة .

قد وصل خط نسبتك الذى أنفذت إلى ملكى وقرأناه ، وعلمنا منه أن رسولنا توفى ، وحزنا عليه حيث أنه توفى فى بلد غريب ، وما قدر أن يتم كل ما رسم له ملكى ، وأمره أن يتحدث به مع نسبتك ، ويقول فى حضرتك ، ولا بد لنسبتك أن تهتم بإنفاذ رسول إلى ملكى [ليعرف ملكى ما بعثت إليك ][1] مع رسولى المتوفى ، و[أما][2] القماش الذى خلفه : وجد[3] بعد موته ، لنعطيه أولاده وأقاربه ، وما أظن أنه يسمع من نسبتك أخباراً ودية ، وأنه قد [ سار ][4] فى بلادى الألمان ولا عجب ، فإن الأعداء يرجفون بأشياء مكذوبة على قدر أغراضهم ، ولو تشتهى أن تسمع الحق فإنهم قد تأذوا ، وتعبوا كثيراً أكثر مما أوذى فلاحو بلادك .

وقد خسروا كثيراً من المال ، والدواب والرجال ، ومات منهم وقتلوا ، وبالشدة قد تخلصوا من أيدى أجناد بلادى ، وقد ضعفوا بحيث أنهم لا يصلون إلى بلادك ، فإن وصلوا كانوا ضعافا بعد شدة « كبيرة[5] » لا ينفعون جنسهم ، ولا يضرون نسبتك .

---

(١، ٢) زيادتان من جـ ١١٠٤ .

(٣) فى ا « يوجد » . والتصحيح من جـ ١١٠٤

(٤) فى ا « سافر » وسار ، جاءت فى (ب) وفى (جـ) ١١٠٤ .

(٥) كثيرة فى ب وفى جـ ١٠٤ ب

وبعد ذلك ؛ كيف نسيت الذى بينى وبينك ؟ ، وكيف ما عرفت الملكى شيئاً من المقاصد والمهمات ؟ . ( وكما يظهر للملكى[1] ) ؛

ما ربح ملكى من محبتك إلا عداوة الإفرنج وجنسهم !! .

فوقف — رحمه الله — على هذه الترجمة ، وأكرم الرسول ، وأحسن مثواه ، وكان شيخاً حسن الخلق ، نبيهاً عارفا بالعربية والرومية والإفرنجية .

ثم أن الإفرنج شدوا فى حصار البلد وضايقوه ، لما قد حدث لهم من القوة بوصول « الكندهرى » ، فإنه وصل — على ما ذكر والله أعلم — فى عشرة آلاف مقاتل ، ووصلتهم نجدة أخرى فى البحر ، قويت بها قلوبهم ، ونازلوا البلد بالقتال .

## ذكر

## حريق المنجنيقات

وذلك أن العدو لما أحس فى نفسه بقوته بسبب توالى النجدات عليهم ؛ اشتد طمعهم فى البلد ، وركبوا عليه المنجنيقات من كل جانب ، وتناوبوا عليها بحيث لا يتعطل رميها ليلا ولا نهاراً ، وذلك فى أثناء رجب .

ولما رأى أهل البلد ما نزل بهم من مضايقة العدو ؛ وتعلق طمعهم

---

(١) الزيادة من (ب) ومن جـ ١٠٤ ب ) .

بهم ، حركتهم النخوة الإسلامية ، وكان مقدموه حينئذ إما والى البلد وحارسه ، فالأمير الكبير بهاء الدين قراقوش ، وأما مقدم العسكر فالأمير الكبير الإسفهسلار[1] « حسام الدين أبو الهيجاء[2] » ، وكان رجلا ذا كرم وشجاعة ، وتقدم فى عشيرته ، ومضاء فى عزيمته ، فاجتمع رأيهم على أنهم يخرجون إلى العدو فارسهم وراجلهم ، على غرة وغفلة منهم ، ففعلوا ذلك ، وفتحت الأبواب ، وخرجوا دفعة واحدة من كل جانب ، ولم يشعر العدو إلا والسيف فيهم حاكم عادل ، وسهم قدر الله وقضائه فيهم نافذ نازل .

وهجم الإسلام على الكفر فى منازله ، وأخذ بناصية مناضله ورأس مقاتله ، ولما ولج المسلمون لخيام العدو ، ذهلوا عن المنجنيقات وحياطتها وحراستها وحفظها وسياستها ، فوصلت شهب الزراقين المقذوفة ؛ وجاءت عوائد الله فى نصرة دينه المألوفة ، فلم تكن ساعة حتى اضطرمت فيها النيران ، وتحرقت منها بيدها ما شيده الأعداء فى المدة الطويلة فى أقرب آن .

وقتل من العدو سبعون فارسا ، وأسر خلق عظيم ، وكان من جملة

---

(١) الاسفسلار : كلمة فارسية معناها قائد الجيش ( معجم الألفاظ الفارسية للدكتور محمد موسى هنداوى ) .

(٢) هو حسام الدين أبو الهيجاء السمين ، كان مقدم الأكراد الأسدية ، شجاعا مقدما مأعارفا متجملا ، ولاه العادل نيابة القدس أثناء زحفه على مصر ضد العزيز عثمان بن صلاح الدين ثم عزله العزيز عثمان ، توفى بالشام سنة ٥٩٤ هـ (النجوم الزاهرة ٦ : ١٤٥ ط دار الكتب) .

الأمرى رجل مذكور منهم ، ظفر به واحد من آحاد الناس ولم يعلم بمكانته . ولما انفصل الحرب سأل الإفرنج عنه ، هل هوحى أم لا ؟ فعرف الذى هوعنده عند سؤالهم أنه رجل كبير فيهم ، وخاف أن يغلب عليه ويرد عليهم بنوع مصانعة أوعلى وجه من الوجوه ، فسارع وقتله ، وبذل الإفرنج فيه أموالا كثيرة ، ولم يزالوا[1] يشتدون فى طلبه ويحرصون عليه حتى رؤيت لهم جثته ، فضربوا بنفوسهم الأرض ، وحثوا على رؤوسهم التراب ، ووقعت عليهم بسبب ذلك خمدة عظيمة ، وكتموا أمره ، ولم يظهروا من كان ، واستصغر المسلمون بعد ذلك أمرهم ، وهجم عليهم العرب من كل جانب ، يسرقون وينهبون ، ويقتلون ويأسرون ، إلى ليلة نصف شعبان .

وكان « الكندهرى » قد أنفق على منجنيق كبير عظيم الشكل — على ما نقل الجواسيس والمستأمنون — ألفا وخمسمائة دينار ، وأعده ليقدمه إلى البلد . ومنع من حريقه فى ذلك اليوم كونه بعيداً عن البلد ، ولم يقدم بعد إليها .

ولما كانت الليلة المباركة المذكورة ؛ خرج الزراقون[2] والمقاتلة تحفظهم من كل جانب ، والله يكلؤهم ، فساروا من تحت ستر الله حتى أتوا المنجنيق المذكور ، وأضرموا فيه النار . فاحترق من ساعته . ووقع الصياح من الطائفتين . وذهل العدو . فإنه كان بعيداً من البلد . وخافوا

---

(١) فى (ا) ولم « يزالون » وهذا خطأ لغوى .

(٢) فى (ا) « خرج الزراقين » وهذا خطأ لغوى .

أن يكونوا قد أحيط بهم من الجوانب ، وكان نصراً من عند الله . وأحرق بلهيبه منجنيقا لطيفا بجانبه .

## ذكر

## الحيلة وإدخال « عكة » بُطْسة عمرها وأودعها أربعمائة غرارة من القمح ، ووضع فيها الجبن والبصل ، والغنم وغير ذلك من الميرة

وكان الإفرنج — خذلهم الله — قد أداروا مراكبهم حول « عكا » حراسة لها من أن يدخلها مراكب المسلمين . وكانت قد اشتدت حاجة من فيها إلى الطعام والميرة . فركب فى « بطسة بيروت » جماعة من المسلمين ، وتزيوا بزى الإفرنج حتى حلقوا لحاهم ، ووضعوا الخنازير على سطح « البطسة » بحيث ترى من بعد ، وعلقوا الصلبان ، وجاءوا قاصدين البلد من البعد حتى خالطوا مراكب العدو ، فخرجوا إليهم ، واعترضوهم فى الحرّاقات[1] والشوانى ، وقالوا لهم : نراكم قاصدين البلد ، واعتقدوا أنهم منهم ، فقالوا : « أولم تكونوا قد أخذتم البلد ؟ » . فقالوا : « لم نأخذ البلد بعد » . فقالوا : « نحن نرد القلوع إلى العسكر ، وقد أتى « بطسة » أخرى فى هوائنا » .

فأنذروهم حتى يدخلوا البلد ، وكان وراءهم بطسة أفرنجية قد انفقت معهم فى البحر ، قاصدة العسكر ، فنظروا فرأوها ، فقصدوها ينذرونها ،

---

(١) الحراقة : وجمعها حراقات . سفينة فيها مرامى نيران ترمى بها العدو . ( القاموس المحيط مادة حرق )

فاشتدت البطسة الإسلامية فى السير ، واستقامت لها الريح حتى دخلت ميناء البلد وسلمت ، ولله الحمد .

وكان فرحا عظيما ، فإن الحاجة كانت قد أخذت من أهل البلد . وكان ذلك فى العشر الأواخر من رجب .

## ذكر

## قصة العوام عيسى

ومن نوادر هـــذه الوقعة ومحاسنها ؛ أن عواما مسلما يقال له « عيسى » وصل إلى البلد بالكتب والنفقات على وسطه ليلا . على غرة من العدو وكان يغوص ويخرج من الجانب الآخر من مراكب العدو ، وكان ذات ليلة شد على وسطه ثلاثة أكياس فيها ألف دينار ، وكتب للعسكر ، وعام فى البحر . فجرى عليه أمر أهلكه وأبطأ خبره عنا .

وكانت عادته إذا دخل البلد أطار طيرا عرفنا بوصوله . فأبطأ الطير ، فاستشعرنا هلاكه . ولما كان بعد أيام ؛ بينا الناس على طرف البحر فى البلد إذا هو قد قذف شيئا غريقا . فتفقدوه فوجدوه عيسى العوام . ووجدوا على وسطه الذهب وشمع الكتب . وكان الذهب نفقة للمجاهدين . فما رؤى من أدى الأمانة فى حال حياته وقد ردها فى مماته إلا هذا الرجل . وكان ذلك فى العشر الآخر من رجب أيضا .

## ذكر

## حريق المنجنيقات

وذلك أن العدو كان نصب على البلد منجنيقات هائلة حاكمة على السور ، وإن حجارتها توازت حتى أثرت فى السور أثرا بينا ، وخيف من غائلاتها ، فأخذ سهمان من سهام الجرخ العظيم فأحرق نصلاها حتى بقيا كالشعلة من النار ، ثم رميا فى المنجنيق الواحد فعلقا فيه ، واجتهد العدو فى إطفائهما فلم يقدر على ذلك ، وهبت ريح شديدة فاشتعل اشتعالا عظيما ، واتصلت لهبته بالآخر فأحرقته ، واشتد نارهما بحيث لم يقدر أحد أن يقرب من مكانهما ليحتال فى إطفائهما ، وكان يوما عظيما اشتد فيه فرح المسلمين ، وساءت عاقبة الكافرين .

## ذكر

## تمام حديث ملك الألمان والحيلة التى عملها المركيس

ولما استقر قدم ملك الألمان فى « انطاكية » أخذها من صاحبها وحكم فيها ، وكان بين يديه فيها ينفذ أوامره ، فأخذها منه غيلة وخديعة ، [وأخذ أمواله] وأودعها خزائنه . وسار عنها فى الخامس والعشرين من رجب متوجها نحو « عكا » فى جيوشه وجموعه ، على طريق « اللاذقية » حتى أتى[1] « طرابلس » ، وكان قد سار إليه من معسكر الإفرنج يلتقيه « المركيس »

(١) الزيادة من (ب) ومن ج ١٠٧ ب

صاحب « صور » ، وكان من أعظمهم حيلة ، وأشدهم بأسا ، وهو الأصل فى تهييج الجموع من وراء البحر .

وذلك أنه صوّر « القدس » فى ورقة ، وصور فيه صورة « القمامة[1] » التى يحجون إليها ، ويعظمون شأنها ، وفيه قبة قبر المسيح الذى دفن فيه بعد صلبه بزعمهم ، وذلك القبر هو أصل حجهم ، وهو الذى يعتقدون نزول النور عليه فى كل سنة فى عيد من أعيادهم ، وصور على القبر فرسا عليه فارس مسلم راكب عليه ، وقد وطىء قبر المسيح ، وقد[2] بال الفرس على القبر ، وأبدى هذه الصورة وراء البحر فى الأسواق والمجامع ، والقسوس يحملونها ورءوسهم « مكشوفة[3] » ، وعليهم المسوح ، وينادون بالويل والثبور — وللصور عمل فى قلوبهم ، فإنها أصل دينهم .

فهاج بذلك خلق لا يحصى عددهم إلا الله ، وكان من جملتهم ملك الألمان وجنوده ، فلقيهم المركيس لكونه أصلا فى استدعائهم إلى هذه الواقعة ، فلما اتصل به قوى قلبه ، ونصره بالطريق ، وسلك به الساحل خوفا من أنه إذا أتى على بلاد « حلب » و « حماة » ثار لهم المسلمون من كل جانب ، وقامت عليهم كلمة الحق من كل صوب .

ومع ذلك لم يسلموا من شن الغارات عليهم ، فإن الملك المظفر قصدهم بعساكره ، وجمع لهم جموعا وهجم عليهم هجوما عظيما ، أخذ فيه

---

(١) القمامة : مقبرة بالقدس يقال أن بها قبر المسيح

(٢) الزيادة من ( ب ) ومن جـ ١٠٧ ب

(٣) « مكشفة » فى (ب) وفى (جـ) ١٠٨ ا

من أطراف عساكره ، وكان قد لحقهم بأوائل عسكره ، ولو لحقهم الملك الظاهر بعساكره لقضى عليهم ، ولكن لكل أجل كتاب .

واختلف حزر الناس لهم ، ولقد وقفت على كتب بعض المخبرين بالحرب فقد حزر فارسهم وراجلهم بخمسة آلاف بعد أن كانوا قد خرجوا على ما ذكر بمائتي ألف[1] ، فانظر إلى صنع الله مع أعدائه .

ولقد وقفت على بعض الكتب ، فذكر فيه أنهم لما ساروا من « اللاذقية » يريدون « جبلة » وجدوا فى أعقابهم نيفا وستين فرسا قد عطبت وانتزع لحمها ، ولم يبق فيها إلا العظام من شدة الجوع .

ولم يزالوا سائرين وأيدى المسلمين تخطفهم من حولهم نهبا وقتلا وأسرا ، حتى أتوا « طرابلس » ، ووصل خبر وصوله بكرة الثلاثاء ثامن شعبان سنة ست وثمانين وخمسمائة .

هذا والسلطان ثابت الجأش ، راسخ القدم ، لا يرده ذلك عن حراسة « عكا » والحماية لها ، ومراصدة العسكر النازل بها ، وشن الغارات « عليهم[2] » ، والهجوم عليهم فى كل وقت ، مفوضا أمره إلى الله ، معتمدا عليه ، منبسط الوجه لقضاء حوائج الناس ، مواصلا يسره مَنْ يفدو إليه من الفقراء والفقهاء والمشايخ والأدباء .

ولقد كنت إذا بلغنى هذا الخبر تأثرت حتى دخلت عليه ، وأجد

---

(١) الزيادة من (ب) ومن جـ ١٠٨ ا

(٢) التصحيح من ( ب ) ومن ( جـ ) ١٠٨ ب إذ أنها فى (ا) عليها

منه من قوة الله ، وشدة البأس ما يشرح صدرى ، وأتيقن معه نصرة الإسلام وأهله .

## ذكر

## وصول البطس من مصر

ولما كان العشر الأوسط من شعبان ؛ كتب بهاء الدين قراقوش — وهو والى البلد والمقدم على الأسطول ، والحاجب « لؤلؤ » يذكران السلطان أنه لم يبق بالبلد ميرة إلا قدر يكفى إلى ليلة النصف من شعبان لا غير ، فأسرها يوسف فى نفسه ولم يبدها لخاص ولا لعام ، خشية الشيوع والبلوغ إلى العدو ، فتضعف به قلوب المسلمين .

وكان قد كتب إلى « مصر » بتجهيز ثلاث بطس مشحونة بالأقوات والأدم والمير ، وجميع ما يحتاج إليه فى الحصار ، بحيث يكفيهم ذلك طول الشتاء ، وأقلعت البطس الثلاث من الديار المصرية ، ولججت فى البحر تتوقى النوتية بها الريح ، حتى ساروا بالريح التى تحملها إلى نحو « عكا » ، ولم يزالوا كذلك حتى وصلوا إلى « عكا » ليلة النصف من شعبان المذكور ، وقد « فنى الزاد[1] » ولم يبق عندهم ما يطعمون الناس فى ذلك اليوم .

وخرج عليها أسطول العدو يقاتلها ، والعساكر الإسلامية تشهد ذلك من الساحل ، والناس فى تهليل وتكبير ، وقد كشف المسلمون

(١) « فنيت الأزواد » فى (ب) وفى (ج) ١٠٩ (١)

رؤوسهم يبتهلون إلى الله تعالى فى القضاء بتسليمها إلى البلد ، والسلطان على الساحل كالوالدة الثكلى يشاهد القتال ، ويدعو ربه بنصره ، وقد علم من شدة القوم مالم يعلمه غيره ، وفى قلبه ما فى قلبه ، والله يثبته .

ولم يزل القتال يعمل حول البطس من كل جانب ، والله يدفع عنها ، والريح يشتد ، والأصوات قد ارتفعت من الطائفتين ، والدعاء يخرق الحجب ، حتى وصلوا سالمين إلى ميناء البلد ، وتلقاهم أهل « عكا » تلقى الأمطار عن جدب ، وامتاروا مافيها ، وكانت ليلة بليال .

## ذكر

### محاصرة برج الذبا[ن][1]

ولما كان الثانى والعشرون من شعبان ؛ جهز العدو بطسا متعددة لمحاصرة «برج الذبا [ن] » — وهو برج فى وسط البحر ، مبنى على الصخر على باب ميناء يحرس به الميناء ، ومتى عبره المراكب أمن غائلة العدو ، فأراد العدو أخذه ليبقى الميناء ، ويمنع الدخول إليه بشىء من البطس ، فتنقطع الميرة عن البلد ، فجعلوا على صوارى البطس برجا وملأوه حطبا ، على أنهم يسيرون البطس ، فإذا قاربت برج الذبا[ن] ولاصقته أحرقوا البرج الذى على الصارى ، وألصقوه ببرج الذبا[ن] ليلقوه على سطحه ، ويقتل من عليه من المقاتلة ويأخذوه ، وجعلوا فى البطسة وقودا كثيرا ، حتى يلقى فى البرج إذا اشتعلت النار فيه .

---

(١) فى (ا) الذباب والتصحيح من (ب) ومن (ج) ١١٠ ب ومن « الفتح القسى »

وعبوا بطسة ثانية ، وملؤها حطبا ووقوداً ، على أنهم يدفعونها إلى أن تدخل بين البطس الإسلامية ، ثم يلهبونها فتحرق البطس الإسلامية، ويهلك ما فيها من الميرة . وجعلوا فى بطسة ثالثة مقاتلة تحت قبو، بحيث « لا يصل[1] إليهم » نشاب ولا شىء من آلات السلاح ، حتى إذا أحرقوا ما أرادوا إحراقه دخلوا تحت ذلك القبو فأمنوا . وقدموا البطسة نحو البرج المذكور .

وكان طمعهم يشتد حيث كان الهواء مصعداً لهم ، فلما أحرقوا البطسة التى « أرادوا أن يحرقوا بطس المسلمين بها[2] » والبرج الذى أرادوا أن يحرقوا به مَن على برج الذبا[ن] ؛ فأوقدوا النار وضربوا فيها النفط ؛ فانعكس الهواء عليهم كما شاء الله تعالى وأراد ، واشتملت البطسة التى كانوا بها بأسرها ، واجتهدوا فى إطفائها فما قدروا ، وهلك من كان فيها من المقاتلة إلا من شاء الله ، واحترقت البطسة التى كانت معدة لإحراق بطسنا ، و[ثب ][3] أصحابنا عليها فأخذوها إليهم .

وأما البطسة التى كانت فيها القبو ؛ فإنهم انزعجوا وخافوا ، وهموا بالرجوع ، واختلفوا واضطربوا اضطرابا عظيما ، فانقلبت وهلك جميع من كان بها ، لأنهم كانوا فى قبو لم يستطيعوا الخروج منها .

وكان ذلك من أعظم آيات الله ، وأندر العجائب فى نصرة دين الله، وكان يوما مشهوداً .

---

(١) فى (ا) « يحصل لهم » والتصحيح من (ج) ١١٠ ب

(٢) فى (ب) وفى (ج) ١١١ ا « أن يحرقوا بها بطس المسلمين » .

(٣) فى (ا) « وثبت » والتصحيح من ( ب ) ومن ( ج ) ١١١ — ا

# ذكر

## وصول الألمان إلى عسكرهم المخذول

عدنا إلى حديث ملك الألمان ، وذلك أنه أقام بـ « طرابلس » حتى استجم عسكره ، وأرسل إلى النازلين على « عكا » يخبرهم بقدومه إليهم ، وقد حموا من ذلك لأن « المركيس » صاحب « صور » هو رب مشورته ، وصاحب دولته .

وكان الملك « جفرى » وهو ملك الساحل بالعسكر هو الذى يرجع إليه فى الأمور ، فعلم أنه مع قدوم الألمانى لا يبقى له حكم .

ولما كان العشر الآخر من شعبان ؛ أزمع رأيه على المسير فى البحر ، لعلمه أنه إن لم يركب البحر نكب ، وأخذت عليه الطريق والمضايق ، فأعدوا المراكب ، وأنفذت إليه من كل جانب ، ونزل فيها هو عسكره ، وخيلهم وعدتهم ، وساروا يريدون العسكر .

فلم تمض إلا ساعة من النهار حتى قامت عليهم ريح عاصف ، وثار عليهم الموج من كل مكان ، وأشرفوا على الهلاك ، وهلك منهم ثلاثة مراكب حمالة ، وعاد الباقون يرصدون هواء طيبا ، فأقاموا أياما حتى طابت لهم الريح ، وساروا حتى أتوا « صور » ، فأقام المركيس والألمانى بها ، وأنفذوا بقية العساكر إلى العسكر النازل « عكا » ، وأقاما بـ « صور » إلى ليلة السادس من رمضان ، وسار الألمانى وحده فى البحر حتى وصل

معسكرهم غروب الشمس من ذلك اليوم فى نفر يسير . هكذا أخبر الجواسيس والمستأمنون عنهم .

ولقد كان لقدومه وقع عظيم من الطائفتين ، وأقام أياما ، وأراد أن يظهر لجيشه أثر ، فوبخ القوم على طول مقامهم ، وحسن فى رأيه أن يُضرب مصاف مع المسلمين ، فخوفوه من الإقدام على هذا الأمر وعاقبته ، فقال لا بد من الخروج على اليزك ليذوق قتال القوم ، ويعرف مرامهم ، ويتبصر بأمرهم ، فليس الخبر كالعيان .

فخرج على اليزك الإسلامى ، واتبعه معظم الأفرنج ، راجلهم وفارسهم ، وخرجوا حتى قطعوا الوهاد التى بين تلهم « وتل العياضية » ، وعلى « تل العياضية » خيم اليزك ، وهى نوبة الحلقة السلطانية المنصورة فى ذلك اليوم ، فوقفوا فى وجوههم وقاتلوهم ، وأذاقوهم طعم الموت ، وعرف السلطان ذلك ، فركب من خيمه [ بجحفله ][1] ، وسار حتى أتى « تل كيسان » ، فلما رأى العدو العساكر الإسلامية صوبت نحوه سهام قصدها ؛ وأتته من كل جانب كقطع من الليل « المظلم »[2] ؛ عاد ناكصاً على عقبه ، وقتل منهم وجرح خلق كثير ، والسيف يعمل فيهم من أقفيتهم وهم هاربون ، حتى وصلوا المخيم [ غروب ][3] الشمس ، وهو لا يعتقد سلامة نفسه من شدة خوفه ، وفصل الليل بين الطائفتين

---

(١) فى ا « خيمته بجفله » وهذا خطأ والتصحيح من (ب) ومن (ج) ١١٢ (ا)

(٢) « المدلهم » فى (ب) وفى ( ج ) ١١٢ ( ا )

(٣) بالأصل هروب والتصحيح من ب ومن ( ج ) ١١٢ ( ا )

وقتل من المسلمين اثنان ، وجرح جماعة كثيرة ، وكانت الكسرة على أعداء الله .

ولما عرف ملك الألمان ماجرى عليه وعلى أصحابه من اليزك الذى هو شرذمة من العسكر ؛ وهو جزء من كل ، رأى أن يرجع إلى قتال البلد ويشتغل بمضايقته، فاتخذ من الآلات العجيبة ؛ والصنائع الغريبة ؛ ماهال الناظر إليه من شدة الخوف على البلد ، واستشعر أخذ البلد من تلك الآلات ، وخيف منها عليه .

[فما أحدثود ][1] آلة عظيمة تسمى دبابة[2] يدخل تحتها من المقاتلة خلق عظيم ، ملبسه بصفائح الحديد ، ولها من تحتها عجل تحرك به من داخل وفيها المقاتلة ، حتى ينطح بها السور ، ولها رأس عظيم برقبة شديدة من حديد ، وهى تسمى كبشا[3] ، ينطح بها السور بشدة عظيمة ، لأنه يجرها خلق عظيم ، فتهدمه بتكرار نطحها . وآلة أخرى؛ وهى قبو فيه رجال السحب لذلك ، إلا أن رأسها محدد على شكل السكة التى يحرث بها ، ورأس البرج مدور ، وهذا يهدم بثقله ، وتلك تهدم بحدتها وثقلها — وهى تسمى سنوْرا . ومن الستائر والسلالم الكبار الهائلة .

وأعدوا فى البحر بطسة هائلة وصنعوا[4] فيها برجا بخرطوم ، إذا

---

(١) الزيادة من (ب) ومن ( جـ ١١٢ ب

( ٢ ، ٣ ) تعريفان للدبابة والكبش .

(٤) فى ( ا ) « وضعوا » والتصحيح من ب ، ومن ( ج ) ١١٢ ب

أرادوا قلبه على السور انقاب بالحركات ، ويبقى طريقا إلى المكان الذى ينقاب عليه تمشى عليه المقاتلة ، وعزموا على تقريبه إلى « برج النبا [ن] » ليأخذوه به .

## ذكر

## حريق برج الكبش وغيره من الآلات

وذلك أن العدو لما رأى آلاته قد تمت واستكملت ؛ شرع فى الزحف على البلد ومقاتلته من كل جانب ، وأهل البلد كلما رأوا ذلك اشتدت عزائمهم فى نصرة دين الله ، وقويت قلوبهم على المصابرة .

ولما كان يوم الاثنين ثالث شهر رمضان من السنة المذكورة ؛ وهى التى قدمت فيه العساكر من « الشام » فى أحسن زى ، وأجمل ترتيب ، وأكمل عدة ، مع ولده صاحب « حلب » ، و « سابق الدين » صاحب « شيزر » ، ومجد الدين صاحب « بعلبك » . وكان السلطان قد[1] التاث مزاجه الكريم بحمى صفراوية ، فركب فى ذلك اليوم ، وكان عيداً من وجوه متعددة .

وفى ذلك اليوم زحف العدو على البلد فى خلق لا يحصى عددهم إلا الله ، فأهملهم أهل البلد وشجعان المقاتلة الذين فيه ، وذوو الآراء المثقفة من مقدمى المسلمين ، حتى نشبت مخاليب أطماعهم فى البلد . وسحبوا آلاتهم المذكورة حتى قاربوا أن يلصقوها بالسور ، وتحصن

(١) الزيادة من ( ب ) ومن ( ج ) ١١٢ ب

منهم فى الخندق جماعة عظيمة ، وأطلقوا عليهم سهام الجروخ ، وأحجار المنجنيق ، وأقواس الرمى والنيران ، وصاحوا عليهم صيحة الرجل الواحد ، وفتحوا الأبواب ، وباعوا نفوسهم لخالقها وبارئها ، ورضوا بالصفقة الموعود بها ، وهجموا على العدو من كل جانب وكبسوهم فى الخنادق ، وأوقع الله الرعب فى قلب العدو ، وأعطى ظهره الهزيمة ، وأخذوا مشتدين هاربين ، على أعقابهم ، ناكصين ، يطلبون خيامهم ، والاحتماء بأسوارهم ، لكثرة ما شاهدوا وذاقوا من الجرح والقتل ، وبقى فى الخندق خلق عظيم ، وقع فيهم السيف ، وعجل الله بأرواحهم إلى النار .

ولما رأى المسلمون ما نزل بالعدو من الخذلان والهزيمة : هجموا على كبشهم فألقوا فيه النار والنفط ، وتمكنوا من حريقه ، فأحرقوه حريقاً شنيعاً ، وظهرت له لهبة عظيمة نحو السماء ، وارتفعت الأصوات بالتكبير والتهليل ، والشكر للقوى الجليل .

وسرت نار الكبش بقوتها إلى السنور فاحترق ، وعلق المسلمون فى الكبش الكلاليب الحديدية المصنوعة فى السلاسل ، فسحبوه وهو يشتعل حتى حصلوه عندهم فى البلد ، وكان مركبا من آلات هائلة عظيمة ، ألقى الماء عليه حتى برد حديده بعد أيام .

وبلغنا من اليزك أن وزن ما كان عليه من الحديد يبلغ مائة قنطار بالشامى ، ( والقنطار مائة رطل ، والرطل الشامى بالبغدادى أربعة أرطال وربع رطل ) ، ولقد أنفذ رأسه إلى السلطان ، ومثل بين يديه ،

وشاهدته وقلبته ، وشكله على مثل السفود الذى يكون بحجر الدار ، قيل إنه ينطح به فيهدم ما يلاقيه .

وكان ذلك من أحسن أيام الإسلام ، ووقع على العدو خذلان عظيم ، ورفعوا ما سلم من آلاتهم ، وسكنت حركاتهم التي ضيعوا فيها نفقاتهم ، وتحيرت أبصار حيلهم ، واستبشر السلطان بغرة ولده ، «واستبرك»[1] بها ، حيث وجد النصر مقروناً بقدومه مرة بعد أخرى ، وثانية بعد أولى .

ولما كان يوم الأربعاء الخامس عشر رمضان ؛ خرج أصحابنا من الثغر المحروس فى شوان على بغتة من العدو ، وضربوا البطسة المعدة لأخذ برج الذبان[2] بقوارير نفط ، فاحترقت وارتفع لهبها فى البحر ارتفاعاً عظيما ، وحزن الألمان لذلك حزناً شديداً ، وغشيته كآبة عظيمة ، ووقع خذلان عميم .

ولما كان يوم الخميس السادس عشر الشهر ؛ وصل كتاب طائر فى طى كتاب وصل من « حماه » قد طار به الطائر من حلب ؛ يذكر فيه أن البرنس صاحب « أنطاكية » خرج بعسكره نحو القرى الإسلامية التى تليه ، لشن الغارات عليها ، فبصرت به العساكر ونواب الملك الظاهر ، فكمنت له الكمينات فلم يشعر بهم إلا والسيف قد وقع فيهم

---

(١) فى (ب) وفى (ج) ١١٤ (ا) استبرك بمعنى تيمن . فى ( ا ) استبارك : بمعنى بالبركة تفاءل .

(٢) التصحيح من (ب) والفتح القسى ، ومن ( ج ) ١١٤ — ا

فقتل منهم خمسة وسبعون نفراً ، وأسر خلق عظيم ، واستعصم بنفسه في موضع يسمى « شيحا[1] » حتى اندفعوا وسار إلى بلده .

وفي أثناء العشر الأوسط ؛ ألقت الريح بطستين — فيهما رجال وصبيان ونساء ، وميرة عظيمة ، وغنم كثيرة — قاصدين نحو العدو ، فغنمها المسلمون .

وكان العدو قد ظفر منا بزورق فيه نفقة — ورجال أرادوا الدخول إلى البلد — فأخذوه ، فوقع الظفر بهاتين البُطْسَتَيْن ماحياً لذلك ، وجابراً له .

ولم تزل الأخبار بعد ذلك تتواصل على ألسنة الجواسيس والمستأمنين ؛ أن العدو قد عزم على الخروج إلى العسكر الإسلامي ، خروج مصاف ومنافسة . والتاث مزاج السلطان بحمى صفراوية ، فاقتضى الحال تأخر العسكر إلى جبل « شَفِرْعَم »[2] ، وكان انتقاله تاسع عشر رمضان ، فنزل السلطان على أعلى الجبل ، ونزل الناس على رؤوس التلال للاستمداد للشتاء والاستراحة من الوحل .

وفي ذلك اليوم مرض زين الدين يوسف بن زين الدين صاحب « إربل » مرضاً شديداً ، بحمتين مختلفتي الأوقات ، واستأذن في الرواح فلم يؤذن له ، فاستأذن في الانتقال إلى « الناصرة » فأذن له في ذلك اليوم . وأقام « بالناصرة » أياماً عديدة يمرض نفسه ، فاشتد به المرض الى

(١) شيحا : جاء في القاموس المحيط أنها بلدة بحلب .

(٢) جبل شفرعم في ( ا ) «شفرعم» والتصحيح من معجم البلدان . وشفرعم قرية كبيرة بينها وبين عكا بساحل الشام قرابة ثلاثة أميال (ياقوت جـ ١٢ : ٣٠٢ ط بيروت ) .

ليلة الثلاثاء ثامن عشري رمضان ، وتوفى — رحمه الله — وعنده أخوه مظفر الدين يشاهده ، وحزن الناس عليه لمكان شبابه وغربته .

وأنعم السلطان على أخيه مظفر الدين ببلدة « إربل »[1] واستنزله عن بلاده التي كانت في يده . وهى « حران » و « الرها » وما يتبعهما من البلاد والأعمال ، وضم إليه بلد شهر زور[2] أيضا . واستدعى الملك المظفر تقى الدين عمر ابن أخيه شاهنشاه ، ليكون نازلا مكانه ، جابراً لخلل غيبته ، وأقام « مظفر الدين » فى نظرة قدوم تقى الدين ، ولما كان ضحاء نهار ثالث شوال قدم وقد عاد صحبة معز الدين .

## ذكر

### قصة معز الدين

وهذا « معز الدين » هو سنجر شاه بن سيف الدين غازى بن مودود ابن زنكى ، وهو صاحب « الجزيرة » إذ ذاك ، وكان من قصته أنه حضر الجهاد ، وقد ذكرت تاريخ وصوله ، وأنه أخذ منه الضجر والسآمة والقلق ، بحيث ترددت رسله ورقاعه إلى السلطان فى طلب الدستور ، والسلطان يعتذر إليه بأن رسل العدو متكررة فى معنى الصلح ، ولا يجوز أن تنفض العساكر ، حتى تتميز على ماذا ينفصل الحال من سلم أو حرب ، وهو لا يألو جهوا فى طلب الدستور . إلى أن

---

(١) الزيادة من « ب » ومن جـ ١١٥ ب .

(٢) شهرزور : بين الموصل وهمذان وأهلها كلهم أكراد ( عن اللباب ) ياقوت حـ ١٢ : ٣٧٥ — ٣٧٦ ط بيروت )

كان يوم عيد الفطر من سنة ست وثمانين ؛ وحضر سحرة ذلك اليوم فى باب الخيمة السلطانية ، فاستأذن فى الدخول فاعتذر إليه بالتياث كان قد عرى مزاج السلطان ، فلم يقبل العذر ، وكرر الاستئذان فأذن له فى الدخول ، فلما مثل بالخدمة استأذن فى الرواح شفاها ، فذكر له السلطان العذر بذلك ، وقال : « هذا وقت تقدم العساكر وتجمعها لا وقت تفرقها » ، فانكبّ على يده وقبلها كالمودع له .

ونهض من ساعته وسار ، وأمر أصحابه أن ألقوا القدور فيها الطعام ، وقلعوا الخيم . وتبعوه فلما بلغ السلطان صنيعه ؛ أمر بانشاء مكاتبة إليه يقول فيها ، « إنك أنت قَصَدْتَ الانتماء إلى ابتداء ، وراجعتنى فى ذلك مرارا ، وأظهرت الخيفة على نفسك وقلبك وبلدك من أهلك فَبِلْتُكَ وآوَيتُكَ ونَصَرْتُك ، وبسطتَ يدكَ فى أموال الناس ودمائهم وأعراضهم ، « فأنفذت[١] » إليك ونهيتك عن ذلك مرارا فلم تنته .

واتفق وقوع هذه الواقعة للاسلام فدعوناك . فأتيت بعسكر قد عرفته وعرفه الناس ، وأقمتَ هذه المدة المديدة ، وقَلِقتَ هذا القلق ، وتحركت هذه الحركة ، وانصرفت عن غير طيب نفس ، وغير [ فَصْل ] حال من العدو .

فانظر لنفسك ، وأبصر من تنتمى إليه غيرى ، واحفظ نفسك ممن يقصدك ، فمالى إلى جانبك التفات » .

وسلم الكتاب إلى نجاب ، فلحقه قريبا من « طبرية » . فقرأ

---

(١) ق ( ب ) و ( ق ) ( ج )؛ ١١٦ ا ( تنفذت )

الكتاب ولم يلتفت ، وسار على وجهه .

وكان المظفر تقى الدين قدا ستدعى إلى الغزاة بسبب حركة مظفر لدين ، على ما سبق شرحه . فلقيه فى الطريق فى موضع يسمى عقبة [ فيق ][1] ، فرآه محثا ولم ير عليه أمارات حسنة ، وسأله عن حاله فأخبره بأمره وتعتب على السلطان كيف لم يخلع عليه ولم يأذن له [ فى الرواح ][2] ففهم الملك المظفر انفصاله من غير دستور[3] من السلطان ، وأنه على خلاف اختياره فقال له : « المصلحة لك أن ترجع إلى الخدمة ، وتلازم إلى أن يأذن لك ، وأنت صبى ولم تعلم غائلة هذا الأمر » فقال : « ما يمكننى الرجوع » فقال : « ترجع عن غير يد ، فليس فى الرواح على هذا الوجه لك راحة أصلا » . فأصر على الرواح فخشى عليه وقال : « ترجع من غير اختيارك » .

وكان تقى الدين شديد البأس ، مقداما على الأمور ، ليس فى عينه من أحد شىء . فلما علم أنه قابضه إن لم يرجع باختياره ؛ رجع معه حتى أتى العسكر . وخرج الملك العادل ونحن فى خدمته إلى لقاء الملك المظفر ، فوجدناه معه ، فدخلا به على السلطان ، وسألاه الصفح عنه

(١) عقبة أفيق : فى ا « ميق » وهذا خطأ والتصحيح من معجم البلدان ومن (ب) و(ج) ١١٦ ب ، ومن النجوم الزاهرة ج ٦ . و« أفيق » قرية من حوران فى طريق الغور فى أول العقبة المعروفة بعقبة أفيق ، أما العامه فتقول « فيق » (النجوم الزاهرة ج ٦ : ١٦٨) .

(٢) الزيادة من ب ومن (ج) ١١٦ ب

(٣) فى ا (الدستون) والتصحيح من ب ومن ج ١١٦ ب

وطلب أن يقيم فى جوار تقى الدين خشية على نفسه ، فأذن له ، فأقام فى جواره إلى حين ذهابه .

## ذكر

### طلب « عماد الدين » الدستور

وذلك أن عماد الدين زنكى عم المذكور ألح فى طلب الدستور ، وشكا هجوم الشتاء عليه مع عدم الاستعداد له ، والسلطان يعتذر إليه بأن الرسل متواترة بيننا وبين العدو فى الصلح ، وربما انتظم ، فينبغى أن يكون انتظامه بحضوركم ، فالرأى مشترك .

واستأذن فى أن يحمل إليه خيام الشتاء فلم يفعل ، وأن يحمل إليه نفقة فلم يفعل ، وتكررت منه الرسل إلى السلطان فى المعنى ، والسلطان يكرر الاعتذار .

ولقد كنت بينهم فى شىء من ذلك ، وكان عند عماد الدين من العزم على الرواح مايجاوز كل وصف ، وعندالسلطان من إمساكه إلى أن يفصل أمر بيننا وبينهم مالا يحد ، وآل الأمر إلى أن يكتب عماد الدين بخطه ، ويطلب فيه الإذن فى الرواح وتلين فيها وتخشن ، فأخذها السلطان وكتب فى ظهرها بيده الكريمة : « من ضيع مثلى من يده ، فليت شعرى ما استفاد ! » فوقف عماد الدين عليها ، وانقطعت مراجعته بالكلية .

## ذكر

## خروج العدو إلى رأس الماء(١)

« وتواصلت(٢) » الأخبار بضعف العدو ، ووقوع الغلاء فى بلادهم وعسكرهم ، حتى أن الغرارة من القمح بلغت فى « أنطاكية » ستة وتسعين دينارا صورية ، ولا يزيدهم ذلك إلا صبرا وإصدارا وعنادا .

ولما ضاق بهم الأمر ؛ وعظم الغلاء ؛ وخرج منهم خلق عظيم مستأمنين من شدة الجوع ؛ عزموا على الخروج إلينا ، وكان طمعهم بسبب مرض السلطان ؛ فظنوا أنه لا يستطيع النهوض ، وكان خروجهم يوم الاثنين حادى عشر شوال ، بخيلهم ورَجلهم « حاملين(٣) » أزوادا وخياما إلى الآبار التى استحدثها المسلمون تحت تل « الحجل » لما كانوا نزولا عليه ، وأخذوا عليق أربعة أيام .

فأخذ — رحمه الله — بخروجهم على هذا الوجه ، فأمر اليزك أن يتراجع من بين أيديهم إلى « تل كَيْسان » ، وكان اليزك على « العيَاضية » ، وكان نزول العدو على الآبار بعد صلاة العصر من اليوم المذكور ، وباتوا تلك الليلة واليزك حولهم جميع الليل ، فلما طلع الصبح جاء من اليزك

---

(١) رأس الماء : ميدان فسيح للحرب فى حوران على بعد نحو عشرين ميلا شمالى درعا . ( من مدن الإقليم الشمالى ) عن The Damascus chronicle p. 300)

(٢) فى ( ا ) ، ( تواترت ) ، وما ذكر جاء فى (ب) ، وفى ( ج ) ١١٧ ب

(٣) فى ( ب ) ، وفى ( ج ) ١١٧ ب « متحملين » .

من أخبره بأنهم قد تحركوا للركوب ، وكان قد أمر الثقل فى أول الليل أن يسيروا إلى «النّاصَرة» و«القَيْمُون[1]» ، فرحل الثقل وبقى الناس ، وكنت من جملة من أقام فى خدمته ، وأمر العسكر أن يركب يُمْنَة ويُسْرة وقلبا ، تعبئة القتال .

وركب هو ، وصاح الجاووش[2] بالناس فركبوا ، وسار حتى وقف على تل[3] من «جبال الخروبة» ، وابتدأت الميمنة بالمسير ، فسارت حتى بلغ آخرها الجبل ، وسارت الميسرة حتى بلغ آخرها النهر بقرب البحر .

وكان فى الميمنة ولده الملك الأفضل صاحب دمشق ، وولده الملك الظاهر صاحب حلب ؛ وولده الملك الظافر صاحب «بُصْرى»[4] ، وولد «عز الدين صاحب الموْصل» — «علاء الدين خُرَّم شاه» ثم أخوه فى طرفها ، ويليه قريبا منه «حُسام الدين لاچين» و«الطواشى قايماز النجمى» «وعز الدين جُرْديك النُّورى» وحسام الدين بشارة صاحب

---

(١) القيمون : حصن قرب الرملة من أعمال فلسطين ( معجم البلدان ج ١٦ : ٤٢٤ ط بيروت )

(٢) الجاووش : يفهم من السياق أنه جندى كانت مهمته النداء لاستنفار الناس أو الجند للقتال ويؤيد ذلك ما جاء فى الفتح القسى للعلامة الأصفهانى ، وأما الجاويش فهو جندى أيضاً إلا أنه أصغر رتبة من سابقه يكلف بحمل الرسائل وتبليغها ، واللفظان وكذا كلمة الشاويش ، ألفاظ تركية (راجع Dozy. Supp. Dict, Arabe.) و (السلوك للمقريزى ج ١ ص ٨٧٠ تحقيق د. محمد مصطفى زياده )

(٣) تكملة من ( ح ) ١١١٨ .

(٤) بصرى : كانت من أعمال دمشق وهى قصبة كورة حوران ( معجم البلدان جـ ٤ : ٤٤١ ط بيروت )

« يانياس[1] » و « بدر الدين دُلْدرم » وجمع كثير من الأمراء .

وكان فى الميسرة « عماد الدين زنكى » صاحب [ سنجار ] ، وابن أخيه معز الدين صاحب الجزيرة ، وفى طرفها « الملك المظفر تقى الدين » — ابن أخيه ، وكان عماد الدين زنكى [غائبا بنفسه[2]] مع الثقل لمرض كان ألم به وبقى عسكره ، وكان فى الميسرة « سيف الدين على المشطوب » وجميع « المهرانية » و « والهكارية » « وخشترين » ، وغيرهم من الأمراء الأكراد ، وفى القلب الحلقة السلطانية .

وتقدم السلطان أن يخرج من كل عسكر جمع من الجاليش ، وأن يدوروا حول العسكر واليزك معهم ، وخفى بعض الأطلاب وراء التلال ، عساهم أن يجدوا غرة من العدو .

ولم يزل عدو الله يسير والناس من جميع جوانبه ، وهو سائر على شاطىء النهر من الجانب الشرقى حتى « رأس العين » ، وداروا حوله حتى عبروا الجانب الغربى ، ونزلوا والقتال يتلقف منهم الأبطال ، ويصرع منهم الرجال .

وكان نزولهم على تل هناك ، وضربوا خيامهم هناك ممتدة منه إلى النهر ، وجرح منهم فى ذلك اليوم خلق عظيم ، وقتل منهم أيضا جماعة ،

---

(١) بانياس: ذكر هذا الاسم «باناس» فى معجم البلدان على أنه اسم لنهر من أنهار دمشق .

( المرجع السابق ج ٣ : ٣٣٠ ط بيروت )

(٢) تكملة من (ب) ، ومن ( ج) ١١٨ ب

« وكانوا[1] » إذا جرح واحد منهم حملوه وإذا[2] قتل دفنوه وهم سائرون، حتى لا يبين قتيل ولا جريح .

وكان نزولهم يوم الثلاثاء بعد الظهر ، وتراجعت العساكر إلى مواطن المصابرة ومواقف الحراسة ، وتقدم السلطان إلى الميسرة أن تستدير بهم بحيث يقع آخرها على البحر ، والميمنة تستدير بالنهر من الجانب الشرقى ، والجاليش يقاتلهم يقربهم ويرميهم بالنشاب بحيث لا يقطع النشاب عنهم أصلا . وبات الناس تلك الليلة على هذا الحال ، وسار هو — رحمه الله — ونحن فى خدمته إلى رأس « جبل الخروبة » ، فنزل فى خيمة لطيفة ، والناس حوله فى خيم لطاف بمرأى من العدو ، واجتياز العدو يتواصل [إليه][3] ساعة فساعة إلى الصبح .

ولما كان [صبح][4] يوم الأربعاء وصل من أخبر أنهم تحركوا للركوب ، فركب هو ، ورتب الأطلاب ، وسار حتى أتى أقرب « جبال الخروبة » إليهم ، بحيث يشاهد أحوالهم . وكان — رحمه الله — ملتاث المزاج ، ضعيف القوى ، قوى القلب ، ثم بعث إلى العساكر وأمرها بالمقاتلة والمضايقة ، والحملة عليهم من كل جانب ، وأمر الأطلاب أن تحيط بهم بحيث لا تكون قريبة ولا بعيدة لتكون وراء المقاتلة إلى أن تضاحى النهار . وسار العدو إلى شاطىء النهر من الجانب الغربى ، يطاب جهة جهة ، والقتال يشتد عليهم من كل جانب إلا من جانب النهر .

---

(١) فى ( ا ) و ( كان ) والتصحيح من (ب) ومن ( جـ ) ١١٨ ب

(٢) فى ( ا ) (أو) وما ذكر من (ب) ، ومن(جـ) ١١٨ ب

(٣و٤) زيادتان من (ب) ومن (جـ) ١١٩ ( ا )

والتحم القتال فصرع منهم خلق عظيم، وهم يدفنون قتلاهم، ويحملون جرحاهم، وقد جعلوا رجالتهم سورالهم، تضرب الناس بالزَّنبُورَك[١] والنشاب حتى لا يترك أحد يصل إليهم إلا بالنشاب، فإنه كان يطير عليهم[٢] كالجراد، وخيالتهم يسيرون فى وسطهم بحيث لم يظهر منهم أحد فى ذلك اليوم أصلا، والكوسات تخفق، والبوقات تنعر، والأصوات بالتهليل والتكبير تعلو هذا، والسلطان يمد الجاليش بالأطلاب والعساكر التي عنده، حتى لم يبق معه إلا نفر يسير، ونحن نشاهد الأحوال، وعَلَمُ العدو مرتفع على عجلة هو مغروس فيها، وهى تسحب بالبغال، وهم يذبون عن العلم، وهو عال جداً كالمنارة، خرقته بياض ملمع بأحمر على شكل الصلبان. ولم يزالوا سائرين على هذا الوجه حتى وصلوا وقت الظهر قبالة «جسر دعوق» وقد ألجمهم العطش، وأخذ منهم التعب، وأثخنتهم الجراح، واشتد الأمر بهم من شدة الحر.

ولقد قاتل المسلمون فى ذلك اليوم قتالا شديداً، وأعطوا الجهاد حقه، وهجموا عليهم هجوما عظيما، واستداروا بهم كالحلقة، وهم لا يظهرون من رجالتهم، ولا يحملون، فكان الفعل معظمه للحلقة فى ذلك اليوم، فإنهم أذاقوهم طعم الموت، وجرح منهم جماعة «كأبار الطويل» فإنه

---

(١) الزنبورك: نوع من السهام فى سمك الابهام وفى طول الذراع، طرفه من الحديد، ذو أربعة أوجه، وهو مريش ليكون فى انطلاقه أكثر ثباتا

( Dozy Supp. Dict, Arade )

(٢) فى (١) «يظهر إليهم» وهو تحريف، والتصحيح من (ب) ومن (جـ) ١١٩ (١)

قام فى تلك الحرب العظيمة أعظم مقام ، وجرح جراحات متعددة ، وهو مستمر على القتال ، وجرح « سيف الدين ياز كُوج » جراحات متعددة ، وهو من فرسان الإسلام وشجعانه ، وله مقامات متعددة ، وجرح خلق كثير .

ولم يزل الناس حولهم حتى نزلوا ظهر نهار ذلك اليوم عند « جسر دعوق » ، وقطعوا الجسر وأخربوه خوفا من عبور الناس إليهم ، ورجع السلطان إلى تل الخَرُّوبة ، وأقام عليهم يَزَكا يحرسهم وأخبارهم تتواتر حتى الصباح .

وعزم فى تلك الليلة على كبس بقيتهم ، وكتب إلى البلد يعرفهم ذلك حتى يخرجوهم من ذلك الجانب ، فلم يصل من أهل البلد كتاب ، فرجع عن ذلك العزم بسبب تأخير[1] الكتاب .

ولما كان صباح الخميس رابع عشر الشهر ؛ وصل من أخبر أن العدو على حركة الرحيل ، فركب السلطان ، «ورتب»[2] الأطلاب ، وكف الناس عن القتال خشية أن يقتالوا ، فإن العدو كان قد قرب من خيمه ، وأداروا الأطلاب فى الجانب الشرقى من النهر تسير قبالة العدو حتى وصل إلى خيمه .

وكان ممن خرج من مقدميهم فى هذه السرية « الكُنْدهرِّى » «والمركيس» ، وتخلف ابن ملك الألمان فى الخيام مع جمع كثير منهم .

(١) فى (ا) «وتأخر» وما ذكر من (ب) ومن (ج) ١٢٠ (١)
(٢) «وطلب» فى (ا) وما ذكر من ج ١٢٠ (١) .

ولما دخل العدو إلى خيمهم كان لهم فيها أطلاب مستريحة ، فخرجت إلى اليزك الإسلامي وحمات عليه ، « ونشب »[١] القتال بين اليزك وبينهم ، وجرى قتال عظيم قتل فيه من العدو وجرح خلق عظيم ، وقتل من المسلمين ثلاثة نفر ، وقتل من العدو شخص كبير فيهم مقدم عليهم ، وكان على حصان عظيم ملبس بالزرد إلى حافره ، وكان عليه لباس لم ير مثله ، وطلبوه من السلطان بعد انفصال الحرب فدفع إليهم جثته ، وطلب رأسه فلم يوجد .

وعاد السلطان إلى خيمه ، وأعاد الثقل إلى مكانه ، وعاد كل قوم إلى منزلتهم . وعاد عماد الدين وقد أقلعت حماه ، وبقى التياث مزاج السلطان ، وقد كان سبب سلامة هذه الطائفة [ الخارجة ][٢] ، مع كونه لا يقدر على مباشرة الأمر بنفسه ، ولقد رأيته وهو يبكى فى حال الحرب ، كيف لم يقدر على مخالطته ، ورأيته وهو يأمر أولاده واحداً بعد واحد بمكافحة الأمر ، ومخالطة الحرب .

ولقد سمعت منه ، وقائل يقول : إن الوخم قد عظم فى « مرج » عكا ، بحيث أن الموت قد كثر فى الطائفتين [ فأنشد ][٣] متمثلا :

أقتـــلانى ومالـِكاً     واقتُلا مَالِـكاً معى

يريد بذلك أننى قد رضيت أن أتلف أنا إذا تلف أعداء الله . وحدث بذلك قوة عظيمة فى نفوس العسكر الإسلامى .

---

(١) « وانقشب » فى (ب) وفى (ج) ١٢٠ ( ا )

(٢) الزيادة من (ب) ، ومن ( ج) ١٢٠ ب

(٣) فى ( ا ) « ينشد » والتصحيح من (ب) ومن ( ج) ١٢٠ ب

## ذكر

## وقعة الكمين

وفى الثانى والعشرين من شوال ؛ رأى السلطان أن يضع للعدو كمينا، وقوى عزمه على ذلك ، فأخرج جمعا من كُماة العسكر ، وشجعانه وأبطاله وفرسانه ، وانتخبهم من خلق كثير ، وأمرهم أن يسيروا فى الليل ، ويكمنوا فى سفح تل هو شمالى « عكا » بعيداً من عسكر العدو ، عنده كانت منزلة الملك العادل،حين وقعت الوقعة المنسوبة إليه[وأن][1] يظهر منهم للعدو نفر يسير ، وأن يقصدوه فى خيمه ويحركوه ، حتى إذا خرج انهزموا بين يديه نحو المسلمين ففعلوا ذلك ، وساروا حتى أتوا التل المذكور ليلا فكمنوا فيه .

ولما تجلى نهار الثالث والعشرين ؛ خرج منهم نفر يسير على جياد من الخيل ، وساروا حتى أتوا خيم العدو ، ورموهم بالنشاب ، وحركوا حميتهم بالضرب المتواتر ، فانتحى لهم مقدار مائتى فارس ، وخرجوا إليهم « شاكى السلاح »[2] على خيل جياد بعدة تامة وأسلحة كاملة ، وقصدوهم وليس معهم أحد راجل ، وداخلهم الطمع فيهم لقلة عدتهم ، فانهزموا بين أيديهم وهم يقاتلونهم ويقتلون ، حتى أتوا الكمين ، فثارت عند وصولهم الأبطال ، وصاحوا صيحة الرجل الواحد ، وهجموا

---

(١) الزيادة من(ب) ، ومن (ج) ١٢١ (١)

(٢) « شاكين فى السلاح » فى (ب) ، وفى (ج) ١٢١ (١)

عليهم[١] هجمة الأسود على فرائسها ، فثبتوا وصبروا ، وقاتلوا قتالا شديداً ، ثم ولوا منهزمين ، فتمكن أولياء الله منهم ، وأوقعوا فيهم ضربا بالسيف ، حتى أفنوا منهم جمعاً عظيما ، واستسلم الباقون للأسر فأسروهم ، وأخذوا خيلهم وعددهم .

وجاء البشير إلى العسكر الإسلامى ، فارتفعت الأصوات بالتهليل والتكبير ، وركب السلطان يتلقى المجاهدين ، وسار وكنت فى خدمته حتى أتى « تل كيسان» فلقينا أوائل القوم ، فوقف هناك يتلقى العائدين من المجاهدين ، والناس يتبركون بهم ، ويشكرونهم على حسن صنيعهم ، وهو يعتبر الأسرى ، ويتصفح أحوالهم .

وكان ممن أسر مقدم عسكر الإفرنسيس ، فإنه كان قد أنفذ نجدة قبل وصوله ، وأسر خازن الملك أيضاً ، وعاد السلطان بعد تكامل الجماعة إلى مخيمه فرحاً مسروراً ، وأحضر الأسرى عنده ، وأمر منادياً ينادى «من أسر أسيرا فليُحْضِرْه» . فأحضر الناس أسراهم ، وكنت حاضراً ذلك المجلس .

ولقد أكرم المقدمين منهم ، وخلع عليهم ، وعلى مقدم عسكر الإفرنسيس فروة خاص ، وأمر لكل واحد من الباقين بفروة جرخية ، فإن البرد كان شديداً ، وكان قد أخذ منهم ، وأحضر لهم طعاماً أكلوه ، وأمر لهم بخيمة تضرب قريباً من خيمته .

---

(١) فى (١) « عليه » والتصحيح من (ب) ومن (ج) ١٢١ (١)

وكان يكارمهم فى كل وقت ، ويحضر المقدم على الخوان فى بعض الأوقات ، وأمر بتنفيذهم وحملهم إلى « دمشق » ، فحملوا مكرمين ، وأذن لهم فى أن يراسلوا صاحبهم ، وأن يحضروا لهم من عسكرهم ما يحتاجون إليه من الثياب وغيرها ، ففعلوا ذلك ، وساروا إلى « دمشق » .

## ذكر

## عود العسكر عن الجهاد

ولما هجم الشتاء ؛ وهاج البحر ؛ وأمن العدو أن يضرب مصاف ، وطلب البلد وحصاره من شدة الأمطار وتواترها ، أذن السلطان للعساكر فى العود إلى « بلادهم »[1] ، ليأخذوا نصيباً من الراحة ، وتجم خيولهم إلى وقت العمل .

وكان أول من سار عماد الدين صاحب « سنجار » ، لما كان عنده من القلق فى طلب الدستور ، وكان مسيره خامس عشرى شوال ، وسار عقيبه فى ذلك اليوم ابن أخيه « سنجر شاه » صاحب « الجزيرة » ، هذا بعد أن أفيض عليهما من التشريف والإنعام والتحف مالم ينعم به على غيرهما .

وسار « علاء الدين » ابن صاحب « الموصل » فى مستهل ذى القعدة مشرفاً مكرماً، معه التحف والطرائف ، وتأخر « الملك المظفر » إلى

---

(١) « بلادها » فى (ب) ، وفى (جـ) ١٢٢ ( ١ ) .

أن دخلت سنة سبع وثمانين . وتأخر أيضاً « الملك الظاهر » ، وسار تاسع المحرم سنة سبع وثمانين . وسار « الملك المظفر » فى ثالث صفر .

ولم يبق عند السلطان إلا نفر يسير من الأمراء والحلقة الخاصة .

وفى أثناء ذى القعدة سنة ست وثمانين وفد عليه « زلفتدار » ، فتلقاه وأكرم مثواه ، ووضع له طعاماً يوم قدومه ، وباسطه مباسطة عظيمة .

وكانت حاجته أن يوقع له بإعادة أملاك كانت فى يده ثم انتزعت من أعمال « نَصِيبين » و « الخـابور » ، فوقّع بإعادتها إلى يده ، « وإجْراء »[1] الأمر فيها بعد ذلك على وفق الشريعة المطهرة ، وخلع عليه وشرفه . وسار فرحاً مسروراً ، شاكراً لأياديه .

ذكر

« اشتغال »[2] السلطان لإدخال البدل إلى البلد

ولما هاج البحر ؛ وأمنت غائلة مراكب العدوّ ، ورفع ما كان له من الشوانى فى البحر إلى البر ؛ اشتغل السلطان فى إدْخال البدل إلى «عكا» وحمْل « المير »[3] والذخائر والنفقات والمدد إليها ، وإخراج من كان بها من الأمراء ، لِعظم شكايتهم من طول المقام بها ، ومعاناة التعب والسهر ، وملازمة القتال ليلا ونهاراً .

---

(١) « وأجرى » فى (ب) ، وفى (ج) ١٢٢ ب

(٢) فى ( ا ) « ارتحال » وما ذكر وهو أنسب من ( ج ) ١٢٢ ب

(٣) فى ( ا ) « البر » والتصحيح من ( ج ) ١٢٢ ب

وكان مقدم البلد من البدل الداخل الأمير « سيف الدين على المَشْطوب » ، دخل سادس عشر المحرم من شهور سنة سبع وثمانين ، وفى ذلك اليوم خرج المقدم الذى كان بها ، وهو الأمير « حسام الدين أبو الهَيْجاء » وأصحابه ، ومن كان بها من الأمراء وأعيان [ من ][1] الخلق ، وتقدم إلى كل من دخل أن يصحب ميرة السنة ، وانتقل « الملك العادل » بعسكره إلى « حيفا » على شاطىء النهر ، وهو الموضع الذى تحمل منه المراكب فتدخل إلى البلد ، وإذا خرجت تخرج إليه ؛ فأقام ثَم يَحُثُّ الناس على الدخول ، ويحرس المير والذخائر ، لئلا يتطرق إليها من العدو من يعترضها .

وكان مما دخل إليها سبع بطس مملوءة ميرة وذخائر ونفقات ، كانت وصلت من مصر محملة ، وتقدم السلطان بتعبئتها من مدة مديدة .

وكان دخولها ثانى ذى الحجة من السنة الخالية ، فانكسر منها مركب على الصخر الذى هو قريب من الميناء ، فانقلب كل من فى البلد من المقاتلة [ إلى جانب البحر ][2] لتلقى البطس . ولما علم العدو ذلك ؛ أخذوا غرتهم وزحفوا إلى البلد فى جانب البر زحفة عظيمة ، وقاربوا الأسوار ، وصعدوا فى سلم واحد فاندق بهم السلم كما شاء الله تعالى ، وتداركهم أهل البلد فقتلوا منهم خلقاً عظيما ، وعادوا خائبين خاسرين .

وأما البطس فإن البحر هاج هياجاً عظيما ، وضرب بعضها على الصخر

(١) زيادة من (ج) ١٢٣ ( ١ )

(٢) زيادات من (ب) ، ومن (ج) ١٢٣ ( ١ )

فهلكت ، وهلك جميع من كان فيها ، قيل كان عددهم ستين نفراً ، وكان فيها ميرة عظيمة ، لو سلمت كفت البلد سنة كاملة ، وذلك بتقدير العزيز العليم ، ودخل على المسلمين بذلك وهن عظيم ، وأحرج السلطان بذلك حرجاً عظيما ، فاستخلف ذلك فى سبيل الله تعالى ، وما عند الله خير وأبقى ، وكان ذلك أول « علامات » أخذ البلد والظفر به .

ولما كانت ليلة السبت سابع ذى الحجة من السنة الخالية ؛ قضى الله وقدر أن وقع من السور قطعة عظيمة ، ونقلها على الباشورة[1] فهدمت أيضاً منها قطعة عظيمة ، وهى العلامة الثانية ، وقد أخذ العدو الطمع ، وهاج الزحف هياجاً عظيما ، وجاءوا إلى البلد كقطع الليل المدلهم من كل جانب ، وثارت همم الناس فى البلد وقاتلوا العدو قتالا شديداً ، حتى ضرسوا وأيسوا من أن ينالوا خيراً ، فوقفوا على سد موضع القطعة الواقعة ، وجمعوا [ جميع ][1] من فى البلد من البنائين والصناع ، ووضعوهم فى ذلك الموضع ، وحموهم بالنشاب والمناجيق ، فما مرت إلا ليال يسيرة حتى انتظمت ، وعاد بناؤها أحسن مما كان وأقوى وأتقن .

## ذكر
## الظفر بمراكب العدو

وكان قد استأمن من الفرنج خلق عظيم أخرجهم الجوع إلينا ، وقالوا للسلطان : « نحن نخوض البحر فى براكيس وبطس [ من ][2]

(١) الباشور : هى الحائط الظاهرى من الحصن ، الذى يختفى وراءه عند القتال (Dozy. Supp. Dict Arabe)

(٢) الزيادات من (ب) ، ومن (ج) ١٢٣ ا و ب .

(٣) فى « إلى » والتصحيح من ا ب ، ومن ج ١٢٤ أ .

العدو ، ويكون الكسب بيننا وبين المسلمين ، فأذن لهم فى ذلك ، وأعطاهم بركوساً — وهو المركب الصغير، فركبوا فيه ، وظفروا بمراكب التجار من العدو وهى قاصدة إلى عسكرهم .

وبضائعهم معظمها فضة مَصُوغة وغير مصوغة ، فوقع عليها البركوس، وقاتلوهم حتى أخذوهم، واكتسبوا منهم مالا عظيما وأسروهم ، وأحضروهم بين يدى السلطان ، وذلك فى ثالث عشر ذى الحجة من السنة المذكورة .

ولقد كنت حاضراً ذلك المجلس ، وكان من جملة ما أحضروه مائدة فضة ، وعليها مكبة مخرمة من فضة ، فأعطاهم السلطان الجميع ، ولم يأخذ منهم شيئاً ، وفرح المسلمون بنصر الله عليهم بأيديهم .

## ذكر

## موت ابن ملك الألمان

وذلك أن العدو لما دخل الشتاء عليهم وتواترت الأنداء ؛ واختلفت الأهواء ؛ وَخم المرج وخما عظيما ، وقع معه موتان عظيم، وانضم إلى ذلك الغلاء الزائد ، وانسد عليهم البحر الذى كان يجيئهم منه الميرة من كل جانب ، وكان يموت منهم كل يوم المائة والمائتان — على ما قيل ، وقيل أكثر من ذلك .

ومرض ابن ملك الألمان مرضاً عظيما ، وعرض له مع ذلك مرض الجوف ، فهلك به فى الثانى والعشرين من ذى الحجة سنة ست وثمانين ،

وحزن الإفرنج عليه حزناً عظيماً ، وأشعلت له نيران هائلة ، بحيث لم يبق له خيمة إلا وأشعلت فيها النار ان والثلاثة بحيث بقى عسكرهم كله نار .
وفرح المسلمون بذلك بمثل ما حزن الكفار بفقده ؛ وهلك منهم كبير يقال له « الكُند بالياط » ، ومرض « الكُندهرِّى » وأشرف على الهلاك .

وفى الرابع والعشرين منه أُخذ منهم بركوسان فيهما نيِّف وخمسون نفرا ؛ وفى الخامس والعشرين منه أُخذ منهم أيضاً بركوس وجميع ما فيه ؛ وكان من جملة ما فيه مَلوُطة[1] مكللة باللؤلؤ ، وهى من تفاصيل الملك ، وقيل كان فى البركوس ابن أخيه ، وأُخِذ أيضاً .

## ذكر

## غارة « أسد الدين »

وهذا أسد الدين — هو شيركوه بن ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه الكبير[2] ، وهو صاحب « حمص » .
وكان من حديثه أن السلطان كان قد رسم له أن يأخذ حذره من الإفرنج « بطرابلس » ، ويأخذ نفسه بحراسة المسلمين والفلاحين فى

---

(١) ملوطة : وجمعها ملاليط ، جبة من الحرير : (Dozy. Dict, Vetemcnt 4 12 )

(٢) أسد الدين ، شيركوه بن ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه الكبير : أعطاه السلطان صلاح الدين « حمص » سنة ٥٨١ هـ فحفظها ، توفى سنة ٦٣٧ هـ .
( النجوم الزاهرة ج ٦ : ٣١٦ )

تلك الناحية ، وأنه قيل له : إن إفرنج « طرابلس » قد أخرجوا جشارهم وخيلهم إلى مرج هناك ، وأبقارهم ودوابهم ، وأنه قد[1] قرب مع عسكره قصدهم .

فخرج على غرة منهم ، وهجم على جشارهم ،[2] فأخذ منهم من الخيل أربعمائة رأس ، ومائة من البقر ، فهلك من الخيل أربعون وسلم الباقى ، وعاد إلى البلد ولم يفقد من أصحابه أحد ، ووصل الكتاب بذلك فى رابع صفر من سنة سبع وثمانين .

## ذكر

## وقائع عدة فى هذه السنة

وفى ثالث ربيع الأول كان اليزك للحلقة السلطانية ، وخرج من العدو إليهم خلق عظيم ، وجرى بينهم وقعة شنيعة ، وقتل فيها من العدو جماعة ، وقتل منهم رجل كبير — على ما قيل .

ولم يفقد من المسلمين إلا خادم [كان][3] للسلطان يسمى « قَرَاقُوش » — وكان شجاعاً عظيما ، له وقعات عظيمة كثيرة — استشهد فى ذلك اليوم .

وفى تاسع الشهر بلغ السلطان أن العدو يخرج منه طائفة يتفسحون لبعدنا عنهم ، فاقتضى رأيه أن أنفذ أخاه الملك العادل وفى خدمته خلق

---

(١) الزيادة من (ب)
(٢) الجشار : الماشية ( النجوم الزاهرة جـ ٦ : ١٨٩ حاشية ٤ )
(٣) زيادة من (ب) ومن (جـ) ١٢٥ (١)

عظيم من العساكر الإسلامية ، وأمره أن يكمن للعدو وراء التل الذى كانت فيه الواقعة المعروفة به ، فسار هو وجمع كانَ من كبراء أهله وأصحابه ، فـكمن وراء « تل العياضية » .

وكان ممن كان معه من كبار أهله؛ « الملك المظفر تقى الدين » وابنه ناصر الدين محمد ، « والملك الأفضل » ولده ، ومعه صغار أولاده « الملك الأشرف محمد » و« الملك المعظم طوران شاه » و« الملك الصالح إسماعيل » ، وكان من المعممين ؛ « الفاضل » ، و[صاحب] الديوان ، وكنت فى الصحبة فى ذلك اليوم .

وركب جماعة من الشجعان على الخيول الجياد ، وناوشوا العدو [وباسطوه][1] فلم يخرج فى ذلك اليوم ، وكأنه كان فى تصرفاته[2] قد وُشِى إليهم[3] بجليّة الأمر[4] ، إلا أن ذلك اليوم لم ينفك إلا بنوع نصر ، فإنه وصل فى أثنائه خمسة وأربعون نفراً من الإفرنج ، وكانوا قد أخذوا فى « بيروت » ، وسيروا إلى السلطان ، ووصلوا فى ذلك اليوم إلى ذلك المـكان .

ولقد شاهدت منه رقة قلب لم يُر أعظم منها ، وذلك أنه كان فيهم شيخ كبير طاعن فى السن ولم يبق فى فمه ضرس ، ولم تبق له قوة إلا مقدار يتحرك بها[5] لا غير ، فقال للترجمان « قل له[6] : « ما الذى

(١و٢و٣) زيادات من (ب) ومن (ج) ١٢٥ ب
(٤) فى (ا) «الأمراء» وهو خطأ والتصحيح من (ب) ، ومن (ج) ١٢٥ب
(٥) تصحيح وزيادة من (ج) ١٢٥ ب
(٦) فى (ب) «يسأله» ، وفى ج ٢٥ ب «سله»

حملك على المجىء وأنت فى هذا السن ؟ وكم من ها هنا إلى بلادك ؟ ! !
فقال « بلادى ! بينى وبينها عدة أشهر ، وأما مجيى، فإنما كان للحج إلى القُمامة » ، فرَقّ « لهُ »[1] السلطان ومَنّ عليه ، وأطلقه وأعاده راكباً على فرس إلى عسكر العدو .

ولقد طلب أولاده الصغار أن يأذن لهم فى قتل أسير فلم يفعل ، فسألته عن سبب المنع ، وكنت حاجبهم « فيما »[2] طلبوه ، فقال : « لئلا يعتادوا من الصغر على سفك الدماء ، ويهون عليهم ذلك ، وهم الآن لا يفرقون بين المسلم والـكافر » .

ولما أيس من خروج العدو عاد إلى المخيم فى عشية ذلك اليوم .

## ذكر

## « وصول العساكر الإسلامية والملك إفرنسيس »

ومن ذلك الوقت ؛ انفتح الباب ، وطاب الزمان ، وجاء أوان عود العساكر إلى الجهاد من الطائفتين .

فـكان أول من قدم ؛ علم الدين سليمان بن جندر من أمراء « الملك الظاهر » ، وكان شيخاً كبيراً مذكوراً له وقائع ، ذا رأى حسن ، والسلطان يحترمه ويكرمه ، وله قدم صحبة .

---

(١) فى ب « به »

(٢) فى (١) « لما » وما ذكر وهو أنسب ؛ من (ج) ١٢٥ ب

ثم قدم بعده « مجد الدين بن عز الدين فخروشاه » ، وهو صاحب « بعلبك » . وتتابعت بعد ذلك العساكر الإسلامية من كل صوب .

وأما عسكر العدو ؛ فإنهم كانوا يتواعدون البزك ومن يقاربهم بقدوم الملك الفرنسيس ، وكان عظيما عندهم ، مقدماً محترماً ، من كبار ملوكهم ، تنقاد إليه العساكر بأسرها ، بحيث إذا حضر ؛ حكم على الجميع .

ولم يزالوا يتواعدون بقدومه حتى قدم فى ست بطس تحمله وميرته ، وما يحتاج إليه من الخيل وخواص أصحابه ، وكان قدومه يوم السبت الثالث والعشرين من ربيع الأول من هذه السنة .

## نادرة وبشارة

وكان قد صحبه من بلاده باز عظيم ، هائلُ الخلق ، أبيضُ اللون ، نادرُ الجنس ، ما رأيت بازيا أحسن منه ، وكان يعزُّه ويحبه حباً عظيما . فشذ الباز من يده ، وطار وهو يستجيؤه فلا يجيؤه ، حتى سقط على سور « عكا » . فاصطاده أصحابنا وأنفذوه إلى السلطان . وقد كان لقدومه روعة عظيمة . واستبشار عظيم بالظفر به . فتفاءل المسلمون بذلك وبذل الإفرنج فيه ألف دينار فلم يجابوا .

وقدم بعد ذلك « كندفرند » وكان مقدما عظيما عندهم ، مذكورا ، فذكروا أنه حاصر « حماة » و « حارم » فى « عام الرملة » .

ولما كان الثانى عشر من ربيع الآخر ؛ وصل كتاب من « اللاذقية » أن كان جماعة من المُستأمَنين قد أعطوا براكيس ليكبسوا عليها فى البحر من العدو ، فأخذوها ونزلوا فى « جزيرة قبرص » فى عيد لهم ، وقد اجتمع جمع كثير من أهل الجزيرة فى بيْعة قريبة من البحر ، وأنهم صلوا معهم صلاة العيد ، وأنهم لما فرغوا من الصلاة ضربوا على كل من فى البيعة من الرجال والنساء ، وأخذوهم عن آخرهم حتى القس ، وحملوهم وألقوهم فى مراكبهم ، وساروا بهم حتى أتوا « اللاذقية » .

وكان من جملة ما كان فيها سبعة وعشرون امرأة ، وأموال عظيمة فقسموها فوصل إلى كل واحد منهم — على ما قيل — أربعة آلاف درهم من الفضة النقرة .

وقدم بعد ذلك « بدر الدين شحنة دمشق » فى سابع عشر ربيع الآخر ، وهجم أصحابنا على غنم العدو فأخذوها ، وكان عددها مائة وعشرين رأسا ، فركب فى طلبها الراجل والفارس ، فلم يظفروا منها بشىء .

## ذكر

## ملك الانكتار[1]

وهذا ملك الانكتار ، شديد البأس بينهم ، عظيم الشجاعة ، قوى الهمة ، له وقعات عظيمة ، وله جسارة على الحرب ، وهو دون الفرنسيس

---

(١) الانكتار : تذكره كثير من المصادر التاريخية بلفظ الأنكلتير « وهو ملك الانكليز وتسميه بعض المصادر ريجرت كالفتح القسى ، وهو ريكاردوس أو Richrad قلب الأسد الذى تم الصلح بينه وبين صلاح الدين سنة ٥٨٨ هـ .

عندهم فى الملك والمنزلة ، لكنه أكثر مالا منه ، وأشهر فى الحرب والشجاعة .

وكان من خبره ؛ أنه وصل إلى جزيرة قبرص ، ولم ير أن يتجاوزها إلا وأن تكون له وفى حكمه ، فنازلها وقاتلها ، فخرج إليه صاحبها وجمع له خلقا عظيما ، وقاتلهم قتالا شديدا ، فأنفذ الانكتار إلى «عكا» يستنجد إليه الملك جفرى أخاه ، ومعه مائة وستون فارساً ليعينوه على مقصوده ، وبقيت الأفرنج على «عكا» ينتظرون ما يكون من الطائفتين.

وفى سلخ ربيع الآخر وصلت كتب من بيروت ؛ « أنه قد أخذ من مراكب الانكتار القاصدة نحو عسكر العدو خمس مراكب ، وطرادة فيها خلق عظيم ، رجال ونساء ، وميرة وأخشاب وآلات وغير ذلك . وفيها أربعون فارساً ، وكان ذلك فتحاً عظيما استبشر به المسلمون » .

وفى رابع جمادى الأولى زحف العدو إلى البلد ، ونصبوا عليه مناجيق سبعة ، ووصلت كتب « عكا » بالاستنفار العظيم والتماس شغل العدو عنهم ، فأعلم السلطان العساكر بالعزم على الرحيل إلى مضايقة العدو ومقاربته ، وأصبح على « أهبة[1] » السير إلى العدو ، ورتب العساكر ثم أنفذ من كشف حال العدو ، وحال خنادقهم هل فيها كمين أم لا ، فعادوا وأخبروا بخلوها عن الكمين ، فسار بنفسه فى نفر يسير من مماليكه إلى خنادقهم ، وصعد جبلا كان يعرف بـ «تل الفضول»

---

(١) فى (ب) «جهة»

قريبا من العدو ، مشرفا على خيمهم ، وشاهد المنجنيقات وما يعمل منها وما هو بطال ، ثم عاد إلى مخيمه وأنا فى خدمته[١] .

وفى صبيحة هذه الليلة ، أتاه اللصوص برضيع له ثلاثة أشهر ، قد أخذ من أمه سرقة[٢] .

## ذكر

## قصة الرضيع

وذلك أنه كان للمسلمين لصوص يدخلون إلى خيام العدو فيسرقون منهم الرجال ، وكان من قصتهم أنهم أخذوا ذات ليلة طفلا رضيعا له ثلاثة أشهر ، وساروا به حتى أتوا إلى خيمة السلطان وعرضوه عليه ، وكان كل ما يأخذونه يعرضونه عليه ، ويعطيهم ما أخذوه .

ولما فقدته أمه باتت مستغيثة بالويل والثبور طول الليل حتى وصل خبرها إلى ملوكهم ، فقالوا إنه رحيم القلب ، وقد أذنا لك فى الخروج ، فاخرجى واطلبيه منه ، فإنه يرده عليك ، فخرجت تستغيث إلى اليزك فأخبرتهم بواقعتها فأطلقوها وأنفذوها إلى السلطان ، فلقيته وهو راكب وأنا فى خدمته ، وفى خدمته خلق عظيم ، فبكت بكاءاً شديدا ومرغت وجهها فى التراب ، فسأل عن قصتها فأخبروه ، فرق لها ،

---

(١) «مخيمه» فى (ا) والتصحيح من (ب) ، ومن (جـ) ١٢٧ ب

(٢) فى (ب) ، وفى (جـ) ١٢٧ ا ب «وسرقوه» .

ودمعت عينه ، وأمر بإحضار الرضيع ، فوجدوه قد بيع فى السوق فارتده ، وأمر بدفع ثمنه إلى المشترى واخذوه[1] منه .

ولم يزل واقفا حتى أحضر الطفل وسلم إليها ، فأخذته وبكت بكاءاً شديدا ، وضمته إلى صدرها ، والناس ينظرون إليها ويبكون ، وأنا واقف فى جملتهم ، فأرضعته ساعة . ثم أمر بها فحملت على فرس وألحقت بعسكرهم مع طفلها .

فانظر إلى هذه الرحمة الشاملة لجنس « البشرية[2] » . اللهم إنك خلقته رحيما ، فارحمه رحمة واسعة من عندك ياذا الجلال والإكرام . وانظر إلى شهادة الأعداء له بالرأفة والكرم :

ومليحةٌ شهِدَتْ لها ضَرَّاتُها والحسنُ ليس لحقِّه مِنْ مُنْكر

وفى ذلك اليوم وصل « ظهر الدين بن البلنكرى » وكان مقدما عظيما من أمراء «الموصل» — وصل مفارقا لهم يطلب خدمة السلطان ، ولما عاد السلطان إلى مخيمه لم يلبث إلا ساعة حتى وصله الخبر بتجديد الزحف ، فعاد وركب من ساعته نحو البلد ، وقد انفصل الحرب بدخول الليل من الطائفتين .

---

(١) « وأخذه » فى (ا) والمذكور من (ب) ومن (ج) ١٢٨ (ا) .

(٢) « البشرية » فى (ب) ، وفى (ج) ١٢٨ (ا) أما فى (ا) « البشر »

# ذكر

## انتقال السلطان إلى تل العياضية

ولما كانت صبيحة الثلاثاء تاسع جمادى الأولى ؛ بلغ السلطان أن الإفرنج قد ضايقوا البلد ، وركبوا المناجيق ، فأمر الجاويش أن صاح بالناس ، وركب لركوبه العسكر راجلهم وفارسهم ، حتى أتى « الخروبة » ، وقوى اليزك بتسيير جماعة من العسكر إليه ، فلم يخرج العدو ، واشتد زحفهم على البلد فضايقهم — رحمه الله — مضايقة عظيمة ، وهجم عليهم فى خنادقهم ، ولم يزل كذلك حتى عادوا عن الزحف ظهر نهار ، وعاد العدو إلى خيمه وقد أيس من أمر البلد .

وعاد السلطان إلى خيمة لطيفة ضربت له هناك ، يستظل فيها من الشمس ، فنزل بها لصلاة الظهر والاستراحة ساعة ، وقوى اليزك ، وأمر الناس بالعود إلى المخيم لأخذ جزء من الراحة . وكنت فى خدمته .

فبينما هو كذلك ؛ إذ وصل من اليزك من أخبر أن القوم قد عادوا إلى الزحف ، لما أحسوا بانصرافه عنهم أشد ما كانوا أولا ، فأمر من « نبّه »[1] الناس ، وأمر بالعود فتراجعت العساكر إلى جهة العدو أطلابا أطلابا ، وأمر بالمبيت على أخذ لأمة الحرب ، وأقام هو هناك على عزم المبيت ، وفارقت خدمته آخر نهار الثلاثاء وعدت إلى الخيم .

---

(١) فى (ب) و(ج) ١٢٩ أ : « تبع »

وبات هو وجميع العسكر على تعبئة القتال طول الليل ، وأمر طائفة منهم على مضايقة العدو . ثم سار العسكر أواخر ليلة الأربعاء عاشر الشهر إلى « تل العياضية » قبالة العدو ، وضربت له عليه خيمة لطيفة ، ونازل العدو فى ذلك اليوم أجمع بالقتال الشديد ، والضرب المبرح المتواتر الذى لا يفتر ، شغلا لهم عن الزحف ، وهو يدور بين الأطلاب ، ويحثهم على الجهاد ويرغبهم فيه .

ولما رأى العدو تلك المنازلة الهائلة ، خافوا من الهجوم عليهم فى خيامهم ، فرجعوا عن الزحف ، واشتغلوا بحفظ الخنادق وحراسة الخيم .

ولما رأى فتورهم عن الزحف عاد إلى « العياضية » ، ورتب على خنادقهم من يخبره بحالهم ساعة فساعة ، إذا رجعوا إلى الزحف ، كل ذلك دفعا للعدو عن مضايقة البلد والزحف عليه .

## ذكر

## الشروع فى مضايقة البلد

ولقد بلغ من مضايقتهم البلد ؛ ومبالغتهم فى طم خندقه ، أنهم كانوا يلقون فيه موتى دوابهم بأسرها ، وآل الأمر « إلى أن[1] » كانوا يلقون فيه موتاهم ، وكانوا إذا جرح منهم أحد جراحة مؤلمة مثخنة ألقوه فيه . بهذا « كله »[2] تواصلت كتب أصحابنا من البلد . وأما أهل

(١) فى (ب) ، فى (ج) ١٢٩ ب « حتى »

(٢) « جميعه » ، فى (ب) وفى (ج) ١٢٩ ب

البلد فإنهم انقسموا أقساما ، قسم ينزلون فى الخندق يقطعون الموتى والدواب التى يلقونها فيه قطعا ليسهل نقلها ، وقسم ينقلون مايقطعه ذلك القسم ويلقونه فى البحر ، وقسم يذبون عنهم ويدافعون حتى يتمكنوا من ذلك ، وقسم فى المنجنيقات وحراسة الأسوار ، وأخذ منهم التعب والنصب ، وتواترت شكايتهم من ذلك . وهذا ابتلاء لم يبل بمثله أحد ، ولايصبر عليه جلد وكانوا يصبرون ، « والله مع الصابرين »[1]

هذا والسلطان لا يقطع الزحف على خنادقهم بنفسه وخواصه وأولاده ليلا ونهارا حتى أثرت فيه الأثر البين ، وكلما ازدادوا فى قتال البلد ازداد هو فى قتالهم وكبس خنادقهم ، والهجوم عليهم ، حتى خرج منهم شخص يطلب من يتحدث معه .

فلما أخبر السلطان بذلك قال : « إن كان لكم حاجة فليخرج منكم واحد ، فأما نحن فليس لنا إليكم حاجة ولا شغل » . ودام ذلك متصلا الليل مع النهار ، حتى وصل الانكتار .

## ذكر

## وصول الانكتار

ولما كان يوم السبت ثالث عشر الشهر ؛ قدم ملك الانكتار بعد مصالحته لـ ( صاحب[2] ) « جزيرة قبرص » والاستيلاء عليها ، وكان

(١) سورة الأنفال ، الآية : ٦٦

(٢) الزيادة من (ب) ومن (جـ) ٣٠ (١)

لقدومه روعة عظيمة ، ووصل فى خمس وعشر[ين] شانية مملوءة بالرجال والسلاح والمدد ، وأظهر الإفرنج سروراً عظيما ، حتى أنهم أوقدوا تلك الليلة نيراناً عظيمة فى خيامهم .

ولقد كانت النيران مهولة عظيمة تدل على نجدة عظيمة كبيرة[1] ، وكان ملوكهم يتواعدوننا به ، فكان المستأمنون منهم يخبروننا عنهم أنهم متوقفون فيما يريدون أن يفعلوه من مضايقة البلد حتى قدومه ، فإنه ذو رأى فى الحرب مجرب ، وأثر قدومه فى قلوب المسلمين خشية ورهبة.

هذا والسلطان يتلقى ذلك كله بالصبر والاحتساب ، والاتكال على الله ، « وَمَنْ يَتَوَكَّلْ على اللهِ فَهُوَ حَسْبُه »[2] .

## ذكر

## غرق البطسة الإسلامية وهى العلامة الثالثة على أخذ البلد

ولما كان السادس عشر ؛ وصلت بطسة من « بيروت » عظيمة هائلة ، مشحونة بالآلات والأسلحة والمير والرجال والأبطال المقاتلة ، وكان السلطان قد أمر بتعبئتها وتسييرها من « بيروت » ، ووضع فيها من المقاتلة خلقا عظيما حتى تدخل البلد مراغمة للعدو ، وكان عدة رجالها المقاتلة ستمائة وخمسين رجلا ، فأغرقها الانكتار فى عدة شوان . قيل كان فيها أربعون قلعاً فاحتاطوا بها من جميع جوانبها ، واشتدوا فى قتالها

(١) كثيرة فى (ب) وفى (ج) ١٣٠ ب

(٢) سورة الطلاق الآية : ٣

وجرى القضاء بأن وقف الهواء فقاتلوها قتالا عظيما ، وقتل من العدو عليها خلق عظيم ، وأحرقوا للعدو شانياً كبيرا فيه خلق عظيم ، فهلكوا عن آخرهم ، وتكاثروا على أهل البطسة ، وكان مقدمهم رجلا جيدا شجاعا مجربا فى الحرب .

فلما رأى أمارات الغلبة عليهم ؛ وأنهم لا بد وأن يقتلوا قال : « والله لا نُقتل إلا عن عز ، ولا نسلم إليهم من هذه البطسة شيئا » . فوقعوا فى البطسة من جوانبها بالمعاول فهدموها ، ولم يزالوا كذلك حتى فتحوها من كل جانب أبوابا ، فامتلأت ماء فغرق جميع من فيها ، وما فيها من الآلات والمير وغير ذلك .

ولم يظفر العدو منها بشىء ( أصلا[1] ) ، وكان اسم المقدم المذكور « يعقوب » — من رجال « حلب » ، وتلقف العدو بعض من كان فيها فأخذوه إلى الشوانى من البحر ، وخلصوه من الغرق ومالوابه[2] وأنفذوه إلى البلد ليخبرهم بالواقعة ، وحزن الناس لذلك حزناً شديداً ، والسلطان يتلقى ذلك بيد الاحتساب فى سبيل الله ، والصبر على بلائه ، « [إنَّ] اللهَ لا يضيعُ أجرَ المُحسنِين[3] » .

(١و٢) الزيادتان من (ب) ومن ج ١٣٠ ب ، ١٣١ ا
(٣) الآية : ١٢٠ سورة التوبة .

## ذكر
## حريق الدبابة

وذلك أن العدو كان قد اصطنع دبابة عظيمة هائلة أربع طبقات ؛ الطبقة الأولى من الخشب ، والثانية من الرصاص ، والثالثة من الحديد ، والرابعة من النحاس ، وكانت تعلو على السور ، وكان يركب فيها المقاتلة ، وخاف أهل البلد منها خوفاً عظيما ، وحدثتهم نفوسهم بطلب الأمان من العدو ، وكانوا قد قربوها من السور ، بحيث لم يبق بينها وبين السور إلا مقدار خمسة أذرع ، على مايشاهد برأى العين .

وأخذ أهل البلد فى تولية ضربها بالنفط ليلا ونهاراً حتى قدّر الله تعالى حرقها واشتعال النار فيها ، وظهر لها ذؤابة نار نحو السماء ، فاشتدت الأصوات بالتهليل والتكبير ، ورأوا الناس فيها لما ظهرت لها تلك النيران ، ولقوا جبرا من ذلك الوهن ، [ومحوّا][1] لذلك الأثر ، ونعمة بعد نقمة ، وإيناساً بعد يأس ، وكان ذلك فى يوم غرق البطسة ، فوقع من المسلمين موقعاً عظيما ، وكان مسلياً لحزنهم [ وكآبتهم[2] ] .

## ذكر
## وقعات عدة

ولما كان يوم الجمعة تاسع عشر الشهر ، زحف العدو على البلد زحفاً

(١) فى (ا) «نحوا» وهو تحريف والتصحيح من (ب) ، ومن جـ ١٣١(ا)
(٢) زيادة من (ب) ، ومن (جـ) ١٣١ (ا)

عظيما ، وضايقوه مضايقة شنيعة . وكان قد استقر بيننا وبينهم أنهم متى زحف العدو عليهم دقوا كُوسهم ، فضربوا بكوسهم فأجابت كوس السلطان ، وركبت العساكر ، وضايقهم السلطان من خارج ، وزحف عليهم حتى هجم المسلمون عليهم فى خيامهم .

فجاوزوا خنادقهم ، وأخذوا القدور وما فيها ، وحضر من الغنيمة المأخوذة من خيامهم شىء عند السلطان وأنا حاضر . ولم يزل القتل يعمل حتى أيقن العدو أنه قد هجم عليهم ، فأخذوا يتراجعون عن قتال البلد وشرعوا فى قتال العساكر ، وانتشب الحرب بينهم ، ولم تزل ناشبة حتى قام قائم الظهيرة ، وغشى الناس من الحر أمر عظيم من الجانبين ، وتراجعت الطائفتان إلى خيامهم ، وقد أخذ منهم التعب والحر .

ولما كان يوم الاثنين الثالث والعشرون دق كُوس البلد فجاوبه كُوس السلطان ، وثار القتال بين الطائفتين ، ولج العدو فى مضايقة البلد ثقة منهم أن الناس لا يهجمون على خيمهم ، وأنهم يهابونها ، فكذب العساكر ظنونهم ، وهجموا على الخيام أيضاً ، ونهبوا منها ، فتراجع العدو إلى قتالهم ، ووقع الصياح فيهم فلحقوا من المسلمين جماعة عظيمة داخل خنادقهم وأسوارهم ، وجرى بينهم وقعة عظيمة ، قتل فيها اثنان من المسلمين وجرح جماعة ، وقتل جماعة من العدو .

وأعجب ما فى هذه الوقعة ؛ أنه كان وصل فى هذا اليوم رجل كبير مذكور من أهل « مازَنْدِران[1] » يريد الغزاة ، فوصل والحرب قائمة ،

(١) مازندران : اسم آخر لطبرستان (معجم البلدان ج ١٧ : ٤١ ط بيروت)

فلقى السلطان فاستأذنه فى الجهاد ، وحمل حملة شديدة ، واستشهد [فيها][1] فى تلك الساعة .

ولما رأى العدو دخول المسلمين إلى خنادقهم ؛ وتوغلهم إلى داخل أسوارهم ؛ داخلتم الحمية ، وبعثتهم النخوة ، فركب فارسهم وصحبه راجلهم ، وخرجوا إلى ظاهر أسوارهم ، وحملوا على المسلمين حملة الرجل الواحد ، فثبت المسلمون لهم ثبوتاً عظيما ولم يتحركوا من أماكنهم ، والتحم القتال من الجانبين ، واشتد الضرب من الطائفتين ، وصبر المسلمون صبر الكرام ، ودخلوا فى الحرب باقتحام[2] ، فلما رأى العدو ذلك الصبر المعجب ؛ والإقدام المزعج ، أنفذوا رسولا فى غضون ذلك يستأذنون للرسول[3] فى الوصول ، فأذن له ، فوصل الرسول أولا إلى « الملك العادل » ، فاستصحبه ووصل به إلى الخدمة السلطانية ، ومعه أيضاً الملك الأفضل ، فأدى الرسالة ، وكان حاصلها أن ملك الانكتار يريد الاجتماع « بالسلطان » .

فلما سمع السلطان الرسالة أجاب عنها فى الحال من غير تفكر ولا ترو بأن قال : « إن الملوك لا يجتمعون إلا عن قاعدة ، ولا يحسن منهم الحرب بعد الاجتماع والمواكلة ، وإذا أراد ذلك فلابد من تقرير قاعدة قبل هذه الحالة ، ولابد من ترجمان نثق به فى الوسط ، يفهم كل واحد منا ما يقول الآخر ، فليكن بيننا ذلك الترجمان ، فإذا استقرت القاعدة وقع الاجتماع بعد ذلك ، إن شاء الله تعالى » .

---

(١) زيادة من ب ومن ج ١٣٢ ؟ (١)

(٢) فى ١ بالتمام والمذكور هنا من (ب) ومن (جـ) ١٣٢ (١)

(٣) فى (١) « بالرسول » والتصحيح من ب ومن جـ ١٣٢ (١)

ولما كان يوم السبت الثامن والعشرون : خرج العدو راجلهم وفارسهم من جانب البحر شمالى البلد ، وعلم السلطان ذلك ، فركب وركب العسكر ، وانتشب القتال بين الطائفتين ، وقتل من المسلمين بَدَوِىّ وكُرْدِىّ ، وقتل من العدو جماعة . «وأسروا واحداً[1]» بسلاحه وفرسه ، ومثل بين يدى السلطان . ولم يزل القتال يعمل حتى حال الليل بين الطائفتين .

ولما كان الأحد[2] التاسع والعشرون : خرج العدو برجالة كثيرة على شاطىء النهر الحلو ، فلقيهم طائفة من اليزك وجرى بينهم قتال عظيم ، ووصلت رجالة من المسلمين إلى الحرب . فأسروا مسلماً وقتلوه وأحرقوه ، وأسر المسلمون منهم واحداً فقتلوه وأحرقوه . ولقد رأيت النارين تشتعلان فى زمان واحد .

ولم تزل الأخبار تتواصل من أهل البلد بالاحتفال بأمر العدو ، والشكوى من ملازمة قتالهم ليلا ونهاراً ، وذكر ما ينالهم من التعب العظيم من تواتر الأعمال المختلفة عليهم من حين[3] قدوم الانكتار — (ثم مرض مرضاً شديداً شفى فيه على الهلاك ) .

وخر الفرنسيس ولم يزد ذلك إلا إصراراً وعتوّا ، وكان لأخت ملك الانكتار خادمان مسلمان فى الباطن ، كانا فى خدمتهما فى

(١) بنسخة (ب) « وأسر واحد »

(٢) الزيادة من (ب) ومن (ج) ١٣٢ ب

(٣) فى (١) جريرة والتصحيح من (ب) ، ومن (ج) ١٣٣ أ

« صقلية » ، وكانت هى زوجة صاحب «صقلية» ، فلما مات ومرّأخوها بالبلد أخذها وصحبها[1] معه إلىالمسكر ، وهرب الخادمان إلى المسكر الإسلامى . فقبلهما السلطان وأنعم عليهما إنعاماً عظيماً .

## ذكر

### هرب المركيس إلى « صور »

ولما كان يوم الإثنين سلخ جمادى الأولى ؛ قوى استشعار المركيس من[2] انه إن أقام قبضوا عليه ، وأعطوا « صور » للملك القديم الذى كان قد أسره السلطان ، لما عاناه من الأسر فى نُصرة دين المسيح .

ولما صح ذلك عنده هرب إلى « صور » ، « فأنفذوا »[3] خلفه قسوسا ليردوه فلم يفعل ، وسار فى[4] البحر حتى أتى « صور» ، وشق ذلك عليهم ، وعظم لديهم ، فإنه كان ذا رأى وشجاعة وخبرة .

## ذكر

### وصول بقية عساكر الإسلام

وفى سلخ جمادى الأولى قدم عسكر « سنجار » يقدمه مجاهد الدين يرتقش ، فلقيه السلطان واحترمه ، وكان ديناً عاقلا محبا للغزو ،

---

(١) فى ( ا ) «وأصحابها » والتصحيح من نسخة ب ، ومن (جـ) .

(٢) تكملة من (ب) ، ومن (جـ) .

(٣) فى ( ا ) «فأنفذ» والتصحيح من (ب) ومن جـ ١٣٣ ( ا )

(٤) فى ( ا ) «إلى» وهذا تحريف والتصحيح من(ب) ، ومن(جـ) ١٣٣ ب

فأنزله السلطان فى الميسرة ، بعد أن أكرمه وأنزله فى خيمته ، وفرح بقدومه فرحاً شديداً فى ذلك الوقت .

ثم قدم بعد ذلك قطعة عظيمة من عسكر « مصر » ، كعلم الدين كرجى ، وسيف الدين سُنْقُر الدَّوَادَار وجماعة كثيرة .

ثم قدم بعد ذلك : « علاء الدين صاحب الموصل وعسكرهم ؛ فلقيه السلطان ب « الخروبة » ونزلوا هناك إلى بكرة الغد[1] اليوم الثانى من جمادى الآخرة ، وأصبح سائراً حتى أتى بجحفله قبالة العدو ، وعرض عسكره هناك ، وأنزله السلطان فى خيمته ، وحمل له من التحف وقدم له من اللطائف ما يليق بكرمه ، وأنزله فى الميمنة . وفى الثالث قدمت طائفة من عسكر « مصر » أيضاً .

واشتد مرض الانكتار بحيث شغل الإفرنج شدته عن الزحف ، وكان ذلك خيرة عظيمة من الله تعالى ، فإن البلد كان قد ضعف من فيه ضعفاً عظيماً ، واشتد[2] بهم الخناق شدة عظيمة[3] ؛ وهدمت المنجنيقات من السوار مقدار قامة الرجل .

هذا واللصوص يدخلون عليهم[4] إلى خيامهم ، ويسرقون أقمشتهم ويأخذون الرجال فى عافية[5] ويجيئون[6] إلى الواحد وهو نائم

(١) زيادة من (ب) ، ومن ج ١٣٣ ب

(٢) فى (ا) « ضاق » وما ذكر وهو الأنسب من (ب) ، ومن (ج) ١٣٣ ب

(٣ و ٤) الزيادتان من (ب) ، ومن ج ١٣٣ ب

(٥) فى ( ا ) « غفلة » وما ذكر من ب ومن ج ١٣٤ ( ا )

(٦) فى ( ا ) « بأن يجيئوا » وما ذكر من ب ومن ج ١٣٤ ( ا )

فيضمون[١] على حلقه السكين ويوقظونه[٢] ويقولون[٣] له بالإشارة : إن تكلمت ذبحناك . ويحملونه[٤] ويخرجون[٥] به إلى عسكر المسلمين[٦] ، وجرى ذلك مرارا كثيرة[٧] . وعساكر المسلمين تجتمع ويتواتر وصولها[٨] من كل جانب حتى تكامل وصولها .

## ذكر

## وصول رسولهم إلى السلطان

كنت ذكرت وصول رسول منهم يلتمس من جانب الانكتار أن يجتمع بالسلطان ، وذكرت عذر السلطان عن ذلك ، وانقطع الرسول ، وعاد معاودا فى المعنى وكان حديثه مع الملك العادل ثم هو يلقيه إلى السلطان ، واستقر بالآخرة[٩] أنه رأى أن يأذن له فى الخروج ويكون الاجتماع فى المرج والعساكر محيطة بهما ومعهما ترجمان .

فلما أذن فى ذلك تأخر الرسول أياماً عنده بسبب مرضه ، واستفاض أن ملوكهم اجتمعوا عليه ، وأنكروا عليه ذلك ، وقالوا هذه مخاطرة بدين النصرانية ، ثم بعد ذلك وصل رسوله يقول : « لا تظن تأخرى

---

(١) فى (١) « فيضعوا »

(٢) فى (١) « يوقظوه »

(٣) فى (١) « يقولوا »

(٤) فى (١) « يحملوا »

(٥) فى (١) « يخرجوا » ، ومن ١ — ٥ تصحيح من (ب) ، ومن (حـ) ١٣٤ (١)

(٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩) زيادات من (ب) ، ومن (حـ) ١٣٤ (١)

بسبب ما قيل ، فإن زمام قيادى مفوّض إلىّ ؟ وأنا أحكم ولا يحكم علىّ ، غير أنى فى هذه الأيام اعترى مزاجى التياث منعنى من الحركة ، فهذا كان العذر فى التأخير لاغير ، وعادة الملوك إذا تقاربت منازلهم أن يتهادوا ، وعندى ما يصلح للسلطان ، وأنا أستخرج الإذن فى إيصاله إليه » ، فقال له الملك العادل : « قد أذن لك[1] فى ذلك بشرط قبول المجازاة على الهدية » . فرضى الرسول بذلك ، وقال : « الهدية شىء من الجوارح قد «جلبت»[2] من وراء البحر ، وقد (ضعفت[3] فيحسن أن يحمل إلينا طير ودجاج حتى نطعمها لتقوى ونحملها » : فداعبه الملك العادل ، وكان فقيها فيما يحدثهم به ، فقال : الملك قد احتاج إلى فراريج ودجاج ، ويريد أن يأخذها منا بهذه الحجة » ثم انفصل حديث الرسالة فى الآخر ، على أن قال الرسول : « ما الذى أردتم منا ، إن كان لكم حديث فتحدثوا به حتى نسمع » . فقيل له عن ذلك : « نحن ما طلبناكم ، أنتم طلبتمونا ، فإن كان لكم حديث فتحدثوا به حتى نسمع » . وانقطع حديث « المراسلة »[4] إلى سادس جمادى الأخرى.

فخرج رسول «الانكتار» إلى السلطان ومعه إنسان «مغربى»[5]

---

(١) زيادة من (ب) ، ومن (جـ) ١٣٤ ب

(٢ ، ٣) فى (ا) «جلب» ، «ضعف» وما ذكر من (ب) ومن جـ ١٣٤ ب

(٤) الرسالة فى (ا) وما ذكر من ب ومن (جـ) ١٣٤ : ب

(٥) فى (ا) «مصرى» والتصحيح من ب ، ومن جـ ١٣٤ ب

قد أسروه ، من مدة طويلة وهو مسلم ، قد أهداه إلى السلطان فقبله ، وأحسن إليه ، وأعاده مشرفاً مكرماً إلى صاحبه .

وكان غرضه بتكرار الرسائل تعرف قوة النفس وضعفها ، وكان غرضنا بقبول الرسائل تعرف ما عندهم[1] من ذلك أيضاً .

## ذكر

### قوة زحفهم على البلد ومضايقته

ولم يزالوا يوالون على الأسوار « بالمناجيق » المتواصلة والضرب ، وتنقلوا أحجارها حتى خلخلوا سور البلد ، وأضعفوا بنيانه ، وأنهك التعب والسهر أهل البلد ، لقلة عددهم وكثرة الأعمال عليهم[2] حتى أن جماعة منهم بقوا ليالى عدة لا ينامون أصلا ، لا ليلا ولا نهاراً والخلق الذين عليهم ؛ عدد كثير يتناوبون على قتالهم وهم نفر يسير قد تقسموا على الأسوار والخنادق والمنجنيقات والسفن .

ولما أحس العدو بذلك ؛ وظهر لهم تخلخل[3] السور وتقلقل بنيانه ، شرعوا فى الزحف من كل جانب ، وانقسموا أقساماً ، وتناوبوا فرقاً ، كلما تعب قسم استراح ، وقام غيره مقامه ، وشرعوا فى ذلك شروعاً عظيما براجلهم وفارسهم سابع الشهر . هذا مع عمارتهم أسوارهم الدائرة على خنادقهم بالرجالة والمقاتلة ليلا ونهاراً .

(١) فى ( ا ) «عنده» والتصحيح من (ب) ومن ( ج ) ١٣٥ أ

(٢) الزيادة من : ب ، ومن (ج) ١٣٥ أ

(٣) فى ( ا ) « تخلل » وهو خطأ والتصحيح من ب ومن ج ١٣٥ أ

ولما علم السلطان ذلك بأخبار من يشاهده ، وإظهار الملامة التى بيننا وبينهم ، وهى دق الكؤس ؛ ركب وركب العسكر إليهم ، وجرى فى ذلك اليوم قتال عظيم من الجانبين ، وهو كالوالدة الثكلى يجول بفرسه من طلب إلى طلب ، ويحث الناس على الجهاد .

ولقد بلغنا أن الملك العادل حمل بنفسه فى ذلك اليوم مرتين ، والسلطان يطوف بين الأطلاب بنفسه ، وينادى « ياللاسلام ! » وعيناه تذرفان بالدموع ، وكلما نظر إلى « عكا » وما حل بها من البلاء ؛ وما يجرى على ساكنيها من المصاب العظيم ، اشتد فى الزحف ، والحث على القتال .

ولم يطعم فى ذلك اليوم طعاما البتة ، وإنما شرب أقداح مشروب كان يشير بها الطبيب ، وتأخرت عن حضور هذا الزحف لإلمام مرض شوش مزاجى لما عرانى فكنت فى الخيمة فى « تل العياضية » ، وأنا أشاهد الجميع .

ولما هجم الليل عاد — رحمه الله — إلى الخيم بعد العشاء الآخرة ، وقد أخذ منه التعب والكآبة والحزن ، فنام لا عن عفو .

ولما كان سحر تلك الليلة ؛ أمر الكوس أن دقت ، وركب العساكر من كل جانب ، وأصبحوا على ما أمسوا عليه ، وفى ذلك اليوم وصلت ( مطالعة[1] ) عن البلد يقولون فيها : « إنا قد بلغ منا العجز إلى غاية ما بعدها إلا التسليم ، ونحن فى الغد ثامن الشهر إن لم تعملوا معنا

(١) فى ( ا ) «مطالبة» والتصحيح من (ب) ، ومن (جـ) ١٣٠ ب

شيئا نطلب الأمان ، ونسلم البلد ، ونشترى بمجرد رقابنا . وكان هذا أعظم خبر ورد على المسلمين ، (وأنكى) فى قلوبهم ، فإن « عكا » كانت قد احتوت على جميع سلاح الساحل و « القدس » و « دمشق » و « حلب » و « مصر » ، وجميع البلاد الإسلامية . واحتوت على كبار من أمراء العسكر وشجعان الإسلام « كسيف الدين المشطوب » ، « وبهاء الدين قراقوش » وغيرهما .

وكان « قراقوش ملتزما بحراستها منذ نزل العدو عليها ، وأصاب السلطان ما لم يصبه شىء مثله ، وخيف على مزاجه التشويش ، وهو لا يقطع ذكر الله والرجوع إليه فى جميع ذلك ، صابرا محتسبا ، ملازما مجتهدا ، والله لا يضيع أجر المحسنين .

فرأى الدخول على القوم ومهاجتهم ، فصاح فى العساكر الصائح ، وركبت الأبطال ، فاجتمع الراجل والفارس ، واشتد الزحف ، ولم يساعده العسكر فى ذلك اليوم على الهجوم على العدو ، فإن رجالته وقفوا كالسور المحكم البناء بالسلاح ، والزنبورك والنشاب من وراء أسوارهم ، وهجم عليهم بعض الناس من بعض أطرافهم ، فثبتوا وذبوا غاية الذب .

ولقد حكى بعض من دخل عليهم أسوارهم ؛ أنه كان هناك راجل واحد أفرنجى صعد سور خندقهم ، واستدبر المسلمين ، وإلى جانبه جماعة يناولونه الحجارة وهو يرميها على المسلمين الذين يلاصقون سور الخندق ، وقال إنه وقع فيه زهاء خمسين سهما وحجرا[1] ولا يمنعه ذلك

(١) زيادة من (ب) ، ومن (ج) ١٣٦ (١)

عما هو بصدده من الذب والقتال حتى ضربه زراق مسلم بقارورة فأحرقه.

ولقد حكى لى شيخ عاقل جندى ، أنه كان من جملة من دخل ، قال : وكان داخل سورهم امرأة عظيمة عليها ملوطة خضراء ، فما زالت ترمينا بقوس من خشب حتى جرحت منا جماعة ، وتكاثرنا عليها وقتلناها وأخذنا قوسها وحملناها إلى السلطان فعجب من ذلك عجبا عظيما ، ولم يزل الحرب يعمل بين الطائفتين بالقتل والجرح حتى فصل (الليل بين الطائفتين[1]) .

# ذكر

## ما آل إليه أمر البلد من الضعف ووقوع المراسلة بين أهل البلد والإفرنج

ولما اشتد زحفهم على البلد ؛ وتكاثروا عليها من كل جانب وتناوبوا[2]، و[ضعفت نفوس][3] أهل البلد لما رأوه من عين الهلاك ، واستشعروا العجز عن الدفع ، وتمكن العدو من الخنادق فملكوها ، وتمكنوا من سور الباشورة[4] ونقبوه وأشعلوا فيه النار بعد حشو

(١) فى (ا) « فصل بينهم الحرب» وماذكر تصحيح وزيادة من(ب) ، وفى (ج) ١٣٦ ب

(٢) فى (ا) «تناوب» والتصحيح من (ب) ، وفى (ج) ١٣٦ ب ٢ أ

(٣) تصحيح من (ج) ١٣٦ ب

(٤) الباشورة : أى الحائط الظاهرى للحصن ، وهو الذى يختفى وراءه الجنود عند القتال ، وجمعها بواشير .

ارجع الى (Dozy Supp. Dict. Arabe)

والى ( مفرج الكروب ج ٢ تحقيق د . الشيال )

النقب ، ووقعت بدنة من الباشورة ، ودخل العدو الباشورة ، وقتل منهم فيها مائة وخمسون نفراً وصاعداً عن ذلك[١] ، وكان فيهم ستة أنفس[٢] من كبارهم ، فقال لهم واحد منهم . « لا تقتلونى . حتى أرحل الفرنج عنكم بالكلية » ، فبادر رجل من الأكراد فقتله ، وقتل الخمسة الأخرى .

وفى الغد نادى الإفرنج . « احفظوا الستة ، فإنا نطلقكم كلكم بهم » فقالوا : «قد قتلناهم» . فحزن الإفرنج لذلك حزناً عظيما ، وبطلوا[٣] الزحف بعد ذلك أياماً ثلاثة .

وبلغنا أن « سيف الدين المشطوب » خرج بنفسه إلى ملك الفرنسيس[٤] بالأمان ، قال له : « قد أخذنا منكم بلاداً عدة ، وكنا نهاجم البلد وندخل فيه ، ومع هذا إذا سألونا الأمان أعطيناهم وحملناهم إلى مأمنهم وأكرمناهم ، ونحن نسلم البلد ، وتعطينا الأمان على أنفسنا . » فأجابه بأن هؤلاء الملوك الذين أخذتوهم منا ، وأنتم أيضا مماليكى وعبيدى ، فأرى فيكم رأيى » .

ويلغنا أن « المشطوب » بعد ذلك أغلظ له فى القول ، وقال أقاويل كثيرة فى ذلك المقام ، منها : « إنا لا نسلم البلد حتى نقتل بأجمعنا ،

---

(١) زيادة من (ب) ومن (ج) ١٣٦ ب

(٢) زيادة من (ب) ، ومن (ج) ١٣٧ أ

(٣) فى (١) « طلبوا » والتصحيح من (ب) ، ومن (ج) ١٣٧ أ

(٤) ذكر فى (مفرج الكروب لابن واصل ج ٢ — ٣٤٩ تحقيق د . الشيال) أنه « الملك فيليب »

ولا يقتل منا واحد حتى يقتل خمسون نفساً من كباركم ، وانصرف عنه .

ولما دخل الشطوب البلد بهذا الخبر ؛ خاف جماعة ممن كانوا فى البلد فأخذوا له بركوساً ، وركبوا فيه ليلا خارجين إلى العسكر الإسلامى ، منهم : « أرسل » « وابن الجاولى » و « سنقر الوشاق » .

فأما « أرسل » و « سنقر » فانهما تغيبا فى العسكر ولم يعلم[1] لهما مكان خشية من نقمة السلطان . وأما « ابن الجاولى » فظفر به ورمى فى الزردخانة[2] » .

وفى سحر تلك الليلة ركب السلطان مشمراً أنه يواصل كبس القوم ومعه « الساحى » وآلات طم الخنادق ، فما ساعده العسكر على ذلك ، وتخاذلوا عن ذلك ، وقالوا نخاطر بالإسلام كله ، ولا مصلحة فى ذلك .

وفى ذلك اليوم خرج من الانكتار رسل ثلاثة طلبوا فاكهة وثلجا ، وذكروا أن مقدم الاسبتار يخرج فى الغد يتحدث فى معنى الصلح ، غير أن السلطان أكرمهم ، ودخلوا سوق العسكر ، وتفرجوا فيه ، وعادوا تلك الليلة إلى عسكرهم .

وفى ذلك اليوم تقدم إلى صارم الدين قايماز النجمى حتى يدخل هو

---

(١) « يعرف » بنسخة (ب) ، و(ج) ١٣٧ أ . .

(٢) الزردخانه : الأصل فيها خزانة الزرد أو السلاح ، وهنا بمعنى السجن الذى يسجن فيه كبار الأمراء وعلية القوم (مفرج الكروب ج ٣ : ١٣٥ تحقيق د. جمال الدين الشيال ) .

وأصحابه إلى أسوارهم ، وترجل جماعة من أمراء الأكراد؛ كالجناح وأصحابه وهو أخو المشطوب ، وزحفوا حتى وصلوا أسوار الإفرنج ، ونصب قايماز النجمى[١] بنفسه علمه على سورهم ، وقاتل عن العلم قطعة من النهار ، ووصل فى ذلك اليوم عزالدين جُرْدِيك النورى — وصل[٢] وسوق الزحف قائم ، فترجل هو وجماعته وقاتل قتالا شديداً ، واجتهد الناس اجتهاداً عظيما .

وفى العاشر أصبح القوم سا كتين عن الزحف ، والعسا كر الإسلامية محدقة بهم وقد باتوا ليلتهم « شا كى[٣] » السلاح ، را كبي ظهور خيلهم ، منتظرين عسى أن تمكنهم . مساعدة إخوانهم المتيمين « عكا » ويهجموا على طرف من الإفرنج فيكسروهم ، ويخرجوا يحمى بعضهم بعضا ، ( ويخرج العسكر ) يجاوبهم العسكر[٤] من هذا الجانب ، فيسلم من يسلم ، ويؤخذ من يؤخذ ، فلم يقروا على الخروج ، وكان قد ثبت ذلك معهم ، فلم يتهيأ لهم فى تلك الليلة خروج ، بسبب إنه كان هرب منهم بعض الغلمان ، فأخبر العدو بذلك ، فاحتاطوا بهم وحرسوهم حراسة عظيمة .

ولما كان يوم الجمعة العاشر ؛ خرج منهم رسل ثلاثة ، واجتمعوا

---

(١) ، (٢) الزيادة من (ب) ، ومن ( ج ) ١٣٧ ب .

(٣) « شا كين فى » ب وفى ( ج ) ١٣٨ (١) .

(٤) الزيادة من (ب) ومن ( ج ) ١٣٨ (١) .

الملك العادل ، وتحادثوا معه ساعة زمانية ، وعادوا ولم ينفصل الحال ؛ وانقضى النهار على مقام المسلمين بالمرج فى مقابلة العدو ، وباتوا على مثل ذلك .

ولما كان يوم السبت الحادى عشر : لبست الفرنج بأسرها لباس الحرب ، وتحركوا حركة عظيمة ، بحيث إنهم اعتقدوا ربما كان مصافا[1] ، واصطفوا ، وخرج من الباب الذى تحت القبة زهاء أربعين نفساً ، واستدعوا جماعة من المماليك ، وطلبوا منهم العدل الزبدانى ، وذكروا أنه صاحب « صَيْدا » طليق السلطان ، فحضر « العدل » ، وجرى مبادىء أحاديث فى معنى اطلاق العسكر الذى ب « عكا » واشتطوا فى ذلك اشتطاطا عظيما ، وتصرم نهار السبت ولم ينفصل حـال .

## ذكر

### كتب وصلت من البلد

ولما كان يوم الأحد ثانى عشر : وصلت كتب يقولون فيها : أما قد تبايعنا على الموت نحن فلا[2] نزال نقاتل حتى نقتل ولا نسلم هذا البلد ونحن أحياء ، فانظروا أنتم كيف تعملون فى شغل العدو عنا ودفعه عن قتالنا ، فهذه عزائمنا ، وإياكم أن تخضعوا لهذا العدو وتلينوا لهم ، فانا نحن قدفات أمرنا » .

(١) فى ا ( مصاف ) والتصحيح من (ب) . ومن (ج) ١٣٨ ا

(٢) الزيادة من (ب) ، ومن ( ج ) ١٣٨ ب

وذكر العوام الواصل بهذه الكتب ؛ أنه لما وقع بالليل الصوت ؛ ظن الإفرنج أن عسكراً عظيما عبر إلى « عكا » وسلم ، وصارفيها . قال: « وجاء إنسان إفرنجى فوقف تحت السور ، وصاح إلى بعض من على السور ، وقال له : بحق دينك ، إلا ما أخبرتنى[1] ! كم عدد العسكر الذى دخل إليكم البارحة ؟ يعنى ليلة السبت . وكان قد وقع بالليل صوت ، وانزعج الطائفتان ، ولم يكن له حقيقة ، فقال له : ألف فارس . فقال : لا ! لكنه دون ذلك ، أنا رأيتهم لابسين ثيابا خضراء .

ثم تتابعت العساكر الإسلامية ، واندفع كيد العدو عن القوم فى تلك الأيام بعد أن كان قد أشرف البلد على الأخذ .

وفى يوم الخميس سادس عشر ؛ وصل « أسد الدين شيركوه » واشتد ضعف البلد ، وكثرت ثغر سوره ، وجاهد المقيمون فيه ، وبنوا عوض الثلم سورا من داخلها ، حتى إذا تم بناؤه اقتتلوا عليه ، واشتد ثبات الافرنج على أنهم لا يصالحون ، ولا يعطون الذين فى البلد أمانا حتى يطلق جميع الأسارى الذين فى أيدى المسلمين ، وتعاد البلاد الساحلية إليهم ، وبذل لهم تسليم البلد وما فيه دون من فيه ، فلم يفعلوا ، وبذل لهم أيضاً مع ذلك صليب الصلبوت فلم يفعلوا ، واشتد عتوهم ، واستفحل أمرهم ، وضاقت الحيل عنهم ، ومكروا ، والله خير الماكرين .

---

(١) فى (ب) ، وفى (ج) ١٣٨ ب « ألا أخبرتنى »

# ذكر

## [ حديث ](1) مصالحة أهل البلد ومصانعتهم على نفوسهم

ولما كان يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة ؛ خرج العوام من الثغر ، ونطقت الكتب عنهم أن أهل البلد ضاق بهم الأمر وكثرت(2) الثغر ، وعجزوا عن الحفظ والدفع ورأوا [عين](3) الهلاك ، وتيقنوا أنه متى أُخِذَت البلد عَنْوة ضُرِبَت أعناقهم عن آخرهم ، وأخذ جميع ما فيه من العدد والأسلحة والمراكب وغير ذلك .

فصالحوهم على أنهم يسلمون إليهم البلد ، وجميع ما فيه من الآلات والعدد والمراكب ومائتي ألف دينار ، وخمسمائة فارس أسير مجاهيل الأحوال ، ومائة ( فارس )(4) معينين من جانبهم يختارونهم ،(5) وصليب الصليوت(6) ويخرجون(7) بأنفسهم سالمين وما معهم من

---

(1) زيادة من (ج) ١٣٠ أ

(2) في (ب) ، وفي (ج) ١٣٩ أ « كبرت »

(3) في ( ا ) عنهم ، والتصحيح من (ب) ، ومن (ج) ١٣٩ أ

(4) في (ب) ، وفي (ج) ١٣٩ أ « أسير »

(5) في ( ا ) يختارون وما ذكر من (ب) ومن (ج) ١٣٩ ب

(6) صليب الصلبوت : قطعة من الخشب يدعون أن المسيح عليه السلام صلب عليها . ويقول الدكتور الشيال في كتاب ( مفرج الكروب لابن واصل ج ٢ : ١٨٩ ) نقلا عن كتاب (Mamlouk Conquest of Cyprus p. 102 للدكتور زيادة ) أن المراجع تذكر أن هذا الصليب نقل إلى جزيرة قبرص بعد جلاء الصليبيين عن الشام ، إذ استولى عليه المسلمون عند فتحهم للجزيرة المذكورة سنة ١٤٢٦ م ، وأن أحد الرحالة الأوربيين قد رآه هناك سنة ١٤٨٨ م

(7) في (ب) ، وفي (ج) ١٣٩ ب « على أن يخرجوا »

[الأموال][1] والأقشة المختصة بهم، وذراريهم ونسائهم، وضمنوا للمركيس [اللمون][2] عشرة آلاف دينار لأنه كان واسطة، ولأصحابه أربعة آلاف دينار، واستقرت القاعدة على ذلك .

## ذكر

## استيلاء العدو على «عكا»

ولما وقف السلطان على كتبهم وعلى مضمونها؛ أنكر ذلك إنكاراً عظيما، وعظم عليه هذا الأمر، وجمع أرباب المشورة [وعرفهم ذلك][3]، وشاورهم فيما يصنع و[اضطربت به الآراء][4]، وتقسم فكره وتَشَوَّش [حاله][5]، وعزم على أن يكتب فى الليلة مع العوام، وينكر عليهم المصالحة على هذا الوجه . وهو فى مثل هذا الحال؛ فما أحس المسلمون إلا وقد ارتفعت أعلام الكفر وصلبانه، وشماره، وناره، على أسوار البلد، وذلك فى ظهر[6] نهار الجمعة سابع عشر جمادى الأخرى سنة سبع وثمانين وخمسمائة .

وصاح الإفرنج صيحة واحدة، وعظمت المصيبة على المسلمين، واشتد حزن الموحدين، وانحصر كلام العقلاء من الناس فى تلاوة «إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ[7]»، وغشى الناس بابلة عظيمة وحيرة شديدة،

---

(١و٢و٣) زيادات من (ب)، ومن (ج) ١٣٩ ب

(٤) فى (١) «واضطرب الأمراء» وهذا غير مناسب للسياق، والتصحيح من (ج) ١٣٩ ب

(٥) زيادة من (ب)، ومن (ج) ١٣٩ ب

(٦) فى (ب)، وفى (ج) ١٣٩ ب «ظهيرة».

(٧) الآية ١٥٧ : سورة البقرة .

ووقع فى العسكر الصياح والعويل ، والبكاء والنحيب ، وكان لكل قلب حظ فى ذلك [ على ][1] قدر إيمانه . ولكل إنسان نصيب من هذا الخطب على مقدار ديانته ونخوته .

وانفصمت الحال على أنه قد استقرت القاعدة بين أهل البلد وبين الإفرنج على ذلك الحال المتقدم ، وأن المركيس دخل البلد ومعه أعلام الملوك فنصب علما على القلعة ، وعلما على مئذنة الجامع فى يوم الجمعة ، [ وعلما على برج الداوية ][2]، وعلما على برج القتال عوضا عن علم الإسلام ، وحيز المسلمون إلى بعض أطراف البلد ، وجرى على أهل الإسلام الشاهدين لذلك الحال ؛ ما كثر التعجب من الحياة معه .

ومثلت فى خدمة السلطان وهو أشد حالة من الوالدة الثكلى ، والمولهة الحراء ، فسليته بما تيسر من التسلية ، وأذكرته فى الفكر فيما «قد استقبله[3]» من الأمر فى معنى البلاد الساحلية «والقدس الشريف» وكيفية الحال فى ذلك ، وإعمال الفكر فى خلاص المسلمين المأسورين فى البلد ، وذلك فى ليلة السبت الثامن عشر .

وانفصل الحال على أن رأى التأخير عن تلك المنازلة مصلحة ، فإنه لم يبق فى المضايقة معنى ، فتقدم بنقل الأثقال ليلا إلى المنزلة التى

---

(١) الزيادة من (ب) ، ومن ( ج ) ٠ ١٤٠ .

(٢) الزيادة من (ب) ، ومن ( ج ) ٠ ١٤٠ .

(٣) فى ( ا ) « يستقبله » ، وما ذكر من (ب) ، ومن ( ج ) ٠ ١٤٠ .

كانَ عليها أولا ب « شَفرعَمْ » ، [ فانتقل الناس فى تلك الليلة إلى الصباح](١)، وأقام هو راضيا ، راجيا من الله تعالى أنه ربما حملهم غرورهم بالخروج إليه ، والهجوم عليه ، فينال منهم غرضا ، ويلق نفسه عليهم ، ويعطى الله النصر لمن يشاء(٢) ، فلم يفعل العدو شيئاً من ذلك .

واشتغلوا بالاستيلاء على البلد ، والتمكن منه ، فأقام إلى بكرة التاسع عشر من الشهر ، وانتقل إلى الثقل ، وفى ذلك اليوم خرج منهم ثلاثة نفر مع « الحاجب قوش » صاحب « بهاء الدين قراقوش » [ وكان لسانه](٣)، وكان رجلا عاقلا — مستخبرين ماوقع عقد الصلح عليه من المال والأسرى ، فأقاموا ليلة مكرمين ، وساروا إلى دمشق يبصرون الأسارى ، فى الحادى والعشرين .

وأنفذ السلطان رسولا إلى الفرنج ، يسألهم كيف جرت الحال ، ويستعلم كم مدة تحصيل ما وقعت عليه المصالحة ، واستقرت عليه المهادنة .

## ذكر
## وقعة جرت فى أثناء ذلك

ولما كان سلخ الشهر ؛ خرج الإفرنج من جانب البحر شمالى البلد ،

---

(١) الزيادة من ( ج ) ١٤٠ ب .

(٢) فى ( ا ) « شاء » والتصحيح من (ب) ، ومن ( ج ) ١٤٠ ب .

(٣) زيادة من (ب) ، ومن ( ج ) ١٤٠ ب

وانتشروا انتشاراً عظيما ، راجلهم وفارسهم ، وضربوا أطلاباً للقتال فأخبر اليزك بذلك السلطان ، فدق الـكُوْس وركب ، وأنفذ إلى اليزك وقواه برجال كثيرة ، وتوقف حتى ركبت العساكر الإسلامية ، واجتمعوا .

فوقع بين اليزك وبين العدو وقعة عظيمة ، وقتال شديد ، قبل اتصال العساكر باليزك ، وكان اليزك قد قوى [ بمن ][1] أنفذ إليه ، فحملوا على العدو حملة عظيمة ، فانكسر العدو من بين أيديهم ، وانهزمت الخيالة ، وسلمت الرجالة ، وظنوا أن وراء اليزك كمينا ، فاشتدوا نحو خيامهم ، ووقع اليزك فى الرجالة فقتل منهم زهاء خمسين نفرا ، ولم يزل السيف يعمل فيهم حتى دخلوا خنادقهم .

وفى ذلك اليوم وصل رسل الإفرنج الذين ساروا إلى دمشق ليتفقدوا حال أسراهم ، ووصل معهم من مميزى أسراهم أربعة نفر ، ووصل فى عشيته أيضاً رسل السلطان فى تحرير أمر الأسارى المسلمين الذين كانوا ب « عكا » ، ولم تزل الرسل تتردد بين الطائفتين حتى كان تاسع رجب .

# ذكر

## خروج ابن باريك

وفى ذلك اليوم خرج حُسام الدين حسين بن باريك المِهْرانى ومعه إثنان من أصحاب الانكتار ، فأخبر أن الملك « إفرنسيس » سار

(١) فى ( أ ) « بعا » وما ذكر من (ب) ، من (ج) ١٤١ أ

إلى « صُور » ، وذكروا فى تحرير أمر الأسارى ، وطلبوا أن يشاهدوا صليب الصلبوت وإنه فى المسكر أو حمل إلى « بغداد » ، فأحضر صليب الصلبوت ، وشاهدوه وعظموه ، ورموا نفوسهم إلى الأرض ، ومرغوا وجوههم على التراب ، وخضعوا خضوعا عظيما لم يُرَ مثله ، وذكروا أن الملوك قد أجابوا السلطان أن يكون ما وقع عليه القرار يدفع بتروم[1] ثلاثة ، كل شهر ترم ، ثم أرسل السلطان رسولا إلى « الفرنسيس » ، سار إليه إلى « صور » بهدايا سَنِيّة ، وطيب كثير ، وثياب جميلة .

وفى صبيحة العاشر من رجب انتقل السلطان بحلقته وخواصه إلى تل ملاصق لـ « شفرعم » ، ونزلت العساكر فى منازلها على [ حالهم قريب من منزلته ][2] الأولى ، ليس بينهما إلا الوادى .

ولم تزل الرسل تتواتر فى تحرير القاعدة وتنجيزها ؛ حتى حصل لهم ما كانوا التمسوه من الأسرى ، والمال المختص بذلك الترم ، وهو الصليب ومائة ألف دينار وستمائة أسير ، وأنفذوا ثقاتهم ، وشاهدوا الجميع ماعدا الأسارى المعينين من جانبهم ، فإنهم لم يكونوا فرغوا من تعيينهم ولم يكملوهم حتى يحصلوا ، ولم يزالوا يطاولون ويقصرون الزمان حتى انقضى الترم الأول فى ثامن عشر رجب .

ثم أنفذوا فى ذلك اليوم يطلبون ذلك ، فقال لهم السلطان : « إما أن تنفذوا إلينا أصحابنا ، وتستلموا الذى عين لكم من هذا الترم ، ونعطيكم

---

(١) فى ( ا ) « عليه التراوتروم » والتصحيح والزيادة من (ب) ومن (جـ) ١٤١ ب .

(٢) بياض بالأصل وما به من (ب) ، ومن ( جـ ) ١٤١ ب .

رهائن على الباق ، تصل إليكم فى ترومكم الباقية ، وإما أن تمطونا رهائن على ما نسلم إليكم إلى أن يخرج إلينا أصحابنا « فقالوا » : لا نفعل شيئاً من ذلك ، بل تسلمون إلينا ما يقتضيه هذا الترم ، وتقنعون بإيماننا حتى نسلم إليكم أصحابكم » .

فأبى السلطان ذلك لعلمه أنهم إن تسلموا المال والصليب والأسرى وأصحابنا عندهم لا يؤمن غدرهم ، ويكون وهن الإسلام عند ذلك وهنا عظيما ، لا يكاد ينجبر .

# ذكر

## قتل المسلمين الذين كانوا بـ « عكا » ـ رحمهم الله

ولما رأى الانكتار الملعون توقف السلطان ببذل المال والأسرى والصليب ؛ غدر بأسرى المسلمين . وكان قد صالحهم ، وتسلم البلد منهم على أن يكونوا آمنين على نفوسهم على كل حال .

وأنه إن دفع السلطان إليهم ما استقر أطلقتهم بأموالهم ونسائهم وإن امتنع من ذلك ضرب عليهم الرق ، وأخذهم أسرى ، فغدرهم الملعون وأظهر ما كان أبطن ، وفعل ما أراد أن يفعله بعد أخذ المال والأسرى على ما أخبر به عنه أهل ملته فيما بعد .

وركب هو وجميع العسكر الإفرنجية راجلهم وفارسهم والتركبلى[1]

---

(١) التركبلى أو تركيلى ؛ فرسان ينحدر أصلهم من أمهات يونانية وآباء أتراك أو عرب ( الفتح القسى طبع ليدن ١٨٨٨ ص ٤٢٥ ) .

فى وقت العصر ، من يوم الثلاثاء السابع والعشرين من رجب ، وساروا حتى أتوا الآبار التى تحت « تل المياضية » ، وقدموا خيامهم إليها ، وساروا حتى توسطوا المرج ، بين « تل كيسان » وبين « المياضية » ، ثم أحضروا من أسارى المسلمين من كتب الله شهادته فى ذلك اليوم ، وكانوا زهاء ثلاثة آلاف وأوثقوهم[١] فى الحبال ، وحملوا عليهم حملة الرجل الواحد ، فقتلوهم صبرا ، ضربا وطعنا بالسيف ، واليزك الإسلامى يشاهدون ، ولا يعلمون ماذا يصنعون ، لبعدهم عنهم .

وكان اليزك قد أنفذ إلى السلطان ، وأعلموه بركوب القوم ووقوفهم ، فأنفذ إلى اليزك من قواه ، وبعد أن فرغوا منهم حمل المسلمون عليهم ، وجرت بينهم حرب فيها[٢] قتل وجرح من الجانبين ، ودام القتال إلى أن فصل الليل بين الفريقين ، وأصبح المسلمون يكشفون الحال ، فوجدوا الشهداء فى مصارعهم ، وعرفوا من عرفوه منهم ، فغشى المسلمين من ذلك حزن عظيم ، وكآبة شديدة ، ولم يبقوا إلا رجلا معروفا مقدما[٣] ، أو [قويا له يد العمل فى عمائرهم][٤] .

---

(١ و ٢) الزيادات من (ب) ، ومن (ج) ١١٤٢ .

(٣) فى (ا) مقداماً ، وما ذكر إنما هو فى (ب) ، وفى (ج) ١١٤٢ ، وفى مفرج الكروب لابن واصل ج ٢ : ٣٦٤ تحقيق د . الشيال .

(٤) فى (ا) « قوى يد لعمائرهم » وفى (ج) ١١٤٢ « قويا أيدا للعمل » والمذكور هنا هو من ( مفرج الكروب ج ٢ : ٣٦٤ تحقيق د . الشيال ، وهو أوضح .

وذكر لقتلهم أسباب منها ؛ إنهم قتلوهم فى مقابلة من قتل منهم[1] ، وقيل إن الانكتار كان قد عزم على السير إلى « عسقلان » للاستيلاء عليها ، فما رأى أن يخلف تلك العدة فى البلد وراءه ، والله أعلم .

## ذكر

### مسير العدو إلى « عسقلان » ، وانتقاله إلى طرف البحر من جانب الغرب

ولما كان التاسع والعشرون من رجب ؛ ركب الإفرنج بأسرهم ، وقلعوا خيامهم ، وحملوها على دوابهم ، وساروا حتى قطعوا النهر إلى الجانب الغربى ، وضربوا الخيام على طريق « عسقلان » ، وأظهروا العزم على السير على شاطىء البحر ، وأمر الانكتار باقى الناس أن يدخلوا إلى البلد ، وكانوا قد سدوا ثغره وثلمه ، وأصلحوا ما انهدم منه . وكان مقدم العسكر الخارج السائر « الانكتار » ، وجمع عظيم من الرجالة والخيالة .

ولما كان مستهل شعبان اشتعلت نيران العدو فى سحر ذلك[2] اليوم ، وعادتهم أنهم إذا أرادوا الرحيل أشعلوا نيرانهم ، وأخبر اليزك بحركتهم ، فأمر السلطان الثقل أن يرفع حتى يبقى الناس على ظهر ، ففعل الناس ذلك ، وهلك من الناس قماش كثير ، وحوائج كثيرة من السرقة .

---

(١) فى (ب) ، وفى ( ج ) ١٤٢ ا « قبلهم » .

(٢) فى ( ا ) ذاك والمذكور من (ب) ، ومن ( ج ) ١٤٢ ا .

لم تكن معهم خيل ، ولا ظهر يحمل جميع ماعندهم ، لأن كل إنسان كان يحصل ما يحتاج إليه فى أشهر ، وكل واحد من السوقة عنده ما ينفذ من منزل إلى منزل فى مرار متعددة ، لكن هذا المنزل لم يمكن أن يتخلف فيه أحد ، لقربه من الإفرنج الذين ب « عكا » ، والخوف منهم .

ولما أن علا النهار شرع العدو فى السير على جانب البحر ، وتفرقوا قطعا كثيرة ، كل قطعة تحمى عن نفسها ، وقوى السلطان اليزك ، وأنفذ معظم العساكر قبالتهم ، فمضوا وقاتلوهم قتالا شديدا . وأنفذ ولده الملك الأفضل يخبر ؛ أنه قطع طائفة منهم عن الموافقة ، ولقد نازلناهم[1] بالقتال [حتى قد عادوا يطلبون حيلهم][2] ، ولو قوينا لأخذناهم .

فسير السلطان خلقا عظيما من العسكر ، وسار هو بنفسه وأنا فى خدمته حتى أوائل الرمل ، فلقينا الملك العادل ، فأخبر أخاه أن تلك الطائفة قد التجأت بالطائفة الأولى ، ومعظم القوم قد عبروا نهر حيفا ، وقد نزلوا ، والباقون قد لحقوا بهم ، وليس للمسير وراءهم حاصل إلا إتعاب العسكر ، وضياع النشاب لاغير .

فتراجع السلطان عن القوم لما تحقق ذلك ، وأمر طائفة من العسكر أن تسير وراء الثقل ، تلحق ضعيفهم بقويهم ، ويكف عنهم من يلحق بهم من العدو والطماعة ، وسار هو حتى وصل إلى « القيمون[3] » عصر

(١) فى ( ج ) ١٤٢ ب « أنذرناهم » .

(٢) زيادة من ج ١٤٢ ب

(٣) القيمون : حصن قرب الرملة بفلسطين ( معجم البلدان ج ١٦ : ٤٢٤ ط بيروت ) .

ذلك النهار ، فنزل وضرب له الدهليز ، وشقة دائرة حوله لا غير ، واستحضر الجماعة فأكلوا شيئا ، واستشارهم فيما يفعل .

المنزل الثانى : اتفق رأى جماعة على أنهم يرحلون بكرة غد ، هذا وقد رتب حول الإفرنج يزكا يبيتون حوله يرقبون أمره .

ولما كان صباح ثانى شعبان ؛ رحل السلطان الثقل ، وأقام هو يترصد أخبار العدو ، فلم يصل منهم شيء إلى أن علا النهار ، فسار فى أثر الثقل حتى أتى قرية يقال لها « الصباغين » ، فجلس ساعة يترقب أخبار العدو وكان قد خلف جرديك قريب العدو ، وتعقب خلق عظيم باتوا قريب العدو ، فلم يصله خبر أصلا ، فسار حتى أتى الثقل فى منزلة يقال لها « عيون الأساود » ، ولما بلغنا المنزل رأى خياماً ، فسأل عنها ، فقيل إنها خيام الملك العادل ، فعدل لينزل عنده ، فأقام عنده ساعة ثم أتى خيمته ، وفقد الخبر فى هذه المنزلة بالكلية ، وغلا الشعير حتى بلغ درهما ، وبلغ رطل البقسماط درهمين ، ثم أقام السلطان حتى عبر وقت الظهر .

وركب وسار إلى موضع يسمى « اللاحة »[1] يكون منزلا للعدو إذا رحلوا من « حيفا » ، وكان قد سبق ليتفقد المكان ، هل يصلح للمصاف أم لا ، ويتفقد أراضى « قيسارية » بأسرها إلى « الشمرا » ، وعاد إلى المنزل بعد دخول وقت العشاء الآخرة ، وقد منه التعب .

وسألته عما بلغه من خبر العدو فقال : « وصل إلينا من أخبرنا أنه

---

(١) اللاحة : بقعة قريبة جدا من الركن الشمالى الغربى لبحيرة الحولة . عن ( The Damascus Chronicle p. 330 ) وعن ( الروضتين تحقيق د . محمد حلمى أحمد ) .

ما رحل من « حيفا » إلى عصر يومنا هذا — يعنى ثانى شعبان — وها نحن مقيمون مرتقبون أخبارهم ، ويكون العمل بمقتضاها .

وبات تلك الليلة ، وأصبح مقيما ب « تل الزرازلة » ينتظر العدو ، ونادى الجاويش بالعسكر للعرض ، فركب الناس على ترتيب المصاف وأهبته ، ولما علا النهار نزل السلطان فى خيمته ، وأخذ نصيباً من الراحة بعد الغداء ، ومثل جماعة من الأمراء إلى خدمته ، وأخذ رأيهم فيما يصنعون ، ثم صلى الظهر ، وجلس يطلق أثمان الخيول المجروحة وغيرها إلى العشاء الآخرة ، من مائة دينار إلى مائة وخمسين ديناراً ، وزائد وناقص ، فما رأيت أفسح صدرا منه ، ولا أبسط وجها فى العطاء ، واتفق الرأى على رحيل الثقل فى عصر ذلك اليوم إلى « مجدل يابا »[1] .

المنزل الثالث : وأقام هو جريدة بالمنزل إلى الصباح رابع الشهر ، وركب وسار فى رأس النهر الجارى إلى « قيسارية » ، ونزل هناك ، وبلغ رطل « البقسماط » أربع دراهم ، وربع الشعير درهمين ونصفا ، والخبز لم يوجد أصلا ، ونزل فى خيمة ، وأكل خبزاً ، وصلى الظهر ، وركب إلى طريق العدو لتجديد إرشاده فى ضرب المصاف ، ولم يعد إلى أن دخل وقت العصر ، فجلس ساعة ، وأخذ جزءاً من الراحة ، ثم عاد وركب وأمر الناس بالرحيل ، ورمى خيمته . ورمى الناس خيامهم فى أواخر النهار .

---

(١) مجدل يابا : هى « مجد ليابه » وهى قرية قرب الرملة ( ياقوت ج ١٧ : ٥٧ ط بيروت ) .

المنزل الرابع : وكان الرحيل إلى رابية متأخرة عن تلك الرابية ، وفى ذلك المنزل أتى باثنين من الإفرنج وقد تخطفهم اليزك ، فأمر بضرب رقابهما ، فقتلا وتكاثر الناس عليهما بالسيوف تشفياً ، ثم بات هنالك وأصبح مقيما ب [ المنزلة ] لأنه لم يصح عن العدو رحيل ، وأنفذ إلى الثقل حتى يعود إليه فى تلك الليلة ، مما طرأ على الناس من الضيق فى الماء كل والقضم ، وركب فى وقت عادته إلى جهة العدو وأشرف على « قيسارية » وعاد إلى الثقل قريب الظهر ، وقد وصل الخبر أن العدو لم يرحل بعدمن « اللاحة » ، وأحضر عنده اثنان أيضاً قد أخذا من أطراف العدو ، فقتلا شر قتلة ، وكان فى حدة الضيقة ، لما جرى على أسرى « عكا » ، ثم أخذ جزءاً من الراحة ، وجلس بعد صلاة الظهر ، وحضرت عنده وقد أحضر بين يديه من العدو فارس مذكور ؛ وهيئته تخبر عن أنه متقدم فيهم ؛ فأحضر ترجمانا وبحث عن أحوال القوم . سأله : كيف يسوى الطعام عندكم ؟ فقال : أول يوم رحلنا من « عكا » كان الإنسان يشبع بستة قراطيس . فلم يزل السعر يغلو حتى صار يشبع بثمانية قراطيس . وسأل عن سبب تأخرهم فى المنازل فقال : « لانتظار وصول المراكب بالرجال والميرة » . فسأل عن القتلى والجرحى فى يوم رحيلهم، فقال: « كثير » . فسأل عن الخيل التى هلكت فى ذلك اليوم فقال : « مقدار أربعمائة فرس » . فأمر بضرب عنقه ، ونهى عن التمثيل به . فسأل الترجمان عما قال السلطان : « فأخبره بما قال » . فتغير تغيراً عظيما وقال : أنا أخلص لكم أسيراً من « عكا » ، فقال رحمه الله :

« بل أميرا » . فقال : « لا أقدر على خلاص أمير » . فشفع الطمع فيه وحسن « خلقته[١] » ؛ فإنى ما رأيت أتم خلقة[٢] منه ، مع ترف فى الأطراف ورفاهية ، فأمر أن يترك الآن ويؤخر أمره ، فصفده وعاتبه على ما بدا منه من الغدر ، وقتل الأسرى ، فاعترف بأنه قبيح ، وأنه لم يجر إلا برضاء الملك وحده .

وركب السلطان بعد صلاة العصر على عادته ، وبعد أن نزل ؛ أمر بقتل الفارس المذكور وأتى بعده باثنين فأمر بقتلها . وبات فى ذلك المنزل المذكور وذكر له فى السحر أن العدو قد تحرك نحو «قيسارية » وقارب أوائلهم البلد ، فرأى أن يتأخر من طريق العدو منزلا آخر .

المنزل الخامس : فرحل ورحل الناس إلى قريب التل الذى كنا عليه ، فنزل الناس وضربت الخيام ومضى[٣] وهو يرتاد الأراضي الكائنة فى طريق العدو لينظر أيها أصلح للمصاف ، ونزل قريب الظهر واستدعى أخاه الملك العادل وعلم الدين سليمان ، وأخذ رأيهما فيما يصنع ، وأخذ جزاء من الراحة . وأذن الظهر فصلى ، وركب ليشرف وليكشف عن العدو ويتنسم أخباره ، وأتاه اثنان من الإفرنج قد نهبا ، فأمر بقتلهما فقتلا ، ثم أتى باثنين آخرين فقتلا أيضاً ، وجىء فى أواخر النهار باثنين فقتلا أيضاً ، وعاد من

---

(١) فى ( ا ) خلقاً ، والتصحيح من (ب) ، وفى ج ١١٤٦ .
(٢) خلقته من : (ب) وفى (ج) ١١٤٦ ، وفى ( ا ) خلقه .
(٣) فى (ب) و (ج) ١١٤٦ أ [مضى] وهى أنسب لسياق الحديث فى ( ا ) «مر» .

الركوب ، وصلى صلاة المغرب ،وجلس على عادته واستدعى أخاه وصرف الناس ، وخلا به إلى هزيع من الليل ، ثم بات وأصبح ، ونادى الجاويش لعرض الحلقة لاغير .

وركب إلى جهة العدو، ووقف على تلول مشرفة على « قيسارية » وكان العدو قد وصل إليها نهار الجمعة سادس شعبان ، ولم يزل يعرض هناك إلى أن علا النهار ، ثم نزل وأكل الطعام ، وركب إلى أخيه ، وعاد بعد صلاة الظهر، وأخذ جزءا من الراحة، وجلس وأتى بأربعة عشر من الإفرنج، وأمراة افرنجية بينهم أسيرة وهى بنت الفارس المذكور، ومعها أسيرة مسلمة قد أخذتها، فأطلقت المسلمة ورفع الباقون إلى الزردخانة وهؤلاء أتى بهم من « بيروت » وأخذوا فى مركب من جملة عدة كثيرة فقتلوا ، كل ذلك فى نهار السبت سابع الشهر وهو فى المنزلة ينتظر رحيل العدو ، مجمعا على لقائه إذا رحل .

المنزل السادس : ولما كان صبيحة الثانى ؛ ركب السلطان على عادته ثم نزل ؛ ووصله من أخيه أن العدو على حركة ، وكانت الأطلاب قد باتت حول « قيسارية » فى مواضعها ، فأمر بمد الطعام وأطعم الناس ، فوصل ثان وأخبر أن القوم قد ساروا ، فأمر بالكوس فدقت ، وركب وركب الناس ، وسار وسرت فى خدمته حتى أتى عسكر العدو ، وصف الأطلاب حوله ، وأمرهم بقتالهم ، وأخرج الجاليش وكان النشاب بينهم كالمطر ، وكان عسكر العدو قد رتب ، فكانت الرجالة حوله كالسور ، وعليهم اللبود الثخينة ، والزرديات السابغة المحكمة ، بحيث يقع فيهم

النشاب ولا يتأخرون ، وهم يرموننا بالزنبورك ، فيجرح خيل المسلمين وخيالتهم ، ولقد شاهدتهم ويتغرز فى ظهر الواحد منهم الواحد والعشرة وهو يسير على هيئته من غير انزعاج .

وثم قسم آخر من الرجالة مستريح يمشون على جانب البحر ولا قتال عليهم ، فإذا « تعب هؤلاء »[١] المقاتلة أو أثخنتهم الجراح ؟ قام مقامهم القسم[٢] المستريح واستراح القسم المقاتل . هذا ، والخيالة فى وسطهم لا يخرجون عن الرجالة إلا فى وقت الحملة لا غير ، وقد انقسموا أيضا ثلاثة أقسام : القسم الأول ؛ الملك العتيق جفرى وجماعة الساحلية معه فى المقدمة ، والانكتار والفرنسيسية[٣] معه فى الوسط[٤] ، وأولاد الست أصحاب طبرية وطائفة أخرى فى الساقة ، وفى وسط القوم برج على عجلة ، وعليه[٥] — على ما وصفته من قبل أيضاً — علمهم[٦] كالمنارة العظيمة ، هذا ترتيب القوم على ما شاهدته ، وأخبر به من خرج منهم من الأسرى والمستأمنين .

وساروا على هذا المثال ، وسوق الحرب قائمة ، والمسلمون يرمونهم

---

(١) فى (١) « تعبت هذه » وما ذكر وهو أنسب من (ب) ومن (ج) ١٤٧ ا .

(٢) زيادة من (ب) ومن (ج) ١٤٧ ا .

(٣) فى (١) الفرنسيس وما ذكر من (ب) ، ومن (ج) ١٤٨ ب .

(٤) فى (١) « الوسطى » والتصحيح من (ج) ١٤٨ ب ، ومن (ب) أيضاً .

(٥و٦) زيادتان من (ب) ، ومن ج ١٤٧ ا .

بالنشاب من جوانبهم ، ويحركون عزائمهم حتى يخرجوا ، وهم يحفظون نفوسهم حفظا عظيما ، ويقطعون الطريق على هذا الوضع ، ويسيرون سيراً رقيقاً ، ومراكبهم تسير فى مقابلتهم فى البحر ، إلى أن أتوا المنزل ، وكانت منازلهم قريبة ، لأجل الرجالة ، فإن المستريحين منهم كانوا يحملون أثقالهم وخيامهم ، لقلة الظهر عندهم .

فانظر إلى صبر هؤلاء القوم على الأعمال الشاقة ، من غير دين ولا نفع . وكانت منزلتهم قاطع نهر قيسارية — يسر الله فتحها .

المنزل السابع : ولما كانت صبيحة التاسع ؛ وصل من أخبر أن العدو قد ركب سائرا ، فركب السلطان أول الصبح وطلب الأطلاب ، وأخرج من كل جانب جاليشا ، فصار يطلب القوم ، [ فأتاهم وهم سائرون على عادتهم ثلاثة أقسام[1] ] ، فطاف الجاليش حولهم من كل جانب ، ورموهم بالنشاب ، وهم سائرون ثلاثة أقسام على المثال الذى حكيته ، وكلما ضعف قسم عاونه الذى يليه ، وهم يحفظ بعضهم بعضا ، والمسلمون محدقون بهم من ثلاثة جوانب ، والقتال بينهم شديد ، والسلطان يقرب الأطلاب ، ورأيته وهو يسير بنفسه بين الجاليش ، ونشاب القوم يجاوزه ، وليس معه إلا صبيان بجنبيه لا غير ، وهو يسير من طلب إلى طلب ، يحثهم على التقدم ، ويأمرهم بمضايقة القوم ومقاتلتهم ، والكوس[2] تخفق ، والبوقات

---

(١) ساقطة من (ب) مثبتة فى (ج) ١٤٧ ب .

(٢) فى (ب) و (ج) ٢٥٨ ا الكوسات

تنمر ، والصياح بالتهليل والتكبير يعلو[1] . هذا ، والقوم على أتم ثبات على ترتيبهم ، لا يتغيرون ولا ينزعجون ، وجرت حالات كثيرة ، ورجالتهم تجرح المسلمين وخيولهم بالزنبورك والنشاب .

ولم نزل حواليهم نقاتلهم ؛ ونحمل عليهم ، وهم يكرون بين أيدينا ويفرون ، إلى أن أتوا نهراً يقال له « نهر القصب[2] » ونزلوا عليه وقد قامت الظهيرة ، وضربوا خيامهم ، وتراجع الناس عنهم ، فإنهم كانوا إذا نزلوا ؛ أيس الناس منهم ، ورجعوا عن قتالهم . وفى ذلك اليوم قتل من فرسان الإسلام شجاعا « اسمه »[3] « إياز الطويل » — من بعض مماليك السلطان ، وكان قد فتك فيهم وقتل خلقاً من خيالتهم وشجعانهم [ وكانت قد استفاضت ][4] شجاعته بين العسكرين ، بحيث أنه جرت له وقعات كثيرة ، صدقت أخبار الأوائل ، وصار بحيث إذا عرفه الإفرنج فى موضع يخافونه ، تقنطرت به فرسه ، واستشهد ، وحزن المسلمون عليه حزنا عظيما ، ودفن على تل مشرف على البركة .

ونزل السلطان بالثقل على البركة — وهى موضع يجتمع فيه مياه كثيرة ، وأقام فى تلك المنزلة إلى ما بعد صلاة العصر ، وأطعم الناس خبزاً ، واستراحوا ساعة ، ثم رحل ، وأتى نهر القصب ، ونزل عليه أيضاً ،

(١) فى (ب) ، وفى ( ج ) ١٤٨ ا .
(٢) نهر القصب : بين القصير وأرسوف (الفهرس الجغرافى لنسخة ليدن رقم: F ) .
(٣) كنيته : فى (ب) .
(٤) فى ( ا ) ( قد فاضت ) وما ذكر من ( أ ) ومن ( ج ) ١٤٨ ( ا ) .

فشرب منه قليلا من أعلاه ، والعدو يشرب من أسفله ، ليس بيننا إلا مسافة يسيرة .

وبلغ ربع الشعير أربعة دراهم ، والخبز موجود كثيراً ، وسعره : الرطل بنصف درهم . وأقام ينتظر رحيل الإفرنج حتى يرحل فى مقابلتهم ، فباتوا [ تلك الليلة هناك ][1] وبتنا أيضاً .

## ذكر

### وقعة جرت

وذلك أن جماعة من العسكر الإسلامى كانوا مشرفين على العدو ، فصادفوا جماعة منهم ، يشرفون أيضاً على العسكر الإسلامى ، فظفروا بهم ، وهجموا عليهم ، وجرى بينهم قتال عظيم ، فقتل من العدو جماعة ، وأحس بهم عسكر العدو ، فثار إليهم منهم جماعة ، واتصل الحرب ، وقتل أيضاً من المسلمين نفران ، وأسر من العدو ثلاثة ومثلوا بخدمة السلطان ، فسألهم عن الأحوال ، فأخبروا أن الملك الانكتار كان قد حضر عنده ب«عكا» بدويان ، وأنهما أخبراه بقلة العسكر الإسلامى ، وذلك الذى أطمعه حتى خرج ، وأنه لما كان بالأمس — يعنى يوم الاثنين — رأى من المسلمين قتالا عظيما ، واستكثر الأطلاب ، وأنه جُرح زهاء ألف نفر ، وقتل جماعة ، وإن ذلك هو الذى أوجب إقامته اليوم حتى يستريح عسكره ، وأنه لما رأى ما أصابهم من القتال العظيم ؛ وكثرة

---

(١) الزيادة من (ب) ، ومن (ج) ١٤٨ ب

المسلمين ؛ أحضر البدويين عنده وأوقفهما وضرب أعناقهما ؛ وأقمنا فى ذلك اليوم فى تلك المنزلة ، لإقامة العدو بها ، وهو الثلاثاء العاشر من شعبان .

المنزل الثامن :

ولما كان ظهر[1] اليوم المذكور ؛ رأى السلطان الرحيل والتقدم إلى قدام العدو ، فدق الكوس ، ورحل الناس ، ودخل فى « شعرا أرسوف » حتى توسطها إلى تل عند قرية تسمى « دير الراهب » ، فنزل هناك ، ودهم الناس الليل فتقطعوا فى الشعرا ، وأصبح مقيما ينتظر بقية العساكر ، إلى صباح الأربعاء الحادى عشر .

وتلاحقت العساكر ، وركب يرتاد موضعا يصلح للقتال ولقاء العدو ، وأقام ذلك اليوم أجمع هناك .

ومن أخبار العدو فى تلك المَنْزلة ؛ أنه أقام على نهر القصب ذلك اليوم أيضاً ، وأنه لحقته نجدة من « عكا » فى ثمانى بطس كبار ، واليزك الإسلامى حوله يواصلون بالأخبار المستجدة بهم ، وجرى بين اليزك وبين حشاشة العدو قتال ، وجرح من الطائفتين .

---

(١) « ظهيرة » فى (ب) ، وفى ( ج ) ١٤٩ أ .

## ذكر

### مراسلة جرت فى ذلك اليوم

وذلك أن العدو طلب من اليزك من يتحدث معه ، وكان مقدم اليزك « علم الدين سليمان » ، فإنها كانت نوبته ، فلما مضى إليهم من سمع كلامهم ؛ كان كلامهم طلب الملك العادل ، حتى يتحدثوا معه ، فاستأذن ومضى وبات تلك الليلة فى اليزك ، وتحدثوا معه ، وكان حاصل حديثهم «أناقد ، طال بيننا القتال ، وإنه[1] قد قتل من الجانبين الرجال الأبطال، وإنا نحن جئنا فى نصرة أفرنج الساحل ، فاصطلحوا أنتم وهم ، وكل منا يرجع إلى مكانه » .

وكتب السلطان إلى أخيه فى صبيحة يوم الخميس الثانى والعشرين ، رقعة يقول له فيها : « إن قدرت أن تطاول الإفرنج ، فلعلهم يقيمون اليوم حتى يلحقنا التركمان ، فإنهم قد قربوا منا » .

## ذكر

### اجتماع الملك العادل والانكتار

ولما علم الانكتار وصول الملك العادل إلى اليزك ؛ طلب الاجتماع به ، فأجابه إلى ذلك ، فاجتمعا بفرقة من أصحابهما ، وكان يترجم بينهما « ابن

---

(١) الزيادة من (ب) ومن (ج) ١٤٩ أ

المنفرى » ، وهو من إفرنج الساحل ومن كبارهم ، ورأيته يوم الصلح ، وهو شاب حسن، إلا أنه محلوق اللحية — على ما هو شعارهم .

وكان الحديث بينهما : أن الانكتار شرع فى ذكر الصلح ، وأن الملك العادل قال له : « أنتم تطلبون الصلح ولا تذكرون مطلوبكم فيه ، حتى أتوسط أنا الحال مع السلطان » . فقال له الانكتار : « القاعدة أن تعود البلاد كلها إلينا ، وتنصرفوا إلى بلادكم » . فأخشن له الجواب ، وجرت منافرة اقتضت أنهم رحلوا بعد انفصالهم .

ولما أحس السلطان برحيلهم ؛ أمر الثقل بالرحيل ، ووقف هو وعبى الناس تعبئة القتال ، وسار الثقل الصغير أيضاً حتى قارب الثقل الكبير ، ثم ورد أمر السلطان بعودهم إليه فعادوا ، ووصلوا وقد دخل الليل ، وتخبط الناس تلك الليلة تخبطاً عظيما ، واستدعى أخاه ليعرفه ما جرى بينه وبين الملك ، وخلا به لذلك . وذلك فى ليلة الجمعة ليلة الثالث عشر .

وأما العدو فإنه سار ونزل على موضع يسمى « البركة » أيضاً يشرف على البحر . وأصبح السلطان فى يوم الجمعة متطلعاً إلى أخبار العدو . وأحضر عنده اثنان من الإفرنج قد تخطفهما اليزك ، فأمر بضرب أعناقهما ، ووصل من أخبر أن العدو لم يرحل اليوم من منزلته تلك ، فنزل السلطان واجتمع بأخيه يتحدثان فى « ذلك[1] » الأمر وما يصنع مع العدو . وبات تلك الليلة فى تلك المنزلة .

---

(١) هذا فى (ب) وفى ج ١٥٠ ب

# ذكر

## وقعة ( أرسوف )[١] وهى أنكت فى قلوب المسلمين

ولما كان يوم السبت الرابع عشر ؛ بلغ السلطان أن العدو حرك الرحيل نحو « أرسوف » ، فركب ورتب الأطلاب للقتال ، وعزم على مضايقتهم فى ذلك اليوم ومصادمتهم ، وأخرج الجاليش من كل طلب ، وسار العدو حتى قارب « شمرا أرسوف » وبساتينها ، فأطلق عليهم الجاليش النشاب ، ولزتهم الأطلاب من كل جانب ، والسلطان يقرب بعضها ويوقف بعضها ليكون ردءاً ، ويضايق العدو مضايقة عظيمة .

والتحم القتال ، واضطرمت ناره من الجاليش ، وقتل منهم وجرح ، فاشتدوا فى السير عساهم يبلغون المنزلة فينزلوا ، واشتد بهم الأمر ، وضاق بهم الخناق ، والسلطان يطوف من الميمنة إلى الميسرة ، يحث الناس على الجهاد ، ولقيته مراراً ليس معه إلا صبيان بجنبيه لا غير ، ولقيت أخاه وهو على مثل هذه الحال ، والنُّشَّاب يتجاوزهما .

ولم يزل الأمر يشتد بالطمع للعدو ، وطمع المسلمون فيهم طمعاً عظيماً ، حتى وصل أوائل راجلهم إلى بساتين « أرسوف » ، ثم اجتمعت الخيالة وتواصلوا على الحملة ، خشيةً على القوم ، ورأوا أنهم لا ينجيهم إلا الحملة .

---

(١) أرسوف : مدينة على ساحل بحر الشام بين قيسارية ويافا ( ياقوت ج ٢ : ١٥١ ط بيروت ( وقد ذكرت بالأصل ) أرمون ، والتصحيح من (ب) ، ومن ( ج ) ١٥٠ به .

ولقد رأيتهم وقد اجتمعوا فى وسط الرجالة ، وأخذوا رماحهم وصاحوا صيحة الرجل الواحد ،وخرج لهم رجالتهم ، وحملوا حملة واحدة من الجوانب كلها ، فحملت طائفة على الميمنة ، وطائفة على الميسرة ، وطائفة على القلب ، فاندفع الناس بين أيديهم ، واتفق أنى كنت فى القلب ، ففر القلب فراراً عظيما ، فنويت التحيز إلى الميسرة وكانت أقرب إلى، ووصلتها وقد انكسرت كسرة عظيمة ، وفرت أشد فراراً من الكل ، فنويت التحيز إلى طلب السلطان وكان رِدْء الأطلاب كلها كما جرت العادة ، ولم يبق للسلطان فيه إلا سبعة عشر مقاتلا لا غير ، وأخذ الباقون إلى القتال ، لكن الأعلام كلها باقية ثابتة ، والكوس تدق لا تفتر .

وأما السلطان ؛ فإنه لما رأى ما نزل بالمسلمين من هذه النازلة ؛ سار حتى أتى إلى طلبه ، فوجد فيه هذا النفر القليل ، فوقف فيه ، والناس [ يفرّون ] [1] من الجوانب ، وهو يأمر أصحاب الكوس بالدق ، بحيث لا يفترُون ، وكلما رأى فاراً يأمر من يحضره عنده ، وفى الجملة ما قصر الناس بفرارهم فإن العدو حمل حملة ففروا ، ثم وقف خوفاً من الكمين ، فوقفوا وقاتلوا ، ثم حملوا حملة ثانية ، ففروا وهم يقاتلون فى فرارهم ، ثم وقف فوقفوا ، ثم حمل حملة ثالثة ، حتى بلغ إلى رءوس رواب هناك وأعالى تلول ، ففروا إلى أن وقف العدو ووقفوا ، وكان كل من رأى طلب السلطان واقفاً

---

(١) فى (أ) « ينفرون » وما ذكر ورد فى (ب) ، وفى ج ١٥٠ ب .

والكوس تدق يستحى أن يجاوزه ، ويخاف غائلة ذلك فيعود إلى الطلب ،فاجتمع فى القلب خلق عظيم ، ووقف العدو قباالتهم على رؤوس التلول والروابى ، والسلطان واقف فى طلبه ، والناس يجتمعون عليه حتى أتت العساكر بأسرها ، وخاف العدو أن يكون فى « الشعرا » كمين . فتراجعوا يطلبون المنزلة . وعاد السلطان إلى تل فى أوائل « الشعرا » ونزل عليه فى خيمته .

ولقد كنت فى خدمته أسليه ، وهو لا يقبل السلو ، وظللت عليه بمنديل ، وسألناه أن يطعم شيئاً ، فأحضر له شىء لطيف فتناول منه[1] شيئاً يسيراً ، وبعث الناس خيولهم[2] للسقى ، فإن المكان كان بعيدا ، وجلس ينتظر الناس من العود من السقى ، والجرحى يحضرون بين يديه وهو يتقدم بمداواتهم وحملهم ، وقتل فى ذلك اليوم رجالة كثيرة ، وجرح جماعة من الطائفتين .

وكان ممن ثبت : الملك العادل ، والطواشى قايماز النجمى ، والملك الأفضل ولده — وصدم فى ذلك اليوم وانفتح دمل كان فى وجهه ، وسال منه دم كثير على وجهه ، وهو صابر محتسب فى ذلك كله ، وثبت أيضاً طلب الموصل ومقدمه علاء الدين ، وشكره السلطان على ذلك ، وتفقد الناس بعضهم بعضاً ، فوجدوا أن قد استشهد جماعة من العسكر ، عرف منهم شخصان ، أمير كبير اسمه « موسك »[3] وكان شجاعا معروفا ، وقايماز

(١) و(٢) الزيادتان من (ب) ( ومن ج ١٥٠ ب ) .

(٣) فى ( ا ) « مملوك » والتصحيح من (ب) ومن (ج ) ١٥١ ب .

العادلى ، وكان مذكوراً ، و«أبوش»[١] وكان شجاعا ، وجرح خلق كثير، وخيول كثيرة، وقتل من المدوجاعة ، وأسر واحد وأحضر فأمر بضرب عنقه ، وأخذت منهم خيول أربعة ، وكان قد تقدم — رحمه الله — إلى الثقل أن يسير إلى الموجاء[٢]، وذكر أن المنزل يكون على «الموجاء» ، فاستأذنته وتقدمت إلى المنزل ، وجلس هو ينتظر اجتماع العساكر وما يرد من أخبار العدو ، وكان العدو قد نزل على أرسوف قبليتها .

المنزل التاسع : وسرت بعد صلاة الظهر حتى أتيت الثقل وقد نزل قاطع النهر المعروف بـ«الموجاء» ، فى منزلة خضراء طيبة على جانب النهر ، ووصل السلطان إلى المنزلة أواخر النهار ، وازدحم الناس على القنطرة ، فنزل على تل مشرف على النهر ولم يعد إلى الخيمة ، وأمر الجاويش أن ينادى فى العسكر بالعبور إليه ، وكان فى قلبه من الوقعة أمر لا يعلمه إلا الله تعالى ، والناس بين جريح الجسد وجريح القلب .

وأقام السلطان إلى سحر الخامس عشر ، ودق الكوس ، وركب وركب الناس ، وسار راجعا إلى جهة العدو حتى وصل إلى قريب «أرسوف» ، وصف الأطلاب للقتال رجاء خروج العدو ومسيره حتى نصادمه[٣]، فلم يرحل العدو فى ذلك اليوم لما نالهم من التعب والجراح ، وأقام قبالتهم إلى آخر النهار ، وعاد إلى منزلته التى بات فيها .

---

(١) فى ( ا ) « ليفوش » والتصحيح من ( ج ) ١٥٢ ا .

(٢) الموجاء : نهر بين أرسوف والرملة (معجم البلدان ج ١٦٧:١٤ ط بيروت)

(٣) فى ( ا ) « يصاف » والتصحيح من ( ج ١٥٢ ب ) .

ولما كانت صبيحة السادس عشر ؛ دق الكوس ، وركب وركب الناس ، وسار نحوهم ، ووصل خبر العدو أنه قد رحل طالبا جهة « يافا » ، فقاربهم مقاربة عظيمة ، ورتب الأطلاب ترتيب القتال ، وأخرج الجاليش وأحدق العسكر الإسلامى بالقوم ، وألقوا عليهم من النشاب ما كان يسد الأفق ، وقاتلت قلوبهم قتال الحنق ، وقصد رحمه الله تحريك عزائمهم على الحملة ، حتى إذا حملوا ألقى الناس عليهم وقصدوهم ، ويعطى الله النصر لمن يشاء ، فلم يحملوا وحفظوا نفوسهم وساروا مصطفين على عادتهم حتى أتوا « نهر العوجاء » ، وهو النهر الذى منزلتنا أعلاه ، فنزل فى أسفله ، وعبر بعضهم إلى غربى النهر ، وأقام الباقون من الجانب الشرقى ، فلما علم الناس بنزولهم تراجع الناس عنهم .

وعاد السلطان إلى الثقل ، ونزل فى خيمته وأطعم الطعام ، وأتى بأربعة من الإفرنج قد أخذتهم العرب ومعهم امرأة ، فرفعوا إلى الزردخانات ، وأقام بقية ذلك اليوم يكتب الكتب إلى الأطراف باستحضار بقية العساكر ، وحضر من أخبر أنه قتل من العدو يوم « أرسوف » خيول كثيرة ، وأنه تتبعها العرب وعدوها فزادت على مائة ، وأمر السلطان أن رحلت الجمال ، وتقدمت إلى « الرملة » ، وبات هو بتلك المنزلة .

المنزل العاشر : ولما كان سابع عشر ، صلى الصبح ورحل ، ورحل معه الثقل الصغير وسار يريد « الرملة » ، وأتى باثنين من الإفرنج فأمر[1] بضرب أعناقهم ، ووصل من اليزك من أخبر أن العدو رحل من يافا » ،

---

(١) الزيادة من (ب) ، ومن (ج) ١٥٣ آ .

وسار السلطان إلى أن أتى « الرملة » وأتى باثنين من الإفرنج أيضاً فسألهم عن أحوالهم، فذكروا أنهم ربما أقاموا ب« يافا » أياما، وفى أنفسهم عمارتها وشحنها بالرجال والعدد، فأحضر السلطان أرباب مشورته وشاورهم فى أمر « عَسْقَلان »، وأنها هل تخرب أو تبقى، واتفق الرأى على أن يتخلف الملك العادل ومعه طائفة من العسكر مقارب العدو، ليعرف أحوالهم واتصالها، وأن يسير هو ويخرب « عسقلان » خشية أن يستولى عليها الإفرنج وهى عامرة؛ فيقتلوا من بها من المسلمين، ويأخذوا بها « القدس الشريف »، ويقطعوا بها طريق « مصر ».

وخشى السلطان من ذلك، وعلم عجز المسلمين عن حفظها، لقرب عهدهم من عكا وما جرى على من مكان مقيما بها، ويخيفوا الناس عن الدخول إلى « عسقلان ». فادخرت القوة فى عسكر الإسلام لحفظ القدس المحروس، فتعين لذلك خراب « عَسقَلان »، فسار الثقل والجمال من أول الليل، وتقدم إلى ولده الملك الأفضل أن سار عقيب الثقل نصف الليل، وسار هو — وأنا فى خدمته — سحر الأربعاء.

المنزل الحادى عشر: وهو على « عَسْقَلان ». ولما كان يوم الأربعاء ثامن عشر الشهر؛ وصل السلطان إلى « يُبنا[1] » فنزل بها ضحى، وأخذ الناس راحة ثم رحل، وسار حتى أتى أرض « عسقلان »، وقد ضربت خيمته بعيداً منها، فبات هناك مهموما بسبب الخراب، وما نام إلا قليلا.

---

(١) يبنا: « يبنى »: بلدة قرب الرملة (معجم البلدان ج ٢٠: ٤٢٨ ط بيروت).

ولقد دعانى فى خدمته سحراً ، وكنت فارقت خدمته بعد مضى نصف الليل ، فحضرت ، وبدأ بالحديث فى معنى خرابها ، وأحضر ولده الملك الأفضل وشاوره فى ذلك وطال الحديث فى المعنى ، ولقد قال لى : والله لأن أفقد أولادى بأسرهم أحب إلى من أن أهدم منها حجراً واحداً ، ولكن إذا قضى الله ذلك وفيه دعوته[1] لحفظ مصلحة المسلمين كان . ثم استخار الله تعالى ، فأوقع الله فى نفسه أن المصلحة فى خرابها ، لعجز المسلمين عن حفظها . فاستحضر الوالى « قيصر » بها ، وهو من كبار مماليكه وذوى الآراء منهم ؛ فأمره بجمع العمال فيها .

ولقد رأيته وقد اجتاز بالسوق والوطاق — بنفسه — مستقر الناس للخراب ، وقسم السور على الناس ، وجعل لكل أمير وطائفة من الناس والعسكر بدنة معلومة ، وبرجا معلوما يخربونه ، ودخل الناس البلد ، ووقع الضجيج والبكاء ، وكان بلدا نضراً خفيفاً على القلب محكم الأسوار ، عظيم البناء ، مرغوبا فى سكناه ، فلحق الناس عليه حزن عظيم ، وعظم عويل أهله على مفارقة أوطانهم ، وشرعوا فى بيع مالا يمكن حمله ، فبيع ما يساوى عشرة دراهم بدرهم واحد ، واختبط البلد ، وخرج أهله إلى العسكر بذراريهم ونسائهم خشية أن يهجم الإفرنج ، وبذلوا فى الكراء أضعاف مايساوى ، قوم إلى « مصر » ، وقوم إلى « الشام » ، وقوم يمشون إذ لم يقع

---

(١) الزيادة من نسخة غير أن كلة « دعوته » ذكرت « دميته » وهذا خطأ لنوى خالفعل ( دعا ، يدعو ) (به) ، ومن ج ١٥٤ ا .

لهم كراء ؛ وجرت أمور عظيمة وفتنة هائلة . لعلها لم تختص بالذين ظلموا .

وكان هو بنفسه وولده الملك الأفضل يستعملان الناس فى الخراب والحث عليه ، خشية أن يسمع العدو فيحضر ، ولا يمكن من[1] خرابها ، وبات الناس فى الخيام على أتم حال من التعب والنصب .

وفى تلك الليلة وصل من جانب الملك العادل ما أخبر[2] أن الإفرنج تحدثوا معه فى الصلح ، وأنه خرج إليه المنفرى . وتحدث معه وأنه طلب جميع البلاد الساحلية . فرأى السلطان أن ذلك مصلحة ، لما رأى فى أنفس الناس من الضجر والسآمة من القتال والمصابرة ، وكثرة ماعلاهم من الديون ، وكتب إليه يسمح فى الحديث فى ذلك ، وفوض أمر ذلك إلى رأيه .

وأصبح فى العشرين على الإصرار على الخراب واستعمال الناس فيه ، وحثهم عليه ، وأباحهم « الهُرْى »[3] الذى كان ذخيرة فى البلد ، للعجز عن نقله ، وضيق الوقت والخوف من هجوم الإفرنج ، وأمر بحريق البلد ، فأضرمت النار فى بيوته ودوره ، ورفض أهله بواقى الأقمشة للعجز عن نقلها ، والأخبار تتواتر من جانب المدو بعمارة « يافا » .

وكتب « الملك العادل » يخبر أن القوم لم يعلموا بخراب البلد ، وأن

(١ ، ٢) الزيادتان من (ب) ، ومن (ج) ١٥٤ ب .

(٣) الهرى : فى ( ج ) أى مخازن الغلال أو طعام السلطان ( لسان العرب ) .

سوّف القوم وطول الحديث لعلنا نتمكن من الخراب ، وأمر بحشو أبراج البلد بالأحطاب وأن تحرق ، وأصبح الحادى والعشرون ، فركب يحث الناس ، ودام يستعملهم على التخريب ويطوف عليهم بنفسه حتى التاث مزاجه التياثاً قوياً ، امتنع بسببه عن الركوب والغداء يومين ، و خبار العدو تتواصل إليه فى كل وقت ، ويجرى بينهم وبين اليزك والعسكر [ القريب ][1] وقعات وقلبات ، وهو يواظب على الحث على الخراب ، ونقل الثقل إلى قريب البلد ليعاونوا الغلمان والحمالين وغيرهم فى ذلك .

فخرب من السور معظمه ، وكان عظيم البناء ، بحيث أنه كان عرضه فى مواضع تسعة أذرع ، وفى مواضع عشرة أذرع ، وذكر بعض الحجارين للسلطان — وأنا حاضر — أن عرض السور الذى ينقبون فيه مقدار رمح ، ولم يزل « التخريب »[2] والحريق يعمل فى البلد وأسواره إلى سلخ شعبان .

وعند ذلك وصل من « جرديك » كتاب يذكر فيه أن القوم يتفسحون ، وصاروا يخرجون من « يافا » ويغيرون على البلاد القريبة منها ، فتحرك السلطان لعله يبلغ منهم غرضا فى غرتهم ، فعزم على الرحيل ، وعلى أن يخلف فى «عسقلان» حجارين ومعهم خيل تحميهم ، ويستنهضونهم فى الخراب ، ثم رأى أن يتأخر بحيث يحرق البرج المعروف بالاسبتار ، وكان برجا عظيما مشرفا على البحر كالقلعة المنيعة ، ولقد

---

(١) الزيادة من ( ج ) ١٥٥ ا .

(٢) « الخراب » فى ( ب ) ، وفى ( ج ) ١٥٥ ب .

دخلته وطفته ، فرأيت بناءه أحكم بناء ، يقرب من أن لا تعمل فيه المعاول ، وإنما أراد أن يحرقه ، حتى يبقى بالحريق قابلا للخراب ، ويعمل الهدم فيه .

وأصبح مستهل رمضان ؛ فأمر ولده الملك الأفضل أن يباشر ذلك بنفسه وخواصه ، ولقد رأيته يحمل الخشب هو وخواصه لحريق البرج ، ولم يزل الناس ينقلون الخشب ويحشونه فى البرج حتى امتلأ ، ثم أطلقت فيه النار ، فاشتعل الخشب ، وبقيت النار تشتعل فيه يومين بلياليهما ، ولم يركب السلطان فى ذلك اليوم تسكينا لمزاجه ، وعرض لى أيضاً تشوش مزاج اقتضى انقطاعى عنه فى ذلك اليوم .

ولقد تردد إلىّ من سأل عن مزاجى من عنده ثلاث مرات ، مع اشتغال قلبه بذلك المهم . فالله تعالى يرحمه ، لقد ماتت محاسن الأخلاق بموته .

# ذكر

## رحيله إلى الرملة

ثم رحل السلطان ثانى رمضان نصف الليل ، خشية على مزاجه من الحر ، ووصل « يبْنا »[1] ضحوة النهار ، ونزل فى خيمة أخيه ، واستعلم منه أخباره ساعة ، ثم ركب ونزل فى خيمته ، وبات فى تلك

---

(١) بالأصل « بينا » وهذا خطأ إذ لا توجد بلد بهذا الاسم ، واسم البلد فى المعاجم يبنا أو يبنى .

المنزلة ، وأصبح ثالث الشهر راحلا إلى جهة الرَّملة ، فسار حتى أتاها ضحوة النهار ، ونزل بالثقل الكبير نزول إقامة ، ورتب العسكر ميمنة وميسرة وقلباً ، وأطعم الناس الطعام ، وأخذ جزءاً من الراحة ، وركب بين صلاتى الظهر والعصر ، وسار إلى « لُدّ »[1] ورآها ، ورأى بيمتها وعظم بنائها ، فأمر بخرابها وخراب قلعة « الرملة » ، فوقع الخراب فى الموضعين فى ذلك اليوم ، وفرق الناس فرقاً لتخريب المكانين .

وأباح ما فيها من التبن والشعير فى الأهراء السلطانية ، وأمر من كان فيهما[2] من المقيمين بالانتقال إلى المواضع العامره — وما كان بقى فى المكانين إلا نفر يسير . وظل الناس يخرجون إلى أن أمسى المساء ، ثم عاد إلى خيمته ، وأصبح رابع رمضان . فأقام الحجارين فى المكانين ، ورتب عليهم من يستنجزهم فى ذلك ، وهو يتردد عليهم فى الأصائل حتى جاء وقت المغرب ، فمد الطعام ، وأفطر الناس ، وانفصلوا إلى خيامهم .

ووقع له أن يسير خفية فى نفر يسير يشاهد أحوال القدس ، فسار من أول الليل حتى أتى « بيت نوبة[3] » ، فبات فيها حتى أتى الصباح ، وصلى ثم سار حتى أتى القدس فى خامس الشهر ، وخلف أخاه فى العسكر يحث الناس على الخراب ، وأقام ذلك اليوم يتصفح أحوال

---

(١) لد : قرية من نواحى فلسطين قرب بيت المقدس ( ياقوت ج ١٧ : ١٥ طبع بيروت )

(٢) فى ( أ ) « فيها » والتصحيح من (ب) ، ومن ج ١٥٦ أ .

(٣) فى ( أ ) بين نوبة وهو خطأ .

القدس فى عمارته وميرته ، وعدته ورجاله غير ذلك . وظفر فى ذلك غلمان « الطواشى قايماز » بنفر من النصارى ، ومعهم كتب قد كتبها الوالى إلى السلطان قريبة التاريخ ، يذكر فيها أعواز البلد : الغلة والعدة والرجال . فوقف على الكتب ، وضربت رقاب كل من كان معهم .

وما زال يتصفح أحوال المكان ويأمر بسد خلله إلى الثامن ، وخرج سائراً[1] إلى المسكر بعد صلاة الظهر ، فبات فى « بيت نوبة » .

وفى هذا اليوم وصل « معز[2] الدين قيصر شاه[3] » صاحب ملطية[4] وابن « قليج أرسلان » وافداً عليه ؛ مستنصراً به على إخوته وأبيه ، فإنهم كانوا يقصدون أخذ بلده منه ، فلقيه الملك العادل قاطع لد ، فاحترمه وأكرمه ، ثم لقيه « الملك الأفضل » وضربت خيمته قريباً من « لد » .

وفى ذلك اليوم خرج من العدو « الحشاشة » ، فحمل عليهم اليزك ، ووصل الخبر إلى عسكرهم ، فخرج إلى نصرتهم خيالة ، وجرى بينهم وبين اليزك قتال ، وذكر بعض الأسرى أنه كان معهم « الانكتار » وأن مسلماً قصد طعنه ، فحال بينه وبينه أفرنجى ، فقتل الإفرنجى وجرح هو ، هكذا ذكروا والله أعلم .

---

(١) الزيادة من (ب) ومن ج ١٥٧ أ .

(٢) « عز » ى (ا) وما ذكر من (ب) ، ومن ج ١٥٧ ا .

(٣) معز الدين « قيصر شاه » بن قليج أرسلان : ورد فى ( ج ) ١٥٧ أ « قيسر شاه » أى بالسين لا بالصاد .

(٤) ملطيه : إحدى مدن أرمينية ( معجم البلدان ج ١٨ : ١٩٢ ط بيروت) .

ولما كان التاسع وصل — رحمه الله — إلى المعسكر ، والقيه الناس مستبشرين بقدومه ، والقيه « ابن قليج أرسلان » فنزل له واحترمه وأكرمه ، ونزل فى خيمته وأقام يحث الناس على التخريب[٤] وتتواصل أخبار العدو إليه ، ويقع بينهم وبين اليزك وقعات ، ويسرق العرب من خيولهم ، ويقاتلهم رجالهم

## ذكر

## وصول رسول مركيس

وفى غضون ذلك وصل رسول المركيس يذكر أنه يصالح الإسلام ، بشرط أن يعطى « صَيْدا » و « بَيْروت » على أن يجاهر الإفرنج بالمداوة ، ويقصد « عكا » ويحاصرها ، ويأخذها منهم ، واشترط أن يبذل للسلطان اليمين على ذلك ابتداء ، فسير [ إليه ][١] « العدل النجيب[٢] » وحمله الإجابة إلى ملتمسه ، لقصد فصله عن الإفرنج ، فإنه كان خبيثاً ملعونا ، وكان قد استشعر منهم أخذ بلده ، وهى « صور » ، فانحاز عنهم واستعصم بـ « صُور » ، وهى منيعة ، فقال ذلك القول [ منه ][٣] لهذا السبب ، وسار « النجيب العدل » مع رسوله فى الثانى عشر ، واشترط عليه أن يبدأ بمجاهرة القوم وحصار « عكا » وأخذها ،

---

(١) ف (ب) ، وف ج ١٥٧ ا « الحراب » .

(٢) الزيادة من (ب) ، ومن (جـ) ١٥٧ ب .

(٣) العدل النجيب : هو نجيب الدين أبو محمد العدل ، كان من أمناء السلطان صلاح الدين ( الفتح القسى للأصفهانى ) .

وإطلاق من بها و ب « صور » من الأسرى ، وعند ذلك يسلم إليه الموضعين .

وفى عشية ذلك اليوم خرج رسول ملك الانكتار إلى الملك العادل فى تحريك سلسلة الحديث فى الصلح .

ولما كان الثالث عشر من رمضان ؛ رأى السلطان أن يتأخر العسكر إلى الجبل ليتمكن الناس من إنفاذ دوابهم إلى العلوفة ، فإنا كنا على الرملة قريبين من العدو ، ولا يمكن التفريط فى الدواب خشية الهاجمة ، فرحل ونزل على جبل متصل بجبل « النطرون » بالثقل الكبير ، وجمع العساكر ـ ماعدا اليزك ـ على العادة ، وذلك بعد خراب « الرملة » و « لدّ » .

ولما نزل هناك دار حول « النطرون » وأمر بخرابها ، وكانت قلعة منيعة حصينة من القلاع المذكورة ، فشرع فى خرابها .

وترددت الرسل بين « الملك العادل » و « الانكتار » ، يذكرون أنه قد سلم أمر الصلح إلى الملك العادل وأخلد إليه ، وخرج فى عشرة أنفس إلى اليزك ، فأخبروه بأخبار طيبة ، وكتب بها إلى السلطان فى السابع عشر ، وكان مما أخبره به أخوه أن الملك أفرنسيس مات ، وكان موته بـ « أنطاكية » عن مرض عرض له ، وأن الانكتار عاد إلى « عكا » ، وكان سبب عوده أنه صح عنده مراسلة المركيس للسلطان ، وبلغه أن المركيس قد انتظم الحال بيننا وبينه وأنه قد استقرت القاعدة على « عكا » ، فعاد هو إلى « عكا » لفسخ هذه المصالحة واسترجاع المركيس إليه ، فركب السلطان إلى اليزك ، واجتمع بأخيه فى « لدّ » ، وسأله عن

الأخبار ، وعاد إلى المخيم وقت العصر ، وأتى باثنين من الإفرنج وقد تخطفهم اليزك فأخبراه[1] بصحة موت الإفرنسيس وعود الانكتار إلى « عكا » .

# ذكر

## مسير الملك العادل إلى القدس

ولما كان التاسع عشر ؛ اقتضى الحال تفقد « القدس » والنظر فى عمارته[2] ، وكان الملك العادل قد عاد إلى اليزك ، وعلم بعد مسير مقدمى الإفرنج عنا ، فرأى أن يكون هو الذى يسير ، فسار فى هذا اليوم لهذا الغرض .

وفى تاريخ هذا اليوم ؛ وصل كتاب من تقى الدين يخبر فيه أن « قَزِل » صاحب ديار العجم « ابن ايلدَكز[3] » قفز عليه أصحابه فقتلوه ، وقيل إن ذلك كان من تحت يد زوجته تعصباً للسلطان « طُغْرِيل[4] » ،

---

(١) فى ( ا ) « فأخبروه » والصحيح ما ذكر وهو فى ( ب ) ، وفى ج ١٥٨ ب .

(٢) « عمائره » فى (ب) ، وفى ( ج ) ١٥٨ ب .

(٣) قزل بن ايلدكز : بالأصل يلدكز والتصحيح من ليدن والنجوم الزاهرة وتاريخ حلب : وهو قزل أرسلان بن ايلدكز ملك آذربيجان وأران وهمذان وأصبهان والرى وقد خلف أخاه البهلوان محمد . قتل غيلة على فراشه سنة ٥٨٧ هـ ( شذرات الذهب )

(٤) طغريل : هو أتابك الملك العزيز بن الظاهر غازى بن صلاح الدين صاحب حلب . توفى سنة ٦٣١ هـ .

وجرى بسبب قتله خبط عظيم فى بلاد العجم ، وكان قتله فى أوائل شعبان من هذه السنة .

ولما كان الحادى والعشرون من رمضان : قدم الملك العادل من « القدس » وفى هذا التاريخ . وصل كتاب من الديوان العزيز النبوى يذكر فيه قصد الملك المظفر تقى الدين « خِلَاط » ، ويذكر فيه العناية [ التامة ][1] بـ « بُكتمر » ويشفع فى « حسن ابن قَفْجاق » والتقدم بإطلاقه ، وكان قد قبض عليه مظفر الدين بن زين الدين بـ « أربل » ، ويتقدم بمسير القاضى الفاضل إلى الديوان ، لبت حال وفصل أمر ، وسير الكتاب إلى الفاضل ليقف عليه ، ويكتب إلى تقى الدين .

## ذكر

### أخبار يزك كان على « عكا » ، ولصوص دخلوا فى خيام العدو

ولما كان الثانى والعشرون : أحضر لصوص فرساً وبغلة ، قد دخلوا إلى خيم العدو وسرقوهما ، وكان قد رتب رحمه الله ثلاثمائة لص من شلوح العرب يدخلون ويسرقون منهم أموالهم وخيولهم ، ويسرقون الرجال « أحياء[2] » ، وذلك أنه يكون الواحد منهم نائماً فيوضع على حلقه الخنجر ثم يوقظ ، فيرى الشلح وقد وضع الخنجر على نحره فيسكت ، ولا يتجاسر أن يتكلم ، فيحمل وهو على هذا الوضع إلى أن يخرج من الخيم ، ويؤخذ أسيراً ، وتكلم منهم جماعة فنحروا ، فصار من أصابه

(١) تكملة من (ب) ، ومن ( ج ) ١٥٩ ا .

(٢) فى ( ا ) «أحياناً» وما ذكر من (ب) ومن (ج) ١٥٩ ا .

ذلك لا يتـكلم ، واختاروا الأسر على القتل ، وداموا على ذلك مدة طويلة إلى انتظام الصلح .

وفى (تاريخ[1]) ذلك اليوم؛ وصل من اليزك من أخبر أنهم خرجوا من « عكا » يتفسحون ، وأن اليزك حمـل عليهم ، فأسر منهم أحداً وعشرين نفساً ، وأن الأسرى أخبروهم بصحة عود الانـكتار إلى « عكا » ، وأنه مريض بها . وأخبروا عن ضعف أهل « عكا » وفقرهم ، وقلة الميرة عندهم .

وفى هذا التاريخ وصل للعدو مراكب عدة ، قيل إنها وصلت من « عكا » ، وأن فيها الانـكتار قد عاد بجماعة عظيمة ، ليقصد « عسقلان » ويعمرها ، وقيل (ليقصد[2]) « القدس » ، والله أعلم .

ولما كان الرابع والعشرون ؛ وصل الأسرى المذكورون من « الزيب » ، وكان وصولهم فرحاً المسلمين ، مبشرا بكل خير ، وفيه وصل رسول « قزل » ، — وكان قد سيره قبل وفاته — ورسول ابن أخيه « إيناج » ، وفى عشيته وصل رسول من الانـكتار معه حصان إلى الملك العادل ، فى مقابلة هدية كان أنفذها إليه .

وفيه وصل خبر وفاة « حسام الدين لاجين » بدمشق لمرض كان اعتراه ، فصعب على السلطان موته ، وشق عليه ، وفيه وصل كتاب من « سامة » يذكر فيه أن البرنس أغار على « جبلة » و « اللاذقية » ، وأنه كسر كسرة عظيمة ، وقتل منه جماعة ، وعاد إلى « أنطاكية » .

---

(١) الزيادة من (ب) ومن ج ١٥٩ ا .

(٢) فى (ا) « يقصد » والتصحيح من (ب) ، ومن ج ١٥٩ ب .

# ذكر

## رسول الملك العادل إلى الانكتار

ولما كان السادس والعشرون ؛ كان اليزك للعادل . فطلب الانكتار رسوله ، فأنفذ إليه الصنيعة وهو كاتبه ، وكان شاباً حسنا ، فوصل إليه وهو فى « يازور[1] » ، قد خرج فى جمع كثير من الرجالة ، وانبثوا فى تلك الأرض فاجتمع به ، وسار معه زمنا طويلا ، وحادثه فى معنى الصلح ، وقال لا أرجع عن كلام أتحدث به مع أخى وصديقى — يعنى العادل ، وذكر له كلاما ، وعاد وأخبر به ، فكتبه الملك العادل فى رقعة وأنفذها إلى السلطان ، وكان يتضمن « أنك تسلم عليه وتقول له أن المسلمين والإفرنج قد هلكوا ، وخربت البلاد ، وخرجت من يد الفريقين (بالكلية[2]) ، وقد تلفت الأموال والأرواح من الطائفتين ، وقد أخذ هذا الأمر حقه ، وليس هناك حديث سوى القدس والصليب والبلاد ، والقدس متعبدنا ما ننزل عنه ، ولو لم يبق منا إلا واحد ، وأما البلاد فيعاد إلينا ماهو قاطع « الأردن » ، وأما الصليب فهو خشبة عندكم لامقدار له ، وهو عندنا عظيم فيمنّ به السلطان علينا ، ونصطلح ونستريح من هذا « التعب[3] » (الدائم[4]) .

(١) يازور أو يازور : بليدة بساحل الرملة من أعمال فلسطين (معجم البلدان ج ٣ : ٣٢٠ ط بيروت)

(٢) الزيادة من (ب) ، ومن ج ١١٦٠ .

(٣) فى (ب) ، و (ج) ١١٦٠ العناد .

(٤) زيادة من (ب) ، ومن ( ج ) ١١٦٠ .

ولما وقف السلطان على هـــذه الرسالة : استدعى أرباب المشورة فى دولته ، واستشارهم فى الجواب . والذى رآه السلطان أن قال : « القدس لنــا كما هو لــكم ، وهو عندنا أعظم مما هو عندكم ، فإنه مسرى نبينا . ومجتمع الملائكة . فلا تتصور أن ننزل عنه ، ولا نقدر على التفريط بذلك بين المسلمين ، وأما البلاد فهى أيضا لنا فى الأصل ، واستيلاؤكم كان طارئا عليها ، لضعف من كان فيها من المسلمين فى ذلك الوقت ، وما يقدركم الله على عمارة حجر منها ما دام الحرب قائما ، وما فى أيدينا نحن[1] منها نأكل بحمـــد الله مَغَلَّه[2] وننتفع به . وأما الصليب فهلاكه عنـدنا قربة عظيمة لا يجوز لنا أن نفرط فيها إلا لمصلحة راجعة إلى الإسلام ، هى أوفى منها . وسار هذا الجواب إليه مع الواصل منه .

## ذكر

### هرب شيركوه بن باخل الكردى من « عكا » وكان أسيراً

ولما كان آخر السادس والعشرين : وصل « شيركوه بن باخل » وهو من جملة الأمراء المأسورين ب « عكا » ، وكان من قصته أنه هرب ليلة الحادى والعشرين ، وذلك أنه كان ادخر له حبلا من مخدته ، وكان الأمير حسن بن باريك ادخر له حبلا فى بيت الطهارة ، واتفقا على الهرب

---

(١) زيادة من (ب) ، و (جـ) ١٦٠ ب

(٢) أى انتاج الماعز والشياه تنتج فى العام مرتين ( المنجد مادة مغل )

ونزلا من طاقة كانت فى بيت الطهارة ، وانحدرا من السور الأول ، وعبر شيركوه من الباشورة أيضاً ، وكان ابن باريك حالة نزوله انقطع به الحبل ونزل « شيركوه » سالما ، فرآه وقد تغير من الوقعة ، فكلمه فلم يجبه ، وحركه فلم يتحرك . فهزه لعله ينشط فيسير معه فلم يقدر ، فعلم أنه إذا أقام عنده أخذا جميعاً ، فتركه وانصرف ، واشتد هرباً فى قيوده حتى أتى « تل العياضية » وقد طلع الصبح ، فكمن فى الجبل حتى علا النهار ، وكسر قيده وسار ، وستر الله حتى أتى المعسكر ، ومثل بخدمة السلطان .

وكان من أخباره ؛ أن سيف الدين المشطوب ضيق عليه ، وأنه قطع على نفسه قطيعة عظيمة من خيل وبغال وأنواع الأموال ، وأن الملك الانكتار أتى « عكا » وأخذ كل ماله بها — من خدمه ومماليكه وأقمشته ، ولم يبق له منها شيئاً ، وأن فلاحى الجبل يمدونه بالميرة مدداً عظيما ، وأن « طغرل السلحدار » أخذ خواص مماليك السلطان وهربوا قبل هروبه .

## ذكر

رسالة سيرنى فيها الملك العادل إلى السلطان مع جماعة من الأمراء

وذلك أنه لما كان التاسع والعشرون من رمضان ؛ استدعانى الملك العادل فى صحبته ، وأحضر جماعة من الأمراء : «علم الدين سليمان» و«سابق الدين» و« عز الدين بن المُقَدم » و« حُسام الدين بشارة »، وشرح لنا ما عاد

به رسوله من الانكتار ، من الرسالة والكلام ، وذلك أنه ذكر ، أنه قد أراد أن يتزوج الملك العادل بأخت الانكتار ، وكان قد اصطحبها معه من صقلية ، فإنها كانت زوجة صاحبها وقد مات فأخذها أخوها لما اجتاز بصقلية ، فاستقرت القاعدة على أن يكون مستقر ملكها « القدس » ، وأن أخاها يعطيها بلاد الساحل التي بيده من « عكا » إلى يافا وعسقلان إلى غير ذلك ، ويجعلها ملكة الساحل ، ويجعله ملك الساحل ، ويكون ذلك مضافا إلى ما في يده من البلاد والأقطاع ، وأنه يسلم إليه صليب الصلوات ، وتكون القرى للداوية والاستبار ، والحصون لهما ، وأسرانا تفك أسرهم[1] وكذلك أسراهم ، وأن الصلح يستقر على هذه القاعدة ، ويرحل الانكتار طالباً بلاده في البحر ، وينفصل الأمر . هكذا ذكر رسول العادل عن الانكتار .

ولما عرف ذلك العادل ؛ بنى عليه أن استحضرنا عنده وحملنا هذه الرسالة إلى السلطان ؛ وجعلني المتكلم فيها ، والجماعة يسمعون ، ونعرض عليه هذا الحديث ، فإن استصوبه ورآه مصلحة للمسلمين شهدنا عليه بالإذن في ذلك ، والرضا به ، وإن أباه شهدنا عليه أن الحال في الصلح قد انتهى إلى هذه الغاية ، وأنه هو الذي رأى إبطاله .

فلما مثلنا بالخدمة السلطانية وعرضت عليه الحديث ؛ وتلونا عليه الرسالة بمحضر من الجماعة المذكورين ؛ فبادر إلى الرضا بهذه القاعدة معتقداً

(١) الزيادة من (ب) ، ومن ( جـ ) ١٦١ أ

أن الانكتار لا يوافق على ذلك أصلا ، فإن هذه منه مكر وهزل ، فكررت عليه الرضا بذلك ثلاث مرات وهو يقول : « نعم » ويفرح ويشهد على نفسه به . فلما تحققنا منه ذلك ؛ عدنا إلى الملك العادل فعرفناه بما قال ، وعرفه الجماعة أنى كررت عليه الحديث فى تقييد الشهادة عليه ، وأنه أصر على الإذن فى ذلك واستقرت القاعدة عليه .

## ذكر

## عود الرسول إلى الانكتار بالجواب عن هذه الرسالة

ولما كان ثانى شوال ؛ سار « ابن النحال » رسولا من جانب السلطان ومن جانب الملك العادل ، فلما وصل إلى مخيم العدو وأنفذ من عرف الملك بقدومه ؛ أنفذ إليه من قال له إن الملكة عرض عليها أخوها النكاح فسخطت من ذلك وغضبت بسببه ، وأنكرت ذلك انكارا عظيما وحلفت بدينها المغلظ من يمينها أنها لا تفعل ذلك ، وكيف تمكن مسلما من غشيانها ، ثم قال أخوها إن الملك العادل يتنصر وأنا أتم ذلك وترك باب الكلام مفتوحا .

ولما كان خامس شوال ؛ وصل الخبر أن الأسطول الإسلامى استولى على مراكب الإفرنج وفيها مركب يعرف بالسطح ؛ قيل إنه كان فيه خمسمائة نفر وزائد على ذلك ، وأنه قتل منهم خلق عظيم ، واستبقى منهم أربعة [نفر كبار مذكورين ][1] ، وسر المسلمون بذلك وضربت بشائر النصر ، ونعق بوق الظفر فلله الحمد والمنة .

(١) فى ( ا ) « أربعة مذكورون » وكان يجب أن يقول « مذكورين » والزيادة والتصحيح من ( ب ) ، ومن ( ج ) ١٦٢ ب

ولما كان سادس شوال جمع السلطان أكابر الأمراء وأرباب الآراء من دولته؛ وشاورهم كيف يصنع إن خرج العدو ، وكان قد تواصلت الأخبار عنهم أنهم قد اتفقوا على الخروج إلى العسكر الإسلامى، فانفصل الرأى بين ذوى الآراء على أنهم يقيمون بمنزلتهم بعد تخفيف الأثقال فإن خرج الإفرنج كانوا على لقائهم .

وفى عشية ذلك اليوم استأمن من الإفرنج اثنان على فرسين وأخبرا أن العدو على عزم الخروج ، وأنهم زهاء عشرة آلاف فارس ، وذكرا أنهم لا يعرفون قصدهم ، وهرب أسير مسلم[1] من جانبهم أخبر أنهم قد أظهروا الخروج إلى الرملة ، ثم فيها يتفقون على موضع يقصدونه . ولما تحقق السلطان؛ أمر الجاويش أن ينادى فى العسكر حتى يتجهز جريدة ، وشدت الرايات ، واتفق على أنه يقف قبالة القوم إن خرجوا ، وسار فى السابع مؤيدا منصورا حتى أتى قبلى كنيسة الرملة ليلا فخيم هناك ليلته .

## ذكر

## خروج الإفرنج من يافا

ولما كانت صبيحة الثامن ؛ رتب الأبطال للقتال ، وسلم اليزك الملك العادل، وتبعه من يريد من الغزاة ، وكان قد وصل جماعة من الروم يريدون الغزاة ، فخرجوا فى جملة من خرج ، فلما وصلوا إلى خيام الإفرنج هجم عليهم المماليك السلطانية لقوة جأشهم ، وأنسهم بقتالهم ، وثقتهم بمراكبهم ، ورموا عليهم النشاب ، فرآهم الغزاة والواصلون من الروم، فاغتروا بإقدامهم ووافقوهم فى فعلهم ، وقاربوا عسكر العدو .

(١) فى (١) « مصر » والتصحيح من ( ب ) ومن ( جـ ) ١٦٢ ب

فلما رأى الإفرنج تلك المضايقة والمنازلة ثارت هممهم، وحركتهم نخوتهم ، فركبوا من داخل الخيام ، وصاحوا صيحة الرجل الواحد ، وحملوا فى جمع كثير ، فنجا من سبق به جواده وقدر فى القدم نجاته ، وظفروا بجماعة فقتل منهم ثلاثه نفر ، ونقلوا خيامهم إلى « بازور » وأقام ، السلطان فى تلك الليلة بمنزلته إلى الصباح

## ذكر

## وفاة تقى الدين الملك المظفر

ولما كان الحادى عشر ؛ ركب السلطان إلى جهة العدو ، فأشرف عليهم ، ثم عاد وأمرنى بالإشارة إلى أخيه بأن يحضر معه علم الدين سليمان وسابق الدين ، وعز الدين بن المقدم ، فلما مثل الجماعة بين يديه ؛ وأمر خادما أن يخلى المكان عن غير الحاضرين ، وكنت فى جملتهم ، أمره بابعاد الناس عن الخيمة ، ثم أخرج كتابا من قبائه وفضه ، ووقف عليه، وبدت دموعه وغلبه البكاء والنحيب حتى وافقناه من غير أن نعلم السبب ما هو ، وفى أثناء ذلك ذكر أنه يتضمن وفاة الملك المظفر ، فأخذ الجماعة فى البكاء حتى أتوا بوظيفته ، ثم ذكرته الله تعالى وانتهاء قضائه وقدره . فقال · « أستغفر الله ، إنا لله وإنا إليه راجعون» ثم قال: «المصلحة كتم ذلك وإخفاؤه لئلا يتصل بالعدو ونحن ننازله » . ثم أحضر الطعام فأكل الجماعة وانفصلوا .

وكان الكتاب الواصل المتضمن نعيه ؛ هو غير الكتاب الواصل إلى حماة

« ينميه » فى طى كتاب وصل من النائب بها ، وكانت وفاته بطريق « خلاط » عائدا إلى مَيَّا فارِقين[1] ، فحمل ميتًا إلى « ميا فارقين » ، ثم عملت له تُربة عليها مدرسة مشهورة بأرض « حماه » ، وحمل إليها ، وزرت ضريحه ، وكانت وفاته تاسع عشر رمضان سنة سبع وثمانين .

## ذكر

### كتاب وصل من بغداد

ولما كان الثانى عشر من شوال ؛ وصل من دمشق كتاب من النواب بها ، فى طيه كتاب من « بغداد » من الديوان العزيز النبوى — مجده الله — يتضمن فصولا ثلاثة :

الأول : الإنكار على الملك مظفر الدين فى مسيره إلى « بَـكْتُمُر » ، وبولغ فيه حتى قيل إن الديوان العزيز لا يسلمه .

الفصل الثانى : يتضمن الإنكار على مظفر الدين فى إمساك « حسن ابن قَفْجَاق » والأمر بإعادته إلى السكَرْخانى[2] ، وبولغ فيه حتى قيل إن الديوان العزيز لم يأذن لغيره فى سكناها ، وكانت قصة « حسن بن قفجاق »

---

(١) ميا فارقين : مدينة بديار بكر قرب آمد ، وهى أقوى تحصيناتها .
( معجم البلدان ١٨ : ٢٣٥ ط بيروت )

(٢) السكرخانى : بالرجوع إلى معجم البلدان لم يوجد الاسم بهذا الشكل بل هذا قد ذكر بالفهرس الجغرافى لنسخة ليدن ، أما فى معجم البلدان فقد ذكر « كرجفى » وهو اسم قلعة فى وطاة من الأرض ، حصينة ، بين دقوقا وإربل على تل عال — ( معجم البلدان ج ١٦ : ٤٥٠ ط بيروت) .

أنه قصد « أُرْمِيَة[١] » إلى السلطان « طُغْرِيل » ، فإنه كان قد نزل به فى بيوته[٢] ، لما هرب من ديار العجم واستنصر به وتزوج أخته ، ووقع فى ذهنه أنه يكون أتابكه ، ويملك به البلادفقصد « أرمية » فقتل أهلها على ماقيل ، وسبى نساءهم وذراريهم ، وتعرض للقوافل ، وكانت معقله « الـكرخانى » ، فلما وجد السلطان « طغريل » قوته ؛ تركه وانصرف عنه ، وعاد إلى بلاده ، وأظهر الفساد فى الأرض ، والتعرض للقوافل على ماقيل ، فاستعطفه مظفر الدين صاحب « أربل » حتّى عاد إليه وانخرط فى سلك أصحابه ، وقبض عليه ، وأنفذ إلى الديوان العزيز ذلك ، وفى معناه استيلاءمظفر الدين على بلاده ، ولعلهتشفع إلىالديوان فاقتضت عاطفته ذلك فى حقه .

وأما الفصل الثالث ، فـكان يتضمن التقدم بإحضار القاضى الفاضل فى الديوان رسولا . لتقررعليه قواعد ويسر إليه أسباب .

هكذا كان مضمون الـكتاب .

وأما الجواب عنه ؛ فإن السلطان أجاب عن الفصل الأول ؛ بأنا لم نأمره بشىء من ذلك ، وإنما عبر ليجمع العساكر ويعود إلى الجهاد ، فاتفقت أسباب اقتضت ذلك ، وقد أمرناه بالعودة عنه[٣] .

---

(١) أرمية : مدينة عظيمة قديمة بأذربيجان ، واسعة كثيرة الفاكهةوالبساتين كثيرة الماء صحيحة الهواء — ( معجم البلدان ج ٢ : ١٥٩ ط بيروت ) .

(٢) فى ( ا ) « معونته » ، وما ذكر من (ب) ، ومن ج ١٦٤ ا .

(٣) الزيادة من (ب) ومن ( جـ ) ١٦٤ ب

وأما الفصل الثانى فأجاب عنه ؛ بأن عرفهم حال «ابن قفيجاق» ، وما تصدى له من الفساد فى الأرض ، وأنه تقدم إلى مظفر الدين حتى يحضره معه إلى « الشام » فيقطعه فيه ، ويكون ملازماً للجهاد .

وأما الفصل الثالث ؛ فإنه اعتذر عن القاضى الفاضل بأنه كثير الأمراض ، وقوته تضعف عن الحركة إلى « العراق » . فهـذا كان حاصل الجواب .

## ذكر

### وصول صاحب صيدا رسولا من جانب المركيس

ولما كان ثالث عشر شوال ؛ وصل من أخبر بوصول صاحب «صيدا» من جانب المركيس صاحب « صور » ، وكان قد جرى بيننا وبينه أحاديث مترددة ، حاصلها أنهم ينقطعون عن الإفرنج ونصرتهم ، ويصيرون معنا عليهم ، بناء على فتنة كانت جرت للمركيس مع الملوك بسبب امرأة تزوجها كانت زوجة لأخى الملك « جفرى » ، وقبح نكاحها « بأمر اقتضاه دينهم» ، فاضطربت آراؤهم فيه ، فخاف المركيس على نفسه ، فأخذ زوجته وهرب تحت الليل إلى صور ، وأخلد إلى السلطان والاعتضاد به ، وكان فى ذلك مصلحة للمسلمين لانقطاع المركيس عن الإفرنج ، فإنه كان أشد بأسا ، وأعظمهم للحرب مراسا ، وأثبتهم فى التدبير أساساً .

وحيث اتصل وصول هذا الرسول بالسلطان ؛ أمر بإجلاله واحترامه ،

فضربت خيمة ، وضرب حولها شقة ، ووضع فيها من الطرح والفرش ما يليق بعظمائهم وملوكهم ، وأمر بإنزاله فى الثقل يستريح ثم تجتمع به .

## ذكر

### واقعة الكمين الذى استشهد فيه إياس المهرانى

ولما كان سادس عشر شوال ؛ أمر السلطان الحلقة أن تكمن للعدو فى بطون أودية هناك ، واستصحبوا جماعة من العرب ، فلما استقر الكمين فى موضعه ظهرت العرب على جارى عادتها فى مناوشتها العدو ، وكان العدو تخرج منه جماعة للاحتشاش والاحتطاب ؛ قريبا من مخيمه ، فبصر العرب بهم ، فضربوا عليهم[1] ووقع الحرب بينهم ، وثار الصياح ، وسمع العدو فركب منهم جمع من الخيالة ، وطلبوا جهة العرب ، فانهزم العرب بين أيديهم إلى جهة الكمين ، والعدو يتبعهم طمعا حتى قاربوا الكمين ، فخرج الكمين عليهم ، وصاحوا بهم صيحة الرجل الواحد ، فانهزموا بين أيديهم نحو خيامهم .

واتصل الخبر بالعدو ، فركب منهم خلق عظيم وقصدوا نحو الوقعة ، والتحم القتال ، واشتد الأمر ، وقتل جمع من الطائفتين ، وأسر وجرح جمع من العدو ، وأخذ منهم خيل كثيرة .

وكان سبب انفصال الحرب ؛ أن السلطان أحس بهذه الوقعة ، فأنفذ

---

(١) فى (ا) « فضرب العدو ، وتضرب العدو عليهم » وهذا اضطراب وتحريف ، والتصحيح المذكور من (ج) ١٦٥ ب

أمراء أخر : « أسلم » و« سيف الدين يازكج » ، ومن يجرى مجراها رداءاً للمسلمين ، وقال : « إذا رأيتم الغلبة على الـكمين فاظهروا » ، فلما رأوا الـكثرة من جانب العدو خرجوا بخيلهم ورجلهم .

ولما رأى العدو الأطلاب الإسلامية قد صوبت نحوه أعنة خيلها ، ولوا الأدبار نحو خيامهم ، والسيف يعمل فى أقفيتهم حتى دخلوا الخيام ، وانفصل الحرب قبيل الظهر . وكان السلطان قد ركب متشوقاً أخبار الـكمين ، وكنت فى خدمته ، وكان أول من دخل من الوقعة .

ووصل جماعة من العرب ومعهم خمس رؤوس من الخيل قد أخذوها وانفصلوا قبل انفصال الحرب .

وما زالت الطلائع تتواتر ، والبشائر تتواصل ، وقتل من العدو زهاء ستين نفراً ، وجرح من المسلمين جماعة ، منهم : « إياس المهرانى » — وكان شجاعا معروفا ، « وَجَاوِلِيّ » غلام الغيدى .

وأسر من العدو فارسان معروفان ، واستأمن اثنان بخيولهما وعدتهما ، وعاد السلطان إلى خيمته فرحا مسروراً ، معوضاً من قتل فرسه ، متلطفاً بالجريح ، مترحما على الشهيد .

وفى بقية هذا اليوم : وصل رسول الانـكتار إلى الملك العادل يعتبه على الـكمين ، ويطلب الاجتماع به .

## ذكر

### ما جرى للملك العادل والانكتار واجتماعهما

ولما كان الثامن عشر : سار الملك العادل إلى اليزك ، وضربت له فيه [ تونية ][1] عظيمة ، وسار معه من الأطعمة والحلاوات والتجملات والتحف ما جرت العادة أن يحمل من ملك إلى ملك ، وهو إذا ( تجمل ) فى ذلك لا يغلب .

وسار الانكتار إلى خيمته ، وحضر عنده فاحترمه احتراماً عظيما ، ووصل مع الانكتار إلى خيمته ، وأحضر من طعامهم الذى يختصون به ما أتحف به الملك العادل على وجه المطايبة ، فتناول منه الملك العادل وتناول هو وأصحابه الواصلون معه من طعام الملك العادل ، وتحادثا معظم ذلك النهار ، وتفاصلا على توادّ ومحبة أكيدة .

## ذكر

### الرسالة التى أنفذها الانكتار إلى السلطان

وفى ذلك اليوم ؛ سأل الانكتار الملك العادل أن يلتمس من السلطان الاجتماع به ، والمثول بين يديه . ولما وصلت هذه الرسالة : شاور السلطان الجماعة فى الجواب ، فمنهم من وقع له ماوقع للسلطان .

وذلك أنه قال : « الملوك إذا اجتمعوا يقبح منهم المخاصمة بعد ذلك،

---

(١) الزيادة من (ب) ، ومن (ج) ١٦٦ ب

فإذا « انتظم »[1] أمر ؛ حسن الاجتماع ، والاجتماع لا يكون إلا فى مفاوضة فى مهم ، وأنا لا أفهم بلسانك وأنت لا تفهم بلسانى ، ولا بد من ترجمان بيننا نثق أنا وأنت به فليكن ذلك الترجمان رسولا حتى يستقر أمر ، وتستتب قاعدة ، وعند ذلك يكون الاجتماع الذى يعقبه الوداد والمحبة » .

قال الرسول : ولما سمع الانكتار هذا الجواب استعظمه ، وعلم أنه لا يقدر على بلوغ غرض إلا بالدخول تحت المراضى السلطانية .

## ذكر

### حضور صاحب صيدا بين يدى السلطان

ولما كان التاسع عشر جلس السلطان ، واستحضر صاحب صَيْدا لسماع رسالته وكلامه ، فحضر وحضر معه جماعة وصلوا معه ، وكنت حاضر المجلس ، فأكرمه إكراماً عظيما وحادثهم ، وقدم بين أيديهم ما جرت به العادة .

ولما فرغ الطعام خلَا بهم ، وكان حديثهم فى أن السلطان يصالح المركيس صاحب صور ، وكان قدانضم إليه جماعة من أكابر الافرنجية ، منهم صاحب « صَيْدا » وغيره من المعروفين — وقد سبقت قصته .

وكان من شروط الصلح معه ؛ إظهار عداوة الإفرنج البحرية ،

(١) «اجتمع» فى (ا) وما ذكر وهو أنسب من (ب) ، ومن (ج) ١٦٦ ب

وكان سبب ذلك شدة خوفه منهم ، وواقعة وقعت له معهم بسبب الزوجة ، وبذله السلطان الموافقة على شروط ؛ قصد بها الإيقاع بينهم ، وأن يقتل بعضهم بعضاً . فلما سمع السلطان حديثه ؛ وعد أن يرد عليه الجواب فيما بعد ، وانصرف عنه فى ذلك اليوم .

## ذكر
## وصول رسول الانكتار وهو ابن الهنفرى وهو من أكابرهم وملوكهم ومن أولاد ملوكهم

وصل وفى صحبته شيخ كبير ، ذكروا أن عمره مائة وعشرون سنة ، فأحضره السلطان عنده وسمع كلامه . وكانت رسالته أن الملك يقول : « إنى أحب صداقتك ومودتك ، وأنك ذكرت أنك أعطيت هذه البلاد الساحلية لأخيك ، فأريد أن تكون حكما بينى وبينه [وتقسم البلاد بينى وبينه][(٢)] ، ولا بد أن يكون لنا علاقة بالقدس الشريف ، ومقصودى أن تقسم بحيث لا يكون عليه لوم من المسلمين ، ولا علىّ لوم من الإفرنجية .

فأجابه فى الحال بوعد جميل ، ثم أذن له فى العود فى الحال ، وتأثر بذلك تأثراً عظيما ، وأنفذ وراءهم من سألهم عن حديث الأسارى ، وكان منفصلا عن حديث الصلح ، فقال : « إن كان صلح ؛ فعلى الجميع ، وإن لم يكن صلح ؛ فلا يكون من حديث الأسارى شىء » :

---

(١) ذكر فى مفرج الكروب لابن واصل ج ٢ : ٧٢ تحقيق (د . جمال الدين الشيال أنه همفرى (بالميم لا بالنون) الثانى صاحب حصن بانياس جنوبى شرق دمشق . عن ( lane Poole P. 157 )

(٢) الزيادة من (ب) ، ومن (ج) ١٦٧ ب

وكان غرضه — رحمه الله — أن يفسخ قاعدة الصلح ، فإنه التفت إلىّ فى آخر المجلس بعد انفصالهم وقال : « متى صالحناهم لا تؤمن غائلتهم فإننى لو حدث بى حادث الموت ؛ ما تكاد تجتمع هذه العساكر ، وتقوى الإفرنج ، فالمصلحة أن لا نزال على الجهاد حتى نخرجهم من الساحل ، أو يأتينا الموت » .

هذا كان رأيه — قدس الله روحه — وإنما غلب علىّ الصلح .

## ذكر

## مشوره ضربها فى التميز بين الصلحين بين الانكتار والمركيس

ولما كان حادى عشر شوال ؛ جمع السلطان الأمراء والأكابر وأرباب المشورة ، وذكر لهم القاعدة التى التمسها المركيس ، واستقر الأمر من جانبه عليها ، وهى أخذ « صيدا » وأن يكون معنا على الأفرنج ، ويقاتلهم ويجاهرهم بالعدوان ، وذكر ما التمسه الملك من تقرير قاعدة الصلح ، وهى أن تكون لنا من القرى الساحلية مواضع معينة ، وتكون لنا الجبليات بأسرها ، أو تكون القرى كلها مناصفة ، وعلى هذين القسمين يكون لهم قسوس فى بِيَعْ القدس الشريف وكنائسها .

وكان الانكتار قد خيرنا بين هذين القسمين ، فشرح قدس الله روحه الحال فى القاعدتين للأمراء واستنبط آراءهم فى ترجيح أحد الحالين ، الانكتار والمركيس ، وترجيح أحد القسمين المذكورين من جانب الملك ، فرأى أرباب الرأى أنه أن كان صلح فليكن مع الملك ، فإن مصافات الإفرنج للمسلمين بحيث يخالطونهم ؛ بعيدة غير مأمونة الغائلة ، وانفض

الناس ، وبقى الحديث متردداً فى الصلح ، والرسل تتواصل فى تقرير قواعد الصلح .

وأصل التباعد ؛ أن الملك قد بذل أخته للملك العادل بطريق التزويج ، وأن تكون البلاد الساحلية الإسلامية والإفرنجية لهما ، فأما الإفرنجية فلها من جانب أخيها ، والإسلامية له من جانب السلطان ، وكان آخر الرسائل من الملك [ فى المعنى ] (١) قال : « إن معاشر دين النصرانية قد أنكروا علىّ وضع أختى تحت مسلم بدون مشاورة البابا ، وهو كبير دين النصرانية ومقدمه ، وها أنا ذا أسير إليه رسولا يعود فى ستة أشهر ، فإن أذن فبها ونعمت ، وإلا زوجتك ابنة أخى ، وما أحتاج إلى إذنه فى ذلك ، هذا كله وسوق الحرب قائم ، والقتال عليهم ضربة لازب ، وصاحب « صيدا » يركب مع الملك العادل فى الأحيان ويشرف على الإفرنج ، وهم كلما رأوه تحركوا لطلب الصلح ، خوفا من أن ينضاف المركيس إلى المسلمين ، وعند ذلك تنكسر شوكتهم .

ولم يزل الحال كذلك إلى الخامس عشر من شوال .

---

(١) الزيادة من (ب) ومن ( جـ ) ١٦٨ ب

# ذكر

## رحيله رحمه الله إلى « تل الجزر »[1]

ولما كان ذلك اليوم : أصبح السلطان على عزم الرحيل ، وأحضر أرباب الرأى ، وشاورهم فى جواب رسالة القوم ، وعرض عليهم حديثه ، وذكر ماعندهم فى ذلك ، وأحضر الرسل ، وكان «ابن المنفرى» يترجم بينه وبين البحريين ، واستقرت القاعدة على أن ينفذ معهم رسولين : رسولا من جانبه ، ومن جانب العادل الآخر ، لأن الحديث كان يتعلق به .

وكان من جملة رسالتهم أن البابا إن أذن فى هذا العقد تم ، وإن لم يأذن زوجنا « الملك العادل » بابنة أخى — الملك ، وهى بكر ، وذكروا أن من دينهم أن البابا إنما يحتاج إلى إذنه فى تزويج الثيب من بنات الملوك ، وأما الأبكار فيزوجها أهلها ، وكان الجواب عن ذلك إنه إن كان عقدا فيكون على هذا ، فإنه سبق الحديث فيها ونحن لا نرجع عما قلنا ، وإن لم يتهيأ فلا حاجة لنا إلى غير ذلك[2] . وانفصل الحال على ذلك .

وسارت الرسل إلى خيم الملك العادل ليجهز رسول السلطان ويلحقه ، ثم وصل بعد ذلك من اليزك من أخبر أن الفرنج قد انتشر منهم راجل

---

(١) ( تل الجزر ) : هو حصن من أعمال فلسطين .
( ياقوت جـ ٥ : ١٤١ ط بيروت )

(٢) الزيادة ساقطة فى ( ا ) ومثبتة فى (ب) وفى جـ ١٦٩ أ

كثير، وخرجوا عن الأسوار التى لهم ، ولم يظهر لخروجهم غائلة . وسار رحمة الله عليه إلى « تل الجزر » لارتياد اليزك ، وتبعه الناس فى الرحيل ، فما كان الظهر إلا ورحل الناس إلى السلطان ، ونزلنا ب « تل الجزر » .

ولما عرف الإفرنج بعود السلطان رحلوا عائدين ، وأقام السلطان ب « تل الجزر » ثم رحل إلى جهة القدس « الشريف » ، ورحل الإفرنج إلى جهة بلادهم ، واشتد الشتاء ، وعظمت الأمطار ، وسار السلطان إلى القدس الشريف ، وأعطى العسكر دستوراً ، وأقمنا بالقدس فى ذلك الشتاء أجمع وعاد العدو إلى بلاده ، ووصل الانكتار عساكره إلى « يافا » وعاد إلى « عكا » ينظر فى أحوالها ، فأقام مدة ثم وصل منه رسول يقول : « إنى أوثر الاجتماع بالملك العادل ، ففيه مصلحة تعود على الطائفتين ؛ فقد بلغنى أن السلطان « فوض أمر الصلح إلى أخيه الملك العادل » فاتفق الرأى فى مضى الملك العادل ، على أنه يمضى بحيث يجتمع بعساكرنا التى فى «الغور » و« كوكب » وتلك النواحى ، ويحدثه ويقول له: « إن الحديث جرى بيننا مرارا ؛ وما أسفر عن مصلحة ، فإن كانت هذه الدفعة كتلك الدفعات فلاحاجة إلى الحديث ، وإن كان الغرض بت حال فقارب الحال، وأنا لا أجتمع بك إلا أن أرى مايقارب فصل الحال » .

وقرر مع الملك العادل : إن رأى منه ما يمكن معه فصل الحال[1] ؛ وإلا طاوله وماطله إلى أن تصل العساكر من الأطراف » .

فالتمس الملك العادل تذكرة تتضمن إنهاء ما ينفصل الحال عليه ، فكتب [معه][2] تذكرة فيها المناصفات ، وذكر فيها من أمر « بَيْروت » أنه أصر على طلبها واشترط خرابها ، ولا تعمر ، وكذلك « القابون » ، وان التمسوا عمارة « وعرة » أجيب[3] ، وأن نعطى صليب الصَّلبوت ، ويكون لهم فى « القمامة » قس ، ويفتح لهم باب زيارتها ، بشرط أن لا يحملوا السلاح » .

وكان الحامل على ذلك ما أخذ الناس من تعب مواظبة الغَزَاة ، وكثرة الديون ، والبعد عن الأوطان ؛ فإن من الناس من كان لا يفارق السلطان ، ولا يمكنه طلب دستور منه .

## ذكر
### سير الملك العادل

وكان مسيره من « القدس الشريف » عصر الجمعة رابع ربيع الأول سنة ثمان وثمانين وخمسمائة ، ثم وصل كتاب من « كيسان » يخبر أنه لقيه « المنفرى » مع الحاجب « أبى بكر » رسولا من « الانكتار » يقول : « إنا قد وافقنا على قسمة البلاد ، وإن كل من فى يده شىء فهوله ،

(١) « إن رأى ما يمكن فصل الحال عليه » هكذا فى (ب) وفى (ج) ١٦٩ ب

(٢ و٣) الزيادتان من (ب) ومن (ج) ١٦٩ ب .

فإن كان ما فى أيدينا زائداً ؛ أخذتم فى مقابلته ما يقابل الزيادة مما يخصنا ، وإن كان ما فى أيديكم أكثر ؛ فعلنا كذلك ، ويكون القدس « لنا ولكم فيه الصخرة » .

هكذا كان مضمون الكتاب ، فأوقف السلطان عليه الأمراء ، فاستصوب ذلك الأمير « أبو الهيجاء » ورأوا من حال هذا المقال أن يوافق عليه الملك العادل ، وهو مصلحة ، وسار الجواب إلى الملك العادل فى ذلك .

ولما كان حادى عشر ربيع الأول ؛ وصل الحاجب « أبو بكر » صاحب الملك العادل ؛ يخبر أن الانكتار سار إلى «يافا» من « عكا » ، وأن الملك العادل ما رأى أن يجتمع به إلا عن قاعدة منفصلة ، وأنه جرى بين هذا الحاجب وبين الانكتار مفاوضات كثيرة ، حاصلها أنه نزل على أن تكون الصخرة لنا ، والقلعة فى أيدينا ، والباقى مناصفة ، وأن لا يكون فى البلد منهم مذكور . وأن تكون قرى « القدس » وباطنه مناصفة .

ثم قدم الملك العادل فى سادس عشر ربيع الأول من الغَوْر[1] ، ولقيه السلطان ، واجتمعوا ، وحكى ما سبق من[2] الخبر .

وفى بقية ذلك اليوم ؛ وصل من أخبر أن الإفرنج أغاروا على حلة عرب قريبة من الدارون[3] ، وأنهم أخذوا منهم جماعة ، وأنهم

---

(١) الغور : هو غور أردن بالشام بين بيت المقدس ودمشق .
( ياقوت ج ١٤ : ص ٢١٦ — ٢١٨ ط بيروت )

(٢و٣) الزيادتان من (ب) ومن (ج) ١٧٠ ب .

أخذوا منهم زهاء ألف رأس غنم ، فعظم ذلك على السلطان ، وشق عليه ، فسير جماعة فلم تلحقهم .

## ذكر

## انفصال رسول المركيس

وكان قد وصل يوسف غلام صاحب « صيدا » ، رسولا من جانب المركيس ، يلتمس الصلح مع المسلمين ، فاشترط رحمة الله عليه شروطا . منها : أن يقاتل جنسه ويباينهم ، ومنها : أن ما يأخذه من البلاد الإفرنجية بعد الصلح بإنفراده يكون له ، وما نأخذه نحن بانفرادنا يكون لنا ، وما نتفق نحن وهو على أخذه تكون له نفس البلد ، ويكون لنا ما فيه من أسرى المسلمين ، وغير ذلك من الأموال . ومنها : أن يطلق لنا كل أسير مسلم فى مملكته . ومنها : إن فوض الانكتار إليه أمر البلاد لأمر يجرى بينهم ؛ كان الصلح بيننا وبينه على ما استقر بيننا وبين الانكتار ما عدا عسقلان وما بعدها ، فلا يدخل فى الصلح ، وتكون الساحليات له ، وما فى أيدينا لنا ، وما فى الوسط مناصفة . وسار رسوله على هذه القاعدة .

ولما كان يوم الاثنين الثامن والعشرون من ربيع الأول ؛ وصل أسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه ، ووصل جريدة مقدما على عسكره .

# ذكر

## خروج سيف الدين المشطوب من الأسر

وكان وصوله إلى « القدس الشريف » يوم الخميس مستهل جمادى الآخرة ، دخل على السلطان بغتة وعنده أخوه الملك العادل ، فنهض له واعتنقه ، وسر به سروراً عظيما ، وأخلى المكان ، وتحدث معه بطرف من أحاديث العدو ، وسأله عن حديث الصلح فذكر أن الانكتار سكت عنه .

وفى هذا اليوم ، كتب السلطان إلى ولده الملك الأفضل ليسير إلى قاطع الفرات[1] ويستلم البلاد من الملك المنصور بن الملك المظفر ، وكان قد أظهر العصيان بسبب الخوف من السلطان على نفسه ، وأظهر ذلك ودخل فى أمره الملك العادل ، وسير إلى الملك العادل حتى يتحدث فى فى أمره [ وكان هو المتحدث له[2] ] .

وكان ذلك قد شق على السلطان وأثار منه غيظا عظيما كيف يكون هذا الأمر من أهله ) ولم يكن أحد من أهله خاف منه ، ولا طلب يمينه وهذا كان السبب فى توقف الانكتار فى الصلح ، فإن ظن أن خلافه يكدر للسطان شرب الفزاة ، ويحوجه إلى الموافقة على ما يرضاه ، فأنفذ إلى الملك الأفضل أن يسير إلى البلاد ، وكتب إلى الملك الظاهر ب « حلب

(١) فى ( ١ ) « الفزاة » والصحيح من (ب) ومن (ج) ١٧١ ب .
(٢) الزيادة من ( ج ) ١٧١ ب .

المحروسة أن أخاه إذا احتاج إلى معونة عاونه ، وجهزه بجملة كبيرة[1] ، وسار باحترام عظيم حتى وصل إلى «حلب» ، وأكرمه أخوه الملك الظاهر إكراما عظيما ، وعمل له ضيافة تامة ، وقدم بين يديه[2] تقدمة سنية .

وعدنا إلى حديث العدو .

## ذكر

### عود رسول صور

ولما كان سادس ربيع الآخر فى سنة ثمان وثمانين وخمسمائة ؛ وصل يوسف من جانب المركيس يجدد حديث الصلح ، ويقول قد انفصل الحال على شىء بينه وبين الإفرنجية ، فإن نجز فى هذه الايام ؛ سارت الفرنسيسية فى البحر ، وإن تأخر بطل الحديث فى الصلح بالكلية .

فرأى السلطان الصلح مع المركيس مصلحة ، لاشتغال قلبه من جانب الشرق ، وخاف أن يتصل «ابن تقى الدين ب[3] «بكتمر» ، فيحدث من ذلك ما يشغل الخاطر من الجهاد ، فأجاب إلى ملتمس المركيس ، وكتب مع صاحبه مواضعة على نعت ما تقدم ، وسار المدل[4] يوسف — الرسول بالجواب تاسع ربيع الآخر .

---

(١) فى (ب) وفى ( ج ) ١٧١ (ب) كثيرة .

(٢و٣) الزيادتان من (ب) ومن ( ج ) ١٧١ ب .

(٤) زيادة من ( ج ) ١٧٢ ا .

## ذكر
### قتل المركيس

ولما كان السادس عشر من الشهر ؛ وصل من الرسول المنفذ إلى المركيس كتاب أن المركيس قتل وعجل الله بروحه إلى النار ، وكانت صورة قتله أنه تغدى[1] يوم الثلاثاء ثالث عشر عند الأسقف ، ثم خرج فقفز عليه اثنان من أصحابه بالسكاكين ، وكان خفيفاً من الرجال ، فما زالا يضربانه حتى عجل الله بروحه إلى النار ، وأمسك الشخصان وسئلا عن هذا الأمر ومن حضهما عليه ، فقالا : « إن الانكتار حملنا عليه » . وقام بالأمر اثنان لحفظا القلعة ، إلى أن اتصل الخبر بالملوك وانعقد الأمر وتدبر المكان .

## ذكر
### تتمة خبر الملك المنصور وماجرى له

وذلك أنه لما بلغه مؤاخذة السلطان ؛ أنفذ إلى الملك العادل رسولا « يستشفع[2] » به ، ليطيب قلب السلطان ، ويقترح عليه أحد قسمين ، إما « حَرّان » و« الرُّها » و« سُمَيْسَاط[3] » وإما « حَمَاة » و« مَنْبِج »

---

(١) فى ( ١ ) تقدم وما ذكر وهو أنسب من (ب) ومن ج ١٧٢ ١ .

(٢) فى ١ « يشفع » و« يتشفع » فى ب وفى (ج) ١٧٢ ١ ماذكر وهوالأنسب

(٣) سميساط : غربى نهر الفرات على شاطئه فى طرف بلاد الروم ولها قلعة فى شق منها يسكنها الأرمن .

( معجم البلدان ج ١١ : ٢٠٨ ط بيروت )

و « سَلَمْيَة[1] » و « المَرَّة » ، مع كفالة أخوته ، فراجع الملك العادل السلطان مراراً فلم يجبه إلى شىء من ذلك ، فكثرت الشفاعة إليه من جميع الأمراء ، وهزت شجر رأفة منه ، فرجع خلقه النبوى ؛ وحلف له على « حَرّان » و « الرها » و « سُمَيْساط » ، على أنه إذا عبر الفرات أعطى المواضع أفراجها . ، وتكفل إخوته ، وتخلى عن تلك المواضع التى فى يده ودخلت تحت ضمان الملك العادل .

ثم التمس الملك العادل خط السلطان ثانيا [ فأبى[2] ] « وَلَجَّ[3] » عليه فزقّ نسخة اليمين فى التاسع والعشرين من ربيع الآخر .

وانفصل الحال وانقطع الحديث ، وكثت التردد بينهما فى ذلك ، وأخذ « الغيظ » من السلطان[4] ، كيف يخاطب بمثل ذلك من جانب [ بعض[5] ] أولاد أولاده .

## ذكر

## قدوم رسول ملك الروم

ولما كان مستهل جمادى الأولى ؛ وصل رسول من « قُسطنطينيّة »

---

(١) سلمية : من أعمال حمص تارة ، وتارة من أعمال حماة ، وسماها أهل الشام سلمية : وهى مقر بنى العباس قبيل بدء دعوتهم السرية وفى أثنائها .
( معجم البلدان جـ ١٠و١١ : ٢٤٠ — ٢٤١ ط بيروت )

(٢) [فأبى] الزيادة من (ب) ومن جـ ١٧٢ ب

(٣) فى ( ا ) « لج » والتصحيح من (ب) ومن جـ ١٧٢ ب .

(٤) « وأخذ من السلطان الغيظ » هكذا فى (ب) وفى ( جـ ١٧٢ ب ) .

(٥) الزيادة من (ب) ومن جـ ١٧٢ ب .

الـكبرى ، والتقى بالاحترام والإكرام ، ومثل بالخدمة السلطانية فى ثالث الشهر ، وكانت رسالته تشتمل على مطالب منها : صليب الصلبوت ، ومنها أن تـكون القمامة « بيد قُسوس[1] » من جانبه ، وكذا سائر كنائس القدس ، ومنها ، أن يـكون الاتفاق معه على أن يكون عدو من عاداه ، وصديق من صادقه ، وأن يوافق على قصد جزيرة «قبرص ، فأقام عنده يومين ، ثم سير معه رسولا يقال له « ابن البزاز » من الديار المصرية ، وأُجيب بالمنع من جميع مقترحاته ، وقيل إن الصليب قد بذل فيه ملك « الـكَرَك » مائتى ألف دينار ، فلم يُجَبْ إلى ذلك .

## ذكر

### ماجرى للملك العادل فى البلاد التى هى قاطع الفرات

وذلك أنه لما سار الملك الأفضل رقق الملك العادل قلب السلطان على ابن تقى الدين وقد كثر الحديث فى معناه ، وأنفذنى السلطان لمشاورة الأمراء فى خدمة الملك العادل فى أمره ، فجمعهم فى خدمته ، فذكرت لهم ما أرسلنى فيه إليهم ، فانتدب الأمير حسام الدين أبو الهيجاء للجواب . وقال : نحن عبيده ومماليكه ، وذلك صبى وربما حمله خوفه أن إنضاف إلى جانب آخر ، ونحن لانقدر على الجمع بين قتال المسلمين والـكفار ، فإن أراد أننا نقاتل المسلمين صالحنا الـكفار وسرنا إلى ذلك الجانب ، وقاتلنا بين يديه ، وإن أراد منا ملازمة الغزاة صالح المسلمين وسامحهم . وكان هذا

(١) بأيدى أقساء ، فى (ب) وفى جـ ١٧٢ ب

جواب الجميع ، فرق السلطان ، وجددت نسخة يمين « لابن تقى الدين » وحلف له بها ، وأعطاه خطة بما استقر من القاعدة .

ثم ان الملك العادل التمس من السلطان البلاد التى كانت بيد « ابن تقى الدين » بعد استقلاله ، وجرت مراجعات كثيرة فى العوض عنها ، وكنت الرسول بينهما ، وكان آخر ما استقر أنه ( يتسلم )[1] تلك البلاد ، وينزل عن كل ماهوشامى « كالفرات ،ماعدا « الـكَرَك » و « الشَّوْبَك » و « الصَّلْت »[2] و « البَلْقَاء »[3] ، وخاصّه بمصر بعد النزول عن « الجيزه » ، وعليه فى كل سنة ستة آلاف غرارة غلة » تحمل للسلطان من الصَّلْت والبَلْقَاء إلى القدس ، والمغل[4] فى السنة المذكورة فى مواضعه له ، ومغل « قاطع الفرات » فى هذه السنة للسلطان أيضاً ، وأخذ خط السلطان بذلك .

وسار بنفسه ليصلح أمر « ابن تقى الدين » ويطيب قلبه ، وكان مسيره فى ثامن جمادى الأولى .

---

(١) فى ( ا ) تسلم والتصحيح من (ب) ومن ( جـ ) ١١٧٣ .

(٢) الصلت : بليدة وقلعة فى جبل الغور الشرقى فى جنوبى عجلون وهى تقابل أريحا .

( النجوم الزاهره جـ ٦ : ص ٣٥٦ خاشية ٢ )

(٣) البلقاء : كورة من أعمال دمشق بين الشام ووادى القرى قصبتها عمان وفيها قرى كثيرة .

( يا قوت جـ ٤ ص ٤٨٩ ط بيروت )

(٤) المغل : نتاج الماعز والشياة .

## ذكر
### استيلاء الفرنج « على الدارون »

وكان الإفرنج — خذلهم الله تعالى — لما رأوا أن السلطان قد أعطى العساكر دستوراً ؛ وتفرقت العساكر عنه ، نزلوا على « الدارون » طمعا فيه ، وكان بيد « علم الدين قيصر » وفيه نوابه .

ولما كان يوم تاسع جمادى الأولى اشتد زحف العدو على المكان راجلا وفارسا ، وكان الانكتار قد استنفذ من نوبة « عكا » نقابين [ حلبيين ](1) فتمكنوا من نقب المكان ، وأحرقوا النقب ، وطلب أهل الحصن مهلة بحيث يشاورون السلطان فلم يمهلوهم ، واشتدوا فى القتال عليه فأخذوه عنوة ، واستشهد فيه من قدر الله له ذلك ، وأسر من قدر [ الله ](2) له ذلك ، وكان ذلك قدراً مقدوراً .

## ذكر
### قصدهم لـ « مجدل يابا »

ولما استولى الإفرنج على « الدارون » ساروا بعد أن قرروا أمره ، ووضعوا فيه من اختاروا حتى نزلوا على منزلة يقال لها « الحسى » وهى

---

(١) بالأصل « جبلين » والتصحيح من (ب) ، ومن (ح) ١٧٣ ب .
(٢) الزيادة من (ب)

قريب من جبل الخليل[1] عليه السـلام ، وذلك فى رابع عشر جمادى الأولى ، فأقاموا عليه ثم تأهبوا بقصد حصن يقال له مَجَدَل يابا[2] » فأتوه جريدة ، وخلفوا خيامهم فى منزلتهم ، وكان بها عسكر إسلامى فلقيهم ، وجرى بينهم قتال عظيم ، وقتل من العدو كُنْد مذكور فيما ( بينهم )[3] ، واستشهد من المسلمين فارس واحد ، كان سبب قتله أنه وقع رمحه ، فنزل ليأخذه فمنعه فرسه الركوب ، فبادروه وقتلوه ، وعادوا إلى خيامهم بقية اليوم خائبين ، ولله الحمد .

## ذكر

## وقعة جرت فى صور

ولما كان سادس عشر جمادى ؛ وصل كتاب من حسام الدين بشارة « يذكر أنه تخلف فى صور مائة راكب ، وانضم إليهم من « عكا » خمسون ، وطمعوا فخرجوا لشن الغارات على البلاد الاسلامية ، فوقع عليهم العسكر المرصد لحفظ البلاد من ذلك الطرف ، وجرى بينهم قتال شديد ، وقتل من العدو خمسة عشر نفراً ، ولم يقتل من المسلمين احد ، وعادوا خائبين ، ولله الحمد .

---

(١) الخليل : اسم موضع بلدة فيها حصن وعمارة وسوق بقرب بيت المقدس . ( معجم البلدان ج ٨ : ص ٣٨٧ — ٣٨٨ ط بيروت )

(٢) مجدل يابا : مجدليابه : قرية قرب الرملة فيها حصن محكم . ( معجم البلدان ج ١٧ : ٥٧ ط بيروت )

(٣) الزيادة من ب ومن ج ١٧٤ (١) .

## ذكر
## قدوم العساكر الإسلامية « للجهاد »[١]

ولما رأى السلطان ما جرى من العدو من التنبيط ؛ سير إلى العساكر من سائر الأطراف أن يسابقوا إلى الحضور ، وكان أول قادم « بدر الدين دلْدُرُم » مع خلق كثير من التركمان ، فلقيه السلطان واحترمه ، ووصل بعده « عزالدين بن المُقَدَّم » فى سابع عشر جمادى الأولى بعسكر حسن وآلات « جيدة[٢] » ، ففرح به السلطان .

وأما العدو فإنه رحل ( من[٣]) « الحسى » ونزل على مفرق طرق ، منها طريق « عَسْقَلَان » وطريق إلى « بيت جبرين » وإلى غير ذلك من الحصون الإسلامية .

ولما بلغ السلطان ذلك أمر العساكر أن سارت نحوه ، فخرج « أبو الهيجاء السمين » و « بدر الدين دلْدُرُم » ( وابن المقدم )[٤] ، وتتابعت العسكر ، وتخلف هو فى القدس لنوع القياث كان عرض له ، فلما أحس العدو المخذول بظهور العساكر الإسلامية عاد خائبا خاسراً ، ناكصاً على عقبيه ، ووصلت الكتب من الأمراء مخبرين برحيل العدو إلى « عَسْقَلَان » .

---

(١) إلى « الجهاد » فى (ب) .
(٢) فى ( ا ) جيله وما ذكر من (ب) .
(٣) ف ( ا ) « إلى » والتصحيح من ب .
(٤) الزيادة من ب .

# ذكر

## تعبئة العدو لقصد « القدس الشريف »

ولما كان يوم السبت الثالث والعشرين من جمادى الأولى ؛ وصل قاصد من المعسكر يخبر أن العدو قد خرج (في)[1] راجله وفارسه وسواد عظيم ؛ وخيم على « تل الصافية »[2] ، فسير السلطان إلى العساكر الاسلامية ينذرها ويحذرها ، ويستدعي الأمراء جريدة إلى عنده ليعقدوا رأيا فيما يقع العمل فيه بمقتضاه ، فوصل ورحل العدو من تل الصافية[3] إلى جانب « النطرون » فنزل شماليه ، وذلك في السادس والعشرين من جمادى الأولى .

وكانت قد سارت من عرب الاسلام جماعة للغارة على « يافا » ، فوصلوا بليل من غير علم بحركة العدو ، فنزلوا في بعض الطريق يقتسمون ، فوقعت عليهم عساكر العدو فأخذوهم ، وهرب منهم ستة نفر ، فوصلوا إلى السلطان وأخبروه الخبر ، ووصلت الجواسيس ، و « تواترت »[4] الأخبار من جانب العدو (يخبرون)[5] أنه مقيم بـ « النطرون » لنقل

---

(١) في (ا) « من » والتصحيح من ب ومن جـ ١٧٤ ب .

(٢) تل الصافية : حصن من أعمال فلسطين قرب بيت جبرين من نواحي الرملة (معجم البلدان جـ ٥ ص ٤٢ ط بيروت) .

(٣) الزيادة من ب ومن جـ ١٧٤ ب

(٤) في ب وفي جـ ١٧٤ ب « وصلت »

(٥) الزيادة من ب ومن جـ ١٧٤ ب

الأزواد والآلات التى تدعو الحاجة إليها فى الحرب ، فإذا حصل عندهم ما يحتاجون إليه قصدوا « القدس الشريف » حرسه الله تعالى .

وفى يوم الأربعاء وصل منهم رسول صحبته غلام كان لـ «المشطوب» عندهم ، يحدث فى معنى « قراقوش » ، ويتحدث فى معنى الصلح .

## ذكر

### نزولهم فى بيت نوبة[1] وهو موضع وطاة بين « جبال يبنا » بينه وبين القدس مرحلة

رحل العدو من « النطرون » يوم الأربعاء السابع والعشرين من جمادى الأولى ، ونزلوا بـ « بيت نوبة » .

ولما عرف السلطان ذلك استحضر الأمراء وضرب المشورة فيما يفعل ، فكانت خلاصة الرأى : أن يقسم الأسوار على الأمراء ويخرج ببقية العسكر جريدة إلى جهة العدو ، فإذا عرف كل قوم موضعهم من السور استمدوا ، فإن دعت الحاجة إليهم خرجوا ، وإن دعت الحاجة إلى ملازمة مواضعهم لازموها ، فكتبت الرقاع ، وسيرت إلى الأمراء .

وكان طريق « يافا » سابلة لمن ينقل الميرة إلى العدو ، فأمر السلطان من فى اليزك أن يعمل معهم مايمكنه ، وكان فى اليزك « بدر الدين دلدرم » فكمن حول الطريق (كمينا فيه)[2] جماعة جيدة ، فمر بهم جمع

---

(١) بيت نوبة أو بيت نوبا : بليدة من نواحى فلسطين .
( معجم البلدان ج ٤ : ص ٥٢٣ ط بيروت )

(٢) الزيادة من (ب) ومن( جـ ) ١٧٥ ا

من خيالة العدو يحمون قافلة تحمل ميرة ، فاستضعفوهم فحملوا عليهم وجرى قتال عظيم ، كانت الدائرة فيه على العدو ، وقتل منهم ثلاثون نفراً ، وأسر جماعة .

ووصل الأسارى فى « التاسع والعشرين » من جمادى الأولى إلى « القدس » ، وكان لدخولهم وقع عظيم ، وجرى على العدو من ذلك وهن « كبير[1] » ، وقويت قلوب الزكية ، وانبعثت هممهم حتى حملوا على العسكر ، ونزلوا إلى أطراف الخيام ، ولله الحمد .

ولما علم المسلمون أن القوافل لا تنقطع ؛ خرج جماعة وأخذوا معهم عرباً كثيرا ، وكمنوا كمينا ، واجتازت القافلة ومعها جماعة كثيرة ، فخرجت العرب على القافلة ، وتبعتهم الخيالة ، فدحروا بين أيديهم منهزمين نحو المسلمين ، فخرجت الأتراك عليهم فأخذوا وقتلوا ، وجرح من الأتراك جماعة ، وذلك فى ثالث جمادى الآخرة .

## ذكر

## أخذ قافلة مصر — حرسها الله تعالى

وذلك أنه كان قد تقدم إلى عسكر مصر بالمسير ، وأوصاهم بالاحتراز والاحتياط عند مقاربة العدو ، فأقاموا بـ « بلبيس[2] » أياما ، حتى

(١) فى ا « كبير » وفى ب وفى جـ ١٧٥ ا « عظيم »

(٢) بلبيس : مدينة ( بمديرية الشرقية من الإقليم المصرى ) ، كانت على طريق الشام .

( معجم البلدان جـ ٤ : ٤٧٩ طبع بيروت )

اجتمعت القوافل إليهم ، واتصل خبرهم بالعدو ، ثم ساروا طالبين البلاد ، والعدو يترقب أخبارهم ويتوصل إليها بالعرب المفسدين .

ولما تحقق العدو خبر القوافل ؛ أمر عسكره بالاحتياط والتحفظ ، وسار حتى أتى « تل الصَّافِيَة » فبات ، ثم سار حتى أتى « الصافية » ، ثم علق على خيلة فئة ، وسار حتى أتى ماء يقابل « الحسى » .

واتصل خبر نهضة العدو بالسلطان ؛ فأنفذ بنذير للقافلة ، وكان المندوب لذلك ؛ الأمير « آخرُ أسلم » و « الطنبا[1] العادلى » وجماعة من الفرسان المذكورين ، وأمرهم أن يبعدوا بالقافلة فى البرية و « يتباعدوا[2] » عن العدو ما أمكن ، فاتفق أن العسكر وصل « الحسى » قبل وصول العدو إليها ، فلم يقيموا عليه ، وساروا حتى وصلوا « القفل » ، والعسكر المصرى فاتوا بـ « القفل » على ذلك الطريق ، ثقة منهم بأنهم لم يجدوا فيه ذاعرا ، ولا أحسوا بخوف ، فرغبوا فى قرب الطريق ، وسلكوا بالناس هذا الطريق حتى وصلوا إلى ماء يقال له : « الخُوَيْلِفَة[3] » ، وتفرق الناس لأجل الماء ، فأخبر العرب العدو بذلك ، وهو نازل بـ « رأس الحسى » .

فقام من وقته وسرى حتى أتاهم قبيل الصبح ، وكان مقدم العسكر

---

(١) « الطنبا » في (ب) وفى جـ ١٧٥ ب .

(٢) « ويبعدونهم » فى (ب) وفى جـ ١٧٥ (ب) .

(٣) الخويلفة : موضع بنواحى فلسطين .

( معجم البلدان جـ ٨ : ٤٠٨ ط بيروت )

« فلك الدين » أخو الملك العادل لأمه ، فأشار « أسلم » بالمسير ليلا قطعاً للطريق ، واستظهاراً بالصعود إلى الجبل ، فخاف « فلك الدين » أنه إن « رَحَلَ » بالليل يأجرى أمر على القافلة لتبددها ، فنادى فى الناس أن لا يرحلوا إلى الصباح .

وأما الانكتار ؛ فبلغنا أنه لما بلغه الخبر لم يصدقه ، وركب مع العرب بجمع يسير ، وسار حتى أتى «القفل» فطاف حوله فى صورة عربى ، ورآهم ساكنين قد غشيهم النعاس ، فعادوا [ واستركب[1] ] عسكره ، وكانت الكبسة قريب الصباح ، فبغت الناس ، ووقع عليهم بخيله ورجله ، وكان الشجاع هو الذى ركب فرسه ونجا بنفسه . وانهزم الناس إلى جهة [ القفل[2] ] والعدو يتلوهم ، فلما رأوا « القفل » أعرضوا عن قتال العسكر ، وطلبوا « القفل » ، فانقسم « القفل » ثلاثة أقسام :

قسم قصدوا « الكَرَك » مع جماعة من العرب وعسكر الملك العادل ، وقسم أوغلوا فى البرية مع جماعة من العرب أيضا ، وقسم استولى عليهم العدو فساقهم بجمالهم وأحمالهم وجميع ما كان معهم . وكانت وقعة شنعاء لم يصب الإسلام بمثلها من مدة مديدة .

وكان فى العسكر المصرى جماعة من المذكورين «كحسين الجرَّاحى» ، « وفلك الدين » و « بنى الجاولى » وغيرهم من المذكورين .

وقتل من العدو زهاء مائتى فارس على رواية ، وعشرة أنفس على

---

(١) فى ا « ستركب » والتصحيح من ب ومن ج ١٧٦ ا

(٢) فى (ا) « القافلة » والتصحيح من ب ومن ج ١٧٦ ا

رواية ، ولم يقتل من المسلمين معروف سوى « الحاجب يوسف » و « ابن الجَاوْلَى الصغير » ، فإنهما استشهدا إلى رحمة الله تعالى .

وتبدد الناس فى البرية ، ورموا أموالهم ، وكان السعيد منهم من نجا بنفسه ، وجمع العدو ما أمكنهم جمعه ، من الخيل والبغال والجمال والأقمشة ، وسائر أنواع الأموال ، وكلف الجمالين «خدمة[1]» الجمال ، والخَرَبَنْدِيَةَ[2] خدمة البغال ، والساسة خدمة الخيل . وسار فى جحفل من الغنيمة يطلب عسكره ، فنزل على « الخُوَيْلِفَة » ، فاستقى منها ثم سار حتى أتى « الحسى » .

ولقد حكى لى من كان أسيراً معهم : أنه فى تلك الليلة وقع فيهم الصوت أن عسكر السلطان قد قصدهم ، فتركوا الغنيمة وانهزموا وبعدوا عنها زحفاً ، ولما انكشف لهم أن العسكر لم يلحقهم عادوا إلى الرحل ، وهربوا فى تلك الغيبة جمع من أسارى المسلمين ، وكان الحاكى منهم ، فسألته بكم [ حزرتم[3] ] الجمال والخيل ؟ . فأخبر أن الجمال تناهز ثلاثة آلاف ، والأسارى خمسمائة ، وتقرب من ذلك عدة الخيل .

وكانت هذه الوقعة صبيحة الثلاثاء حادى عشر جمادى الآخرة ، ووصل الخبر إلى السلطان فى عشية ذلك اليوم بعد العشاء الآخرة ، وكنت جالساً فى خدمته ، وأوصل الخبر شاب من الاسطبلية ، فما مر

---

(١) فى (ب) « كلفة »

(٢) الخربندية : هم الذين يقومون على خدمة البغال من عليق وغيره ، الحمارون

(٣) فى (ا) « حرستم » وهذا خطأ والتصحيح من ب ومن ج ١٢٧ أ

بالسلطان خبر أنكى منه فى قلبه ، ولا أكثر تشويشاً لباطنه ، وأخذت فى تسكينه وتسليته ، وهو لا يكاد يقبل التسلية .

وكان أصل هذه القضية ؛ أن الأمير « آخر[1] أسلم » أشار عليهم أن يصمدوا الجبل فلم يفعلوا ، فصعد هو وأصحابه ، فلما وقعت الكبسة ؛ كان هو على الجبل ، فلم يصل إليه أحد من العدو ولم يشعروا به ، ولما انهزم المسلمون تبعتهم خيالة الإفرنج ، وأقام الرجالة منهم يستولون على ما تخلف من المسلمين من الأقمشة .

ولما تحقق الأمير « آخر[2] أسلم » أن الخيالة قد بعدت عن الرجالة نزل إليهم بمن معه من الخيالة ، وكبسهم من حيث لم يشعروا ، وقتلوا منهم جماعة ، وغنموا منهم دواب ، من جملتها بغلة كانت تحت هذا القاصد .

ثم سار العدو يطلب خيامه فكان وصوله إلى المخيم يوم الجمعة سادس عشر جمادى الأخرى ، وكان يوما عظيما عندهم ، أظهروا فيه من السرور وأسبابه مالا يمكن وصفه ، وأعادوا خيمهم إلى الوطاة على « بَيْت نُوبَة » ، وصح عزمهم على « القُدس » ، وقويت نفوسهم بما حصلوا عليه من الأموال والجمال التى كانت « تحمل[3] » الميرة « والزاد[4] » الواصلة من مصر مع عسكرها ، ورتبوا جماعة على « لُدّ » يحفظون

(١ ، ٢) زيادتان من (ب) .

(٣) فى (ب) « تنقل » وكذلك فى ( ج ) ١٧٧ ب .

(٤) « الأزواد » فى (ب) ، وفى (ج) ١٧٧ ب .

الطريق على من ينقلون الميرة ، وأنفذوا « الكندهرى[1] » إلى « صُور » و « طَرَابلُس » و « عكا » ، يستحضر من فيها من المقاتلة ، ليصمدوا إلى « القُدس » .

ولما عرف السلطان ذلك منهم عاد إلى الأسوار ، فقسمها على الأمراء ، وتقدم إليهم بتهيئة أسباب الحصار ، وأخذ فى إفساد المياه بظاهر « القُدس » وتخريب الصهاريج والجباب ، بحيث لم يبق حول القدس ماء يشرب أصلا ، وأطنب فى ذلك إطنابا عظيما ، وأرض « القدس » لا يطمع فى حفر بئر بها فيها ماء معين ، لأنها جبل عظيم ، وحجر صلب .

وسير إلى العساكر يطلبها من النواحى والبلاد .

## ذكر

### قدوم الملك الأفضل وأمره بالعود عن تلك البلاد وكان قد وصل إلى حلب المحروسة

ولما وصل أمر السلطان إليه بالعود ، عاد مع انكسار فى قلبه ، وتشويش فى باطنه ، فوصل إلى « دمشق » مستعقبا ، ولم يحضر إلى خدمة السلطان ، فلما اشتد خبر الإفرنج سير إليه وطلبه ، فما وسعه التأخر .

فسار مع من كان قد وصل من العساكر الشرقية إلى دمشق ،

(١) ورد فى الجزء المترجم من نسخة (ب) اسمه Henricus باللاتينية .

وكان وصوله فى يوم الخميس تاسع [ عشر ][1] جمادى الأخرى ، ولقيه السلطان قريبا من « المَازَرِيّة » ، فترجل له جبرا لقلبه وتعظيما لأمره ، وسارَ و فى خدمته أخوه « الملك الظافر » ، و « قطب الدين » فى[2] ظاهر « القدس » من جهة العدو[3] .

## ذكر

## عود العدو إلى بلادهم وسبب ذلك

ولما كانت ليلة الخميس تاسع عشر جمادى الأخرى ؛ استحضر السلطان الأمراء عنده ، وحضر الأمير « أبو الهيجاء السمين » بمشقة عظيمة ، وجلس على كرسى فى خيمة السلطان ، وحضر « المشطوب » والأسدية بأسرهم ، وجماعة الأمراء ، ثم أمرنى أن أكلمهم وأحثهم على الجهاد ، فذكرت ما يسره الله من ذلك . وكان مما قلته : « إن النبى صلى الله عليه وسلم لما اشتد به الأمر بايعه الصحابة رضى الله عنهم على الموت فى لقاء العدو ، ونحن أولى من تأسى به صلى الله عليه وسلم ، والمصلحة الاجتماع عند الصخرة والتحالف على الموت ، ولعل ببركة هذه النية يندفع هذا العدو » .

فاستحسن الجماعة ذلك ، ووافقوا عليه ، ثم شرع السلطان بعد أن

---

(١) زيادة من (ب) ، ومن (جـ) ١١٧٨ ا .

(٢) فى (١) « إلى » وما ذكر من (جـ) ١١٧٨ ا .

(٣) زيادة من (جـ) ١٧٨ (١).

سكت زمانا فى صورة مفكر ؛ والناس سكوت كأن على رءوسهم الطير ،[ثم شرع ][1] فقال : « الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، اعلموا أنكم جند الإسلام اليوم ومنعته ، وأنتم تعلمون أن دماء المسلمين وأموالهم وذراريهم معلقة بذمتكم ، وأن هذا العدو ليس له من المسلمين من تلقاه إلا أنتم ، فإن وليتم بأنفسكم — والعياذ بالله — طوى البلاد طى السجل للكتاب ، وكان ذلك فى ذمتكم ، فإنكم أنتم الذين تصديتم لهذا ، وأكلتم مال بيت المال ، فالمسلمون فى سائر البلاد متعلقون بكم ، والسلام » .

فانتدب لجوابه « سيف الدين المشطوب » وقال : « يا مولانا ! نحن مماليكك وعبيدك ، وأنت أنعمت علينا ، وكبرتنا وعظمتنا وأعطيتنا ، وليس لنا إلا رقابنا وهى بين يديك ، والله لا يرجع أحد منا عن نصرتك إلى أن نموت » ، فقال الجماعة مثل ماقال ، فانبسطت نفسه بذلك المجلس وطاب قلبه ، وأطعمهم ثم انصرفوا ، وانقضى يوم الخميس على أشد حال التأهب والاهتمام ، حتى كانت العشاء الآخرة وجميعنا فى خدمته على العادة ، وسهرنا حتى مضى من الليل هزيع ، وهو غير منبسط على عادته ، ثم صلينا العشاء وكانت العشاء هى الدستور العام ، فصلينا وأخذنا فى الانصراف ، فاستدعانى .

فلما جلست فى خدمته قال لى : « علمت ما الذى تجدد ؟ » قلت لا ، قال : « إن أبا الهيجاء السمين أنفذ إلىّ اليوم ، وقال إنه اجتمع

---

(١) زيادة من (ب) ، ومن ( ج ) ١٧٨ ب .

عنده جماعة من المماليك ، وأنكروا علينا موافقتنا على الحصار ، وقالوا لا مصلحة فى ذلك ، فإننا نخاف أن نحصر ويجرى علينا مثل ما جرى على « عكا » ، وحينئذ تؤخذ بلاد الإسلام أجمع ، والرأى أن نلقى مصاف ، فإن قدر الله تعالى أن نهزمهم ؛ ملكنا بقية بلادهم ، وإن تكن الأخرى يسلم العسكر ، ويمضى « القدس » ، وقد « حُفِظت بلاد[1] الإسلام » لعساكره مدة بغير « القدس » ، وكان رحمه الله عنده من « القدس » أمر عظيم [لاتحمله الجبال[2] ] ؛ فشقت عليه هذه الرسالة ، وأقمت تلك الليلة فى خدمته ، وهى من الليالى التى أحييتها فى سبيل الله .

وكان مما قالوه فى الرسالة : «إن أردت أن نقيم ؛ فتكون معنا أنت أو بعض أهلك ، وإلا فالأكراد لا يدينون للأتراك ، والأتراك كذلك » فانفصل الحال على أن يقيم من أهله ؛ « مجدالدين بن فرخشاه » وصاحب بعلبك ، وكان — رحمه الله — يحدث نفسه بالمقام ، ثم « صرف[3] » رأيه عنه لما فيه من الخطر على الإسلام .

فلما أن قارب الصبح وأشفقت عليه ؛ خاطبته فى أن يستريح ساعة ، وانصرفت عنه ، فما وصلت إلا والمؤذن قد أذن ، فأخذت فى أسباب الوضوء ، فما فرغت إلا والصبح قد طلع ، فعدت إلى خدمته وهو يجدد الوضوء ، فصلينا ، ثم قلت له : « قد وقع لى واقع أعرضه . قال :

(١) فى (١) « حفظ الإسلام » وما ورد من (ج) ١١٧٩ .
(٢) فى (١) « لا تحمله الجبال » والتصحيح من (ج) ١١٧٩ .
(٣) فى (ج) ١١٧٩ أ « منعه رأيه » .

« وما هو ؟ » . قلت : « من كثر اهتمامه بما قد حمل على نفسه [فيجهد فيما هو فيه[1] ] وقد عجزت أسبابه الأرضية ؛ ينبغى له أن يرجع إلى الله ، وهذا يوم الجمعة وهو أبرك أيام الأسبوع ، فيه دعوة مستجابة ، ونحن فى أبرك موضع ، فالسلطان يغتسل ويتصدق بصدقة خفية بحيث لا يشعر أحد أنها « منه[2] » ،ويصلى بين الأذان والإقامة ركعتين يناجى فيهما ربه ، ويفوض مقاليد أموره إليه ، ويعترف بالعجز عما تصدى له ، فلعل الله يرحمه ويستجيب دعاءه » .

وكان حسن العقيدة ، تام الإيمان ، يتلقى الأمور الشرعية بأكمل انقياد ، ثم انفصلنا . فلما جاء وقت الجمعة صليت إلى جانبه فى «الأقصى»، وصلى ركعتين ، ورأيته ساجداً وهو يذكر كلمات ودموعه تتقاطر على مصلاه ثم انقضت الجمعة بخير ، ولما كانت عشيتها ونحن فى خدمته على العادة ، [ فعند ذلك[3] ] وصلت رقعة من « جرديك » ، وكان فى اليزك ، وكان جملة ما فيها ، أن القوم ركبوا بأسرهم ووقفوا فى التل وقت الظهيرة ، ثم عادوا إلى خيامهم ، وقد سيرنا جواسيس تكشف أخبارهم .

ولما كانت صبيحة السبت وصلت رقعة أخرى ؛ يخبر فيها أن الجواسيس رجعوا وأخبروا أن القوم اختلفوا فى الصعود إلى «القدس» والرحيل إلى بلادهم؛ فذهبت الفرنسيسية إلى الصعود إلى «القدس» ، وقالوا : نحن إنما جئنا من بلادنا بسبب القدس ولا نرجع دونه . وقال الانكتار :

(١) زيادة من (ب) ، ومن (ج) ١٧٩ ب .
(٢) فى (ب) « منك » ثم يعقب ذلك خطاب للمخاطب .
(٣) الزيادة من (ب) .

إن هذا الوضع قد أفسدت مياهه ولم يبق حوله ماء أصلا ، فمن أين نشرب ؟ . فقالوا له : نشرب من نهر «تَقُوع[1]» بينه وبين «القدس» مقدار فرسخ . فقال : كيف نذهب إلى السقى ؟ . فقالوا : ننقسم قسمين ؛ قسم يركب إلى السقى ، وقسم يبقى على البلد فى منازله ، ويكون الشرب فى اليوم مرة . فقال الانكتار : إذاً يؤخذ العسكر البرانى الذى يذهب مع الدواب ، ويخرج عسكر البلد على الباقين ، ويذهب دين النصرانية . فانفصل الحال على أنهم حكموا ثلاثمائة من من أعيانهم ، وحكم الثلاثمائة اثنا عشر ، وحكم اثنا عشر ثلاثة منهم . وقد باتوا على حكم الثلاثة ، فما أمروا به فعلوه .

فلما أصبحوا ؛ حكموا بالرحيل فلم تمكنهم المخالفة ، وأصبحوا فى بكرة الحادى والعشرين من جمادى الآخرة راحلين نحو « الرملة » ، وعلى أعقابهم ناكصين ، ولله الحمد . ومضى عسكرهم شاكيا السلاح ، ولم يبق فى « المنزلة » إلا الآثار ، ثم نزلوا « الرملة » ، وتواترت الأخبار بذلك ، فركب السلطان وركب الناس ، وكان يوم سرور وفرح .

## ذكر
## رسالة الكندهرى

ولما فرغ بال السلطان برحيل العدو ؛ حضر رسول الكندهرى يقول : إن الانكتار قد أعطانى البلاد الساحلية ، وهى الآن لى ، فأعد

(١) تقوع : من قرى بيت المقدس ، يضرب بجودة عسلها المثل .
( معجم البلدان ج ٥ : ٣٧ طبع بيروت (و) الفهرس الجغرافى لنسخة ليدن رقم T ) .

عليّ بلادى حتى أصالحك وأكون أحد أولادك . فغضب السلطان لذلك غضباً عظيما بحيث أنه كاد يبطش به ، فأقيم من بين يديه ، فسأل أن يمهل ليقول كلمة أخرى ، فأذن له فى ذلك فقال : « يقول إن البلاد فى يدك فما الذى تعطينى منها » . فانتهره وأقامه .

ولما كان اليوم الثالث والعشرون ؛ حضر الرسول وكان جوابه أن يكون الحديث بيننا فى « صور » و « عكا » على ما كان مع المركيس .

ثم وصل بعد ذلك « الحاجب[1] يوسف » صاحب « المشطوب » من عند الإفرنج ، وذكر أن الانكتار أحضره وأحضر الكندهرى وأخلى المجلس وقال له : « قل لصاحبك ؛ إنا قد هلكنا نحن وأنتم ، والأصلح حقن الدماء ، ولا ينبغى أن تعتقد أن ذلك لضعف منى بل المصلحة ، ولا تغتر بتأخرى عن منزلى ، فالكبش يتأخر لينطح » ، [ وأن يكون هو الواسطة بينه وبين السلطان[2] ] . وأنفذ مع الحاجب شخصين يسمعان الكلام من المشطوب .

وكان ظاهر الحال ؛ الكلام فى إطلاق « بهاء الدين قراقوش » ، وباطنه فى معنى آخر . وأخبر الحاجب أنهم رحلوا عن « الرملة » قاصدين « يافا » ، وأنهم على غاية الضعف والعجز عن قصد مكان آخر ، فاستحضر المشطوب من « نابلس » لسماع الرسالة ، وكان الجواب إلى

---

(١) ذكرت فى (ب) ، وفى (جـ) « الحاجى » وأحيانا « الحاج » عدة مرات.

(٢) فى (ب) و (جـ) ١٨٠ ب « ويكون هو الواسطة بيننا وبين السلطان » .

الـكندهرى أن نعطى « عكا » ونصالحه على مال . ويتركنا والانـكتار على بقية البلاد .

وكان رحمه الله قد جعل فى مقابلة « عكا » عسكرا خشية خروج العدو إلى ( تلك[1] ) النواحى التى تليها .

فلما كان الثانى والعشرون ؛ خرج العدو من « عكا » غارين على ما يليها من البلاد والرساتيق ، فثارت عليهم الـكمينات من الجوانب ، وكان قد شعر العسكر الإسلامى بخروجهم فـكمن لهم ، فأخذوا منهم جماعة ؛ وقتلوا جماعة ، ولله الحمد .

## ذكر
## عودة رسولهم فى معنى الصلح

ولما كان يوم الجمعة السادس والعشرون من الشهر : عاد رسولهم صحبة الحاجب يوسف ، وقد حمل الحاجب يوسف رسالة يؤديها بحضور صاحبهم ، وهى أن [ الملك[2] ] الانـكتار يقول : « إنى راغب فى مودتك وصداقتك » ، وأنه لا يريد أن يكون فرعون يملك الأرض ، ولا يظن ذلك فيك ، ولا يجوز لك أن تهلك المسلمين كلهم ، ولا يجوز لى أن أهلك الإفرنج كلهم ، وهـذا ابن أختى الـكندهرى قد ملـكته هذه الديار ، وسلمته إليك ليكون هو وعسكره تحت حكمك ، ولو استدعيتهم إلى الشرق[3] سمعوا وأطاعوا .

---

(١ ، ٢) زيادتان من (ب) ، ومن ج ١٨١ ا .

(٣) فى (١) « الشنق » وهو تحريف والتصحيح من (ب) ومن ج ١٨١ ب وهو يتفق مع السياق .

ويقول إن جماعة من الرهبان المنقطعين قد طلبوا منك كنائس فما بخلت عليهم بها ، وأنا أطلب منك[1] كنيسة ، وتلك الأمور التى كان يضيق صدرك منها مما كان يجرى فى المراسلة مع الملك العادل تركتها[2] وأعرضت عنها ، ولو أعطيتنى مقرعة أو خَرِبة قبلتها » .

فلما سمع السلطان هذه الرسالة جمع أرباب الرأى وأصحاب مشورته ، وسألهم عما يكون الجواب لهذه الرسالة ، فما منهم إلا من أشار بالمحاسنة وعقد الصلح ، لما كان قد أخذ المسلمين من الضجر والتعب ، وعلاهم من الديون ، واستقر الحال على هذا الجواب :

« إذا دخلت معنا هذا الدخول فما جزاء الإحسان إلا الإحسان ، إن ابن أختك يكون عندى كبعض أولادى ، وسيبلغك ما أفعل معه »[3] ، وأنا أعطيك أكبر الكنائس وهى « القمامة » ، وأما بقية البلاد فنقسمها ، فالساحلية التى بيدك تكون بيدك ، والذى بأيدينا من القلاع الجبلية يكون لنا ، وما بين العملين يكون مناصفة ، « وعسقلان » وما وراءها يكون خراباً ، لا لنا ولا لكم ، وإن أردتم قراها كانت لكم ، والذى كنت أكرهه حديث « عسقلان » .

وانفصل الرسول طيب النفس ، وذلك فى ثانى يوم قدومه وهو الثامن والعشرون ، واتصل الخبر بعد وصول الرسول إليهم أنهم راحلون

---

(١) الزيادة من (ب) ، ومن جـ ١٨١ ب .

(٢) قد قلت « تركتها » فى (ب) ، وفى جـ ١٨١ ب .

(٣) « فى حقه » فى (ب) ، وفى جـ ١٨١ ب .

إلى عسقلان طالبون جهة مصر ، ووصل رسول من جانب قطب الدين ابن قليج أرسلان يقول : إن البابا قد وصل إلى « القسطنطينية » فى خلق لا يعلم عددهم إلا الله تعالى . وقال الرسول « إنى قتلت فى الطريق اثنى عشر فارساً ، ويقول : تقدم إلى من تشاء[١] بلادى منى فانى قد عجزت عن حفظها . فلم يصدق السلطان هذا الخبر ولم يكترث به .

## ذكر

## عود رسول الإفرنج ثالثاً

ولما كان التاسع والعشرون وصل : الحاجب صاحب الشطوب ومعه جفرى رسول الملك ، فقال : « إن الملك شكر إنعام السلطان » . وقال : « إن الذى أطلبه منك ، أن يكون لنا فى قلعة القدس عشرون رجلا[٢] ، وأن من سكن من النصارى والإفرنج فى البلد[٣] لا يتعرض إليهم ، وأما بقية البلاد فلنا منها الساحليات ، والوطاة والبلاد الجبلية لكم » .

وأخبرنا الرسول من عند نفسه مناصحة أنه قد نزل عن حديث « القدس » ما عدا الزيارة ، ولكن يقول ذلك تصنعاً اضمفنا ، [ وأنهم راغبون فى الصلح[٤] ] ، وأن الانكتار لا بد له من الرواح إلى بلده .

---

(١) فى ( ا ) يستلم وما ذكر هنا فهو من (ب) ومن ج ١٨٢ ا وهو أبلغ .
(٢) « نفراً » فى (ب) وفى ( ج ) ١٨٢ ا .
( ٣ ، ٤ ) ساقطتان فى ( ا ) وهما من ب ومن ( ج ) ١٨٢ ا .

وأقام يوم الاثنين سلخ الشهر ، وكان معه فى هذه الدفعة (بازيان)[١] هدية للسلطان ، فاستحضر الأمراء بأسرهم ، وشاورهم فيما يكون الجواب لهذه الرسالة ، وانفصل الحال على هـذا الجواب ؛ وهو أن «القدس» ليس لـكم فيه حديث سوى الزيارة ، فقال الرسول: «وليس على الزوار شيء يؤخذ منهم . فعلم من هذا القول الموافقة .

وأما البلاد كعسقلان وما وراءها فلابد من خرابه ، فقال الرسول: «قد خسر الملك على سورها مالا جزيلا» ، فقال المشطوب للسلطان : «المصلحة أن تجعل مزارعها وقراها فى مقابلة خسارتها» . فأجاب : «وأن الداورن وغيره تخرب ، وتـكون بلادها مناصفة ، وأما باقى البلاد فتـكون لهم من «يافا» إلى «صور» بأعمالها ، ومهما اختلفتا فى قرية كانت مناصفة . هكذا[٢] كان جواب رسالته .

وسار فى يوم الثلاثاء مستهل رجب ومعه «الحاجب يوسف» ، وكان قد طلب رسولا [مذكوراً[٣]] يخلفه إن استقرت القاعدة ، فأخر السلطان تسيير الرسول إلى حين استقرار القاعدة ، وأنفذ لهم هدية حسنة فى «مقابل»[٤] هديتهم ، وما كان يُغلب فى الهدايا .

---

(١) بازيان : مثنى «بازى» وهو من جوارح الطير يصاد به ، وهو أنواع كثيرة ( المنجد مادة باز ) .

(٢) «فهذا» فى ب وفى ( ج ) ١٨٢ ب .

(٣) زيادة من (ب) ومن ج ١٨٢ ب .

(٤) «جواب» وفى (ب) وفى ( ج ) ١٨٢ ب .

# ذكر

## « عود » الرسول

كان عوده وقد مضى هزيع من ليلة ثالث من شهر الله[1] رجب ، فحضر الحاجب ليلا وأخبر السلطان الخبر ، وحضر الرسول فى بكرة الخميس الثالث من رجب ، وأدى الرسالة وهى : أن الملك يسأل ويخضع لك أن تترك له هذه الأماكن الثلاثة عامرة ، وأى قدر لها فى ملكك وعظمتك وما من سبب لإصراره عليها إلا أن الإفرنج لم يسمحوا بها ، وقد ترك القدس بالكلية ، فلا يطلب أن يكون فيه رهبان ولا قسوس إلا فى « القمامة » وحدها ، فأنت تترك له هذه البلاد ، ويكون الصلح عاما فيكون لهم كل ما فى أيديهم من « الدارون » إلى « أنطاكية » ، ولكم ما فى أيديكم ، وينتظم الحال[2] ويروج ، وإن لم ينتظم الصلح ، فالإفرنج لا يمكنونه من الرواح ، ولا يمكنه مخالفتهم .

فانظر إلى هذه الصناعة فى استخلاص الغرض باللين تارة ، والخشونة أخرى .

وكان لعنه الله مضطراً إلى الرواح ، وهذا عمله مع اضطراره ، والله المولى فى أن يقى المسلمين شره ، فما بلونا أعظم حيلة ولا أشد إقداما منه .

ولما سمع السلطان هذه الرسالة ، أحضر الأمراء وأرباب الرأى من

---

(١) زيادة من ب ومن ( جـ ) ١٨٢ ب .

(٢) الزيادة من (ب) ومن جـ ١٨٣ أ .

دولته وسألهم عن الجواب ما يكون ، فكان خلاصة الرأى هذا الجواب وهو : « إن أهل « انطاكية » لنا معهم حديث ورسلنا عندهم ، فإن عادوا بما نريد أدخلناهم فى الصلح وإلا فلا . وأما البلاد التى يسألها فلا يوافق المسلمون على دفعها إليه ، وإن كانت لا قدر لها . وأما سور « عسقلان » : فيأخذ فى مقابلة ما خسر عليه « لدا » فى الوطاة .

وسير الرسول صبيحة الجمعة رابع رجب ، ولما كان الخامس من رجب وصل ولده الملك الظاهر — عز نصره — وكان كثير المحبة له ، والإيثار لجانبه ، لما يراه فيه من أمارات السعادة وصفات الكفاءة ، وتوسم الملك ، فخرج السلطان إلى لقائه ، فلقيه من قاطع المزازية ، [فانه وصل على الفور[1]] ونزل له عند لقائه واحترمه وأكرمه ، وضمه إليه ، وقبله بين عينيه ، ونزل فى دار « الاسبتار » .

ولما كان السابع : وصل الحاجب يوسف وحده ، وذكر أن الملك قال له : « لا يمكن أن نخرب من « عسقلان » حجراً واحداً ، ولا يسمع عنا فى البلاد مثل ذلك ، وأما البلاد فحدودها معروفة ولا منا كرة فيها . وعند ذلك تأهب السلطان للخروج إلى جهة العدو وأظهر القوة وشدة العزم على اللقاء .

---

(١) الزيادة من (ب) ومن ( ج ) ١٨٣ ب .

# ذكر

## تبريزه — رحمة الله عليه —

ولما كان العاشر من رجب : بلغ السلطان أن الإفرنج رحلوا طالبين نحو بيروت ، فبرز من «القدس» إلى منزلة يقال لها «الجيب[1]» ، وكان قدوم الملك العادل من البلاد الفراتية فى بكرة الحادى عشر ، فدخل الصخرة ، وصلى عندها ، ثم توجه يتبع السلطان . ثم أن السلطان رحل من « الجيب » إلى « بيت نوبة » ، وبعث إلى العسكر فى « القدس » يحثهم على الخروج واللحاق به .

ولحقت السلطان فى «بيت نوبة» ، فإنى كنت تخلفت عنه ليلة الاستمداد . ثم رحل فى يوم الأحد الثالث عشر إلى « الرَّملة » ، ضَحْوة نهاره ، على تلال بين « الرملة » « ولد » ، فأقام بها بقية الأحد .

ولما كانت صبيحة الاثنين ؛ ركب جريدة حتى أتى « بَازُور » و « بَيْت جِبْرِين » فأشرف على « يافا » ، ثم عاد إلى مَنْزلَته ، وأقام بها بقية يومه ، وجمع أرباب مشورته ، وشاورهم فى النزول على « يافا » . واتفق الرأى على ذلك .

---

(١) الجيب : اسم لحصنين يقال لأحدهما « الجيب الفوقانى » والثانى « الجيب التحتانى » بين بيت المقدس ونابلس من أعمال فلسطين وهما متقاوبان ( معجم البلدان ج ٦ : ١٩٦ ط بيروت )

# ذكر

## حصار يافا

ولما كان صباح الثلاثاء خامس عشرة ؛ رحل طالباً جهة « يافا » ، فخيم عليها ضحوة النهار ، ورتب العسكر ميمنة وميسرة وقلبا ، وكان طرف الميمنة على البحر ، وطرف الميسرة أيضا على البحر ، والسلطان فى الوسط ، وكان صاحب الميمنة « الملك الظاهر » أعز الله نصره ، وصاحب الميسرة أخاه الملك العادل ،والعساكر فيما بينهما .

ولما كان السادس عشر من الشهر ؛ زحف الناس إليها ، واستحقروا أمرها استحقاراً عظيما ، ثم رتب السلطان الناس للقتال ، وأحضر المنجنيقات وركبها على أضعف موضع فى السور ، مما يلى الباب الشرقى ، « وشرع[1] » النقابون فى السور ، وارتفعت الأصوات وعظم الضجيج ، واشتد الحزم والزحف ، فأخذ النقابون النقب من شمالى الباب الشرقى إلى الزاوية بطول البدنة ، وكان قد هدم المسلمون ذلك المكان فى الحصار الأول وبناه الإفرنج .

وتمكن النقابون من النقب ، ودخلوا فيه[2] فلم يشك الناس فى أخذ البلد فى هذا اليوم ، هذا وأمر العدو فى ازدياد ، وكان الملك قد توجه من « عكا » إلى « بَيْروت » ، وهذا الذى حمل السلطان على

---

(١) « فأطلق » فى ب وفى ( ج ) ١٨٤ ب .
(٢) الزيادة من (ب) ومن ( ج ) ١٨٤ ب .

نزوله على « يافا » ثم انفصل ذلك اليوم عن قتال شديد ، قد ضرس العدو منه ، وظهر من العدو من الشدة والحمية والذب والمنعة ماأضعف قلوب الناس .

هذا ؛ والنقابون قد تمكنوا من النقب عليهم ، فلما قارب الفراغ ؛ أخذ العدو فى خسف النقب عليهم ، فخسفوه فى مواضع عدة ، وخاف النقابون وخرج منهم جماعة ، وفتر الناس عن القتال ، وعلموا أن أمر البلد مشكل ، وأنه يحتاج إلى زيادة عمل فى أخذه ، فعزم السلطان عزم مثله ، فأمر النقابين أن يأخذوا النقب فى بقية البدنة من البرج إلى الباب ، وأمر المنجنيقات أن تضرب قبالة البدنة المنقوبة ، ففعلوا ذلك ، وأقام السلطان فى تلك الليلة هناك ، إلى أن مضى من الليل [ مقدار[1] ] ثلثه ، وعاد إلى الثقل وكان الثقل بعيداً عن البلد على تل قبالته .

وأصبحت المنجنيقات قد أقيم منها اثنان ، وأقيم الثالث فى بقية النهار ، وأصبح السلطان على القتال والزحف ، فلم يجد من الناس إلا الفتور بسبب نصب المنجنيقات ، ظنا منهم أن المنجنيق لا يعمل إلا بعد أيام .

ولما علم السلطان من الناس الفتور والتواكل حملهم على الزحف ، فالتحم القتال واشتد الأمر ، وأذاقوا العدو مر الحرب ، فأشرف البلد

(١) الزيادة من (ب) ومن ( ج ) ١١٨٥ .

على الأخذ ، واتفقت النفوس ، وطمعت فى ذلك طمعاً شديداً ، وضعف العدو ، إلا أنه جرح من المسلمين جماعة بالنشاب والزنبورك من البلد .

ولما رأى العدو المخذول ما قد حل به ؛ أرسل رسولين نصرانيا وإفرنجيا يطلبان الصلح ويتحدثان فيه ، فطلب السلطان منهم قاعدة القدس وقطيعته فأجابوا إلى ذلك ، واشترطوا أن يُنظروا إلى يوم السبت الذى هو تاسع عشر رجب ، فإن جاءتهم النجدة وإلا تمت القاعدة على ما استقر ، فأبى السلطان « الانتظار » ، فعاد الرسول ، ثم رجعوا يسألونه « الانتظار[1] » فأبى ذلك ، وفتر الناس عن القتال بسبب تواصل الرسل ، سكونا إلى الدعة على جارى العادة .

فأمر السلطان النقابين بحشو النقب بعد انتهائه ، ففعلوا ذلك ، ووضعت النار فيه ، فوقع نصف البدنة ، وكان العدو قد عرف وقوع النار فى النقب ، وعلم أن ذلك المكان يقع ، فعمد إلى أخشاب عظيمة ، وهيأها خلف ذلك المكان ، فلما وقع ذلك المكان التهبت النيران فمنعت من الدخول إلى الثلمة ، ثم أمر السلطان الناس فزحفوا وضايقوا القوم مضايقة عظيمة ، فلله درهم من رجال أقيال ، ما أشدهم وأعظم بأسهم فإنهم مع هذا كله لم يغلقوا لها باباً .

ولم يزالوا يقاتلون خارج الأبواب ؛ [ولم يزل الناس فى][2] أعظم قتال ؛

---

(١ ، ٢) فى (١) « الأنظار » وهو تحريف والتصحيح من ( ب ) ومن ج ١٨٥ ب .

« حتى »[١] فصل الليل بين الطائفتين ، ولم نقدر على البلد فى ذلك اليوم بعد حرق النقوب فى باقى البدنة ، وضاق صدر السلطان لهذا الأمر ، وتقسم فكره ، وندم كيف لم يجبهم إلى الصلح ، وبات تلك الليلة فى المخيم ، وقد عزم على أن يقيم تمام خمسة مناجيق ، تضرب بعضها البدنة الضعيفة بسبب النقوب والنيران والخسف من جانبهم .

## ذكر

### فتح « يافا » وما جرى فيه من الوقائع

ولما كان يوم الجمعة ثامن عشر رجب ، أصبحت المنجنيقات وقد نصبت ، وحجارتها قد جمعت من الأودية والأماكن البعيدة لعدم الحجر فى ذلك المكان ، وظلت ترى البدنة المنقوبة . وزحف السلطان ، وزحف ولده الملك الظاهر — عز نصره ، زحفاً شديداً ، وزحف عسكر الملك العادل من الميسرة ، فإنه كان مريضاً ، وارتفعت الأصوات ، وضربت الكوسات ، وخفقت البوقات ، ورمت المنجنيقات ، وأحاط بهم الويل ، واشتد عزم النقابين فى إيقاد النار ، فما « مضى » من النهار ساعتان : إلا ووقعت البدنة ، وكان وقعها كوقع الواقعة ، ونادى الناس : ألا إن البدنة قد وقعت .

فلم يبق من له أدنى إيمان إلا وزحف ، ولا قلب من العدو إلا رعد

---

(١) فى (ب) وفى (جـ) ١٨٦ (١) « وارتفع » .

ورجف ، هذا وهم على القتال أشدو أحزم ، وعلى الموت أعز وأكرم .

وذلك أنها لما وقعت ؛ علا لها دخان وغبار ، وأظلم الأفق وعميت عين النهار ، وما تجاسر أحد على الولوج خوفا من اقتحام النار .

فلما انكشفت الظلمة ، ظهرت أسنة قد نابت مناب الأسوار ، ورماح قد سدت الثلمة حتى غيبت نفوذ الأبصار ، ورأى الناس هولا عظيما من صبر القوم وثباتهم ، وسداد حركاتهم وسكناتهم . ولقد رأيت رجلين على ممشى السور يعنمان المتسلق عليه من جهة الثلمة ، وقد أتى أحدهما حجر المنجنيق ، فأخذه ونزل إلى داخل ، وقام رفيقه مقامه ، متصديا لمثل مالحق صاحبه فى ساعة أسرع من لمح العيون ، بحيث لم يفرق بينهما فارق [ إلا ناقد بصير[1] ] .

ولما رأى العدو ما آل الأمر إليه ؛ سيروا رسولين إلى السلطان « يلتمسان »[2] الأمان ، فقال رحمه الله : الفارس بالفارس . والتركبلى بمثله ، والراجل بالراجل ، والعاجز على قطيمة القدس ، فنظر الرسول فرأى القتال على الثلمة أشد من اضرام النار . فسأل السلطان أن يبطل القتال إلى أن يعود ، فقال : لا أقدر على منع المسلمين من هذا الأمر ، ولكن ادخل إلى أصحابك فقل لهم يتجاوزوا إلى القلعة ، ويتركوا الناس يشتغلون بالبلد ، فما بقى دونه مانع . فعاد الرسول بهذه الرسالة ، فانحاز العدو إلى قلعة « يافا » بعد أن قتل منهم جماعة عظيمة .

---

(١) زيادة من (ب) ومن ( ج ) ١٨٦ ب .

(٢) فى ( ا ) « يلتمسون » وهو خطأ نحوى .

ودخل الناس البلد عنوة ، ونهبوا منه أقشة عظيمة وغلالا كثيرة ، وأثاثاً وبقايا قماش مما نهب من القافلة المصرية . واستقرت القاعدة على الوجه الذى قرره السلطان .

ولما كان عصر الجمعة المباركة ؛ وصل السلطان كتاب من « قايماز النجمى » — وكان فى طرف العدو لحمايته من عسكر العدو الذى فى عكا ، يخبر فيه أن الانكتار لما سمع خبر « يافا » . أعرض عن قصد بيروت وعاد إلى قصد « يافا » ، فاشتد عزم السلطان على تتمة الأمر ، وتسلم القلعة ممن لم ير الأمان ؛ لأنه قد لاح أخذهم ، وكان الناس لهم مدة لم يظفروا من العدو بغنم ، ونوبتهم عليه .

فكان أخذهم عنوة مما يبعث همم العسكر ، غير أن الأمان وقع ، واتفق الصلح . فكنت بعد ذلك ممن يحث على إخراج العدو من القلعة وتسلمها خوفاً من لحوق النجدة .

وكان السلطان يشتهى خروجه ، غير أن الناس قد أقعدهم التعب عن إتمام الأمر ، وأخذ منهم الجهد وشدة الحر ودخان النار بحيث لم تبق لهم استطاعة على الحركة .

وأقام السلطان يحثهم إلى أن هوى الليل ، فلما رأى ما قد نزل بالناس من التعب ؛ ركب وسار إلى خيمته إلى الثقل ، وسار الناس إلى خدمته ، ثم نزل فى خيمته ، وعدت إلى خيمتى ، وعندى من الخوف ما أقلقنى عن النوم .

ولما كان سحر تلك الليلة ؛ سمعنا بوق الإفرنج قد نعق ، فعلمنا بوصول النجدة ، وقد وصلت فى البحر ، فاستدعانى السلطان من وقته ، وقال : لاشك أن النجدة قد وصلت فى البحر ، وعلى الساحل من عساكر الإسلام من يمنعهم من النزول ، والمصلحة أن تسير إلى الملك الظاهر وتقول له : أن تقف بظاهر الباب القبلى ، وتدخل أنت ومن تراه إلى القلعة وتخرجون القوم ، وتستولون على مافيهامن الأموال والأسلحة ، وتكتبها بخطك إلى الملك الظاهر وهو [(١)] خارج البلد ، وهو يسيرها إليه ، ويسير معى لتقوية البلد ، ( على )[(٢)] ذلك « عز الدين جرديك »[(٣)] و « علم الدين قيصر » و « درباس المهرانى » .

فسرت من ساعتى ومعى « شمس الدين » عدل الخزانة حتى أتيت « الملك الظاهر » وهو نائم على شلبته على تل قريب البحر فى اليزك وعليه كزاغندة ، وهو بلأمة حربة ، فلا ضيع الله صنعهم فى نصرة الإسلام .

فأيقظته فقام والنوم فى عينيه ، وسرت فى خدمته وهو يستفهم منى رسالة السلطان حتى وقف حيث أمره ، ودخلنا نحن إلى « يافا » وأتينا القلعة وأمرنا الإفرنج بالخروج ، فأجابوا ( إلى ذلك )[(٤)] وتهيأوا للخروج .

---

(١) زيادة من (ب) ومن ج ١٨٧ ب .
(٢) فى (ا) « مع » والتصحيح من ( ب ) ومن ج ١٨٧ ب .
(٣) ف (ا) « جارديك » وهو خطأ .
(٤) زيادة من (ب) ومن (ج) ١٨٧ ب .

# ذكر

## كيفية بقاء القلعة فى يد العدو

ولما أجابوا إلى الخروج قال عزالدين جرديك : « لا ينبغى أن يخرج منهم أحد حتى يخرج الناس من البلد خشية أن يتخطفهم الناس ». وكان الناس قد داخلهم الطمع فى البلد ، وأخذ عز الدين جرديك[1] يشتد فى ضرب الناس وإخراجهم ، وهم غير مضبوطين بعد ولا محصورين فى مكان » ، فكيف يمكن إخراجهم ؟ .

وطال الأمر إلى أعلا النهار وأنا ألومه . وهو لا يرجع عن ذلك ، والزمان مضى ، ولما رأيت الوقت كان يفوت قلت له : « إن النجدة قد وصلت ، والمصلحة المسارعة فى إخراجهم ، والسلطان قد أوصانى بذلك » ، فلما عرف السبب فى حرصى أجاب إلى إخراجهم .

ومضينا إلى باب القلعة القريب من الباب الذى الملك الظاهر قائم عنده ، فأخرجنا تسعة وأربعين نفراً بخيولهم ونسائهم وسيرناهم ، ولما خرج هؤلاء اشتد الباقون »[2] وحدثتهم نفوسهم بالعصيان . وكان سبب خروج من خرجوا أنهم استقلوا المراكب التى جاءتهم ، وظنوا أن لا نجدة لهم فيها ، ولم يعلموا أن الانكتار مع القوم ، ورأوهم قد تأخروا عن النزول إلى علو النهار ، فخافوا أن يمتنعوا فيؤخذوا ويقتلوا ، فخرج من خرج .

---

(١) زيادة من (ب) ومن ( ج ) ١٨٧ ب .

(٢) ولما خرج هذا النفر اشتد نفس الباقين . فى (ب) ، وفى ( ج ) ١٨٨ ا

ثم بعد ذلك قربت النجدة حتى صاروا خمسةً وثلاثين مركبا ، فقَوِيَت نفوس الباقين فى الحصن ، وظهرت عليهم أمارات العصيان ودلائله ، وخرج منهم من أخبرنى بتشويش عزمهم ، وأخذوا الطارقيات والجنويات[1] وعلوا على الأسوار ، وكانت القلعة جديدة لم تشرف بعد .

فلما رأيت الأمر قد آل إلى ذلك ؛ نزلتُ من التل الذى كنتُ واقفاً عليه ، وهو ملاصق لباب القلعة . وقلت لـ « عز الدين جُرْديك » وهو مع عسكره فى الأسفل مع جمع من الأجناد ، « خذوا حذركم فقد تغيرت عزائم القوم » .

فما كانت الإساعة بحيث صرت خارج البلد فى خدمة « الملك الظاهر » ؛ إلا وقد ركب القوم خيلهم وحملوا من القلعة حملة الرجل الواحد ؛ وأخرجوا من كان فى البلد من الأجناد ، ولقد ازدحم الناس فى الباب حتى كاد أن[2] يتلف منهم جماعة ، وبقى فى بعض الكنائس جماعة من أتباع العساكر مشتغلين بما لا يجوز ، فهجموا عليهم ، وقتلوا منهم وأسروا .

وسيرنى « الملك الظاهر » إلى والده السلطان أعرفه بالحال ، فأمر الجاويش أن ينادى فى العسكر ، وضرب الكوس للقتال ، ونفر الناس من كل جانب للغزاة ، وهاجموا البلد ، وحشروا العدو فى القلعة ، فأيقنوا بالبوار ، واستبطأوا نزول النجدة إليهم ، وخافوا خوفاً عظيما .

---

(١) الطارقيات : جمع طارقة وهى الدرقة أو الترس ( Buckler ) ( الروضتين لابن شامة تحقيق د . محمد حلمى أحمد )

(٢) الزيادة من (ب) . ومن (ج) ١٨٨ ب

فأرسلوا « بطركهم » والقسطلان[1] رسولين إلى السلطان يعتذران إليه مما جرى ، ويسألان القاعدة الأولى ، فخرجا إلى السلطان ، والقتال يشتد عليهم ، وكان سبب انقطاع النجدة أنهم رأوا البلد مشحونا ببيارق المسلمين ورجالهم ، فخافوا أن تكون القلعة قد أخذت ، وكان البحر يمنع من سماع الصوت من كل جانب لكثرة الضجيج والتهليل والتكبير .

فلما رأى من فى القلعة شدة الزحف عليهم وامتناع النجدة من النزول مع كثرتها ؛ فإنها بلغت نيفاً وخمسين مركبا ، منها خمسة عشر شانياً فيها شانى الملك ؛ علموا أن النجدة ظنت أن البلد قد أخذ ، ووهب واحد نفسه للمسيح ، وقفز من القلعة إلى الميناء ، وكانت رملا فلم يصبه شىء ، واشتد عدْوا حتى أتى البحر ، فخرج له شانى وأخذه إلى شانى الملك ، فحدثه بالحديث .

فلما شعر الانكتار أن القلعة مع أصحابه ؛ اندفع يطاب الساحل ، وكان أول شانى ألقى من فيه ( إلى البر )[2] شانيه — وكان أحمرا ، ورقبته حمراء ، وبَيْرَقِهِ أحمر ، فما كانت إلا ساعة حتى نزل كل من فى الشوانى إلى الميناء ، هذا كله وأنا أشاهد ذلك .

ثم حملوا على المسلمين ، فاندفعوا بين أيديهم وأخرجوهم من الميناء ،

---

(١) القسطلان : تعريب للفظ اللاتينى (Castellanus) وتقابله فى الفرنسية (Châtelin) ومعناه مستحفظ القلعة .

ارجع إلى ( السلوك للمقريزى ج ١ : ٥٢٤ تحقيق د . زيادة ) .

وإلى ( مفرج الكروب لابن واصل ج ٢ : ٧٦ تحقيق د جمال الشيال )

(٢) زيادة من ( ج ) ١٨٩

وكان تحتى فرس فسقته إلى السلطان وأخبرته الخبر وبين يديه الرسولان، وقد أخذ القلم بيده ليكتب لهم الأمان ، فعرفته فى أذنه ما جرى ، فامتنع من الكتابة وشغلهم بالحديث، فما كان إلا ساعة حتى فر المسلمون نحو السلطان ، فصاح فى الناس فركبوا ، وقبض على الرسولين ، وأمر بترحيل الثقل والأسواق إلى بازور .

فرحل الناس ، وتخلف لهم ثقل عظيم مما كانوا نهبوه من « يافا » ، لم يقدروا على نقله ، ورحل الثقل وبقى [ السلطان ][1] جريدة فى الليل ، وبات ليلته هناك ، وخرج الانكتار إلى موضع السلطان الذى كان فيه لضيق البلد ، وأمر من فى القلعة أن يخرجوا إليه معظم سواده ، فاجتمع به جماعة من المماليك ، وجرت بينهم أحاديث ومجاوبات كثيرة .

## ذكر
## حديث الصلح

ثم طلب الحاجب « أبا بكر العادلى » ، وحضر عندهم « أيبك العزيزى » و« سنقر المشطوبى » وغيرهم ، وكان قد صادق جماعة من خواص المماليك ، ودخل معهم دخولا عظيما ، بحيث كانوا يجتمعون به فى أوقات متعددة ، وكان قد صادق من الأمراء جماعة كـ « بدر الدين دُلْدُرم » وغيره .

فلما حضر هذا الجمع[2] عنده : جد وهزل ، ومن جملة ما قاله :

(١) زيادة من (ب) ، ومن ( جـ )١٨٩ ا

(٢) فى (ب) ، وفى ( جـ ) ١٨٩ ب « النفر »

« هذا السلطان عظيم ، وما فى هذه الأرض للاسلام أكبر ولا أعظم منه ، كيف رحل عن المكان بمجرد وصولى ؟ ، والله مالبست لأمة حرب ، ولا تأهبت لأمر ، وليس فى رجلى إلا زَرْبُول[1] البحر ، فكيف « تأخر » .

ثم قال « والله العظيم الكريم : ماظننت أنه يأخذ يافا فى شهرين ، فكيف أخذها فى يومين ! » ثم قال لأبى بكر : « سلم على السلطان ، وقل له : بالله عليك أجب سؤالى فى الصلح ، فهذا الأمر لابد له من آخر ، وقد هلكت بلادى وراء البحر ، وما فى دوام هذا مصلحة لالنا ولالكم » .

ثم انفصلوا عنه ، وحضر أبو بكر عند السلطان ، وعرفه ما قال ، وكان ذلك فى أواخر يوم السبت تاسع عشر شهر رجب .

فلما سمع السلطان ذلك أحضر أرباب المشورة ، وانفصل الحال على أن الجواب هو : « إنك كنت طلبت الصلح أولا على قاعدة ، وكان الحديث فى « يافا » و « عسقلان » ، والآن قد خربت « يافا » ، فيكون لك من « صُور » إلى « قَيْسارية » .

---

(١) فى ( ا ) «رذول» وهو تحريف والتصحيح من ( جـ ) ١٨٩ ب و « زربول » كلمة يونانية الأصل ، معناها نوع من الحذاء ، وذكر Dozy أن هذه الكلمة كانت تطلق فى القسطنطينية على الحذاء الذى كان يلبسه العبيد ، وأن الكلمة قد انتقلت من الدولة البيزنطية إلى بلادالشام ، واستعمله العرب فى العصور الوسطى للدلالة على هذا النوع من الحذاء الذى يلبسه العبيد .
ارجع الى (Dozy. Supp.Dict. Ar p. 454)
والى ( مفرج الكروب لابن واصل جـ ٢ : ٣٩٨ : تحقيق د . الشيال ) .

فمضى إليه وعرفه ما قال ، فرده إليه ومعه رسول إفرنجى ، وقال يقول الملك : «إن قاعدة الإفرنج أنه إذا أعطى واحد لواحد بلدا صار تبعه وغلامه ، وأنا أطلب منك هذين البلدين « يافا » و « عَسقْلان » وتكون عساكرهما فى خدمتك دائما ، وإذا احتجت إلى وصلت إليك فى أسرع وقت ، وخدمتك كما تعلم خدمتى .

فكان جواب السلطان : حيث دخلت هذا المُدخل ، فأنا أجيبك بأن تجعل هذين البلدين قسمين ، أحدها لك وهو « يافا » وماوراءها ، والثانى لى وهو عسقلان وماوراءها » .

ثم [ سار ](١) الرسولان ورحل السلطان إلى الثقل ، وكان المخيم ب « بازُور » ، ورتب النَّقابين لذلك واليزك عندهم ، وسار حتى أتى « الرَّملة » ، فخيم بها يوم الأحد العشرين من رجب ، ووصل إليه الرسول مع الحاجب أبى بكر ، فأمر بإكرامه والإحسان إليه ، وكانت رسالته : الشكر من الملك على إعطائه « يافا » ، وتجديد السؤال فى « عَسْقلان » ، ويقول إنه إن وقع الصلح فى هذه الأيام سار إلى بلاده ، ولا يحتاج أن يشتى ها هنا ، فأجابه السلطان فى الحال بقوله : « أما النزول عن عَسْقلان فلا سبيل إليه ، وأما تشتيته ها هنا فلا بد منها ، لأنه قد استولى على هذه البلاد ، ويعلم أنه متى غاب عنها أخذت بالضرورة كما تؤخذ أيضاً إذا أقام إن شاء الله تعالى ، وإذا سهل عليه أن يشتى

(١) الزيادة من (ب) ومن ( ج ) ١٩٠ ( أ )

ها هنا وبعد عن أهله وطنه مسيرة شهرين ؛ وهو شاب فى عنفوان شبابه وقت اقتناص لذاته ؛ أفلا يسهل علىّ أن أشتى وأصيف ؛ وأنا فى وسط بلادى وعند أولادى وأهلى ويأتى إلىّ ما أريد ، وأنا رجل شيخ قد كرهت لذات الدنيا وشبعت منها ورفضتها عنى ، والعسكر الذى يكون عندى فى الشتاء ؛ غير العسكر الذى يكون عندى فى الصيف ، وأنا أعتقد أنى فى أعظم العبادات ، ولا أزال كذلك حتى يعطى الله النصر لمن يشاء » .

فلما سمع الرسول ذلك ؛ طلب أن يجتمع بالملك العادل فأذن له فى ذلك ، فسار إلى خيمته ، وكان قد تأخر بسبب مرض اعتراه إلى موضع يقال له « صمويل » ، فسار الرسول إليه مع جماعة ، ثم بلغ السلطان أن عسكر العدو قد رحل من « عكا » قاصداً يافا للانجاد ، فجمع أرباب الرأى وعقد مشورة فى قصدهم ، فاتفق الرأى على أنهم يقصدونهم ، ويرحل بالثقل إلى الجبل ، ويقصدونهم جريدة ، فإن لاحت فرصة انتهزوها وإلا رجعوا عنهم ، وهذا أولى من أن نصبر حتى تجتمع عساكر العدو ، ونرحل إلى الجبل فى صورة منهزمين ، وأما إذا وصلنا الآن ففى صورة طالبين .

فأمر السلطان الثقل أن يست إلى الجبل عشية الاثنين الحادى والعشرين من رجب ، وسار هو جريدة فى صبيحة يوم الثلاثاء حتى نزل على الوجاء ، ووصل إليه من أخبر أن عسكر العدو قد وصل قيسارية ودخل عليها ، ولم يبق فيه طمع ، وبلغه أن الانكتار قد نزل خارج يافا فى نفر يسير بخيم قليلة ، فوقع له أن ينتهز فيه الفرصة ، ويكبس خيمه

وينال منهم غرضاً ، وعزم على ذلك ، وسار من أول الليل والأدلة من العرب تتقدمه ، وهو يقطع الطريق ، إلى أن أتى فى الصباح إلى خيام العدو ، فوجدها تقريباً عشر خيم ، فداخله الطمع ، وحملوا حملة الرجل الواحد ، فثبتوا فى أماكنهم وكشروا عن أنياب الحرب ، فوجموا من ثباتهم ، ودار العسكر حلقة واحدة .

ولقد حكى إلى بعض الحاضرين ؛ - فإنى كنت تأخرت مع الثقل ، ولم أحضر هذه الوقعة - [ولله الحمد](١) — لالتيات مزاجى — أن عدة الخيل كان يحرزها العسكر سبعة عشر ، والقل تسعة ، والرجال دون الألف ، فمن قائل ثلاثمائة ، ومن قائل أكثر من ذلك ، فوجد السلطان من ذلك مغيظة عظيمة ، ودار على الأطلاب يحثها فلم يجب دعاءه سوى ولده الملك الظاهر ، وقال له الجناح أخو المشطوب: « قل لغلمانك الذين ضربوا الناس يوم فتح يافا ، وأخذوا منهم الغنيمة ، وكأن فى قلوب العسكر من صلح « يافا » حيث فوتوهم الغنيمة ما كان ، وجرى ماجرى ، ما أثر هذا الأثر؟.

فلما رأى السلطان ذلك ؛ رأى أن وقوفه فى مقابلة هذه الشرذمة اليسيرة من غير عمل خسة فى حقه ، وقد بلغنى أن الانكتار أخذ رمحه ذلك اليوم ، وحمل من طرف الميمنة إلى طرف الميسرة فلم يتعرض له أحد ، فغضب السلطان ثم أعرض عن القتال ، وسار حتى أتى « بازور » كالمغضب ونزل بها ، وذلك فى يوم الأربعاء الثالث والعشرين من رجب ، وبات العسكر باليزك .

---

(١) الزيادة من (ب) ومن ( ج ) ١٩١ ب .

ثم أصبح يوم الخميس فسار إلى « النطرون » ونزل به ، وأنفذ إلى العسكر فأحضره عنده ، فوصلنا إليه آخر نهار الخميس الرابع والعشرين ، فبات به . ثم أصبح يوم الجمعة ، فسار إلى أخيه [الملك][1] العادل يفتقده ، ودخل « القُدس » وصلى الجمعة ، ونظر المهارُ ورتبها ، ثم عاد من يومه إلى الثقل ، وبات فيه على « النطرون » .

## ذكر

### قدوم العساكر

كان أول من وصل « علاء الدين بن أتابك » صاحب المَوْصل ، وكان وصوله ضحاء نهار السبت السادس والعشرين من رجب ، فلقيه السلطان عن بُعْد واحترمه وأكرمه ، وأنزله عنده في الخيمة ، وعمل همة حسنة ، وقدم له تَقْدمة جميلة ثم سار إلى خيمته .

وأما رسول الملك فإنه عاد في هذا اليوم ، فإن الملك العادل [كان[2]] قد حمله رسالة مشافهة إلى الملك ، وعاد مع « الحاجب أبي بكر إلى يافا » ، فعاد أبو بكر وحضر عند السلطان في ذلك اليوم ، وأخبره أن الملك لم يتركني أدخل « يافا » ، وخرج إليّ وكلمني في ظاهرها ، وكان كلامه إليّ : كم أطرح نفسي على السلطان وهو لا يقبلني ، وأنا كنت أحرص أن أعود إلى بلادي ، والآن قد هجم الشتاء وتغيرت الأنواء ، وقد عزمت

(١) الزيادة من ( ب ) ومن ( ج ) ١٩٢ ا

(٢) زيادة من (ب)

على الإقامة ، ومابقى بيننا حديث . هكذا كان كلامه — خذله الله تعالى .

ولما كان يوم الخميس تاسع شعبان قدم عسكر « مصر » ، فخرج السلطان إلى لقائهم ، وكان فيهم « مجد الدين هلدرى » ، و« سيف الدين يازكُج » ، وجماعة الأسدية ؛ وكان فى خدمته الملك « المؤيد مسعود » ، وقد أظهروا الزينة ، ونشروا الأعلام والبيارق ، فكان يوما مشهودا ، ثم أنزلهم عنده . ومد الخِوَان ، ثم ساروا إلى منازلهم .

## ذكر

### قدوم الملك المنصور بن تقى الدين — رحمه الله

وكان قد تسلم البلاد التى وعد بها ، وكان وصوله إلى خدمة الملك العادل فى يوم السبت حادى عشر شعبان ، فنزل عنده بـ« ماء صمويل » وافتقده وكتب الملك العادل فى ذلك اليوم إلى السلطان يخبره بوصوله ، وسأله فى احترامه وإكرامه وإطلاق الرحمة له .

ولما تحقق الملك الظاهر وصول الملك المنصور ؛ استأذن والده فى لقائه ، وافتقاد الملك العادل ، فأذن له فى ذلك ، فسار فوجد الملك المنصور مخيما بـ« بيت نوبة » ، فنزل عنده ، وخرج إلى لقائه ، وأقام عنده إلى العصر ، وذلك فى يوم الأحد ، ثم أخذه وسار به جريدة حتى أتى خيمة السلطان ونحن فى خدمته ، فدخل عليه فاحترمه ، ونهض إليه واعتنقه ، وضمه إلى صدره ، ثم غشيه البكاء فصبّر نفسه حتى غلبه الأمر ، وغشيه من البكاء ما لم ير مثله ، فبكى الناس لبكائه ساعة زمنية ، ثم باسطه ، وسأله عن الطريق ثم انفصل .

وبات فى خيمة الملك الظاهر إلى صبيحة الإثنين ، ثم ركب وعاد إلى عسكره ، ونشروا الأعلام والبيارق ، وكان معه عسكر جليل ، فقرت عين السلطان ، ونزل فى مقدمة العسكر مما يلى « الرملة » .

## ذكر

### رحيله — رحمه الله — إلى « الرملة »

وذلك أنه لما رأى العساكر قد اجتمعت ؛ جمع أرباب الرأى ، وقال : « إن الانكتار قد مرض مرضاً شديداً ، والأفرنسيسية قد ساروا راجعين ليعبروا البحر من غير شك ، ونفقاتهم قد قلت ، وهذا العدو قد أمكن الله منه ، وأرى أن نسير إلى « يافا » ، فإن وجدنا فيها مطمعاً باغناه ، وإلا عدنا تحت الليل[1] إلى « عسقلان » ، فما تلحقنا النجدة إلا وقد نلنا منها غرضا . فرأوا ذلك رأيا .

وتقدم إلى جماعة من الأمراء كـ « عزالدين جرديك » وجمال الدين فرج وغيرهما بالمسير فى ليلة الخميس سادس عشر شعبان ؛ حتى يكونوا قريباً من يافا فى صورة يزك ، يستطلعون كم فيها من الخيالة والرجالة بالجواسيس ثم يعرفونه ذلك ، فساروا .

هذا ورسل الانكتار لا تنقطع فى طلب الفاكهة والثلج ، ووقع عليه فى مرضه شهوة الكمثرى والخوخ ، فكان السلطان يمده بذلك

(١) زيادة من ( جـ ) ١٩٣ ا ، ومن ( ب )

ويقصد كشف الأخبار بتواتر الرسل ، والذى انكشف من الأخبار ؛ أن فيها ثلاثمائة فارس على قول المكثر ، ومئتى فارس على قول المقل ، وأن الكندهرى يتردد بينه وبين الفرنسيسية فى مقامهم ، وهم عازمون على عبور البحر قولا واحداً ، وأنهم لا عناية لهم بسور البلد ، وإنما عنايتهم بعمارة سور القلعة ، وكان الإنكتار قد طلب الحاجب أبا بكر العادلى ، وكان له معه انبساط عظيم .

فلما تحقق السلطان الأخبار ؛ أصبح يوم الخميس راحلا إلى جهة « الرملة » ، فنزل بها ضاحى نهار ، ووصل الخبر من المغيرين يقولون : « إنا أغرنا على يافا » فلم يخرج إلا نحو[1] ثلاثمائة فارس ، معظمهم على بغال . فأمرهم السلطان بمقامهم هناك ، ثم وصل الحاجب أبو بكر ومعه رسول من عند الملك يشكر السلطان على إنعامه بالفواكه والثلج ، وذكر أبو بكر أنه تفرد به وقال له : « قل لأخى الملك العادل بمصر كيف يتوصل إلى السلطان فى معنى الصلح ، ويستوهب لى منه « عسقلان » ، وأمضى أنا ، ويبقى [ ها هنا ][2] فى هذه الشرذمة اليسيرة يأخذ البلاد منهم ، فليس لى غرض إلا إقامة جاهى بين الإفرنج ، وإن لم ينزل السلطان عن عسقلان ؛ فيأخذ لى منه عوضا عن خسارتى على عمارة سورها » .

فلما سمع السلطان ذلك ؛ سيرهم إلى الملك العادل ، وأمر إلى ثقة عنده

---

(١) فى (ب) « مقدار »

(٢) ما بين الحاصرتين ساقط من ( ا ) ، وهو فى (ب) و (ج) ١٩٣ ا

عنده أن يمضي إلى الملك العادل ويقول له : « إن نزلوا عن «عسقلان» فصالحهم ، فإن العسكر قد ضجروا من ملازمة البيكار[1] ، والنفقات قد نفذت » ، فسار ضحى الجمعة سابع عشر شعبان .

## ذكر

## الاجابة إلى النزول عن « عسقلان »

ولما كان غروب الشمس من اليوم المذكور ؛ أنفذ « بدر الدين دُلْدُرُم » من اليزك يقول : « إنه قد خرج إلينا خمسة أنفس ، منهم شخص مقدم عند الملك يسمى « هوات » ، وذكروا أن لهم معنا حديثا ، فهل أسمع حديثهم أولا ؟ فأذن له السلطان في ذلك .

ولما كانت العشاء الآخرة ؛ حضر « بدر الدين » بنفسه ، وأخبر أن حديثهم كان أن الملك قد نزل عن «عَسْقلان» وعن طلب العِوَض عنها ، وقد صح مقصوده في الصلح .

فأعاده السلطان ثانية لينفذ إليه ثقة يأخذ يده على ذلك ويقول : إن السلطان قد جمع العساكر ، وما يمكنني أن أحدثه هذا الحديث إلا أن أثق [ بك ][2] أنك لا ترجع [ فيه ][3] ، وبعد ذلك أحدثه . وسار

(١) البيكار : لفظ فارسي معناه الحرب .
( ارجع إلى (Dozy. Supp. Dic. Ar.)
و( مفرج الكروب ج ٣ : ٢٠٤ تحقيق د جمال الشيال .
(٢ ، ٣) ساقطتان من ( ا ) وموجودتان في ( ب ) ، و (ج) ١٩٤ ( ا )

بدر الدين على هذه القاعدة ، وكتب إلى الملك العادل يخبره بما جرى .

ولما كان يوم السبت ثامن عشر شعبان ؛ أنفذ بدرالدين ، وذكر أنه أخذ يده على هذه القاعدة عن يثق به ؛ وأن حدود البلاد على ما استقر فى الدفعة الأولى مع الملك العادل ، فأحضر السلطان الديوان ، فذكروا « يافا » ، وأعمالها ، وأخرج « الرملة » [ منها ][1] و « يبنا » و « مجدل يابا » ، ثم ذكر « قيسارية » وأعمالها ، « وأرسوف » وأعمالها ، و « حيفا » وأعمالها ، و « عكا » وأعمالها ، وأخرج منها « الناصرة » « وصفورية » ، وأثبت الجميع فى ورقة ، وكتب جواب الكتاب ، وأنفذه على يد « طَرَنْطَاى » مع الرسول ، وكان قد وصل الرسول لتحرير القاعدة مع بدر الدين فى عصر السبت .

وقال للرسول : هذه حدود البلاد التى تبقى فى أيديكم ، فإن صالحتم على ذلك فبارك ، قد « أعطيتم »[2] يدى ، ولينفذ الملك من يحلف ، ويكون ذلك فى غداة غَدٍ ، وإلا فليعلم أن هذا تدفيع ومماطلة ، ويكون الأمر قد انفصل من بيننا . وساروا فى بكرة الأحد على هذه القاعدة .

ولما كانت العشاء الآخرة يوم الأحد ؛ وصل من أخبر بوصول

---

(١) زيادة من (ب) ، ومن (ج) ١٩٤ب

(٢) فى (ب) ، وفى ج ١٩٤ ب «أعطيتكم» .

طرنطاى ومعه الرسول ، واستأذن فى حضورهما ، فأذن — رحمه الله — فى حضور طرنطاى وحده ، فذكر أن الملك قد وقف على تلك الرقعة ، وأنكر أنه نزل عن العوض ، فأذكره ، فذكَّره الجماعة الذين خرجوا إلى بين يدى «دلدرم» أنه نزل عن ذلك ، فقال : إذنْ أنا قلته فلا أرجع عنه .

قولوا للسلطان : مُبارك ، رضيت بهذه القاعدة ، وقد رجعت إلى مروءتك ، فإن زدتنى شيئاً فمن فضلك وانعامك » . ثم سار ، واحضِر الرسل ليلا ، وأقاموا إلى بكرة ، وحضروا عند السلطان بكرة الأثنين ، فذكروا ما استقر عن صاحبهم ، ثم انفصلوا إلى خيمهم وحضر عند السلطان أرباب المشورة ، واستقر الأمر ، وانفصلت القاعدة ، وسار الأمير بدر الدين دلدرم إلى الملك العادل ، وأخذ الرسل معه فى صورة من يسأل فى زيادة «الرَّملة » ، وعاد فى عشاء الآخرة ليلة الاثنين .

وكتبت المواضعة ، وذكر فيها شروط الصلح ثلاث سنين من تاريخها وهو الأربعاء الثانى والعشرين من شعبان سنة ثمانية وثمانين وخمسمائة ، وزاد فيها « الرملة » لهم و « لد » أيضاً .

وسير العدل وقال له : « إن قدرت أن ترضيهم بأحد الموضعين أو مناصفتهما فافعل ، ولا يكون لهم حديث فى الجبليات » . ورأى السلطان ذلك مصلحة ، لما عرى الناس من الضعف وقلة النفقات ، والشوق إلى الأوطان ، ولما شاهده من تقاعدهم عن « يافا » يوم أمرهم بالحملة فلم يحملوا . فخاف أن يحتاج إليهم فلم يجدهم ، فرأى أن يجيبهم مدة حتى يستريحوا ، ويتبعوا غير هذه الحالة التى صاروا إليها ، ويعمر البلاد ، ويشحن « القدس » بما يقدر عليه من الآلة ، ويتفرغ لعمارتها .

وكان من القاعدة ؛ أن « عسقلان » تكون خراباً ، وأن يتفق أصحابنا وأصحابهم على خرابها ؛ خشية أن يأخذها[1] عامرة فلا يخربها . فمضى العدل على هـذه القاعدة ، واشترط دخول البلاد الإسلامية ، واشترطوا هم دخول صاحب « أنطاكية » و « طرابلس » في الصلح على قاعدة آخر صلح صالحنا عليه ، واستقر الحال على ذلك .

وسار الرسل ، وحكم عليهم أن لا بد من فصل الحال ، إما الصلح وإما الخصومة ، خشية أن يكون هذا الحديث من قبيل أحاديثه السابقة ، ومدافعاته المعروفة .

وفي ذلك اليوم وصل رسول سيف الدين بكتمر صاحب « خلاط » يبذل الطاعة والموافقة ، وسير العساكر ، وحضر رسول « الكُرْج[2] » ، وذكر فصلا في معنى الزيارات التي لهم في « القدس » وعمارتها ، وشكوا أنها أخذت من أيديهم ، ويسأل عواطف السلطان أن يردها إلى نوابهم ، ورسول صاحب « أَرْزَن الروم »[3] يبذل الطاعة والعبودية .

## ذكر
## تمام الصلح

ولما وصل العدل إلى هناك أنزل خارج البلد في خيمة حتى أعلم الملك

---

(١) في (١) « تخربها » ، والتصحيح من (ب) ، ومن ج ١٩٥ ا .

(٢) الكرج : جيل من الناس كانوا يسكنون جبل القبق وبلد السرير بالقوقاز ، قويت شوكتهم حتى ملكوا تفليس ( ياقوت ١٦٢ : ٤٤٦ ط بيروت ) .

(٣) أرزن الروم : بلدة من بلاد أرمينية أهلها أرمن ( ياقوت ج ٢ : ١٥٠ ط بيروت ) .

به ، فلما علم به استحضره عنده مع بقية الجماعة ، وعرض العدل عليه النسخة - وهو مريض الجسم - فقال : «لاطاقة لى بالوقوف عليها ، وأنا قد صالحت ، وهذه يدى» ، فاجتمعوا بالكندهرى والجماعة ، وأوقفوهم على النسخة ، ورضوا بـ « لُد » و « الرملة » مناصفة ، وبجميع ما فى النسخة ، واستقرت القاعدة أنهم يحلفون بكرة يوم الأربعاء ، لأنهم كانوا[1] قد أكلوا شيئاً ، وليس من عادتهم الحلف بعد الأكل ، وأنفذ العدل إلى السلطان من عرفه ذلك .

ولما كان يوم الأربعاء الثانى والعشرون من شعبان ؛ حضر الجماعة عند الملك ، وأخذوا يده وعاهدوه ، واعتذر أن الملوك لايحلفون ، وقنع السلطان بذلك ، ثم حلف الجماعة والمستحلف الكندهرى — ابن أخته المستخلف عنه فى الساحل ، و « باليان بن بارزان [ابن[2]] صاحب طبرية ، ورضى الاسبتار والداوية وسائر مقدمى الإفرنجية بذلك ، وساروا فى[3] بقية يومهم عائدين إلى المخيم السلطانى ، فوصلوا العشاء الآخرة ، وكان الواصلون من جانبهم : ( ابن الهنفرى ) و(ابن بارزان) وجماعة من مقدميهم ، فاحترموا وأكرموا ، وضربت لهم خيمة تليق بهم ، وحضر العدل وحكى ما جرى .

ولما كانت صبيحة الثالث والعشرون ؛ حضر الرسل فى خدمة

---

(١) زيادة من (ب) ، ومن ج ١٩٦ ا.

(٢) زيادة من ج ١٩٦ ا (٣) زيادة من (ب)

السلطان ، وأخذوا بيده الكريمة ، وعاهدوه على الصلح على القاعدة المستقرة ، واقترحوا حلف جماعة وهم الملك العادل والملك الأفضل والملك الظاهر — عز نصرهم — ، والمشطوب وبدر الدين دلدرم والملك المنصور ، ومن كان مجاوراً لبلادهم ، كابن المقدم وصاحب شيزر وغيرهم ، فوعدهم السلطان أن يسير معهم رسلا إلى الجماعة المجاورين ليحلفوهم لهم ، وحلف لصاحب أنطاكية وطرابلس وعلق اليمين بشرط حلفهم للمسلمين ، فإن لم يحلفوا فلا يدخلوا فى الصلح .

ثم أمر المنادى ينادى فى الوطاقات[1] والأسواق « ألا إن الصلح قد انتظم فى سائر بلادهم ، فمن شـاء من بلادهم أن يدخل إلى بلادنا فليفعل ، ومن شاء من بلادنا أن يدخل إلى بلادهم فليفعل » .

وأشار[2] رحمة الله عليه أن طريق الحج قد فتح من الشام ، ووقع له عزم على الحج فى ذلك المجلس ، وكنت حاضرا ذلك جميعه ، وأمر السلطان أن يسير مائة نقاب لتخريب سور « عسقلان » معهم أمير كبير ، ولإخراج الإفرنج منها ، ويكون معهم جماعة من الإفرنج إلى حين وقوع الخراب فى السور خشية استبقائه عامرا . وكان يوماً مشهودا ، غشى الناس من الطائفتين فيه من الفرح والسرور مالا يعلمه إلا الله تعالى .

والله العظيم ! إن الصلح لم يكن من إيثاره فإنه قال لى فى بعض محاوراته

---

(١) الوطاقات : جمع وطاق وهى بمعنى المعسكرات ، وأصل وطاق ، بالتركية أوطاق ، أوأوتاق ، أوأوتاغ — ارجع إلى مفرج الكروب ج٢ : ٤٠٥ تحقيق د. جمال الشيال

(٢) فى (ب) ، وفى جـ ١٩٦ ب « أشاع » .

فى الصلح : أخاف أن أصالح ، وما أدرى أى شىء يكون منى فيقوى هذا العدو وقد بقيت[1] لهم هذه البلاد ، فيخرجوا لاسترداد[2] بقية بلادهم ، وترى كل واحد من هؤلاء الجماعة قد قعد فى رأس قلعته[3] — يعنى حصنه ، وقال : لا أنزل فيهلك المسلمون . هذا كلامه ، وكان كما قال ، ولكنه رأى المصلحة فى الصلح لسآمة العسكر وتظاهرهم بالمخالفة .

وكان مصلحة فى علم الله تعالى ، فإنه اتفقت وفاته بعيد الصلح ، ولو كان اتفق ذلك فى أثناء الوقعات لكان الإسلام على خطر ، فما كان الصلح إلا توفيقا وسعادة له .

## ذكر
## خراب عسقلان

ولما كان الخامس والعشرون من شعبان ؛ ندب السلطان « علم الدين قيصر » إلى خراب « عسقلان » ، وسير معه جماعة من النقابين والحجارين واستقر الرأى أن الملك ينفذ من « يافا » من يسير معه ليقف على التخريب ، ويخرج الإفرنج منها ، فوصلوا إليها من الغد .

فلما أرادوا التخريب ؛ اعتذر الأجناد الذين بها بأن : لنا على الملك جامكية[4] لمدة ، فإما أن يدفعها إلينا [حتى نخرج[5] ] ؛ أو ادفعوها أنتم إلينا

---

(١) فى (ب) ، وفى جـ ١٩٦ ب « بقى » .

(٢) فى (ب) ، وفى جـ ١٩٦ ب « لاستعادة » .

(٣) فى (ب) ، وفى جـ ١٩٦ ب « تله » :

(٤) جامكية : هى الراتب بصفة عامة Dozy و ( المنجد ) .

(٥) فى (١) « ونخرج » وما ذكر فى ب وفى جـ ١٩٧ ا .

فوصل بعد ذلك رسول الملك يأمرهم بالخروج فخرجوا .

ووقع التخريب فيها فى السابع والعشرين من شعبان ، واستمر بخربها ، وكتب على الجماعة رقاعا بالمعاونة على التخريب ، وأعطى كل واحد قطعة معلومة فى السور ، وقيل له دستورك فى تخريبها .

ولما كان التاسع والعشرون ؛ رحل السلطان إلى النطرون واختلط العسكران ، وذهب جماعة من المسلمين إلى يافا فى طلب التجارة ، ووصل خلق عظيم من العدو إلى « القدس » للحج ، وفتح لهم السلطان الباب ، وأنفذ معهم الخفراء يحفظونهم حتى يردهم إلى « يافا » ، وكثر ذلك من الإفرنج ، وكان غرض السلطان بذلك أن يقضوا غرضهم من الزيارة ويرجعوا إلى بلادهم ، فيأمن المسلمون من شرهم .

ولما علم الملك كثرة من يزور منهم صعب عليه ذلك ، وسير إلى السلطان يسأله منع الزوار ، واقترح أن لا يؤذن لهم إلا بعد حضور علامة من جانبه أو كتابة ، وعلمت الافرنج ذلك فعظم عليهم ، واهتموا فى الحج فكان يرد منهم فى كل يوم جموع كثيرة ؛ مقدمون ، وأسباط وملوك متنكرون .

وشرع السلطان فى إكرام من يرد ، ومدّ الطعام ومباسطتهم ومحادثتهم ، وعرفهم إنكار الملك ذلك .

وأذن لهم السلطان فى الحج ، وعرفهم أنه لم يلتفت إلى منع الملك من ذلك ، واعتذر إلى الملك بأن قوما قد وصلوا من بعد ذلك لزيارة هذا المكان الشريف فلا استحل منعهم ، ثم اشتد المرض بالملك فرحل فى

ليلة التاسع والعشرين ، وسار هو والكندهرى وسائر العدو إلى جانب « عكا » ، ولم يبق فى « يافا » إلا مريض أو عاجز ونفر يسير .

## ذكر

## عود العساكر الإسلامية إلى أوطانهم

ولما انقضى هذا الأمر واستقرت [هذه][1] القواعد ؛ أعطى السلطان الناس دستورا ، وكان أول من سار عسكر « أربل » ؛ فإنه سار فى مستهل شهر رمضان المبارك ، ثم سار بعده فى ثانيه عسكر « الموصل » و « سنجار » و « الحصن » .

وأشاع أمر الحج ، وقوى عزمه على براءة الذمة ، وكان هذا مما وقع لى ، وبدأت بالاشارة به : [بيوم فتحه القدس وتمه الصلح][2] ، فوقع منه موقعا عظيما ، وأمر الديوان وكل من عزم على الحج من العسكر أن يثبت اسمه حتى يحصر عدة من يدخل معنا فى الطريق ، وكتب جرائد بما يحتاج إليه فى الطريق من الخلع والأزواد وغيرها ، وسيرها إلى البلاد ليمدوها .

ولما أعطى الناس دستورا وعلم [ عود ][3] العدو وقد رجع إلى ورائه ؛ رأى الدخول إلى « القدس » الشريف لتهيئة أسباب عمارته والنظر فى مصالحه ، والتأهب المسير إلى الحج ، فرحل من « النطرون »

---

(١ ، ٢) تكملتان من (ب) ، ومن ج ١٩٨ ا .

(٣) فى (ا) « عدد » وما ذكر من (ب) ، ومن ج ١٩٨ ا .

يوم الأحد رابع شهر رمضان ، وسار حتى أتى « ماء صمويل » يفتقد الملك العادل ، فوجده قد سار إلى « القدس » ، وكنت عنده رسولا من جانب السلطان أنا والأمير « بدرالدين دُلْدُرُم » و « العدل » ، وكان قد انقطع عن أخيه مدة بسبب مرضه ، وكان قد تماثل ، فعرفناه مجيء السلطان إلى « ماء صمويل » لعيادته ، فحمل على نفسه وسار معنا حتى لقيه فى ذلك المكان ، وهو أول وصوله إلى « ماء صويل » ولم ينزل بعد ، فلقيه ، ونزل وقبل الأرض ، وعاد فركب فاستدناه ، وسأله عن مزاجه ، وسارا — جميعا — حتى أتيا « القدس الشريف » فى بقية ذلك اليوم .

## ذكر
## وصول رسول من بغداد

ولما كان يوم الجمعة الثالث والعشرون من شهر رمضان ؛ صلى الملك العادل الجمعة ، وانصرف إلى « الكرك » عن دستور من السلطان ، لينظر فى أحواله ، ويعود إلى البلاد الشرقية يعبرها . فإنه كان قد أخذها من السلطان — وكان قد ودع السلطان ، فلما وصل « العازرية[١] » نزل بها مخيما ، فوصله من أخبر أن رسولا من « بغداد » واصل إليك فانفذ إلى السلطان وعرفه ، فذكر له أن يجتمع ويطالع ما وصل فيه . فلما كان [ يوم ][٢] السبت الرابع والعشرون ؛ دخل إلى الخدمة

(١) العازرية : قرية ببيت المقدس بها قبر « العازر » الذى أحياه عيسى عليه السلام ( ياقوت جـ ١٣ : ٦٧ ط بيروت ) .
(٢) تكملة من (ب) ، ومن ( جـ ) ١٩٨ أ ب .

السلطانية ، وذكر أن الرسول قد وصل إليه من جانب « ابن النافذ » بعد أن ولى نيابة الوزارة ب « بغداد » . ومقصود الكتاب ؛ أنه يحثه على استعطاف قلب السلطان إلى الخدمة الشريفة ، والدخول بينه وبين الديوان العزيز ، والإنكار عليه بتأخر رسله عن العتبة الشريفة واقتراح تسيير القاضي الفاضل ليحضر الديوان العزيز فى تقرير قاعدة تتحرر بينه وبين السلطان لابد منها . وقد وعد الملك العادل من الديوان بوعود عظيمة إذا قرر ذلك ، وتكون له يد عند الديوان يستثمرها فيما بعد ، ومايشبه هذا الفن . فحدثت عند السلطان فكرة فى إنفاذ رسول يسمع كلام الديوان ، ويستعلم « سبب »[1] دخول الملك العادل فى البين ، وزاد الحديث ، ونقص وطال وقصر ، وقوى العزم السلطانى على انفاذ الضياء الشهرزُورِىّ :

وعاد الملك العادل إلى مخيمه ب « العَازَرِيّة » بعد تقرير هذه القاعدة ، وعرفه إجابة السلطان إلى إنفاذ رسول إلى خدمة الديوان العزيز ، وسار يوم الإثنين طالبا جهة « الكَرَك » ، وسار الضياء متوجها إلى بغداد يوم الثلاثاء السادس والعشرين من شهر رمضان .

## ذكر

### توجه ولده الملك الظاهر إلى بلاده ووحشة السلطان له

ولما كانت بكرة التاسع والعشرين ؛ توجه الملك الظاهر — عز نصره

---

(١) فى (ب) ، وفى ج ١١٩٩ « أثر » .

بعد أن ودعه ، ونزل إلى الصخرة فصلى عندها ، وسأل الله تعالى ما شاء ، ثم ركب ، وركبت فى خدمته ، فقال لى : « قد تذكرت أمراً أحتاج فيه إلى مراجعة السلطان مشافهة . فأنفذ من استأذن له العود إلى خدمته ، فأذن له فى ذلك .

فحضر واستحضرنى ، وأخلى المكان ثم قال له : « أوصيك بتقوى الله تعالى فإنها رأس كل خير ، وآمرك بما أمر الله به فإنه سبب نجاتك ، وأحذرك من الدماء والدخول فيها والتقلد [ لها ][1] ، فإن الدم لا ينام ، وأوصيك بحفظ قلوب الرعية ، والنظر فى أحوالهم ، فأنت أمينى وأمين الله عليهم ، وأوصيك بحفظ قلوب الأمراء وأرباب الدولة والأكابر ، فما بلغت ما بلغت إلا بمداراة الناس ، ولا تحقد على أحد ، فإن الموت لا يبقى على أحد ، وحذار ما بينك وبين الناس فإنه لا يغفر إلا برضاهم ، وما بينك وبين الله يغفره الله بتوبتك إليه فإنه كريم » .

وكان ذلك بعد أن انصرفنا من خدمته ومضى من الليل ما شاء الله أن يمضى ، وهذا ما أمكننى حكايته وضبطه ، ولم يزل بين يديه إلى قريب السحر ، ثم أذن له فى الانصراف ، ونهض ليودعه ، فقبل وجهه ، ومسح على رأسه ، وانصرف فى دعة الله ونام فى برج الخشب الذى

---

(١) فى ( ا ) « بها » ، وما ذكر فى (ب) وفى جـ ١٩٩ ب .

للسلطان ، وكنا نجلس عنده فى الأحيان إلى بكرة ، وانصرفت فى خدمته إلى بعض الطريق ، وودعته ، وسار فى حفظ الله .

ثم سير الملك الأفضل ثقله ، وأقام يراجع السلطان على لسانى فى أشغال كانت له ، حتى دخل فى شوال أربعة أيام ، وسار فى ليلة الخامس منه — نصف الليل عن تعتب عليه — جريدة على طريق « النَّوْر » .

## ذكر

### مسيره رحمه الله من القدس الشريف

وأقام السلطان يُقطع الناس ويعطيهم دستورا ، ويتأهب للمسير إلى الديار المصرية ، وانقطع شوقه عن الحج وكان من أكبر المصالح التى فاتته ، ولم يزل كذلك حتى صح عنده إقلاع مركب الانكتار متوجها إلى بلاده مستهل شوال . فعند ذلك حرر السلطان عزمه على أن يدخل الساحل جريدة ، ويفتقد القلاع البحرية إلى « بانياس » ، ويدخل « دمشق » المحروسة يقيم بها أياما قلائل ، ويعود إلى « القدس » الشريف سائرا إلى الديار المصرية ، يتفقد أحوالها ، ويقرر قواعدها ، وينظر فى مصالحها ، وأمرنى بالمقام فى القدس الشريف لعمارة بيمارستان أنشأه فيه ، وادارة المدرسة التى أنشأها فيه إلى حين عوده ، وسار من « القدس » « الشريف » ضحوة نهار الخميس سادس شوال ، وودعته إلى « ألبيرة » ونزل بها وأكل فيها الطعام ، ثم أتى بعض طريق « نابلس » فبات فيه ، ثم أتى « نابلس » ضحوة نهار الجمعة سابع شوال ، فلقيه خلق

عظيم يستغيثون من « المشطوب » ، ويتضورون من سوء رعايته لهم ، فأقام يكشف عن أحوالهم إلى عصر يوم السبت ، ثم رحل ونزل ب « سَبَمطية »[1] يتفقد أحوالها ، ثم أتى فى طريقه إلى كوكب ونظر فى أحوالها ، وسد خللها ، وذلك فى يوم الاثنين عاشره .

وكان فـكاك بهاء الدين قراقوش من ربقة الأسر يوم الثلاثاء حادى عشر شوال ، ومثل فى الخدمة السلطانية ففرح به فرحا شديدا ، وكانت له حقوق كثيرة على السلطان وعلى الإسلام ، واستأذن السلطان فى المسير إلى تحصيل القطيعة فأذن له فى ذلك ، وكانت القطيعة — على مابلغنى [ والله أعلم ][2] — ثمانين ألفاً .

ولما وصل السلطان إلى بيروت وصل إلى خدمته البرنس صاحب « أنطاكية » مسترفدا ، فبالغ فى « احترامه وإكرامه وسباسطته ، وأنعم عليه بـ «العمق» و« زرعان » ، ومزارع تغل خمسة عشر ألف دينار «وكان قد خلف المشطوب» فى « القدس من جملة العسكر المقيمين به ، ولم يكن واليه ، وإنما كان واليه «عز الدين جرديك» ، وكان ولاه بعد الصلح حالة عوده إلى « القدس » بعد أن شاور فيه الملك العادل والملك الأفضل والملك الظاهر على لسانى ، وأشار به أهل الدين والصلاح لأنه كان كثير الجد والخدمة والحفظ لأهل الخير ، فأمرنى السلطان أن أوليه ذلك فى يوم

(١) سبمطية : ذكرها ياقوت « سبسطية » وهى مدينة من نواحى فلسطين من أعمال بيت المقدس (معجم البلدان : ١ : ١٨٤ ط بيروت .

(٢) تكملة من جـ ٢٠٠ ا .

الجمعة عند الصخرة ، وروايته إياه بعد صلاة الجمعة ، واشترطت عليه الأمانة ، وعرفته موضع حسن اعتقاد السلطان فيه ، وانعقد الأمر ، وقام به القيام المرضى .

وأما المشطوب فإنه كان مقيما «بالقدس» من جملة من كان مقيما بها ، وتوفى يوم الأحد الثالث والعشرين من شوال ودفن فى داره ، بعد أن صلى عليه فى « المسجد الأقصى » ، رحمه الله .

## ذكر

### عود السلطان إلى دمشق المحروسة

وكان عوده إليها بعد الفراغ من تصفح أحوال القلاع الساحلية بأسرها ، والتقدم بسد خللها وإصلاح أمور أجنادها ، وشحنها بالأجناد والرجال .

ودخل « دمشق » بكرة الأربعاء السادس والعشرين من شوال ، وفيها أولاده الملك الأفضل ، والملك الظاهر ، والملك الظافر ، وأولاده الصغار ، وكان يحب البلد ، ويؤثر الإقامة فيه على سائر البلاد ، وجلس للناس فى بكرة الخميس السابع والعشرين منه ، وحضر الناس عنده ، وبلوا شوقهم من رؤيته ، وأنشده الشعراء ، وعم ذلك المجلس الخاص والعام ، وأقام ينشر جناح عدله ويهطل سحاب انعامه وفضله ، ويكشف مظالم الرعايا فى الأوقات المعتادة .

حتى كان يوم الاثنين مستهل ذى القعدة ؛ اتخذ الملك الأفضل

دعوة الملك الظاهر ، فإنه لما وصل إلى « دمشق » بلغه حركة السلطان إليها ، فأقام حتى يتملى بالنظر إليه ثانيا ، وكأن نفسه الشريفة كانت قد أحست بدنو أجل السلطان فودعه فى تلك الليلة مراراً متعددة وهو يعود إليه ، ولما اتخذ الملك الأفضل لهدعوة أظهر ؛ فيها من بديع التجمل وغريبة ما يليق بهمته ، وكأنه أراد مجازاته عما خدمه به حين وصوله إلى « حلب » ، وحضرها أرباب الدنيا وأبناء الآخرة ، وسأل السلطان الحضور فحضرها جبراً لقلبه . [ وكان يوما مشهودا على ما بلغنى[١] ] .

## ذكر
## قدوم الملك العادل وأخيه

ولما تصفح الملك العادل أخبار « الكرك » ، وأمر بإصلاح ما قصد إصلاحه منه ؛ عاد طالباً « البلاد الفراتية » ، فوصل أرض « دمشق » يوم الأربعاء سابع عشر ذى القعدة ، وكان السلطان قد خرج إلى لقائه، وأقام يتصيد حوالى « غباغب[٢] » إلى « الكسوة[٣] » حتى لقيه ، وسارا جميعا ، وكان دخولهما إلى « دمشق » آخر نهار الأحد الحادى والعشرين .

---

(١) تكملة من (ب) ، ومن (ج) ٢٠١ ب

(٢) غباغب : جاء بالأصل (١) غباب وهذا خطأ إذ لاتوجد بلد بهذا الاسم وبالرجوع إلى معجم البلدان وجدانها اسم قرية فى أول عمل حوران من نواحى دمشق بينهما ستة فراسخ ( معجم البلدان ج ١٤ : ١٨٤ ط بيروت )

(٣) الكسوة : قرية هى أول منازل الحاج إذا خرجوا من دمشق يريدون مصر ( معجم البلدان ١٦ : ٤٦١ ط بيروت )

وأقام السلطان بـ «دمشق» يتصيد هو وأخوه وأولاده ، ويتفرجون في أرض دمشق وموطن الظباء ، وكأنه وجد راحة مما كان فيه ، من ملازمة التعب وسهر الليل ونصب النهار ، وما كان ذلك إلا كالوداع لأولاده ومرابع تنزهه ، وهو لا يشعر ، ونسي عزمه المصري ، وعرضت له أمور أخرى . وعزمات غير ذلك .

ووصلني كتابه إلى القدس يستدعيني إلى خدمته ، وكان شتاء شديد ووحل عظيم ، فخرجت من « القدس الشريف » في يوم الجمعة الثالث والعشرين من محرم سنة تسع وثمانين ، وكان الوصول إلى « دمشق » يوم الثلاثاء ثاني عشر صفر سنة تسع ، وكان وصل أوائل الحج على طريق « دمشق » ، واتفق حضوري و (كان) [1] الملك الأفضل حاضرا في الإيوان الشمالي ، وفي خدمته خلق من الأمراء وأرباب المناصب ينتظرون جلوس السلطان لخدمته ، فلما شعر بحضوري استحضرني وهو وحده قبل أن يدخل إليه أحد ، فدخلت عليه ، فقام ولقيني لقاء ما رأيت أشد من بشره بي فيه ، ولقد ضمني إليه ودمعت عينه (رحمه الله) [2] .

---

(١) تكملة من (جـ) ٢٠٢ أ

(٢) تكملة من (ب) ، ومن (جـ) ٢٠٢ ب

## ذكر

## لقائه للحاج

ولما كان يوم الأربعاء ثالث عشر صفر طلبنى ، فحضرت عنده فسألنى عمن فى الإيوان ، فأخبرته أن الملك الأفضل جالس فى الخدمة ، والأمراء والناس فى خدمته ، فاعتذر إليهم على لسان « جمال الدولة إقبال » .

ولما كان بكرة الخميس ؛ استحضرنى فحضرت عنده فى صُفَّة البستان ، وعنده أولاده الصغار ، فسأل عن الحاضرين فقيل له ، رسل الإفرنج وجماعة الأمراء والأكابر ، فاستحضر رسل الإفرنج إلى ذلك المكان فحضروا ، وكان له ولد صغير ، وكان كثيراً ما يميل إليه ، يسمى « الأمير » ، وكان حاضرا وهو يداعبه ، فلما وقع بصره على الإفرنج ورأى أشكالهم وحلق « لحاهم[1] » ، وقص شعورهم ، وما عليهم من الثياب غير المألوفة ؛ خاف منهم وبكى . فاعتذر إليهم وصرفهم بعد أن حضروا ، ولم يسمع كلامهم ، وقال « إن لى اليوم شغلا » ، وكان عادته المباسطة ، ثم قال : « أحضروا لنا ما تيسر » ، فأحضروا أرزا بلبن وما شابه ذلك من الأطعمة الخفيفة ، فأكل وكنت أظن أنه ما عنده شهوة ، وكان فى هذه الأيام يعتذر إلى الناس لثقل الحركة عليه ، وكان بدنه ملتاثا ممتلئا وعنده كسل .

---

(١) فى (ب) ، وفى (ج) ٢٠٣ ا « ذقونهم »

فلما فرغنا من الطعام قال : « ما الذى عندك من خبر الحاج ؟ » فقلت : « اجتمعت بجماعة منهم فى الطريق ، ولولا كثرة الوحل لدخلوا اليوم ، ولكنهم غدا يدخلون » فقال : نخرج إن شاء الله إلى لقائهم ، وتقدم بتنظيف طرقاتهم من المياه فإنها سنة كثيرة الأنداء ، وقد سالت المياه فى الطرق والأنهار » وانفصلت من خدمته ولم أجد عنده من النشاط ما كنت أعرفه [ منه ] .

ثم ركب فى بكرة الجمعة ؛ وتأخرت عنه قليلا ، ثم لقيته وقد لقى الحاج ، وكان فيهم « سابق الدين » و « قرالا الياروق » ، وكان كثير الاحترام للمشايخ فلقيهم ، ثم لحقه الملك الأفضل ، وأخذ يحدثنى ، فنظرت إلى السلطان فلم أجد عليه كزاغنده[1] ، وما كان له عادة يركب بدونه .

وكان يوماً عظيما ، قد اجتمع فيه للقاء السلطان والتفرج عليه معظم من فى البلد ، فلم أجد الصبر دون أن سرت إلى جانبه ، وحدثته فى إهمال هذا ، فكأنه استيقظ فطلب الكزاغنده فلم يوجد « الزردكاش » ،

---

(١) الكزاغنده : أو قزاغند والجمع كزاغنديات أو قزاغنديات ، وهو لفظ فارسى الأصل معناه المعطف القصير يلبس فوق الزردية ( هكذا شرح الكلمة الدكتور الشيال فى كتاب مفرج الكروب لابن واصل ج ٢ ص ٤٤ ) وزاد Dozy فى شرحها بأنها نوع من السترات كان يصنع من القطن أو الحرير للبطن المنجد يستخدم على منوال الزردية وهذا هو النص :

Eespéce de jaquette rembourrée et piquée, en coton ou en soie, dont on se sért en guise de cuirrâsse.
Doizy. Supp.Dict, Arabe, V. II. p 462

فوجدت لذلك أمراً عظيما ، وقلت فى نفسى : « السلطان يطلب ما لا بد منه فى عادته ولا يجده » ووقع فى قلبى تطير بذلك ، فقلت له : « أليس ثَمّ طريق نسلكه ليس فيه خلق كثير ؟ » فقال : « بلى » ثم سار بين البساتين ، فطلب جهة [ المنيبع[1] ] ، وسرنا فى خدمته ، وقلبى يرعد لما قد وقع فيه من الخوف عليه ، فسار حتى أتى القلعة ، فعبر على الجسر إلى القلعة ، وهو طريقه المعتاد ، وكانت آخر ركوبه .

## ذكر

### مرضه رحمة الله عليه

ولما كانت ليلة السبت ؛ وجد كسلا عظيما ، فما انتصف الليل حتى غشيته حمى صفراوية ، وكانت فى باطنه أكثر من ظاهره ، وأصبح فى يوم السبت سادس عشر صفر سنة تسع وثمانين متكسلا ، عليه أثر الحمى ، ولم يظهر ذلك للناس .

لكن حضرت أنا والقاضى الفاضل ، ودخل ولده الملك الأفضل ، وطال جلوسنا عنده ، وأخذ يشكو من قلقه فى الليل ، وطاب له الحديث إلى قريب الظهر ، ثم انصرفنا والقلوب عنده ، فتقدم إلينا بالحضور على الطعام فى خدمة الملك الأفضل ، ولم تكن القاضى عادته ذلك ، فانصرف . ودخلت أنا إلى الإيوان وقد مد الطعام ، و الملك الأفضل قد جلس فى

---

(١) فى ( ا ) « المنيع » وهو تصحيف والتصحيح من (ب) ، ومن (ج) ٢٠٣ ب . والمنيبع ، محلة وسويقة من محاسن دمشق .

ارجع إلى النجوم الزاهرة ج ٦ : ٩٧٩ . ط دار الكتب .

موضعه ، فانصرفت ، وما كان لى قوة على الجلوس استيحاشا ، وبكى [ فى ذلك[1] ] جماعة تفاؤلا بجلوس ولده فى موضعه .

ثم أخذ المرض فى تزايد من حينئذ ، ونحن نلازم التردد طرفى النهار ، وندخل إليه أنا والقاضى الفاضل فى النهار مرارا ، ويعطى الطريق فى بعض الأيام التى يجد فيها خفة ، وكان مرضه فى رأسه ، وكان من أمارات انتهاء العمر [ الذى[2] ] كان قد ألف مزاجه سفرا وحضرا ، ورأى الأطباء فصده ففصدوه فى الرابع ، فاشتد مرضه وقلّت رطوبات بدنه ، وكان يغلب عليه اليبس غلبة عظيمة .

ولم يزل المرض يتزايد حتى انتهى إلى غاية الضعف . ولقد جلسنا فى سادس مرضه ، وأسندنا ظهره إلى مخدة ، وأحضر ماءاً فاترا ليشربه عقيب شرب دواء ، لتليين الطبيعة ، فشربه فوجده شديد الحرارة ، فشكا من شدة حرارته ، وعرض عليه ماء ثان ، فشكا من برده ، ولم يغضب ولم يصخب ، ولم يقل سوى هذه الكلمات : « سبحان الله ! ألا يمكن أحد تعديل الماء » ، فخرجت أنا والقاضى الفاضل من عنده ، وقد اشتد بنا البكاء ، والقاضى الفاضل يقول لى : « أبصر هذه الأخلاق التى قد أشرف المسلمون على مفارقتها ، والله لو أن هذا بعض الناس لضرب بالقدح رأس من أحضره » ، واشتد مرضه فى السادس والسابع والثامن ، ولم يزل يتزايد ويغيب ذهنه .

---

(١) تكملة من (ب) ، ومن ( جـ ) ٢٠٣ ب

ولما كان التاسع ؛ حدثت عليه غشية ، وامتنع عن تناول المشروب ، فاشتد الخوف فى البلد ، وخاف الناس ، ونقلوا الأقمشة من الأسواق ، وغشى الناس من الكآبة والحزن ما لم يمكن حكايته .

ولقد كنت أنا والقاضى الفاضل نقعد فى كل ليلة إلى أن يمضى من الليل ثلثه أو قريب منه ، ثم نحضر فى باب الدار ، فإن وجدنا طريقا دخلنا وشاهدناه وانصرفنا ، وإلا عرفونا أحواله ، وكنا نجد الناس يترقبون خروجنا إلى أن يلاقونا حتى يعرفوا أحواله من صفحات وجوهنا .

ولما كان العاشر من مرضه حقن دفعتين ، وحصل من الحقن راحة وحصل بعض خفة ، وتناول من ماء الشعير مقداراً صالحا ، وفرح الناس فرحاً شديداً ، فأقمنا على العادة إلى أن مضى من الليل هزيع ، ثم أتينا إلى الدار ، فوجدنا « جمال الدولة إقبالا » فالتمسنا منه تعريف الحال المستجد ، فدخل وأنفذ إلينا مع الملك المعظم توران شاه — جبره الله تعالى — أن العرق قد أخذ فى ساقيه ، فشكرنا الله تعالى على ذلك ، والتمسنا منه أن يمس بقية قدمه ويخبرنا بحاله فى العرق . فتفقده ثم خرج إلينا وذكر أن العرق سابغ ، وانصرفنا طيبة قلوبنا ، ثم أصبحنا فى الحادى عشر من مرضه ، وهو الثالث والعشرون من صفر ، فحضرنا بالباب وسألنا عن الأحوال ، فأخبرنا بأن العرق أفرط حتى نفذ فى الفراش ثم فى الحصر وتأثرت به الأرض ، وأن اليبس قد تزايد تزايداً عظيما وخارت فى القوة الأطباء .

# ذكر

## تحليف الأفضل

ولما رأى الملك الأفضل ماحل بوالده ؛ وتحقق الناس موته ، تسرع في تحليف الناس في دار الرضوان المعروفة بسكناه ، واستحضر القضاة ، وعمل له نسخة يمين مختصرة ، محصلة المقاصد ، تتضمن الحلف للسلطان مدة حياته ، وله بعد وفاته ، واعتذر إلى الناس بأن المرض قد اشتد ، وما يعلم ما يكون ، وما يفعل هذا إلا احتياطاً على جاري عادة الملوك .

فأول من استحضر للحلف ، سعد الدين [ مسعود ][1] أخو بدر الدين مَوْدود الشِّحْنة ، فبادر إلى اليمين عن غير شرط ، ثم حضر « ناصر الدين » « صاحب صهيَوْن » ، وزاد أن الحصن الذى فى يده له . وحضر سابق الدين صاحب « شيزر » ، فحلف ولم يذكر الطلاق ، واعتذر بأنه ما حلف به . ثم حضر « خشترين حسين الهكارى » وحلف ، وحضر « أنو شروان الزرزارى » وحلف ، واشترط أن يكون له خبز يرضيه ، وحضر « علكان وملكان » وحلفا . ثم مد الخوان وحضر الجماعة وأكلوا .

ولما كان العصر أعيد المجلس للتحليف ، وحضر « ميمون القصرى » — رحمه الله — وشمس الدين الكبير وقالا : نحن نحلف بشرط أن لا نسل فى

(١) تكملة من (ب) ، ومن ( ج ) ٢٠٥ أ

فى وجه أحد من إخوتك سيفا ، لكن رأسى دون بلادك (هذا قول ميمون القصرى ) ، وأما سنقر فإنه امتنع ساعة ثم قال : « كنت حلفتنى على النطرون وأنا عليها . وحضر « سامة » وقال : « ليس لى خبز ، فقل لى على أى شىء أحلف ؟ » فروجع لحلف وعلق يمينه بشرط أن يعطى خبزاً يرضيه . وحضر « سنقر الشطوب » وحلف واشترط أن يرضى . « وحضر أيبك الأفطس » رحمه الله — واشترط رضاه . وحضر « حُسام الدين بشارة » وحلف ، وكان مقدما على هؤلاء . ولم يحضر أحد من الأمراء المصريين ، ولم يتعرض لهم ، بل حلف هؤلاء النفر[٢] « وربما شذ منهم غير معروف[٣] » .

ونسخة اليمين المحلوف بها مضمونها : « أنى من وقتى هذا صفيت نيتى ، وأخلصت طويتى للملك الناصر مدة حياته ، وإنى لا أزال باذلا جهدى فى الذب عن دولته بنفسى ومالى ، وسيفى ورجالى ، ممتثلا أمره ، واقفا عند مراجعته ، ثم من بعده لولده — « الأفضل على » — وورثته ووالله أننى فى طاعته ، وأذب عن دولته وبلاده بنفسى ومالى ، وسيفى ورجالى ، وأمتثل أمره ونهيه ، وباطنى وظاهرى فى ذلك سواء ، والله على ما أقول وكيل » .

---

(١) فى (ا) « التقرير » والتصحيح من (ب) ، ومن ( ج ) ٢٠٥ ب

(٢) ساقطة فى (ا) ، ومذكورة فى (ب) وفى ( ج ) ٢٠٥ ب

## ذكر

## وفاته — رحمه الله وقدس روحه

ولما كانت ليلة الأربعاء السابع والعشرين من صفر — وهى الثانية عشرة من مرضه ، اشتد مرضه ، وضعفت قوته ، ووقع فى أوائل الأمر من أول الليل[1] ، وحال بيننا وبينه النساء ، واستحضرت أنا والقاضى الفاضل تلك الليلة «وابن الزكى» ولم يكن عادته الحضور فى ذلك الوقت ، وحضر بيننا الملك الأفضل ، وأمر أن نبيت عنده ، فلم ير القاضى الفاضل ذلك رأياً ، فإن الناس كانوا ينتظرون نزولنا من القلعة ، فخاف إن لم ننزل أن يقع الصوت فى البلد ، وربما نهب الناس بعضهم بعضا ، فرأى المصلحة فى نزولنا ، واستحضار الشيخ «أبى جعفر» إمام «الكلاسة» — وهو رجل صالح — ليبيت بالقلعة ، حتى إذا احتضر — رحمه الله — بالليل؛ حضر عنده وحال بينه وبين النساء ، وذكره الشهادة وذكره الله تعالى ، ففعل ذلك ، ونزلنا وكلا منا يود فداءه بنفسه .

وبات فى تلك الليلة على حال المنتقلين إلى الله تعالى ، والشيخ أبو جعفر يقرأ عنده القرآن ويذكره الله تعالى ، وكان ذهنه غائباً فى ليلة التاسع ، لا يكاد يفيق إلا فى أحيان ، وذكر الشيخ أبو جعفر أنه لما انتهى إلى قوله تعالى «هو اللهُ الذى لا إلهَ إلا هو عالمُ الغيبِ والشهادةِ[2]

---

(١) فى (١) « ووقع من الأمر فى أوله » وهو اضطراب لا معنى له . وما ذكر هو تصحيح من (ب) ، ومن (حـ) ٢٠٦ أ

(٢) سورة الحشر : الآية : ٢٢

سمعه وهو يقول — رحمة الله عليه — « صحيح » وهذه يقظة فى وقت الحاجة ، وعناية من الله تعالى به ، فلله الحمد على ذلك .

وكانت وفاته بعد صلاة الصبح من يوم الأربعاء السابع والعشرين من صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة ، وبادر القاضى الفاضل بعد طلوع الصبح فى وقت وفاته ، ووصلت وقد مات ، وانتقل إلى رضوان الله ، ومحل كرمه وجزيل ثوابه .

ولقد حكى لى أنه لما بلغ الشيخ أبو جعفر إلى قوله تعالى « لا إله إلا هو عليه توكلت »(١) تبسم وتهلل وجهه ، وسلمها إلى ربه .

وكان يوما لم يصب الإسلام والمسلمون بمثله ، منذ فقدوا الخلفاء الراشدين ، وغشى القلعة والبلد والدنيا من الوحشـــة ما لا يعلمه إلا الله تعالى .

وبالله لقد كنت أسمع من بعض الناس أنهم يتمنون فداءه بنفوسهم ، وما سمعت هذا الحديث إلا ضرب من التجوز والترخص إلا فى ذلك اليوم ، فإنى علمت من نفسى ومن غيرى ، أنه لو قبل الفـــداء لفُدى بالنفس » .

ثم جلس ولده الملك الأفضل للعزاء فى الإيوان الشمالى ، وحفظ باب القلعة إلا عن الخواص من الأمراء والمعممين ، وكان يوماً عظيما قد شغل كل إنسان ما عنده من الحزن والأسف والبكاء ، والاستغاثة من أن

---

(١) سورة التوبة : آية ١٢٩

ينظر إلى غيره ، وحفظ المجلس من أن ينشد فيه شاعر ، ويتكلم فيه فاضل وواعظ .

وكان أولاده يخرجون مستغيثين إلى الناس فتكاد النفوس تزهق لهول منظرهم ، ودام الحال على ذلك[1] إلى ما بعد صلاة الظهر ، ثم اشتغل بتغسيله وتكفينه ، فما أمكننا أن ندخل فى تجهيزه ما قيمته حبة واحدة إلا بالقرض ، حتى فى ثمن التبن الذى يلت به الطين . وغسله « الدَّوْلَعِي »[2] الفقيه ، ونهضت إلى الوقوف على غسله فلم تكن لى قوة تحتمل ذلك المنظر ، وأخرج بعد صلاة الظهر فى تابوت مسجى بثوب قوط . وكان ذلك وجميع ما احتاج إليه من الثياب [ فى تكفينه[3] ] قد أحضره القاضى الفاضل من وجه حل عرفه ، وارتفعت الأصوات عند مشاهدته ، وعظم من الضجيج والعويل ما شغلهم عن الصلاة ، فصلى عليه الناس أرسالا ، وكان أول من أم بالناس : القاضى محيى الدين ابن الزكى ، ثم أعيد إلى الدار التى بالبستان وكان متمرضاً بها ، ودفن فى الصفة الغربية منها .

وكان نزوله فى حفرته — قدس الله روحه ونور ضريحه — قريباً

---

(١) فى ( ا ) « هذا » وما ذكر ورد فى (ب) ، وفى ( ج ) ٢٠٧ ( ا )

(٢) الدولعى : هو عبد الله بن زيد بن يس التغلبى الدولعى ، ضياء الدين ، والدولعى نسبة إلى قرية الدولعية من قرى الموصل ، قدم دمشق ، واستوطنها وصار خطيبها ، ودرس بالزاوية الغربية من جامع دمشق ، وكان متزها حسن الأثر ، حميد الطريقة ، توفى سنة ٥٩٨ هـ

( النجوم الزاهرة ج ٦ : ١٨١ : ط دار الكتب )

(٣) زيادة من (ب) ومن ( ج ) ٢٠٧ ا ، وساقطة من ا

من صلاة العصر ، ثم نزل فى أثناء النهار ولده الملك الظافر ، وعزى الناس فيه ، وسكن قلوب الناس ، وكان الناس قد شغلهم البكاء عن الاشتغال بالنهب والفساد ، فما وجد قلب إلا حزين ، ولا عين إلا باكية إلا من شاء الله .

ثم رجع الناس إلى بيوتهم [أقبح رجوع ، ولم يعد أحد منهم فى تلك الليلة إلا نحن ، حضرنا وقرأنا وجددنا حالا من الحزن .

واشتغل فى ذلك اليوم الملك الأفضل بكتابة الكتب إلى عمه وإخوته يخبرهم بهذا الحادث ، وفى اليوم الثانى جلس للعزاء جلوسا عاماً وأطلق باب القلعة للفقهاء والعلماء ، وتكلم المتكلمون ، ولم ينشد شاعر ، ثم انفض المجلس فى ظهر ذلك اليوم ، واستمر الحال فى حضور الناس بكرة وعشية ، وقراءة القرآن ، والدعاء له رحمة الله عليه ، واشتغل الملك الأفضل بتدبير أمره ومراسلة إخوته وعمه .

ثم انقضت تلك السنون وأهلها فكأنها وكأنهم أحـــــلام

* * *

تم بحمد الله تعالى وعونه

## ثبت بطائفة من الكلمات الغريبة التي وردت في الكتاب وموضع شرحها منه

| الكلمة | رقم الصفحة | الكلمة | رقم الصفحة |
|---|---|---|---|
| الاسفهسلاء | ٢٠٩ | الزراقون | ١٨٦ |
| الأطلاب ، ومفرد « طلب » | ٤٢ | الزردخانة | ٢٧١ |
| الانكتار | ٢٤٩ | الزنبورك | ٢٣٤ |
| الباشورة | ٢٤٢ | الستائر | ١٣١ |
| الباشورة | ٢٦٩ | شانى ، شانية ، وجمعها شوانى | ٨٠ |
| بطسة ، وجمعها « بطس » | ٨٠ | شحنة | ١٩٧ |
| الجاليش | ١٠١ | طشت دار | ١٧٢ |
| الجاووش | ٤٣٩ | كوسات ، كوس | ٤٢ |
| الجرخ ، وجمعها « جروخ » | ٧١ | كند | ١٩٩ |
| جريدة | ٥١ | مصاف | ٤٢ |
| الجشار | ٢٤٥ | ملوطه | ٢٤٤ |
| خربندية | ١٧٣ | منجنيق | ١٢١ |
| الحزكاه | ٥٣ | النجاة | ١٢٥ |
| دزدار | ٨٠ | يزك | ٣٠ |

# مراجع الكتاب


١ — القرآن الكريم

٢ — صحيح البخارى

٣ — « مسلم

٤ — لسان العرب لابن منظور

٥ — القاموس المحيط للفيروزابادى

٦ — المنجد « قاموس » ( الأب لويس معلوف )

٧ — دائرة المعارف الإسلامية ( د . فريد وجدى )

٨ — معجم الألفاظ الفارسية ( د . محمد موسى هنداوى )

٩ — « البلدان لياقوت الحموى ( طبعة بولاق وطبعة بيروت )

١٠ — مراصد الاطلاع فى معرفة الأمكنة والقناع لصفى الدين البغدادى ( تحقيق على البجاوى )

١١ — صبح الأعشى للقلقشندى

١٢ — شفاء الغليل فيما فى كلام العرب من الدخيل (للشهاب الخفاجى)

١٣ — النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ( طبع دار الكتب )

١٤ — وفيات الأعيان لابن خلكان

١٥ — الأعلام للزركلى

١٦ — تفسير الألفاظ الدخيلة فى اللغة العربية ( ط . القاهرة ١٩٣٢ ) ( القس طوبيا العنيسى الحلبى )

١٧ — تاريخ الإسلام السياسى ( د . حسن ابراهيم حسن )
١٨ — حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة للسيوطى )
١٩ — المختار من حسن المحاضرة للسيوطى ( تيسير محمد محمود صبح ومراجعة د . أحمد أحمد بدوى )
٢٠ — السلوك للمقريزى ج ١ ( تحقيق د . محمد مصطفى زيادة )
٢١ — الروضتين ( فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية ) لأبى شامة
٢٢ — الروضتين ( ج ١ — قسم أول ) ( تحقيق د . محمد حلمى أحمد )
٢٣ — الفتح القسى فى الفتح القدسى للعماد الأصفهانى ( ط . ليدن )
٢٤ — مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب لابن واصل ( ج١و٢و٣ ) ( تحقيق د . جمال الدين الشيال )
٢٥ — النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية لابن شداد ( ط . ليدن )
٢٦ — شذرات الذهب لابن العماد الحنبلى

## مراجع أجنبية

٢٧ — Dozy. Supplément Dictionaire Arabe vol. I 4II.
٢٨ — Dozy. Vêtement Dictuonaire.
٢٩ — Lone poole. Saladin and the Eoll of Jeausalem. Londen 1898.
٣٠ — The Crusaders In the East.

# فهرس موضوعات الكتاب

| الموضوع | صفحة |
| --- | --- |


## القسم الأول



## القسم الثانى

| الموضوع | صفحة |
|---|---|

| الموضوع | صفحة |
|---|---|

| الموضوع | صفحة |
| --- | --- |

موضوع | صفحة

| موضوع | صفحة |
|---|---|

القاهرة : مطابع دار الكتاب العربي بمصر : محمد حلمي المنياوي

# هيئة قناة السويس

## مناقصة عامة لمقاولى القطاع العام

---

تطرح هيئة قناة السويس فى مناقصة عامة بين مقاولى القطاع العلم عمليــة انشاء مظلات لرسو اللنشــات بالدفرسوار وكبريت وبور توفيق ·

ويمكن الحصول على مستندات المناقصة بالحضور شخصيا لقسم التخطيط بالاسماعيلية وذلك نظير دفع مبلغ عشرة جنيهات وتقدم العطاءات باسم السيد/ رئيس هيئة قناة السويس « قسم التخطيط » بالاسماعيلية فى ميعاد أقصاه الساعة الثانية عشرة من ظهر يوم الثلاثاء ٢٠ فبراير سنة ١٩٦٢ على أن تكون مصحوبة بتأمين ابتدائى قدره ٢٪ من قيمة اجمالى العطاء ·

ولن يلتفت الى أية عطاءات تقدم بعد التاريخ الموضح أعــلاه أو غير مصحوبة بالتأمين الابتدائى المذكور ·

# هيئة قناة السويس

تعلن هيئة قنـاة السويس عن حاجتها الى موظفين حاصلين على بكالوريوس التجارة سنتى ١٩٥٩ ، ١٩٦٠ ، ويشترط فيمن يتقدم لشغل هذه الوظيفة :

١ — أن يكون متمتعا بجنسية الجمهورية العربية المتحدة .

٢ — أن يكون حاصلا على بكالوريوس التجارة (شعبة المحاسبة)

٣ — أن يكون التقدير العام الذى حصل عليه فى البكالوريوس بدرجة جيد على الأقل .

٤ — الا يزيد سنه على ٢٨ سنة .

٥ — أن يكون حاصلا على احـدى شهادات المعاملة المنصوص عليها فى المادة ٦٤ من القانون رقم ٥٠٥ لسنة ١٩٥٥ طبقا لما تقضى به المادة ٥٨ من القانون ٥٠٥ لسنة ١٩٥٥ والقوانين المعدلة له .

ويجب أن تقدم الطلبات فى ميعاد لايتجاوز ٢٠ فبراير سـنة ١٩٦٢ باسم السيد رئيس هيئة قناة السويس بالاسماعيلية ( قلم شئون الموظفين ) على نموذج الهيئة الذى يمكن الحصول عليه من احد مكاتب قسم العلاقات العامةبالقاهرة والاسماعيلية وبورسعيد وبور توفيق على أن يلصق بالطلب طوابع دمغة قيمتها مائة مليم ويرفق به ٤ صور فوتوغرافية مقاس ٥ فى ٨ سم .

هذا ولن يلتفت الى الطلبات السابقة على هذا الاعلان او التى تقدم الى الهيئة بعد الميعاد .

مع الباعة فى كل مكان

---

# كتب قومية

تقـــدم

# الثورة الاجتماعية فى الإسلام

تأليف

الرائد السيد عبد الحافظ عبد ربه

عدد ممتاز ١٥ قرشا


العدد ١٣٦ الثمن ١٥ قرشا

صدر يوم الخميس ١٥ فبراير ( شباط ) سنة ٦٢

الدار القومية للطباعة والنشر

١٥٧ شارع عبيد - روض الفرج

تليفون ٤٥٣٤٦ - ٤٥٤٠٥ - ٣١٦٢٥